عقول مُتشكِّكة

لماذا نُصدِّق نظريات المؤامرة

روب براذرتون

عقول مُتشكِّكة

لماذا نُصدِّق نظريات المؤامرة

تأليف
روب براذرتون

ترجمة
هاني فتحي سليمان

هنداوي

عقول مُتشكِّكة

روب برادرتون

Suspicious Minds

Rob Brotherton

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٣٥١ ٣

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٥.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لدار نشر بلومزبري بابليشينج بي إل سي.

Copyright © Rob Brotherton 2015. This translation of Suspicious Minds is published by Hindawi Foundation by arrangement with Bloomsbury Publishing Plc.

المحتويات

شكر وتقدير ٩
مقدمة: السقوط في هوَّة سحيقة ١١
١- عصرُ المؤامرة ٢١
٢- ما الضرر؟ ٤١
٣- ما معنى نظرية المؤامرة؟ ٦٣
٤- العقلية المؤامراتية ٨٥
٥- جنون الارتياب ١٠٥
٦- أريد أن أصدُق ١٢٧
٧- الروايات الرَّسمية ١٤٩
٨- تجميع أجزاء متفرقة لاستخلاص النتائج ١٦٩
٩- المفتشون في النوايا ١٩١
١٠- اختلال المناسيب ٢١٣
١١- كنتُ أعلم ذلك ٢٣١
الخاتمة: إنسانٌ فحسب ٢٥١
المراجع والملاحظات ٢٥٥
حقوق الصور ٣١٥

إهداءٌ إلى لينزي.

شكر وتقدير

أتوجَّه بالشكر إلى البروفسير روب ماكدوجال، والبروفسير رودريك كرامر، والدكتور فرينك فون هاريفلد، والبروفسير برندن باين، والدكتور كريس ستريت، والدكتور سكوت ميتشيل، والدكتور فرينك فان هاريفلد، والبروفسير جينيفر ويتسون، والبروفسير تشارلز تابر. كما أتوجَّه بشكرٍ خاص لستيف ريجان على إخباري بقصته — ليس مرةً واحدة وإنما مرتَين — التي بدأتُ بها الفصل الحاديَ عشر. وأشكر كلًّا من لينزي وروب وكريس على قراءتهم المسوداتِ الأوليةَ للكتاب. وفيما يتعلَّق بحياتي المهنية في مجال علمِ نفس نظريات المؤامرة، أتوجَّه بالشكر إلى البروفسير كارين دوجلاس، والبروفسير كريس فرنش، الذي أرشدني خلال دراساتي لنَيل درجة الماجستير والدكتوراه. لم أكن لأحظى بأفضلَ منه كمُوجهٍ وصديق.

أشكر جميع العاملين في بلومزبيري الذين سعَوا جاهدين لإخراج هذا الكتاب في الصورة التي نُشر بها، وأتوجَّه بشكرٍ خاص إلى محرِّرتي، جاكلين جونسون. وأخيرًا، لم يكن لهذا الكتاب أن يخرج إلى النور، لولا جيم مارتن متَّقدُ الحماس، الذي يعمل محرِّرًا مفوَّضًا لدى بلومزبيري سيجما، والذي اتصل بي على نحوٍ غيرِ متوقَّع واقترحَ عليَّ تأليف كتابٍ. وبسبب الملابسات الغامضة نوعًا ما، ظننتُ أنه من الأفضل أن أتأكد من أنني أصبحتُ بيدقًا في مؤامرةٍ ما. وقبل تسليم مخطوط الكتاب مباشرة، أرسلتُ رسالةً بالبريد الإلكتروني قلت فيها: «هل أنت عميل حكومي يسعى للتضليل و/أو جاسوس متنور و/أو سحلية قادرةٌ على تغيير شكلها؟» وقَّعتُ اسمي باللون الأخضر؛ وهي خدعة قديمة من خدع جماعة «الأحرار على الأرض» لجعل الرسالة الإلكترونية مُلزِمةً قانونًا. وجاءني ردُّ جيم على نحوٍ فوري تقريبًا. فتحت رسالته في لهفة شديدة. وجدتُه يقول: «لن أكون موجودًا بالمكتب حتى ٢٨ أبريل. سوف أرد عليك فور عودتي.»

مقدمة: السقوط في هوَّة سحيقة

ليس كل شيء على النحو الذي يبدو عليه. فثَمة جانبٌ مخبوءٌ من الواقع، عالَمٌ سريٌّ يعجُّ بنشاط خفي وعملياتٍ كامنة. وهذا العالَم السرِّي شبكةٌ غيرُ مرئية تُصفِّي المعلومات وتُرشِّحها وتعالجها. وهي تنسج خيوطَ كذباتٍ مُريحة لمُواراة الحقيقة، أو الواقع المُحير. كما أنها تتحكَّم فيما نُفكر فيه ونعتقده من أشياء، بل إنها تُشكِّل القراراتِ التي نتَّخذها، بطريقة تَصوغ إدراكَنا الحسي وَفْق أجندتها الخاصة. ففَهمُنا للعالم، باختصار، مجردُ وهم.

فمن يقف وراء هذه الخُطة المذهلة؟ أهو مجتمعٌ لئيم؟ أم بيروقراطيون ذَوو اعتلالات نفسية في قاعاتٍ إدارية، يملؤها الدُّخان؟ أم ملكة إنجلترا؟ أم سَحالٍ بين مجرِّية قادرةٌ على تغيير شكلِها تعمل من أجلها؟ أم كلُّ هذا؟

لا. فهذا شأنٌ داخلي. فالأمر لا يتعلق بكل ذلك، إنما يتعلق بنا نحن. أو بعبارةٍ أدق: الأمر يتعلَّق بك أنت. أو يتعلق بعقلك، لو أردنا أن نكون أكثر تحديدًا.

كل شيء مؤامرة

ثَمَّة نظريةُ مؤامرةٍ وراء كل شيء. فالأطلنطيون القُدامى هم مَن بنَوا الأهرامات. واغتيل أبراهام لينكولن بأوامرَ من نائبه؛ أندرو جونسون. وصُوِّرت عملياتُ هبوط بعثة أبولو على سطح القمر في غرفةٍ عازلة للصوت في أريزونا. والمنطقة ٥١ مقرٌّ للتقنية المتطورة التي أنشأها الفضائيُّون. وألكس جونز، أحدُ مذيعي الإذاعة الذي سيطرت على عقله فكرةُ المؤامرة والذي كان يعيش خارجَ أوستين بولاية تكساس، هو في الواقع، الذاتُ البديلة للكوميديان بيل هيكس (الذي تظاهرَ بالموت في أوائل تسعينيَّات القرن العشرين ليسلك

مسارًا مِهنيًّا في مجال نظريات المؤامرة). ثم مؤامرات الشركات الصيدلانية، والمروحيات السوداء، ومجموعة بيلدربيرج، والبستان البوهيمي ... إلخ.

والهوَّة هنا شديدةُ العمق. فنظرية المؤامرة يُقال إنها تمتدُّ لتصلَ إلى الهواء الذي نتنفَّسه (وقد أصبح ضبابيًّا بفعل تأثيرات سُحب الكيمتريل)، والطعام الذي نأكله (وقد تلاعبَت به شركة مونسانتو)، والدواء الذي نتناوله (وقد دُسَّت فيه سمومٌ قاتلة)، والماء الذي نشربه (وقد وُضعت فيه أملاحُ الفلوريد التي تؤثِّر على العقل). والانتخابات مُزورة، والسياسة زائفة، والرئيس أوباما شيوعي مُسلم من كينيا.

هذه فقط بضعة أمثلة لنظريات المؤامرة، لكن تُرى مَن هم المنظِّرون؟ وفقًا للكليشيهات، فإن أصحاب نظريات المؤامرة هم سُلالة نادرة — مجموعة صغيرة من أصحاب الأفكار المتطرفة المجنونة الذين ينغلقون على أنفسهم ويُكرِّسون حياتهم لأفكارهم الشاذة، هم رجال أذكياء غريبو الأطوار في منتصف العمر، يسلكون نهجًا غيرَ مألوف في البحث (وغالبًا ما يكون لديهم مخزونٌ من رقاقات القصدير).

غير أن أغلب عناصرِ هذه الصورة النمطية لا تصمُد. فبِوجهٍ عامٍّ، تُسيطر نظرية المؤامرة على عقول النساء، شأنهن في ذلك شأن الرجال. كما أن التعليم والدخل لا يصنعان فارقًا كبيرًا أيضًا. فمَرتَبات أصحاب نظريات المؤامرة تتدرَّج من طلاب تسرَّبوا من التعليم في المرحلة الثانوية بأعدادٍ لا تزيد كثيرًا عن خريجي الجامعات، وصولًا إلى أساتذةٍ جامعيِّين ورؤساء وفائزين بجائزة نوبل. وتروق نظرياتُ المؤامرة لجميع الأعمار. ففي المتوسط، تُسيطر نظرية المؤامرة على عقولِ مواطنين كبارٍ مثلما تؤثر على جيل الألفية. فعند الطرَف الأدنى من هذا النطاق العمري، نجد حشودًا من المراهقين الأمريكيِّين يظنون أن لويس توملينسون وهاري ستايلز التابعَين لفرقة فتيان البوب البريطانية الشهيرة «وان دايركشن» هما سلعةٌ خفيَّة، وأن المؤسسات صاحبةَ النفوذ على الفرقة اختلقَت صديقةً زائفة للويس كجزء من المواراة.

وفيما يتعلَّق بالفكرة القائلة بأن نظريات المؤامرة هي شأن مجموعات متطرفةٍ مجنونة، فهذا أبعدُ ما يكون عن الحقيقة. فعلى وجه العموم، ثَمة أعدادٌ ضخمة من الناس هم أصحاب نظرياتِ مؤامرة عندما يتعلَّق الأمر بقضيةٍ ما أو بأخرى. ووفقًا لاستطلاعات الرأي التي أُجريت على مدار العَقد المنصرِم أو ما شابه، يعتقد قُرابة نصف الأمريكيِّين أن حكومتهم تُخفي على الأرجح حقيقةَ هجمات الحادي عشر من سبتمبر. ويعتقد أربعة أمريكيين من بين كل عشرة تقريبًا أن التغيُّرَ المناخيَّ نوعٌ من التدليس العلمي. ويرى

قُرابة ثلث الأمريكيِّين أن الحكومة تُخفي على الأرجح أدلةً على وجودِ مخلوقاتٍ فضائية. ويشعر أكثرُ من ربع الأمريكيين بالقلق حِيال النظام العالمي الجديد. وفي استطلاعٍ للرأي أُجري عام ٢٠١٣، قال ٤٪ ممن شملهم الاستطلاعُ (الذي امتدَّ ليصل إلى سكان الولايات المتحدة بأكملِها، ما يعني ١٢ مليون أمريكي) إنهم يعتقدون أن «مخلوقات زاحفة قادرةٌ على تغيير شكلِها تسيطر على عالَمِنا عن طريق تشكُّلها في صورةِ بشرٍ واكتساب سلطة سياسية للتلاعب بالمجتمعات.» وأعربَت نسبةٌ أخرى قدرها ٧٪ عن أنها ليست متأكدةً من هذا الأمر.

ويجب أن نضعَ في الاعتبار أن هذه النوعياتِ من استطلاعات الرأي العامِّ لا تُقدِّم سوى مؤشرٍ تقريبي لأي رَواج لنظريةٍ ما. وتتباينُ التقديرات بِناءً على الشخص الذي تسأله، والطريقةِ التي تطرح بها سؤالَك عليه، والتوقيتِ الذي تسأله فيه. لكن الحقيقة التالية واضحةٌ وضوحَ الشمس: أعداد أصحاب نظريَّات المؤامرة أكثرُ مما تتوقَّع بكثير. والأرجح أنك تعرف البعضَ منهم. بل والأرجح أنك من بينهم.

والأمر لا يقتصرُ على الأمريكيين. فالناس في المملكة المتحدة وأوروبا شكَّاكون بالِمثل. كما أن الأمر لا يقتصرُ على الغرب. فنظرية المؤامرة ظاهرةٌ عالَمية. فوفقًا لاستطلاعٍ أجراه مركزُ بيو للأبحاث، يشكُّ ما بين النصف وثلاثة الأرباع من الناس في مختلِف دول الشرق الأوسط في أنَّ خاطفي طائراتٍ عربًا هم مَن شنُّوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وفي كثير من أرجاء العالم، يُنظَر إلى اللقاحات وغيرِها من الأدوية الغربيَّة بشكٍّ ورِيبة. ويعتقد أربعةٌ من بين كل عشَرة مواطنين روس أن أمريكا قد زيَّفَت عمليات الهبوط على سطح القمر، وفقًا لاستطلاعٍ للرأي أُجري عام ٢٠١١. وفي الهند، بعد اغتيال رئيسة الوزراء أنديرا غاندي بوقتٍ قصير، أخبر خليفتُها جمهورًا يضمُّ مئات الآلاف من الأشخاص كانوا قد تجمَّعوا في نيودلهي، أن «اغتيال أنديرا غاندي هو صنيعة مؤامرة هائلة الهدف من ورائها إضعاف الهند وتقسيمها.» وفي البرازيل، تزعم إحدى نظرياتِ المؤامرة الرائجة أن الجيش الأمريكي يُخطِّط لغزوِ غابة أمازون المَطيرة، والسيطرة على مواردها الطبيعية الغنيَّة. وتُتابع النظرية زعمَها قائلة إنه كجزء من الحملة الدعائية لتهيئة المواطنين الأمريكيين للغزو الوشيك؛ تُظهر خرائطُ أمريكا الجنوبيةِ، في الكتب الدراسية الأمريكية التي يَدرُسها طلاب السنة الأولى من المرحلة الإعدادية، مساحةً ضخمة من الأمازون تحت سيطرة الأمم المتحدة.

إذن، هل قُتل «الرئيس جون كينيدي» على يدِ رجلٍ مُسلحٍ يختبئ خلفَ السور في التلَّة المُعشوشِبة؟ وهل ألفيس لا يزال على قيد الحياة يسترخي بجانب حمَّام السباحة مع جيم موريسون ومارلين مونرو والأميرة ديانا في منتجعٍ سرِّي ما للاستمتاع بمراقبة النجوم في عُزلتهم؟ ومَن الذين يحكمون العالمَ في واقع الأمر، وماذا فعلوا بالرحلة رقم إم إتش ٣٧٠؟

إذا كنتَ تبحث عن إجاباتٍ عن هذه الأسئلة، فيُؤسفني أن أُخبرك بأنك اخترتَ الكتاب الخطأ. فربما تكون الحقيقة في مكانٍ آخرَ غيرِ هذا الكتاب. فإذا كانت بالفعل هناك خططٌ ماكرة خفية تتشكَّل خلف الأبواب المغلقة في اللحظة الراهنة، وإذا كان مقترفو الفظائع لم يَمثُلوا أمام العدالة بعد، وإذا كان كل شيء نعتقد أننا نعرفه هو محضُ كذب؛ فقد يكون من اللطيف أن تعرف. لكن ثَمة الكثير من الكتب الأخرى المخصَّصة لجمع أدلة حول مؤامرةٍ ما مزعومة، كما يوجد العدد نفسُه تقريبًا من الكتب التي يُفترَض أنها تنتقد تلك النظرياتِ انتقادًا لاذعًا. لكن هذا الكتاب لا يتناول هذا الموضوع. في واقع الأمر، هذا الكتاب لا يتناول نظرياتِ المؤامرة على الإطلاق (رغم أننا سنُصادف الكثير من تلك النظريات خلال رحلتنا). إنه يتناول بالأساس التفكيرَ الذي يقف خلف نظرية المؤامرة، أو بعبارة أخرى: ما الذي يمكن أن يكشفَه علمُ النفس عن الكيفية التي نُقرِّر بها أنَّ شيئًا ما معقول وآخرَ عبثيٌّ، ولماذا يعتقد بعضُ الناس أشياءَ قد يراها غيرُهم غيرَ قابلة للتصديق تمامًا.

بطبيعة الحال، إذا كنت تسأل أحدَهم لماذا يُصدِّق أو لا يُصدِّق نظريةً ما أو أخرى، فالأرجح أنه سيُخبرك بأن المسألة بسيطة: لقد قرَّر بِناءً على الأدلة. لكن علم النفس يُخبرنا بقصةٍ مختلفة؛ إذ يتبيَّن لنا أننا دائمًا ما نكون أفضلَ حَكَمٍ على سببِ تصديقنا ما نُصدقه.

مكتب منظَّم، عقل منظَّم (أو فضيلة النِّظام غير المتوقَّعة)

في تجربة أُجرِيَت مؤخرًا، طلب علماء النفس بجامعة أمستردام من الطلاب أن يُفكروا في شيء يشعرون بالتناقض الوجداني حيالَه، أو بعبارة أخرى: أن يفكِّروا في أي موضوع يشعرون إزاءه بمشاعرَ إيجابيةٍ وسلبية في الوقت ذاتِه. وليكن هذا الموضوع هو تناولَ وعاء ضخم من الآيس كريم مثلًا. ربما يكون ذلك طريقةً لطيفة تقضي بها عشرين دقيقة، لكن الأمر قد يضرُّك على المدى الطويل. فكما تعلم، هناك سلبيات وإيجابيات. وهذا هو التناقض الوجداني.

جلس كلُّ طالب أمام كمبيوتر، وفكَّر في شيءٍ يجعله يشعر بالتناقض الوجداني، وكتب بعضًا من إيجابياته وسلبياته. وفي هذه المرحلة، ظهرت لكلٍّ منهم رسالةٌ على الشاشة تفيد بوجود خطأٍ ما. لا داعي للقلق؛ فهذه الرسالة كانت جزءًا من خُطة علماء النفس الماكرة. وقد تظاهر الباحثون الذين يُراقبون التجرِبةَ بالدهشة، وأخبروا المشاركين أنه يتعيَّن عليهم استكمالُ الاستبيان التالي (الذي كان، ظاهريًّا، غيرَ ذي صلة) على مكتب مختلِف. وقد وُجِّه كل مشارك إلى مكتب منفصل في الناحية المقابلة من الغرفة؛ حيث وجد كلٌّ منهم مكتبًا فوضويًّا، تتناثر عليه الأقلام والكتب والمجلَّات والقُصاصات الورقية. وبعد أن جلسوا بارتياح وسطَ تلك الفوضى، عُرِضَت عليهم مجموعة من الصور.

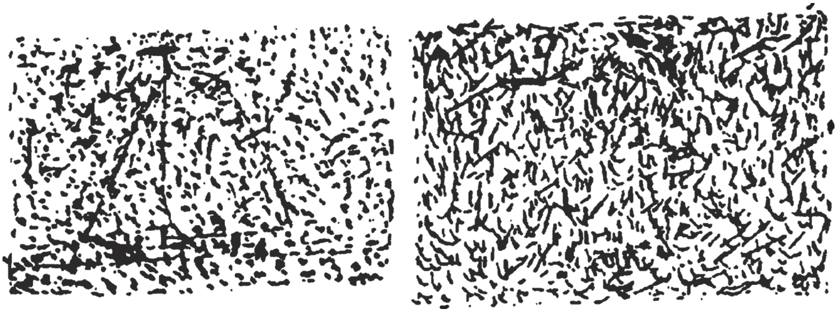

بعض الصور، كتلك التي على اليسار، كانت تشتملُ على شكلٍ باهتٍ يُمكن تمييزه؛ وهو قارب، في حالتنا هذه. وصورٌ أخرى، كتلك التي على اليمين، لم تشتمل إلا على بُقعٍ عشوائية. لم يُطلب من الطلاب اختيارُ أيٍّ منها؛ كلُّ ما هنالك أنه طُلب منهم أن يقولوا ما إذا كانوا يستطيعون تمييز أيِّ نمط وسط تلك العشوائية. وقد استطاع أغلبُ الطلاب أن يُميزوا القارب وجميع الصور الحقيقية الأخرى. والأكثرُ إثارةً للاهتمام، أنهم قالوا في كثير من الأحيان إنهم رأوا صورًا لم يكن لها وجودٌ في الحقيقة. فقد كانت هناك اثنتا عَشْرةَ صورة لم تشتمل على شيء سوى شخبطاتٍ عشوائية. وفي المتوسط، رأى الطلاب صورًا تخيلية في تسعٍ من تلك الصور.

تلك هي الكيفية التي سارت بها التجربة بالنِّسبة إلى مجموعةٍ واحدة من الطلاب، على أقل تقدير. وقد بدأت الأمورُ على المنوالِ نفسِه تقريبًا مع مجموعة أخرى. فقد تعيَّن على أفرادها التفكيرُ في شيء يجعلهم يشعرون بالتناقض الوجداني، ثم رأوا رسالةً تُفيدهم

بحدوث خطأٍ ما، ثم توجهوا إلى مكتبٍ منفصل فوضوي. وبعد ذلك، ظهر اختلافٌ جوهري. فقبل مواصلة التجرِبة، طلب المشرف على التجرِبة من كل طالب أن يُساعد في تنظيم المكتب. وبمجرد أن أصبح المكتبُ منظَّمًا، طُلب من الطلاب أن ينظروا إلى الصورِ ذاتِها. وبالمقارنة مع الطلاب الذين كانوا قد عمِلوا وسطَ الفوضى، قلَّ عدد الصور الوهمية التي رآها أفرادُ هذه المجموعة من الطلاب على نحوٍ متسقٍ. فهم لم يرَوا أنماطًا وهمية إلا في خمس صور من أصل الاثنتي عشْرةَ صورة التي لا معنًى لها، في المتوسط؛ وهو تقريبًا العدد نفسُه من الأشخاص الذين لم يكن قد جرى إشعارهم بالتناقض الوجداني في بداية التجرِبة.

أوضح الباحثون أن الشعور بمشاعرَ متناقضةٍ حيال شيءٍ ما ليس بالشيء المبهج. فعادةً ما نبحث عن النظام والاتساق، وعندما ينتاب المرءَ التناقضُ الوجداني يشعر بالفوضى والتعارض. وعندما يحدث هذا، قد نحاول تغييرَ معتقداتنا، أو ببساطة تجاهل القضية من الأساس. أو يُمكننا أن نستخدم استراتيجيات أكثرَ التواءً للتعامل مع مشاعرَ غيرِ مرغوبة. فالتناقض الوجداني يُهدِّد شعورنا بالنظام؛ ومن ثَم، وفي سبيل التعويض، يمكننا أن نبحث عن النظام في مكانٍ آخر. وهذا هو السبب في أن المجموعة الأولى رأت الكثير جدًّا من الصور الوهمية. فرؤية معنًى للبقع الغامضة، أو بعبارة أخرى: الربطُ بين النقاط، أتاحت لهم إشباعَ رغبتهم في النظام التي تمخضَت عن إحساسهم بالتناقض الوجداني. كما أنها تُفسر أيضًا سبب رؤية المجموعة الثانية من الطلاب صورًا وهمية أقلَّ عددًا. فمجرد تنظيم المكتب — أو تحويل الفوضى إلى نظام — كان قد أشبع بالفعل تلك الرغبة. ولم يعودوا يبحثون عن أنماطٍ في تلك الصور التي تعجُّ بالفوضى. فلم يكونوا بحاجةٍ إلى الربط بين النقاط.

لكن ما علاقة ذلك بنظريات المؤامرة؟ في تجرِبةٍ أخرى، جعل الباحثون المشاركين يشعرون بالتناقض الوجداني. وفي هذه المرة، وعِوضًا عن النظر إلى صورٍ غريبة، طُلب من الطلاب أن يتخيلوا أنهم حُرموا من ترقيةٍ في العمل. وسأل الباحثون عن احتمالات أن يكون أحد زملاء العمل الذي لديه قدرةٌ على الإقناع قد لعب دورًا في قرار المدير هذا. بالمقارنة مع مجموعة من الأشخاص الذين لم يجرِ إشعارهم بالتناقض الوجداني، كانت احتمالات أن يظن الطلابُ المتأرجحون وجدانيًّا أن ثمَّة مؤامرةً ما في حرمانهم من الترقية أكبر. فأحيانًا، ربما يبدو أن الاقتناع بالمؤامرة هو المُكافئ الإدراكيُّ لرؤية معنًى ما في حالة من العشوائية.

وليست الفوضى هي الحالةَ الوحيدة التي يمكن أن تؤثر تأثيرًا خفيًّا في معتقداتنا وأفكارنا. ففي دراسة أخرى أُجريت حديثًا، طُلب من نحو مائتَي طالبٍ جامعي في لندن أن

يُقيِّموا مدى استحسانهم لمجموعةٍ من نظريات المؤامرة الرائجة. بالنِّسبة إلى نصف هؤلاء الطلاب، كُتبت المزاعم بخطٍّ واضح تسهُل قراءته:

> تُخطِّط مجموعةٌ مؤثرة وسرية، تُعرف باسم النظام العالمي الجديد، لحكم العالم في نهاية المطاف من خلال حكومةٍ عالمية مُستقلة، تحل محلَّ الحكومات السيادية.

غير أنه بالنِّسبة إلى النصف الثاني من الطلاب، كُتبت المزاعم بخطٍّ تصعب قراءته نوعًا ما على نحو:

> تُخطِّط مجموعةٌ مؤثرة وسرية، تُعرف باسم النظام العالمي الجديد، لحكم العالم في نهاية المطاف من خلال حكومةٍ عالمية مُستقلة، تحل محلَّ الحكومات السيادية.

فالطلاب الذين قرَءوا النظريات بالخط الواضح المفهوم قيَّموها على نحوٍ متسق بأنها صحيحة على الأرجح. أما الطلاب الذين قرَءوها بالخط الذي تصعب قراءته، فقد قالوا إنه يصعب عليهم تصديقُ هذه المزاعم.

الشيء الذي يسترعي الانتباهَ أنه إذا كنتَ لِتسأل الطلاب المشاركين عن سبب تقييمهم لنظريات المؤامرة بهذه الطريقة أو تلك، فربما تكون إجابتهم شيئًا من قبيل «سمعتُ إشاعة عن النظام العالمي الجديد منذ بضعة أيام»، أو «المؤامرات تحدث طوال الوقت»، أو «من المنطقي ألا تظنَّ بالبشر خيرًا.» ولم يكن ليخبرك الطلاب الهولنديون بأن الشعور بالتناقض أو التأرجح حيال وعاءٍ من الآيس كريم كان له تأثير في حكمهم. ولن يفكر أيٌّ من قاطني لندن في أنفسِهم قائلين: «هذا خط جذاب؛ لذا أظن أن النظام العالمي الجديد يُخطط بالفعل للاستحواذ على العالم.» فهم لم يختاروا على مستوى الوعي أن يرَوا النظريات كشيء مستحسَن أو غير ذلك. وإنما أدت أدمغتهم أغلبَ المهمة خلف الكواليس.

مَن الذي يتحكَّم في كل هذا؟

كما يوضح اختصاصيُّ علم الأعصاب ديفيد إيجلمان في كتابه «وراء الكواليس: الحياة السرية للدِّماغ»، ثمَّة شبكةٌ معقَّدة من الآلات المخبوءة تحت جلدك. فجسدك مليء بالأعضاء، وكلٌّ منها له وظيفة متخصِّصة يؤديها، وجميعها تعمل معًا كي تُبقِيَك على قيد الحياة وبصحة جيدة، وهي تتمكَّن من أداء مهمتها على مستوى اللاوعي. فسواءٌ انتبهتَ أو لا، يستمرُّ قلبك في النبض، وتنبسط وتنقبض أوعيتُك، ويؤدي طِحالُك وظيفته المنوطة به.

وفَهمنا العلمي التفصيلي للكيفية التي يعمل بها الجسم يُعد تطورًا حديثًا نسبيًّا، ومع ذلك، ولسببٍ ما، فإن الفكرة القائلة بأن أعضاءنا يمكن أن تؤديَ عملها دون أن نطلب منها ذلك، أو حتى دون أن نعيَ ما تقوم به، لا نشعر بأن ثمَّة صعوبةً كبيرة في تصديقها.

لكن دماغك مختلفٌ على ما يبدو. فالدماغ هو أكثرُ الأعضاء تعقيدًا على الإطلاق. فهو يتألَّف من مليارات الخلايا المتخصصة، وكلٌّ من تلك الخلايا في اتصالٍ مباشر مع الآلاف غيرها، وجميعها تُطلق بلا توقُّف إشاراتٍ كهربيةً في موجاتٍ متسارعة من النشاط. وبطريقةٍ معينة — لا تزال لغزًا إلى حدٍّ بعيد — ينشأ الوعي من وسط كلِّ هذه الفوضى؛ فتجرِبة كَيْنونتنا، أو بعبارة أخرى: تجربة كونِنا أشخاصًا يُفكِّرون ويشعرون ويُقرِّرون، تكمن وراء أعيننا، التي تنظر إلى العالم وتتخذ قراراتٍ مهمةً مثل الوقت المناسب لعبور الطرق والمكان المُفضَّل الذي نذهب إليه من أجل تناول الغداء. فالوعي هو كلُّ ما نعرفه عما يجري في رءوسنا، ويبدو الأمر كما لو كان هذا هو كلَّ ما تلزمنا معرفتُه. غير أن كمًّا كبيرًا من الدراسات السيكولوجية تؤدي إلى نتيجةٍ مدهشة. الوعي ليس كلَّ شيء. فنحن لسنا مطَّلعين على كل شيء أو حتى أغلب الأشياء التي يؤديها دماغنا. فمثلَ غيرِه من الأعضاء، مهمة الدماغ الأساسية هي أن يُبقيَنا على قيد الحياة، ومثلَ نظرائه الأقل غموضًا، لا يحتاج الدماغ إلى مُدخلات كثيرة من جانبنا لأداء وظيفته. فجميع أنواع الأنشطة تتمُّ خلف الكواليس، خارج إدراكنا الواعي، وبما يتجاوز تمامًا نطاقَ سيطرتنا.

لكن إذا كان الدماغ لا يُطلعنا على كل طرائفه، فإن هذا ليس معناه أن عملياته التي تجري على مستوى اللاوعي غيرُ مهمة أو تافهة. فعلى النقيض من ذلك، يتشكَّل إدراكنا الحسِّي وأفكارنا ومعتقداتنا وقراراتنا بواسطة الحِيَل السرية التي تؤديها أدمغتنا. فقد توصَّل اختصاصيو علم النفس التخيُّلي إلى العديد من الصور التمثيلية التي تُظهِر حَدْسنا الخاطئ بأننا على وعي بكل شيء يحدث في أدمغتنا، بل ونتحكم فيه أيضًا. وكما يقول ديفيد إيجلمان: «وعيُك مثل مسافرٍ متخفٍّ صغير على متن باخرة عبر الأطلسي، يُنسب الفضل إليه في الرحلة دون الاعتراف بهذا الكمِّ الهائل من التفاصيل الهندسية تحت قدمَيه.» وقد شبَّهت اختصاصية العلوم الاجتماعية جوناثان هايت الوعيَ براكبٍ على ظهر فيل: فالراكب يُمكنه أن يُلاطف الفيل مُقنعًا إياه بالذَّهاب في اتجاه معيَّن عن طريق التحكم في لِجامه، لكن الفيل لديه في نهاية المطاف، نزواتُه الخاصة وهو أكبرُ منا. وصف دانييل كانيمان، أحدُ رواد علم نفس التحيُّزات الخفية والطرق المختصرة لأدمغتنا، تقسيمَ العمل بين عملياتنا العقلية الواعية واللاواعية بأسلوبٍ سينمائي. «في الحدث المُستبعد» لفيلمٍ يُمثِّل فيه مستويَا

نشاط الدماغ الشخصيتَين الرئيستين، «سيكون الوعيُ هو الشخصيةَ المُساندة التي تعتقد أنها البطل.» على حدِّ قول كانيمان.

أود أن أقترح صورةً تمثيليةً مشابهة، وهي صورةٌ أكثرُ انسجامًا مع الموضوع الذي نتناوله. نحن نتخيَّل أنفسَنا أننا نتحكَّم في خيوط كلِّ شيء، ونمتلك السيطرة التامةَ على جميع قدراتنا العقلية. لكننا في واقع الأمر بمثابةِ عرائسَ يُحركها اللاوعي الصامت بخيوطٍ خفية، لترقص وَفْق نزواته الخاصة، ثم تأتي لتنسب الفضل لنفسها فيما أدَّته من رقصات.

عقولٌ مُتشكِّكة

هل هذا معناه أن نظريات المؤامرة غيرُ عقلانية في جوهرها ومَرضيَّة، وتنطوي على نوعٍ من الجنون وتشوُّش العقل والحمق والارتباك؟ بعض المثقفين يُمطِرون بحماس نظريات المؤامرة بهذا النوع من الصفات التي تُعبر عن الاحتقار والسخرية، مُصوِّرين إياها بأنها تنشأ عن تفكيرٍ مختلٍّ، يتمتع مَنْ لا يؤمنون بها بحصانة ضدَّه؛ على حدِّ زعمهم. وبسبب هذه الرؤية القاتمة، يمكن أن تبلغ التوتراتُ بين أصحاب نظريات المؤامرة ومنتقديهم مَبلغَها. وبالنِّسبة إلى بعض أصحاب نظريات المؤامرة، فإن البحث عن أسبابٍ نفسية لتصديق نظريات المؤامرة أسوأُ من مجرد تحدي تلك النظريات فيما تطرحه من حقائق. فالأمر أشبهُ بمحاولة زعزعة ثقة المؤمنين بها، أو حتى وصمِ أصحاب نظريات المؤامرة بالاختلال العقلي.

ليس هذا هدفي. فالكتاب الذي بين أيدينا غيرُ معنيٍّ بتقديم قائمة بنظريات المؤامرة كدليلٍ للأفكار أو المعتقدات الشاذة. كما أنه غير معنيٍّ بتصنيف أصحاب نظريات المؤامرة باعتبارهم جنسًا غريبًا، أو حكاية تحذيرية حول الكيفية التي يمكن أن يتعطل بها تفكيرُك. فالنتائج العلمية التي تراكمت لدينا على مرِّ السنوات القليلة الماضية تخبرنا بقصةٍ أكثرَ إثارة للاهتمام بكثير؛ قصة لها تبعاتٌ بالنِّسبة إلينا جميعًا. فقد حذَّر مايكل بيليج، أحدُ الرواد الأوائل في مجال البحث في التفكير القائم على نظرية المؤامرة، أنه فيما يتعلق بنظريات المؤامرة، «من السهل المبالغةُ في التأكيد على شذوذاتها على حساب ملاحظةِ الأمور السيكولوجية العادية.» فنظريات المؤامرة قد تكون نتاجَ بعض نزوات أدمغتنا وزلاتها، غير أنها، كما سنرى، ليست فريدةً على الإطلاق في هذا الصدد. فأغلب نزواتنا تحدث ببساطة دون أن تسترعيَ الانتباه. ويمكن أن يخبرنا علم النفس بالكثير؛ ليس فقط بشأن

أسباب تصديق الناس نظرياتٍ حول المؤامرات الكبيرة، ولكن أيضًا بشأن آلية عمل عقولنا، وأسبابِ تصديقنا أيَّ شيء على وجه العموم.

إذن هاكم نظريتي. نحن تحت رحمة مائة مليارِ متآمر صغير، جيوش جرَّارة من الخلايا العصبية المتآمِرة. وعبر صفحات هذا الكتاب، سوف نزيح الستار لنُسلِّط الضوء على جنبات خفيةٍ غامضة من عقولنا، ونكشف كيف يمكن لحِيَلِ أدمغتنا السريَّة أن تُشكِّل الطريقة التي نُفكر بها في نظريات المؤامرة؛ وغير ذلك كثير. وسواءٌ أكانت نظريات المؤامرة تعكس حقيقة ما يحدث في العالم أم لا، فإنها تُخبرنا بالكثير عن ذواتنا السرية. وتنسجم نظريات المؤامرة مع بعض التحيُّزات الكامنة في الدماغ وطرقه المختصرة، وتتوافق مع بعضٍ من أعمق رغباتنا ومخاوفنا وافتراضاتنا بشأن العالم ومَن يعيشون فيه. فنحن نملك عقولًا مُتشكِّكة بالفطرة. وجميعنا أصحاب نظريات مؤامرة بالفطرة.

الفصل الأول

عصرُ المؤامرة

«هذا هو عصرُ المؤامرة، عصرُ الروابط والصِّلات والعلاقات السرية.» وردَت هذه العبارة على لسان إحدى شخصيات رواية «ركض الكلب» لدون ديليلو. وظهر هذا الاقتباسُ في عددٍ هائل من الكتب والمقالات التي تتناول نظريات المؤامرة المعاصرة؛ حيث تعكس اعتقادًا ترسَّخ لدى قطاعٍ عريض من الباحثين والأشخاص العاديين على حدٍّ سواء؛ أن نظريات المؤامرة لم تكن تحظى برَواجٍ مثل الآن. وكما يقول أحد الباحثين: «القرون الأخرى كانت تُجرب المؤامرة فحسب، شأنها في ذلك شأن الهواة. أما قرننا الحاليُّ فقد رسَّخ المؤامرة باعتبارها نظامًا في التفكير ونهجًا في العمل.»

ثَمة كمٌّ وفيرٌ من التكهنات بشأن العوامل التي أدَّت إلى اعتبار هذا العصر هو العصرَ الذهبيَّ المزعوم للمؤامراتية. المتهم الأول، في نظر الكثيرين من مثقَّفي القرن الحادي والعشرين، هو ظهور الإنترنت. فقد استهل اختصاصيُّ العلوم السياسية جودي دين مقالة نُشرت عام ٢٠٠٠ بقوله: «مع تشابك الشبكات العالمية للعصر المعلوماتي على نحوٍ متزايد، يُهيمن على الكثيرين منا حالةٌ من اللايقين تُؤثر فينا تأثيرًا شديدًا.» ويُعتقد أن الأمور لم تتفاقم إلا منذ ذلك الحين؛ فقد أطلقت دراسةٌ أُجريت عام ٢٠١٥ حول انتشار نظريات المؤامرة على شبكات التواصل الاجتماعي على هذا العصر اسمَ «عصر التضليل».

ويُشير مثقَّفون آخرون بأصابع الاتهام إلى أحداث مادية ملموسة. فيرى الصحفي جوناثان كاي أن انهيار برجَي مركز التجارة العالمي فتح الباب أمام «تصدُّعٍ مُناوئ للثقافة على أقل تقدير.» أو بعبارة أخرى: ثَقبٌ أسودُ فكري من نوعٍ ما ابتلع «مجموعة كبيرة من المرتابين السياسيين.» ويتعقبُ آخرون الجذورَ التاريخية للمؤامراتية. فربما تكون قد بدأَت

في سبعينيَّات القرن العشرين، بأزمة ثقة في الحكومة أعقبَت الكشف عن رئاسة ريتشارد نيكسون المشوبة بجنون الارتياب. أو ربما ستينيَّات القرن العشرين، والفقدان الجمعي للبراءة الذي حدث مع مقتل جون إف كينيدي وتصاعد الفشل في فيتنام. أو ربما تكون قد بدأت مع بارانويا الحرب الباردة المُتسللة في فترة الخمسينيَّات من القرن العشرين.

وحتى وقتٍ قريب، فإن هذا النوع من التكهُّن الغامض كان كلَّ ما بحوزتنا. لكن في عام ٢٠١٤، اضطلع اختصاصيَّان في العلوم السياسية، هما جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت، بمشروعٍ ابتكاريٍّ وطَموح للبحث عن إجابات مدعومة بأدلة.

لا يتضح على الفور كيفيةُ قياس صعود وهبوط التفكير القائم على نظرية المؤامرة على مدًى زمني طويل. ففي عصرنا الرقمي، الحصول على فكرة عمَّا يتحدَّث الناسُ عنه أصبح أمرًا سهلًا مثل معرفة أي وسمٍ حقَّق تداولًا أو عدد مرات «الإعجاب» التي تحصل عليها إحدى صفحات «فيسبوك». والأقل وضوحًا من ذلك أن نُحدِّد إلى أي مدًى كان الناس يتحدَّثون عن المؤامرات منذ قرن. لكن أوسينسكي وبيرانت أدركا أن أسلافنا غير الرقميِّين تركوا خلفهم كَنزًا ثمينًا من البيانات: رسائل إلى المُحرر. فصفحة الرسائل بالجريدة عادةً ما تُهمَل، وأحيانًا يُنظَر إليها باعتبارها مُتنفَّسًا للعواطف والانفعالات. لكن المُحلِّلين الاجتماعيِّين أثبتوا أن هذه الرسائل التي تُرسَل إلى المُحرِّر هي مقياس جيد للرأي العام على نطاقٍ أوسع؛ ومن ثَم تُعَد أداةً بحثية قيِّمة.

ومن ثَم شرع أوسينسكي وبيرانت في تحليل رسائل إلى المُحرِّر تُغطي مدةً تَزيد على قرن من الزمان، وقد نُشرت في صحيفة «نيويورك تايمز». فقد جمعوا عينةً من ألفِ رسالة كلَّ عام، في المدة من ١٨٩٠ إلى ٢٠٢٠، أي أكثر من مائة ألف رسالة إجمالًا. وبعد ذلك، قام فريقٌ من المساعدين البحثيِّين المدربين جيدًا (الذين آمُل أن يكونوا قد تلقَّوا مقابلًا ماديًّا جيدًا أيضًا) بفحص كل رسالة بعناية، لاكتشاف أي نظريات مؤامرة قد تشتملُ عليها. ولم يكن يَعنيهم ما إذا كان الخطاب يُروِّج لنظريةِ مؤامرة أو يكشف زيفها؛ فقد رأى أوسينسكي وبيرانت أنه في كلتا الحالتَين، تُظهر الإشارة إلى النظرية أو ذِكرها أن كاتب الرسالة اعتبرها جديرةً بالمناقشة، وأن المُحرر اعتبرها مهمةً بالقدر الكافي للجميع بحيث ارتأى نشرها.

ومن بين المائة الألف رسالة أو نحو ذلك، أتت ٨٧٥ رسالة على ذكر المؤامرات. وبالرغم أن ذلك لا يُمثِّل سوى أقلَّ من ١٪ من إجمالي العينة، وهي نسبة ضئيلة على ما يبدو، لكن، كما يُوضح أوسينسكي وبيرانت، صفحة الرسائل مفتوحة لأي موضوعٍ يطرحه الناس.

فليس مُستغرَبًا أن ينتجَ عن التركيزِ على موضوعٍ معيَّن، سواءٌ كان المؤامرات أو الكوميديا أو الطهي، شريحةٌ صغيرة نسبيًّا من الكعكة ككلٍّ.

وفيما يتعلَّق بالمزاعم القائلة بأن كُتَّاب الرسائل كانوا يتخبَّطون وحسب، اكتشف الباحثان بعض المعلومات المهمة. فكان من بين المُتَّهمين الذين أتَوا على ذكرهم جميع المتهمين المعتادين مثل الرؤساء والشركات الكبرى ووسائل الإعلام، إضافةً إلى مجموعة مذهلة من المتَّهمين الذين قلما يُشار إليهم مثل أصحاب مزارع الألبان وموظَّفي مكاتب البريد وشركة والت ديزني. وفي مدة التسعينيَّات من القرن التاسعَ عشر، شعر الناس بالقلق من أن يكون ثَمة تآمرٌ بين إنجلترا وكندا لاستعادة الأرض من الولايات المتحدة، أو من أن يكون هناك تلاعبٌ بالانتخابات من جانب جماعة المورمون لصالح الجمهوريِّين. وعلى مدار العقود القليلة الأولى من القرن العشرين، اشتملت النظريات عادةً على مصالحَ مالية تُحاول الإطاحة بالديمقراطية. وفي المدة من ثلاثينيَّات إلى أربعينيَّات القرن العشرين، انطوَى الكثير من المكائد المزعومة على شيوعيِّين. وعلى مدار الخمسين عامًا الأخيرة أو ما شابهَ، اتجهت بوصلةُ الشك إلى الحكومة الأمريكية نفسِها، لا سيما وكالاتها الاستخباراتية.

إذن ماذا عن الأسئلة المطروحة؟ هل شهد الحديثُ عن المؤامرات منذ الحرب العالمية الثانية تزايدًا؟ وهل اكتسب زخمًا باغتيالِ كينيدي أو فضيحةِ ووترجيت أو هجماتِ الحادي عشرَ من سبتمبر؟ هل بلغ ذروته منذ ظهور شبكة الإنترنت؟ يُشير أوسينسكي وبيرانت إلى أنه «بالرغم من كل الضجيج»، فإن الإجابة عن كل هذه الأسئلة هي النفيُ القاطع.

ثَمة مجموعةٌ من السنوات شهدت فيها نظرياتُ المؤامرة زيادةً هائلة، لكنها ليست السنوات التي قد تخطر ببالك. لقد ازداد عدد الرسائل التي تتحدَّث عن مؤامرةٍ في منتصف التسعينيَّات من القرن التاسعَ عشر، عندما تصاعدت المخاوف بشأن الشركات التِّجارية الكبرى، وفي عام ١٩٥٠، عندما بلغ الخوفُ الأحمر ذروتَه. لكنَّ أمدَ هذا التصاعد لم يدُم طويلًا، وسرعان ما تراجع عدد الرسائل إلى المستوى المعتاد. ولم تحدث أيُّ زيادة أُسية على مرِّ السنين. بل إن الناس ربما يتحدثون عن المؤامرات أقلَّ قليلًا من المعدل الذي اعتادوا أن يتحدثوا به من قبل. وقد رصد الباحثان تراجعًا طفيفًا في عدد الرسائل التي تحدثت عن المؤامرة كل عام، في المتوسط، خلال العقود الخمسة منذ اغتيال كينيدي مقارنةً بالعقود السبعة التي سبقَت اغتيالَه. لكنَّ الثباتَ الطويلَ الأمد كان الاتجاهَ العام. فكان الحديث عن المؤامرات، في أغلب الأحيان، لا يعدو كونه همهماتٍ ثابتةً في الخلفية، تتعلَّق في الأساس بالأحداث السياسية والاقتصاد والتطورات التي شهدتها تكنولوجيا الاتصالات.

وقد اختتم أوسينسكي وبيرانت بالقول: «تُشير البيانات إلى حقيقةٍ كاشفة. نحن لا نعيش في عصر نظريات المؤامرة ولم نعِش فيه منذ فترةٍ من الوقت.» لذا، إذا كان انشغالنا الحالي بالمؤامرات ليس بالأمر الجديد، فمنذ متى بدأ هذا الانشغال؟ يتبيَّن لنا أن هذا يعود إلى زمنٍ بعيد جدًّا.

في زمن احتراق روما

كان ١٩ يوليو من عام ٦٤ ميلادية يومًا صيفيًّا حارقًا في روما، حسبما يصفه المؤرِّخ ستيفن داندو-كولينز. فقد كان عشيَّة الألعاب الرومانية السنوية التي كانت تَحْظى بشعبية هائلة وعُرفت باسم «ألعاب على شرف انتصارِ القيصر» (لودي فيكتوريا سيزاريس). كان «السيرك العظيم» (سيركوس ماكسيموس)، وهو استادٌ ضخم يسَع ربعَ مليون متفرج، قد تأهب بالفعل، وأخذ الزائرون يتدفَّقون في حشود إلى المدينة. ذاك المساء، أوقدَت مطاعم الوجبات السريعة المنتشرة في الشوارع الضيقة المحيطة بالاستاد أفرانها؛ حيث كانت منشغلةً في الاستعداد لإطعام حشود الفجر. يستحيل أن نُحدِّد أين بالضبط اندلع الحريق، لكنه حدث في مكانٍ ما قريبٍ من الاستاد. لم تكن الحرائقُ أمرًا نادرَ الحدوث في روما القديمة، لكن هذا الحريق أثبت أنه كان مختلفًا. فقد زادت الريح القوية من لظاه، وسرعان ما امتدَّ لهيبه عبر الشوارع الضيقة الملتوية، ليأتيَ على المباني المتلاصقة. هذا الحريق، الذي أصبح معروفًا بحريق روما الكبير، استمرَّ في تأجُّجه قرابة أسبوع. لقيت أعدادٌ لا تُحصى من الناس حتفَهم جرَّاء تلك النيران، وأصبح نصف سكان المدينة بلا مأوًى. وقد صار ثلثا المدينة حطامًا ورمادًا.

بدأت نظرياتُ المؤامرة في الانتشار حتى قبل أن تبرُد الجمرات المحترقة. فسرعان ما اتجهَت بوصلة الشك إلى الإمبراطور نيرون. ووفقًا للمؤرخ الروماني تاسيتس، الذي عايش ذلك الحريقَ في طفولته، «لم يجرؤ أحدٌ على مكافحةِ ألسِنة اللهب. فقد منعت عصاباتٌ تُهدِّد وتتوعَّد أيَّ محاولات للقيام بذلك. كما كانت تُلقى المشاعلُ علانيةً لتأجيج النيران بواسطة رجالٍ كانوا يصيحون قائلين إنهم يفعلون ذلك امتثالًا للأوامر.» وبالنِّسبة إلى نيرون، يُشير تاسيتس إلى أنه كان على مسافةِ ستةٍ وثلاثين ميلًا من مكان الحريق، في أنتيوم، مسقط رأسه، عندما اندلع الحريق. وعندما عاد إلى المدينة، سرعان ما وفَّر المأوى والغذاء للحشود المُشرَّدة. ومع ذلك، لم تشفع له جهودُه الإغاثية لدى الجماهير. فقد كانت

الشائعات تنتشر بالفعل أنه بينما كانت المدينة تحترق، كان الإمبراطورُ الشابُّ غيرُ الناضج والمنشغلُ بذاته في أنتيوم يتلقَّى درسًا في الغناء.

ظل تاسيتس على الحياد فيما يتعلَّق بتورُّط نيرون في الحريق، وأشار إلى الشائعات دون أن يُصرِّح بتأييدها. أما المؤرخون الآخرون فكانوا أقلَّ تحفُّظًا. فسويتونيوس الذي وُلد بعد الحريق بخمس سنوات، كان في وقتٍ من الأوقات مؤرخًا موقَّرًا، يُمكنه الاطلاع على الأرشيفات الرسمية لروما دون قيود. ولكن بعد إساءته إلى الإمبراطور أدريان، ربما بسببِ وجودِ علاقةٍ عاطفيةٍ بينه وبين الإمبراطورة، مُنع من الاطلاع على تلك الأرشيفات. ونتيجةً لذلك، فإن السيرة التي كتبها لنيرون بعد الحريق بخمسين عامًا، كانت تستند في الأساس إلى القيل والقال. كتب سويتونيوس يقول: «متظاهرًا بالاشمئزاز من مباني روما الضيقة الكئيبة وشوارعها الملتوية، أشعلَ نيرون بصفاقةٍ النيرانَ في المدينة. وبالرغم من أن مجموعةً من قناصله السابقين شاهدوا أفرادَ بطانته، المُسلَّحين بمشاعلَ [متأججة] ومتوهِّجة، المتعدِّين على ممتلكاتهم، لم يجرُءوا على التدخُّل.» ويضيف سويتونيوس، في إيماءةٍ درامية، أنه بعد وصوله عائدًا من أنتيوم، «راقب نيرون الحريقَ من برج مايكيناس شاعرًا ببهجةِ ما وصفه بـ «جمال ألسِنة اللهب»، ثم لبس عباءة التراجيديا وغنَّى «ذا ساك أوف إليوم» من بدايتها إلى نهايتها.»

وقد ذهب كاسيوس ديو، الذي كتب أحداثَ الحريق بعد انقضاء ١٦٥ عامًا عليه، إلى ما هو أبعدُ من ذلك؛ حيث زعم أن نيرون كان لديه فريقٌ مُنظَّم من الخَدَم أشعلوا النيران في المدينة بدافعٍ خبيث محض. ومن الواضح أن ديو استحوذت عليه الفكرةُ القائلة بأن نيرون كان يُغني في فرحٍ وخَبَلٍ بينما المدينة تحترق من حوله؛ ومن ثَم أخذ ديو يُسهِب في الوصف. حريٌّ أن نقتبس باستفاضة روايته الميلودرامية للحريق:

> عزم نيرون على تنفيذِ ما ظلَّ دائمًا رغبةً أكيدةً بداخله، وهو أن يضع نهاية للمدينة بأكملها خلال حياته … ومن ثَم، فقد أرسل رجالًا تظاهروا بأنهم في حالةٍ من السُّكْر أو منخرطون في أنواعٍ أخرى من الأفعال الشريرة، ودفعهم لإشعال النار أولًا في واحدٍ أو اثنين أو حتى في عددٍ من المباني في أجزاء مختلفة من المدينة، بحيث أصابت الناسَ حيرةٌ شديدة، وعجزوا عن تحديد المكان الذي بدأ منه الحريق، ولم يتمكنوا من القضاء عليه … وفي حينِ كانت تلك هي الحالة الذهنية التي أصابت السكان بأكملهم، وأخذ الكثيرون منهم، بسبب الجنون الذي أصابهم بفعل الكارثة، يقفزون في ألسِنة اللهب، صعد نيرون إلى سطح

قصره حيث تأتَّت له رؤيةٌ أفضلُ للجزء الأكبر من الحريق، ولبس عباءةَ عازف القيثارة، مُنشدًا أغنية «أَسْر طروادة» (كابتشر أوف تروي) على النحوِ الذي صاغها هو بنفسه، رغم أن ما كان يحدث، في عيون المُتفرجين، هو أسرُ روما.

وسواءٌ وقفَت وراء الحريق أيدٍ داخليةٌ أو لا، وسواءٌ غنَّى نيرون ابتهاجًا بما حدث أو لا، فما نعرفه بالفعل هو أنه لم يكن سعيدًا بأن يكون موضوعًا لنظريات مؤامرة. ففي سبيل إسكات الشائعات، توصَّل إلى نظريةِ مؤامرةٍ خاصة به. فكما يقول المؤرخ تاسيتس: «عزَا نيرون ما حدث من شرور إلى طبقةٍ كُرهت بسبب بشاعاتها، طبقة يعرفها عامةُ الناس بالمسيحيين، وصبَّ جامَ غضبِه عليها.» وانتُزعت الاعترافات الزائفة من بعض المسيحيين، وعلى أساسها أُسِر المزيدُ منهم. ويشير تاسيتس إلى أنهم أُدينوا «لا بجريمة حرق روما بقدْر ما أُدينوا بجريمةِ كراهيتهم للبشرية.» وقد تعامل نيرون مع كِباش الفداء تعاملًا وحشيًّا. يقول تاسيتس: «لقد مارسَ ضدهم كلَّ أشكال الامتهان بجانب قتلهم. فكانوا يُغطَّون بجلود البهائم، ويُلقَون إلى الكلاب لتمزِّق أجسادهم فيموتوا، أو يُصلَبون أو تُشعل النار في أجسادهم، ليكونوا مصدرًا للإضاءة الليلية، عندما يزول ضوء النهار.»

لم يكن حريق روما الكبيرُ الحدثَ الوحيدَ في التاريخ الروماني الذي أدَّى إلى نشوء نظريات المؤامرة. فهوس روما بالمؤامرة يعود إلى بدايات الإمبراطورية. فيُقال إن رومولوس، أحدَ مؤسسي المدينة وأولَ ملوكها، اختفى في ظروفٍ غامضة. وثارت شائعاتٌ تقول إن مستشاريه السياسيِّين، أعضاءَ مجلس الشيوخ، قد اغتالوا زعيمهم في محاولةٍ لزيادة نفوذهم. وقد وصف كاسيوس ديو هذا الفعلَ بأسلوبه الصادم المُميَّز؛ حيث كتب يقول إن الشيوخ المتعطِّشين للسلطة أحاطوا برومولوس بينما كان يُلقي خطابًا، وقطَّعوا «أوصاله إربًا» على أرضية مجلس الشيوخ. وأضاف ديو إضافة غريبة؛ إذ زعم أن فَعْلتهم هذه قد وارتها «عاصفةٌ قوية وكسوفٌ للشمس؛ أي الظاهرة نفسها التي حدثَت عند ميلاده. تلك كانت نهاية رومولوس.» وعلى حدِّ وصف المؤرخة فيكتوريا بيجان، فإن تاريخ روما القديمة بأكمله يعجُّ بقصص عن مكائدَ يُشتبه بها. كثير من هذه القصص كانت تستند إلى الحقيقة؛ اغتيالات وغير ذلك من المكائد الشنيعة في السياسة الرومانية القديمة. لكن الكثير منها أيضًا — مثل شائعات هوَس نيرون بالحرق أو الانهيار الدراماتيكي لرومولوس — انطوى على كثيرٍ من المبالغة والإسهاب أو كان مفبركًا تمامًا.

لم يقتصر الأمرُ على روما. فالعالم القديم كان يعجُّ بالمؤامرات ونظريات المؤامرة. وبالعودة على الأقل إلى القرن الخامس قبل الميلاد، يوضح جوزيف رويسمان أن عمل

الخُطباء المشهورين والمؤلفين المسرحيِّين في أثينا القديمة كان يعج «بأخبار المكائد والمؤامرات التي اكتنفَت كل جانب من جوانب الحياة في أثينا. فقد كانت هناك مكائدُ تستهدف حياةَ الناس وممتلكاتهم ووظائفَهم وسمعتهم، وأيضًا المصلحة العامة والنظام والشئون الخارجية.» ولم يكن أحدٌ بمنأًى عن أن يُتَّهَم بالضلوع في مؤامرة، بَدءًا من الساسة ورجال الأعمال وصولًا إلى المهاجرين والعبيد، وكان الحُكَّام والجماهير على حدٍّ سواءٍ يأخذون هذه القصص والأخبار على محمل الجِد.

واستمر هذا الافتتانُ بفكرة المؤامرة طيلةَ العصور الوسطى. وكما كان الحال قبل ذلك، راجت نظريات المؤامرة بين الجماهير والمؤسسة الأرستقراطية الحاكمة على حدٍّ سواء. ففي كثيرٍ من الأحيان لم يكن ينظر المزارعون إلى ما يُعانونه من شدائدَ على أنها «ناجمة عن الطقس السيئ أو طرقِ التوزيع السيئة، بل ناشئة عن الأفعال الشائنة للمضاربين.» على حدِّ قول باري كوارد وجوليان سوان، في حينِ كانت النخبة الحاكمة تعزو كثيرًا التغييرَ غير المرحَّب به إلى «مكائد رجال البلاط أو الوزراء أو المقربين أو المهرطقين أو الماسونيين.» وبالرغم من تغيُّر الأسماء والتواريخ، ظلت فكرةُ المؤامرة قائمةً على مرِّ القرون. يوضح كوارد وسوان قائلَين: «فمثلًا، في كثيرٍ من الأحيان، اعتمد أعضاء البرلمان الإنجليزي، في القرن السابع عشر على تاسيتس والتاريخ الروماني لتفسيرِ سياسةِ عصرهم.»

ويُعدُّ حريق لندن الكبير الذي اجتاح المدينةَ طيلةَ أربعة أيام عام ١٦٦٦، مثالًا جليًّا على أن التاريخ يُعيد نفسه وعلى أن فكرة المؤامرة لا تموت. فحتى قبل أن يخمد الحريق، أشار صمويل بيبس في مذكراته إلى أن الشائعات كانت قد بدأت تنتشر بأن «ثمَّة مكيدة وراءه.» كان هناك مَن اعتقدوا أن الحريق نشأ من الداخل، بأمرٍ من الملك تشارلز الثاني نفسِه؛ بل إن البعض عقَد «مقارنة مقيتة بين جلالة الملك ونيرون»، وفقًا لأحد التقارير المعاصرة. وذهب آخرون إلى الاعتقاد بأن الحريق كان هجومًا إرهابيًّا من جانب المتآمرين الكاثوليكيين أو الأعداء الأوروبيين لإنجلترا. وسُرعان ما أُلقي القبض على أحد الفرنسيين ويُدعى روبير هيوبير، وقد اعترف بأنه هو مَن أشعل الحريق بالتآمر مع عصابةٍ من جواسيس كاثوليكيين. لكن اعترافه هذا لم يكن متسقًا. فعلى سبيل المثال، ادَّعى في البداية أنه أشعل الحريق في وستمينستر. وعندما أُبلغ بأن الحريق كان قد بدأ في بودينج لين، ولم يصل قط إلى وستمينستر، تغيَّرت روايته. وبصرف النظر عن ذلك، انتهز اللندنيون — والسلطات أيضًا — الفرصةَ لعزو الحريق إلى أحد كِباش الفداء الذي كان لديه الاستعدادُ لتحمل اللوم. فباعترافه المُثير للريبة الذي عُدَّ الدليلَ الوحيد ضده، نُفِّذ حُكم الإعدام في هيوبير في ٢٧ أكتوبر ١٦٦٦، أمام حشدٍ من المتفرجين الفرحين.

وكما يتجلَّى من هذا السَّرد التاريخي المختصر، بدأ العصر الذهبي لنظريات المؤامرة منذ آلاف السنين، وليس هناك أيُّ دلائل على اضمحلاله. وتتشابهُ بعض النظريات القديمة تشابهًا لافتًا مع نظريات المؤامرة المعاصرة. لكنَّ هناك عددًا من الاختلافات بينهما تجدر الإشارة إليها. فبالنِّسبة إلى مُنظِّري المؤامرة الكلاسيكيين، كانت المكائد المزعومة تتعلق على وجه العموم بقضايا محلية، منفصلة، وكانت الدوافعُ وراء المكائد الظاهرية تافهةً وشخصيةً إلى حدٍّ كبير. كما تجدر الإشارة إلى أنه حتى بالرغم من أن الكثير من تلك النظريات انطوى دون شكٍّ على شيء من الإسهاب والتنميق، لم تكن جميعها مُستبعَدةَ الحدوث. وعندما كان الأباطرة والملوك يمتلكون سلطةً مطلقة، كثيرًا ما كان ترويج الشائعات ضدَّهم هي الطريقة الوحيدة لإحداثِ تغييرٍ مهم.

وبمرور الزمن، أصبحت الشواغل المؤامراتية لدى الناس أوسعَ نطاقًا. فكان هناك تحوُّلٌ من نظريات حول مؤامرات محلية وتافهة تهدف إلى المصلحة الذاتية إلى نظرياتٍ أكبر تأثيرًا. فقد أصبحت المكائد المزعومة أكثرَ غموضًا وتدميرًا وشمولية. وأصبح يُتصوَّر أن المتآمرين يعملون لتحقيق غاياتٍ أكثرَ مكرًا وأقلَّ جِلاءً.

ثمَّة محطتان رئيسيتان تُمثِّلان علاماتٍ فارقةً على الطريق من النظريات القديمة التافهة إلى النظريات الحاليَّة، التي جاء أولها تقديرًا لشابٍّ ألماني من أنصار المثالية ويُدعى آدم فايسهوبت.

فزَّاعة التنويريين

في عام ١٧٧٢، وسيرًا على خُطى كلٍّ من أبيه وعرَّابه، أصبح آدم فايسهوبت أستاذًا للقانون في جامعة إنجلوشتات في بافاريا. وبرغم ذلك، لم يكن القانون شغَفَه الحقيقي. ففي سن الرابعة والعشرين، كان فايسهوبت مُتململًا ومثاليًّا في تفكيره. وبسبب خيبة أمله من تعليمه اليسوعي الآليِّ الصارم، وبدافعٍ من التنوير المُزدهر، نما لديه طموحٌ جامحٌ لتحسين المجتمع باستخدام قوة العقل والمنطق لدحض الخرافات الدينية. كما كان أيضًا «انتقاديًّا ووصوليًّا وعديمَ الضمير وكاذبًا» حسبما كتب المؤرخ جون روبرتس الذي قال عنه أيضًا: «جميع أدلة هذه المرحلة من حياته المِهنية تكشف أنه يُمثِّل خطرًا مألوفًا من مخاطر الحياة الأكاديمية والجامعية: فقد كان ماكرًا ومُشاكسًا ومُستغرقًا في التفكير وسئمًا يعشق خداع الذات.»

ووفقًا لروبرتس، كانت المكيدةُ هي الشغفَ الحقيقي لدى فايسهوبت. فمنذ سنٍّ مبكرة، استولى على تفكيره المجتمعاتُ السرِّية مثل «الأخوية الفيثاغورسية». فقد انضم إلى إحدى الجمعيات الماسونية في عام ١٧٧٤، لكنه شعر بالإحباط بسبب افتقار الماسونيين إلى التطلعات السياسية أو السرِّية الحقيقية، كما خيَّبت آمالَه الرسومُ الباهظة للحصول على عضويتها. ومن ثَم فقد قرَّر بدء جمعية سرية خاصة. وانعقد الاجتماع الافتتاحي لتلك الجمعية في ١ مايو ١٧٧٦، بحضور فايسهوبت وأربعة من طلابه فقط. وقد أطلق عليها جمعية «مذهب التنويريين».

التحمَت الشخصية المزدوجة لفايسهوبت بنسيج التنويريين. وكانت فلسفته مثاليةً إلى حدِّ السذاجة. ووفقًا للَّائحة التي وضعها فايسهوبت، كان الهدف الوحيد لهذا النظام هو «أن يُبصِّر الإنسانَ بأهميةِ مثاليةِ العقل وسَمْته الأخلاقي … أن يُعارض الخطط الخبيثة في هذا العالم، وأن يُساعد في محاربة الظلم الذي يُعانيه التعساء والمُضطَهدون، وأن يُشجِّع الأكْفاء، وبوجهٍ عامٍّ، أن يُيسِّر سبل المعرفة والعلم.» ومن جهة أخرى، فإنه نظرًا إلى كون فايسهوبت الزعيمَ الأعلى لجمعيته السرية هذه، فقد مكَّنه هذا من إطلاق العِنان لرغباته المدفوعة بالاهتمام والخداع. فانتقى بعنايةٍ هالةً من الغموض تُحيط بطائفته. فقد طلب من المبتدئين أن يتَسمَّوا بأسماءٍ زائفة وأن يتعلموا مفرداتٍ سرِّية، وأن يُمارسوا مجموعةً مُنمقة من الطقوس الاستهلالية، كما أمرَهم بقطع علاقاتهم وروابطهم مع أُسَرهم وأصدقائهم. ولتعيين أعضاءٍ جددٍ، طلب فايسهوبت من أعضاء جمعية «مذهب التنويريين» أن يندسُّوا في الجمعيات الماسونية وأن يستقطبوا أعضاءها. وقد وضع فايسهوبت نظامًا هرَميًّا مُتقنًا، وأخفاه عن الجميع سوى أقدمِ الأعضاء. والترقِّي على سُلَّم هذا النظام الهرمي كان يتطلب إذعانًا تامًّا وطاعةً عمياء. وكان النقابُ يُكشف تدريجيًّا عن الأهداف الحقيقية للنظام — التحوُّل السلمي للمجتمع — كلما ترقَّى العضو على هذا السُّلم الهرمي.

ومع بدايات الثمانينيَّات من القرن الثامن عشر، كان قد انضم لهذا النظام نحوُ ثلاثمائة عضوٍ موزَّعين في أنحاء أوروبا. لكن هذا التوسُّع جاء على حساب السرية. فقد أثارت شخصية فايسهوبت المُتسلِّطة والمتحذلقة غضبَ بعض المُجنَّدين. وأفشى بعضُ الأعضاء أسرارَ النشاط التنويري إلى أشخاصٍ ليسوا بأعضاء، وكثيرًا ما كان ذلك مصحوبًا بمبالَغات مزعجة. وبحلول عام ١٧٨٤، وصلت الشائعاتُ التي أحاطت بهذا النظام إلى السلطات. وأصدرت الحكومةُ البافارية مرسومًا يحظر الجمعيات غيرَ المرخَّص لها، وعلَّق فايسهوبت اجتماعات جمعيته. واستمرت التسريبات، وتزايد نشرُ الشائعات البذيئة على

يدِ الصحفيين كما لاكَتْها ألسِنةُ الوعاظ، الذين اتهموا جمعيته «بالكفر وعصيان الأسرة الحاكمة والاحتيال السياسي والفساد الأخلاقي.»

وفي محاولةٍ أخيرة لتبرئة نظامه، دنا فايسهوبت شخصيًّا من تشارلز تيودور، أحد أعضاء المُجمع الانتخابي في بافاريا وأخبره بأغلب أسرار جمعية «مذهب التنويريين». وفي ٢ مارس ١٧٨٥، أصدر تيودور مرسومًا آخر، يُدين التنويريين على وجه التحديد. وفرَّ فايسهوبت من بافاريا. وبدأت التحقيقات وتمَّت الاعتقالات، ونُشر الكثير من الوثائق السرية للتنويريين، بما فيها خطابات فايسهوبت الشخصية، ليطَّلع عليها الجميع. وهكذا كانت نهاية التنويريين — لكنهم لم ينسَوا.

إن اكتشاف جمعية سرِّية حقيقية بتطلُّعات سياسية حقيقية، إضافةً إلى الكثير من الشائعات الشنيعة المنمقة عن نشاطها الدنيء الهدام، كان مصدرًا لكثير من الارتباك والانزعاج. وبالفعل، أُشيع أن جمعية فايسهوبت السرِّية استمرَّت في العمل، وكلُّ ما هنالك أنها باتت تعمل في الخفاء. وبعيدًا عن الوجود على أرض الواقع بكل إزعاجه، نما التنويرُ في خيالات نقاده المُتململين بأبعادٍ أسطورية؛ ليس فقط في بافاريا وإنما في جميع أنحاء أوروبا، وصولًا إلى الولايات المتحدة المستقلة حديثًا. وقد شوَّه اكتشاف جمعية فايسهوبت سمعة الماسونيِّين أيضًا. فقد كان المتنورون قد اندسُّوا بالفعل في بضع جمعيات ماسونية ولم يكن أحدٌ يعرف ما إذا كانوا قد اعتُقلوا أو لا. وأصبحت المكائد التآمرية للجمعيات السرية الهدامة تفسيرًا ممكنًا للأحداث المثيرة للقلق على نحوٍ متزايد. ثم اندلعت الثورة الفرنسية.

يشير روبرتس قائلًا: «من السهل جدًّا اليوم التقليل من شأن الصدمة العاطفية للثورة الفرنسية.» ويُتابع قائلًا: «فقد استهلت حقبةً للثورة ما زلنا نعيش فيها، واعتدنا على فكرة الثورة بطريقةٍ لم يعتَدْها الناس في القرن الثامن عشر.» فعلى مدار عشر سنوات من العنف والفوضى، ما بين عامَي ١٧٨٩ و١٧٩٩، حلَّ المجتمع العلماني الجديد القائم على المساواة محلَّ الامتياز الأرستقراطي الوراثي المتداعي بعد أن دام وقتًا طويلًا. وبدأت الأفكار الثورية تنتشر عبر أرجاء أوروبا، وسرعان ما مُنح ملايينُ الناس حقوقَ الإنسان الأساسيةَ التي لم ينعموا بها من قبلُ قط، في حين وجد الأرستقراطيون أنفسَهم على حينِ غرة يفقدون نفوذَهم وثراءهم. كان هذا تحوُّلًا عميقًا وغير مسبوق؛ بزوغ سريع لواقعٍ سياسي جديد تمامًا. وبطبيعة الحال، جاهد الناسُ من أجل استيعابه. كتب روبرتس يقول: «إن حجم وعنف التغييرات ... استنفدَت على ما يبدو جميع قوائم التفسيرات التقليدية والمألوفة.» وتابع: «ظهرت الحاجة إلى بُعدٍ ما جديدٍ للفهم.»

وفي نهاية الثورة الفرنسية، تحديدًا في عام ١٧٩٧، نشر مؤلفان، في الوقت ذاتِه تقريبًا، كتابَين قدَّما هذا البعد الجديد. أما المؤلف الأول فهو أوجستين دي باروِيل. كان باروِيل من النبلاء الفرنسيين، وكان كاهنًا يَسوعيًّا، ومُجادلًا أيضًا. وكان قد حقَّق بالفعل بعضَ النجاح الأدبي لمنشوراته التي انتقد فيها الفلسفة التنويرية بِناءً على آرائه الدينية القوية. ففي عام ١٧٨٩، وهي السنة التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية، نشر باروِيل كُتيبًا يُلقي فيه باللائمة على الثورة باعتبارها المسئولةَ عن أيديولوجية التنوير الفاسدة وضعف الكاهن الفرنسي. لكن بحلول عام ١٧٩٧، عندما نشر الطبعتَين الأوليَين من «مذكرات تُسلِّط الضوءَ على تاريخ اليعقوبية»، أصبح باروِيل على قناعةٍ بأن كلَّ ما يجري كان يُحاك بعناية من خلف الكواليس. كتب باروِيل يقول: «حتى أكثر الأفعال بشاعةً التي اقتُرفت إبَّان الثورة الفرنسية، كل شيء كان متوقَّعًا ومخطَّطًا ومدروسًا ومرسومًا. كلُّ ما جرى جاء من رحم دناءة مُبيَّتة.» ونسب هذه الدناءةَ إلى الفلاسفة التنويريين والماسونيين واليعاقبة. لكن باروِيل استدرك قائلًا إن هذه المجموعات لم تكن سوى «الأشرار الظاهرين في مكيدة كبيرة عكف واضعوها وعُملاؤها عليها وقتًا طويلًا، وهم أكثر انتشارًا بكثير مما يُعتقد.» وقال باروِيل إن خلف كلِّ هؤلاء، ومن يُنسق هذه الخطة بأكملها، كان عدوًّا شريرًا أكثرَ قوة ومكرًا: جمعية آدم وايسهوبت الشنيعة التي «لا يقتصر هدفها على تدمير المملكة الفرنسية بل الدمار العام، الإطاحة بالمجتمع والدين ذاتِه.»

الفكرة ذاتُها تبنَّاها سكوتسمان جون روبيسون، أستاذ الفلسفة الطبيعية بجامعة إدنبرة. فقد نشر كتابه بعد باروِيل بوقتٍ قصير، تحت عنوانٍ لاذع: «أدلةٌ مُستقاة من مصادرَ موثوقةٍ على المؤامرة التي تُحاك ضد جميع أديان وحكومات أوروبا داخل الاجتماعات السرية للماسونيين والمتنورين والمثقفين ... إلخ.» ورغم اختلاف روبيسون مع باروِيل حول عددٍ من التفاصيل، لم تختلف فرضيته. فقد اعتقد أن المتنورين هم مَن يقفون وراء الثورة الفرنسية، وأن ما حدث هو مجرد خطوة نحو إثارة الفوضى العامة على مستوى العالم. ووفقًا لروبيسون، فإن زعماء المتنورين «يكفرون بكل كلمة تخرج من أفواههم، وكل مذهب يُلقنونه لغيرهم ... فمقصَدُهم الحقيقي هو القضاء على الدين بكامله، والإطاحة بكل حكومة، وإشاعة الفوضى في العالم وتدميره.» وحتى يضمن أن قراءه قد أصابهم الانزعاجُ والقلق بما يكفي؛ حذَّر روبيسون من أن المتنورين «لا يزالون موجودين ويعملون في الخفاء ... فمبعوثوهم يسعَون لنشر مذاهبهم المقيتة بيننا.»

ويشير روبرتس إلى أن ما قاله كلٌّ من باروِيل أو روبيسون ليس صحيحًا على الإطلاق. فحتى منذ السنوات الأولى من الثورة، انتشرت شائعات بأن الماسونيين أو طائفةً

سرية أخرى كانت ضالعةً في الأحداث. وعبقريةِ كلٍّ من روبيسون وباروِيل لا تكمن في الابتكار وإنما في التكامل. فقد أخذا جميع نظريات المؤامرة الحاليَّة ونسَجوها معًا لتخرج في صورةِ نظريةٍ واحدة كبيرة. ونظريتهما هذه لم تُعطِ تفسيرًا فحسب للثورة الفرنسية بأكملها، ولكنها قادرة كذلك على تفسيرِ كلِّ شيء حدث ويحدث وسيحدث في العالم. ونظرية المؤامرة الواضحة الشاملة التي أفصح عنها باروِيل وربيسون انسجمَت تمامًا مع المخاوف والاحتياجات الآنيَّة. وبالرغم من احتواء الكتابَين على الكثير من الأخطاء الوقائعية والزلَّات المنطقية، فسُرعان ما أُعيدت طباعتهما وترجمتهما وتصديرهما إلى جميع أنحاء أوروبا وعبر الأطلسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا وُضعت الأساسات التي تقوم عليها المؤامراتيةُ الحديثة. فالمكائد التافهة التي ارتُئيت في القرن الثامن عشر وما قبله تطوَّرت لتصبح رؤيةً سياسية شاملة وكاسحة.

ولكن مع أخذِ كلِّ شيء بعين الاعتبار، لم تدُم فزَّاعة المتنورين وقتًا طويلًا. فمذهب فايسهوبت الذي اعتُقد في وقتٍ من الأوقات أنه المسئول عن الثورة الفرنسية، تراجع دوره ليقتصر على إدارة الحياة المهنية لنجوم موسيقى البوب. فقد أُطلق على موسيقيين أمثال جاي زي وليدي جاجا وكانييه وست وكيشا «عرائس المتنورين» واتُّهِموا «بإفساد شباب العالم بعروضهم المُضلِّلة الصادمة.» وحتى نكون مُنصفين، فإن بعض الموسيقيِّين لديهم على ما يبدو ولعٌ بالرمزية الغامضة. فمثلًا، تعكس إيماءة جاي زي بيده الهرمَ الماسونيَّ والعين التي تُبصر كل شيء. لكن هذا الاتجاه بلغ مداه في أوائل عام ٢٠١٥، عندما طرَحَت مادونا أغنيتها «إلوميناتي» (وتعني بالعربية «متنوِّر»). وعندما سُئلت عن هذا في المقابلات التي أُجريت معها، كشفت مادونا قائلةً: «أعلم مَن هم المتنوِّرون، ومنشأ هذه الكلمة.» وزعمَت أن الكلمة تعني في الأساس مجموعةً من الأشخاصِ الأذكياء، وأن رسالة أغنيتها هي «إذا كنت تعتقد أنني متنوِّر، فشكرًا جزيلًا لك على هذه المجاملة لأنني أرغب بشدةٍ في أن أكون جزءًا من هذه الجماعة؛ المتنورين الحقيقيين.»

وبرغم كل شيء، فإن السبب الذي يقف وراء الاضمحلال السريع للمتنورين هو أن أيَّ نظريةِ مؤامرة ناجحة تتطلب عنصرَين، على حد زعم اختصاصيَّي علم الاجتماع سيمور ليبست وإيرل راب. أما العنصر الأول فهو «المكيدة الغامضة» التي يُعتقد أنها تقف وراء ما يجري من أحداث. وأما العنصر الثاني فهو «مجموعة مُستهدَفة أقلُّ غموضًا وأكثرُ جِلاءً لها علاقة بهذه المكيدة.» فنظريةُ مؤامرة عن مكيدة بابوية لن تقومَ لها قائمة ما لم يكن هناك عددٌ من المهاجرين الكاثوليك الذين يمكن أن يكونوا سُفراءَ يُجسِّدون التهديد، ما

يجعله شيئًا ملموسًا. كانت فضيحة المُتنورين الحقيقية لا تزال عالقةً بأذهان الناس عندما كانوا يبحثون عن تفسيراتٍ للثورة الفرنسية. لكن في غضون بضع سنين، أصبح المتنورون مجردَ ذكرى.

أما المرحلة الرئيسة الثانية في تطور نظرية المؤامرة الحديثة فقد أتت مع اختلاقِ مكيدةٍ غامضة جديدة. فعلى العكس من جمعية وايسهوبت التي كانت مُدانة بوجودِها الفعلي، على الأقل، كانت المكيدة الجديدة وهميةً بالكامل. لكنَّ سفراءها تعساءَ الحظِّ كانوا حقيقيين جميعًا.

حكماء صِهْيَون

«بروتوكولات حكماء صِهْيَون» كُتيبٌ صغير عدد صفحاته ثمانون صفحةً أو نحو ذلك. لكنَّ صِغَر حجمه لا يعكس هول الأسرار التي يكشفها. هذا الكتيب يُلخِّص مؤامرةً مُروعة، يعود تاريخها إلى مراحلَ طويلةٍ من الزمن، وتقترب شيئًا فشيئًا من الاكتمال على نحوٍ مروعٍ ومثير. وهذا ليس مجردَ فضحٍ أخرقَ لأسرارٍ من جانب طرف خارجيٍّ ما. وإنما هو اعتراف أملاه المتآمرون أنفسُهم؛ وقائع اجتماع سري للمجلس الأعلى لليهودية العالمية، أو ما يُعرف باسم حكماء صِهْيون. كان المُخطَّط له أن يطلع اليهود وحدهم دون سِواهم على وقائعِ المحاضرة، بطبيعة الحال، لكنَّ نسخةً طُبعت بطريقةٍ ما في روسيا بعد بدء القرن العشرين بوقتٍ قصير. وكانت المحاضرة قد وصلت إلى مسامع جاسوسٍ روسي على ما يبدو؛ أو بِناءً على الشخص الذي تستمع إليه، صُودرت من أحد الحضور، أو سُرقت من أرشيفٍ صِهيوني سري أو حتى استولت عليها مَحظيَّةٌ عاشقٍ من هؤلاء الحكماء.

والبروتوكولات ذاتُها عبارة عن أربعٍ وعشرين خُطبةً قصيرة، ألقاها كبيرُ الحكماء على أسماع زملائه المنتبهين، أفصحَ فيها بتفاصيلَ مروعةٍ، عن خطتهم للهيمنة التامة على العالم. ويلخِّص البروتوكول الأول المبادئ الأخلاقية التي تستند عليها الخُطة. وقال كبير الحكماء إن «الأغيار» (غير اليهود) هم بربريُّون لا عقل لهم، يعوزهم الذكاء والوعي والحكم السديد ورِباطة الجأش، تلك الصفات التي تُميِّز اليهودَ عن سواهم. ونتيجةً لذلك، فإن تَرْك الناس يحكمون أنفسَهم بأنفسهم كترك شخصٍ أعمى يقود أعمى. وذهب إلى أن الشكل الوحيد الممكن للحكم هو الديكتاتورية العالمية الاستبدادية التي يتزعمها اليهود.

وتُقدم البروتوكولات اللاحقةُ دليلًا مفيدًا عن الكيفية التي يمكن بها تدمير الحكومات والتعجيلُ بزوالها. وتُوعز البروتوكولات إلى أن اليهود، في جميع أرجاء العالم، يجب أن

يَنثروا بذورَ الشِّقاق، وأن ينشروا الكراهية بين مختلِف الأجناس والطبقات والأمم. كما يجب أن يسيطروا على وسائل الإعلام ويتلاعَبوا بالسياسة، ويُقللوا من شأن الدين عن طريق الاستعاضة عنه بالمادية القاسية (نظرية التطور من صنع اليهود، على ما يبدو). وهذا في أفضل الظروف. أما عندما يستدعي الأمرُ اتخاذَ تدابيرَ أكثرَ صرامة وقسوة، فإنهم سوف ينشرون الأوبئة والمجاعات، ويتسببون في الركود ويغتالون رؤساء الدول ويبدَءون حروبًا لا طائل من ورائها. ويجب بثُّ الرعب والعجز في نفوس الشعوب وإكراههم على الاستسلام والخضوع. ويقول الكتيب أيضًا، إن الخدعة أن تفعل كلَّ هذا بينما تظل في الخفاء إلى أن يفوت الأوان ويُصبح الأغيارُ عاجزين عن فعل أيِّ شيء. وبمجرد أن تُرخى قبضتهم على المجتمع بالقدْر الكافي، ينتهز اليهود الفرصةَ وينتزعون السلطة. وفي ظل حكمٍ للحكماء، سوف يتجسَّس المواطنون الموالون بعضُهم على بعض. وسوف يُمارس الطغاة سيطرةً مطلقة على كل جانبٍ من جوانب حياة المواطنين، وسوف يتصدَّون لأي معارضة على الفور ودون رحمة. وسوف يُعدَم على الفور أيُّ شخص يتصرَّف أو يتحدث أو حتى يفكر في أي شيء يُناهض النظام اليهودي.

استولى هذا البيانُ الشيطانيُّ على اهتمام الناس. فالكتيب نفسه غامضٌ بما فيه الكفاية، إذ يُلخِّص الاستراتيجيات العامة للحكماء الذين يسعَون إلى غزو العالم، لكنه أغفل أي أسماء أو تواريخ أو مواقع محدَّدة. هذا معناه أن الكتيب مناسبٌ تمامًا. وكما يقول ريتشارد ليفي، فإن الكتيب يقدِّم «مفتاحًا أشبهَ بحجرِ رشيد، يكشف كلَّ الألغاز المحيرة في العالم الحديث.» فأي شيء يحدث في العالم يمكن تفسيره على أنه ناتجٌ عن المكيدة السرية لحكماء صهيون. فالقراء الواعون ليسوا بحاجةٍ سوى أن يذكروا أيَّ علة مجتمعية ليُلصقوها باليهود. الثورتان الفرنسية والروسية؟ أدارها حكماءُ صِهيون. الحربان العالميتان الأولى والثانية؟ الشيء نفسُه. الانهيار الاقتصادي في عام ١٩٢٩ والكساد الكبير؟ يمكنك تخمين السبب. الحرب في كوريا وفيتنام وأفغانستان ولبنان والخليج العربي؟ حكماء صِهيون، حكماء صهيون، حكماء صهيون. والأمر لا يقتصر على مجرد الوقوف وراء تلك المساعي الكبيرة مثل إشعال الحروب والثورات. فوفقًا لبعض أنصار الكُتيب، لدى حكماء صهيون رغبةٌ شديدة في الإدارة التفصيلية. فقد اتُّهموا بكل شيء بدءًا من الترويج لموسيقى الجاز (وبالأخص النغمات المثيرة حسيًّا والرقص الداعر الذي تُشجِّع عليه) وتوزيع اللبان (في سعيٍ لجعل النساء أكثرَ انحلالًا) وصولًا إلى التحريض على الدَّعارة ومُعاقرة الكحوليات بل وحتى، لسببٍ ما، مَعارض الكلاب.

والأسرار الصادمة التي كُشف عنها في الكُتيب، إضافةً إلى قدرته على تفسير جميع الأمراض المجتمعية وكل اضطرابات العالم، جعلت له مكانًا في التاريخ. فلقد طُبع الكتيب وأُعيدت طباعته في جميع أنحاء العالم، في كتبٍ بعناوينَ تتراوح بين عُنوان لطيف على غِرار «أسرار حكماء صهيون» وعناوين مقلقة على نحو «اليهودية الدولية: مشكلة العالم الكبرى» (تعقيب نشَره هنري فورد في الولايات المتحدة)، وصولًا إلى عناوينَ مُروعة مثل «اليهودي عدو المسيح وبروتوكولات حُكماء صهيون» (عنوان طبعة نُشرت في ألمانيا النازية عام ١٩٣٨). وقد بِيعت ملايينُ النسخ أو وُزِّعت. وفقًا لتقديرات أحد الباحثين في عام ١٩٣٩، فإنه فيما يتعلَّق بالتوزيع، احتل الكُتيب المرتبة الثانية بعد الإنجيل.

في واقع الأمر، هناك إشكالية بسيطة. ليس هناك حكماء. فكتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» مجردُ زيف. بل إنه زيفٌ يفتقر إلى البراعة. يقول المؤرخ نورمان كون، الكتيب عبارة عن «هُراء رجعي كُتب بطريقة بشعة.» إنه تزييفٌ وضيعٌ فجٌّ، سُرق بعشوائية ودون اكتراث من عدة مصادر أكثرَ غموضًا. فقصة تأليف الكتيب أسطورة من أساطير المكائد المؤامراتية في حدِّ ذاتها. لكن الكتيب لم يختلق خرافةَ مؤامرة اليهود العالمية وحده. فلقد نُسجت خيوط هذه الخرافة على مدارِ قرون.

تاريخ كذبة

يرجع تاريخ الخرافات الموجهة ضد اليهود والتحامُل عليهم إلى أوائل سنواتِ المسيحية. فالقديس يوحنا ذهبيُّ الفم، وهو أحد الوعَّاظ الذين كانوا مثارَ إعجابٍ واسع النطاق لبلاغته وفصاحته، أبانَ في التنديد باليهود باعتبارهم عبَدةً للشيطان يقتلون الرضَّع. وفي عام ١٢١٥، عبَّر البابا إنوسنت الثالث عن أن المسيحيين ربما يجدون أنفسهم قد انخرَطوا من غير قصدٍ ودون وعي في علاقات مع اليهود. وكان الحلُّ الذي تبنَّاه هو أن يجعل اليهود يرتدون ملابسَ تُميزهم عن غيرهم، ما أدَّى إلى «شارة العار» الصفراء التي كان يتعيَّن على الكثير من اليهود في جميع أنحاء أوروبا ارتداؤها خلال العصور المظلمة؛ وتحت حكم النازية مرةً أخرى. وبعد مرور بضعة عقود من الزمان، أسَّس البابا جريجوري التاسعُ محاكمَ التفتيش، كمسعًى رسميٍّ لملاحقة المهرطقين المناهضين للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، الأمر الذى أدَّى في نهاية المطاف إلى الإعدامات الجماعية لليهود، بين مهرطقين آخَرين متهمين، والإحراق الجماعي لكتبهم المقدسة.

ووفقًا للمنطق الديني لدى بعض اللاهوتيين في العصور الوسطى؛ فإن التلمود اليهودي كان تجديفيًّا وفي الوقت ذاتِه — وهذا من سبيل المفارقة — شاهدًا على صدق التعاليم المسيحية. فمثلما أن الشيطان يعلم صدقَ المسيحية لكنه مصرٌّ على إنكارها وتدمير مَن يؤمنون بها، فإن اليهود لا يختلفون عنه بأي حالٍ من الأحوال على حدِّ زعم العلماء المسيحيين. وصار الناس يعتبرون اليهود متآمِرين مع الشيطان، بحيث يملكون معرفةً سرية وسحرًا أسود، وتملؤهم كراهيةٌ غير متناهية للمسيحيين. وقد شاعت المزاعمُ القائلة بأن اليهود كانوا يُدبِّرون مكائدَ ضد المسيحيين.

وذهبت إحدى النظريات الرائجة في هذا الصدد إلى أن اليهود اعتادوا تسميم الآبار التي يشرب منها المسيحيون. فعندما ضرب الطاعونُ الأسود أطنابَ قارة أوروبا إبَّان القرن الرابعَ عشر، كثيرًا ما كانت تُعزى نوباتُ التفشي إلى مؤامرة اليهود لتسميمِ آبارِ الشرب على مستوى العالم. وفي بعض الأحيان، استُخدم أسلوب التعذيب لإرغام عددٍ من اليهود المشتبَه بهم على الاعتراف، وبناءً على ذلك، أُعدم آلافٌ آخَرون أحياءً. وقد وقعت أكثر المذابح المدبَّرة في ستراسبورج. فقد قرَّر السكان المحليون الذين أصابهم الهلع، والذين يئسوا من منعِ الطاعون من الوصول إليهم، أن يُبادروا على سبيل الوقاية بذبح يهودِ المدينة. (بعض نبلاء المدينة كانوا أيضًا مَدينين بأموالٍ لمقرضين يهود، وربما وجدوها فرصةً للتخلص من ديونهم.) وحاولت سلطاتُ المدينة التدخُّل، لكنها عجزت عن منع المحتشدين. وإجمالًا، لقي قرابة تِسعمائة يهوديٍّ حتفهم حرقًا، وتم تعميدُ الباقين أو طردُهم. ومع ذلك، سرعان ما اكتسح الطاعونُ المدينة بأكملها، مخلفًا وراءه ١٦ ألفَ حالة وفاة.

كانت هناك أيضًا «فرية الدم»؛ وهو زعمٌ يرى أصحابُه أن اليهود اعتادوا قتلَ المسيحيين وتصفيةَ دمائهم، بحيث يستخدمونها في إعداد وجبة عيد الفُصح اليهودي، وتحضير أدوية لعلاج عيوبهم الخلقية، وأداء طقوسهم الشنيعة. وقد ظهرَت هذه الخرافة في القرن الثاني عشر، عندما عُثر على صبيٍّ مسيحيٍّ صريعًا على حدود بلدة نوريتش في إنجلترا، وذلك قبل عيد القيامة بيوم واحد. قدَّم توماس مونماث، وهو كاهن بنديكتي صار محققًا هاويًا، تفسيرًا معقَّدًا. فقد زعم أن التعاليم اليهودية تحثُّ اليهود على أنه يتعين عليهم إهراقُ الدم المسيحي لاستعادة وطنهم. ومن ثَم، فإن المجلس السرِّي للنخب اليهودية يجتمع مرةً في كل عام لاختيار الطفل المسيحي الذي سيُقدَّم قربانًا. وراجت فكرة مونماث. فلقرونٍ تاليةٍ، عندما كان يُفقَد طفل مسيحي، أو يُعثر عليه صريعًا، كثيرًا ما كانت تشير أصابعُ الاتهام إلى اليهود أولًا.

شاعت هذه المخاوف المُحفَّزة بدوافعَ دينيةٍ على مدارِ قرونٍ. وفي الوقت ذاتِه، حُرم اليهود في مناطقَ كثيرة من حقِّ المواطنة وحقوق الملكية، واقتصر وجودهم على أحياء يهوديةٍ معزولة، وكانوا يُطردون خارج المجتمع المسيحي تمامًا. وقد بدأ هذا الوضع يتغير في أعقاب الثورة الفرنسية، عندما مُنح الكثير من اليهود حقوقهم البشرية وبدَءوا يخرجون من عزلتهم. وبطبيعة الحال، مالَ اليهود إلى تأييد السياسات الليبرالية والديمقراطية التي شكَّلت آمالهم في مزيدٍ من الحرية. ونظرًا إلى أنهم ظلُّوا مُستبعَدين من الوظائف التقليدية، سافر الكثيرون منهم إلى مدنٍ وأبدعوا طرقًا جديدة لكسب أقواتهم. وفي حين ظل الكثيرون منهم مُعدِمين ومعزولين، أصبح عددٌ منهم بالغَ الثراء.

وقد تمخَّض كلُّ هذا عن توتراتٍ اجتماعية جديدة. فلم يتحمَّس الكثير من الناس للتغيرات الراديكالية التي تحدث من حولهم. فبالنِّسبة إلى البعض منهم، أصبح انخراط اليهود حديثًا رمزًا مُميزًا للعالم الحديث. والتحامل الذي طال أمَدُه وأدَّى إلى ظهور خرافتَي فِرْية الدم وتسميم الآبار بُثَّت فيه الروح لكنه تجلَّى في ثوبٍ جديد ليعكسَ التوترات والاستياءات الحديثة. فلم يَعُد اليهود أعداءَ الإله بل أعداء الإنسان. وفي عام ١٨٧٩، ظهر مصطلح جديد هو معاداة السامية، ليعكسَ الحقيقة القائلة بأن ما كان يُعد يومًا مجموعة من الخرافات البدائية المرتبطة بالقرون الوسطى أصبح أيديولوجية سياسية كاملةَ الأركان.

وقد استغلَّ كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» هذا التوجُّهَ السياسي الجديد القائم على معاداة السامية على أفضلِ نحوٍ. لكنه لم يُصِب الهدف على الفور. فقد نُشر للمرة الأولى في صورةٍ مختصرة وذلك في صحيفة «زناميا» الروسية (ويعني الاسم بالعربية «اللافتة») في عام ١٩٠٣. فناشرُ الصحيفة، ويُدعى بافيل كروشيفان، كان عضوًا في حركة «بلاك هاندردز»، التي كانت ترفع شعار «اقتل اليهود، وأنقِذ روسيا». وظهر الكُتيب مرةً أخرى في عام ١٩٠٥، كملحقٍ للطبعة الثالثة من كتابٍ نُشر على يد مُتطرفٍ ديني غريب الأطوار يُدعى سيرجي نايلوس. أعاد نايلوس نشر الكتاب مراتٍ عديدة على مدار العقد التالي، مُسلِّطًا بذلك مزيدًا من الضوء على الكُتيب. وبالرغم مما بُذل من جهود حثيثة، لم يُحقِّق الكُتيب النجاحَ المرجوَّ بسبب غموضه النِّسبي. وفي عام ١٩١٣، شكا نايلوس إلى أحد أصدقائه قائلًا: «لا يمكنني إقناع الجمهور بأخذِ كُتيب البروتوكولات على محمل الجِد، وبالقدر الذي يستحقه.»

وتبدَّلَت الأمور في أعقاب الثورة الروسية والحرب العالمية الأولى. فعلى حين غِرةٍ، بدا الكُتيب نبوئيًّا. فقد اكتسح روسيا ثم العالم من بعدها. وفي الولايات المتحدة، أصبح هنري فورد من أكبر مؤيدي الكُتيب. فمؤلفاته المُعادية للسامية التي كان ينشرها بنفسه كانت تُوزَّع في وكالات سياراته. وأعلن فورد قائلًا: «التصريح الوحيد الذي أُعنى بالإدلاء به فيما يخص البروتوكولات، هي أنها تنسجم مع ما يجري. فعمرها ١٦ عامًا وما زالت تنسجم مع المشهد العالمي حتى وقتِنا هذا. وهي تنسجم مع ما يجري الآن.» وفي إنجلترا، دعمت صحيفةُ «مورنينج بوست» (لم يَعُد لها وجود في الوقت الحاليِّ) دعمها الكامل لصحةِ ما جاء في الكُتيب في مجموعة من المقالات، نُشرت في وقت لاحقٍ في كتاب بعُنوان «سبب الاضطراب العالمي». كما انطلى الأمر على صحفٍ أخرى شهيرة. فقد نشرت صحيفة «تايمز» اللندنية تقول: «هل هي زائفة. إذا كانت كذلك، فمن أين أتت تلك القدرةُ المذهلة على التنبؤ؟»

وبقدرِ ما اكتسحت البروتوكولات العالم، بقدرِ ما اكتُشف زيفها. ففي وقتٍ مبكرٍ وتحديدًا في عام ١٩٢٠، أوضح الباحث الألماني، جوزيف ستانجيك، التشابهَ المذهل بين الاجتماع الذي ذُكر في الكُتيب وأحد الأعمال الروائية الذي نُشر قبله بخمسين سنة. وكان مؤلِّف العمل ألمانيًّا يُدعى هيرمان جودشه، وهو كاتبٌ وصفه أحد الباحثين بأنه «مروِّجٌ للشائعات وصاحب روايات رخيصة.» وفي أحد فصول روايته «بيريتس» بعنوان «حول مقابر اليهود في براج»، أحيا جودشه (وكان يكتب باسم مستعار هو السير جون ريتكليف) خرافة توماس مونماث عن المجلس اليهودي السرِّي بأسلوبٍ مُهيِّج للمشاعر. فحسبما ذُكر في تلك الرواية، يجتمع أمراء قبائل إسرائيل وعددها عشرون قبيلة، في كنف الظلام كلَّ مائة عامٍ، بعباءات شعائرية تنزلق بلا صوتٍ على العشب وشواهد القبور. وكلٌّ منهم يأخذ دوره في تسليط الضوء على التقدُّم الذي حقَّقته خطتهم القديمة الرامية إلى الهيمنة على العالم. وحسبما يقول هيرمان بيرنشتاين، وهو صحفي أمريكي، إن هذا العمل «عمل روائي أخرقُ يعتمد على الميلودراما المروعة.» وفي عام ١٩٢١، نشر بيرنشتاين كتابًا يُفصِّل فيه التشابه بين كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» ورواية «بيريتس». وقال بيرنشتاين إن ذلك كان نوعًا من الزيف. وتابع قائلًا: «كل تصريحٍ مهمٍّ احتواه الكُتيب وأسهبَ في تفصيله، تجده في الرواية القصيرة التي كتبها جودشه ريتكليف.»

وقد خرجتْ إلى النور حقائقُ أشدُّ صدمةً فيما بعد. فلم يقتصر مَن ألَّف كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» على سرقةِ أفكارِ شخصٍ آخر، بل سرق كلماته نفسها أيضًا. فقد بدأ فيليب جريفز، مراسل صحيفة «تايمز» اللندنية في اسطنبول فضحَه للكُتيب

على مدارِ ثلاثة أيام وذلك في أغسطس ١٩٢١، بأجواءٍ من الإثارة. فحسبما يقول جريفز، جاءه أحد المُبعدين الروس، وهو «أحد مُلاك الأراضي ذو علاقاتِ نسبٍ إنجليزية» وكان يرغب في عدم الكشف عن هُويته، حاملًا معه كتابًا مُلغَّزًا: «نسخة صغيرة باللغة الفرنسية، ليس بها صفحة عنوان، وأبعادها خمسة ونصف بوصة × ثلاثة وثلاثة أرباع بوصة. وقد جُلِّدت تجليدًا رخيصًا. وطُبع على صفحة الغلاف الخلفي كلمةٌ باللغة اللاتينية هي Joli». السيد إكس، كما أشار إليه الصحفي جريفز، وضع رسالة. جاء في تلك الرسالة: «اقرأ هذا الكتاب كاملًا، وستجد دليلًا لا يمكن دحضُه على أن كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» مجرد سرقةٍ لما ألَّفه آخَرون.»

ثَمة نوعٌ من المفارقة في الحقيقة القائلة بأن الكُتيب سُرق من كتابٍ غيرِ معنيٍّ باليهود على الإطلاق؛ بل كان في واقع الأمر نقدًا عنيفًا للشمولية. وقد أوضح جريفز أن الكتاب الملغز قائمٌ على مقابلةٍ بين اثنين من الشخصيات التاريخية، وهما مكيافيللي الدنيء والفيلسوف الفرنسي الليبرالي مونتسكيو، على شاطئٍ مهجور في جهنم. ويعقب ذلك ٢٥ حوارًا يُلخِّص فيها مكيافيللي بتهكمٍ حاجةَ الزعماء السياسيين إلى استخدامِ أساليبَ قذرةٍ للهيمنة على رعاياهم. هذه الحوارات هي نقد هجائي شبهُ مُستتر لحكم نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا المُستبد خلال خمسينيَّات وستينيَّات القرن التاسعَ عشر؛ حيث لعب مكيافيللي دور نابليون في تلك الحوارات.

وضع جريفز بعض فقرات الإدانة، جنبًا إلى جنبٍ على سبيل المقارنة. وتبيَّن أن فقراتٍ كاملةً من كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» قد نُسخت حرفيًّا من هذا العمل السابق. أما الفقرات الأخرى، فقد أُعيدت صياغتها على نحوٍ طفيف. يُشير جريفز إلى أن السارقين للعمل الروائي، لم يُرهقوا أنفسهم حتى عناءَ إخفاء آثار جريمتهم. كان الأمر أشبهَ بشخصٍ قلَّب صفحاتِ هذا الكتاب صفحةً صفحة بسرعة، وأعاد صياغة ما راق له منه أو نسَخه. ولم يستطِع جريفز حينذاك أن يعرف مؤلِّف الكتاب الملغز. لكن سرعان ما كُشف عن هويته حيث كان عملًا لفرنسي يُدعى موريس جولي. كان جولي، بجانب عمله في المحاماة، مراقبًا واعيًا للسياسة. وقد أدرك أنه قد يُسجن (أو قد يتعرَّض لما هو أسوأ من ذلك) لو نشر هجومه الاستعاري ضد الإمبراطور في فرنسا باسمه الحقيقي؛ ومن ثَم حاول تهريب عمله عبر بلجيكا. وقد عُثر عليه. وصُودر الكتاب، وقضى جولي مدة من الزمن خلف القضبان. وظل الكتاب مختفيًا إلى أن وقع في أيدي هؤلاء الأشخاص الذين استخدموه لاختلاق البروتوكولات التي وضعوها في كُتيبهم.

لم يستطِع السيد إكس أن يُخبر جريفز بشيء سوى أنه كان قد حصَل على كتاب الإدانة هذا من ضابط سابق في جَهاز الشرطة السرِّية الروسية المعروف باسم «أوخرانا». وفي العام نفسِه، أعطت الأميرة كاترينا رادزيفيل، إحدى المُبعدات الروسيات، التي كانت تعيش في نيويورك، مزيدًا من الخيوط التي قادت إلى حلِّ اللغز. ففي حقبة التسعينيات من القرن التاسع عشر، كانت تربطها صداقةٌ وثيقة مع عملاء سريِّين من الشرطة الروسية «أوخرانا» في باريس. وفي يوم من الأيام، عرَض عليها أحدُ العملاء السريين مخطوطةً كُتبت بخط اليد ولم تكتمل بعد. لم تكن تعرف ماهيتها حينذاك، لكن تبيَّن لها أن تلك المخطوطة هي كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» عندما كان لا يزال في مرحلة الإعداد. كان الرجل يُخبرها مفاخرًا بأن هذا نوعٌ من التزييف يختلقه من أجل توريط اليهود في مؤامرة عالمية. كثيرًا ما استخدمَت الشرطة الروسية السرية التزييف من أجل تحقيق أهداف سياسية مقيتة، ولم يأخذ أيٌّ من الأشخاص المحيطين بها تلك التزييفات على محمل الجِد؛ على حدِّ قولها. كلُّ ما هنالك أنها تذكَّرت الأمر بعد أكثرَ من عَقدَين لاحقًا، عندما أدركت أن التزييف ذاتَه قد استولى على اهتمام العالم، واعتبره الكثيرون حقيقة.

لذا، بحلول خريف عام ١٩٢١، كانت قد كُشفت الجذور الخسيسةُ لكُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون». فقد أُنتج في باريس، على عجلٍ، بالاستعانة بكتابين سابقين، في وقتٍ ما قبل مطلع القرن، وذلك على يد عملاء سريين تابعين للشرطة السرية الروسية، على أملِ تأجيج الكراهية ضد اليهود في بلدهم. وكان العنوان الذي اختاره هيرمان بيرنشتاين لعرضه الصحفي هو «تاريخ كذبة». وقد نشرت صحيفة «تايمز» اللندنية الأسرارَ التي كشفها جريفز تحت عنوانٍ رئيسي يُعلن أن البروتوكولات محضُ زيف تاريخي. ونُشرت افتتاحية بموازاة مقالاته النقدية، تأمُلُ أن يطويَ النسيانُ خرافةَ بروتوكولات حكماء صهيون. اختتم جريفز قائلًا: «كفانا حديثًا عن هذا الكُتيب!»

ولسوء الحظ، لم تكن هذه نهايةَ كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون».

الفصل الثاني

ما الضرر؟

قبل الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم سبتٍ مُشمسٍ، وذلك في يونيو ١٩٢٢، اتجهَ فالتر راتينو، وزير الخارجية الألماني، من منزله على أطراف برلين إلى وزارة الخارجية في قلب المدينة. كعادته، عندما كان يجد أن الطقس جميلٌ، كان يركب سيارته المكشوفة. وبعد مُضيٍّ بضع دقائق، بينما كان سائقه يشق طريقه وسط طريق كونيسجالي الذي تصطف الأشجار على جانبيه، برزت فجأة سيارةٌ ذات لون رمادي داكن من طريقٍ جانبي ووقفت أمامهم بحيث لا تسمح لسيارة راتينو بالمرور. أطل شابَّان يرتديان معطفين جلديَّين طويلين من السيارة. أطلق أحدهما خمس رصاصات أصابت راتينو من بندقية رشاشة، في حينِ قذف الآخر قنبلة يدوية. فرَّ الرجل الثالث، الذي كان يقود السيارة، بالقاتلين مُسرعًا، في حينِ عصف الانفجار بسيارة راتينو. ظل راتينو ينزف حتى الموت في مسرح الجريمة.

جرى تعقُّب القاتلين طيلةَ ثلاثة أسابيع لاحقة، حتى أُلقي القبضُ عليهم. كان الشخص الذي أطلَق الرصاص طالبًا يبلغ من العمر ثلاثةً وعشرين عامًا يُدعى إرفين كيرن، وقد لقي حتفه عندما أطلقت الشرطة عليه الرصاصَ أثناء تبادل إطلاق النار. أما هيرمان فيشر، أحدُ المتورطين في الجريمة الذي ألقى القنبلة اليدوية، فقد آثرَ الانتحارَ على الاعتقال. وبحلول ذلك الوقت، كان السائق الهارب، الذي يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا ويُدعى إرنست تيشو، قد أُلقي القبض عليه. وسرعان ما حُوكم تيشو كمتورِّط في عملية الاغتيال، وعلى منصة الشهود، أدلى بادعاءٍ مذهل. لقد قال إن السبب وراء إقدامه هو وزميلَيه المتواطئين على اغتيال راتينو هو أن الأخير كان من حكماء بروتوكولات صهيون.

كان راتينو قد عُيِّن وزيرًا للخارجية قبل اغتياله بستةِ أشهر فقط. كانت ثَمة حالةٌ من السخط على حكومة فايمار الجديدة الهشة حينذاك، لكن راتينو لم يكن سببًا

للانشقاق السياسي فحسب، بل كان يهوديًّا أيضًا. وسرعان ما أصبح هدفًا للنقد اللاذع والسِّباب المعادي للسامية والتهديد بالقتل. لكن الشائعات التي انطلقَت من تورطه في المؤامرة العالمية اليهودية، نشأت من جملةٍ واحدة في أحد المقالات التي كان قد كتبها قبلَ ذلك بأعوام. كتب راتينو يقول: «ثلاثمائة رجلٍ، كلٌّ منهم يعرف الآخرَ، يُوجِّهون المصائر الاقتصادية للقارة ويبحثون عن خلفائهم بين أتباعهم.» كان ينتقدُ الممارسات التِّجاريةَ الأوليجاركية التي كانت شائعةً حينذاك. ولكن بالنِّسبة لبعض ناشري البروتوكولات الألمان، عندما قال راتينو، ثلاثمائة رجلٍ، كان يقصد اليهود في واقع الأمر. فقد قالوا إن ذلك لم يكن اتهامًا للممارسات التجارية المُريبة، بل كان إشارةً ضِمنية إلى حكماء صهيون المُهابين. والأكثر من ذلك أنهم زعَموا أن الطريقة الوحيدة التي يتأتَّى بها لراتينو معرفةُ العدد المحدد لحكماء صهيون هو أن يكون واحدًا منهم. ومن ثَم كان السبب وراء ضرورة قتل راتينو، كما أوضح تيشو في محاكمته، أنه «اعترف بنفسه وتباهى بأنه كان أحدَ حكماء صهيون الثلاثمائة، الذين كان هدفهم أن يفرض اليهودُ نفوذهم وهيمنتهم على العالم بأسره.»

لم يكن راتينو الضحيةَ الأولى لكُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون». فخلال العقدَين اللذَين أعقبا نشر الكُتيب، كان قد أشعل بالفعل نيران المذابح الشنيعة المدبَّرة في روسيا التي قُتل فيها آلاف اليهود بطريقة وحشية. لكن إعدام راتينو على أيدي قوميِّين ألمانٍ مسلحين كان نذيرًا بالأسوأ القادم.

المعضلة اليهودية

بعد أن أصبح أدولف هتلر مستشارَ ألمانيا في عام ١٩٣٣، أنشأ نُصبًا تذكاريًّا لقاتلي راتينو عند المقبرة التي دُفنا فيها، وكان النُّصب حجرًا ضخمًا يحمل نقشًا يُثني على الشخصَين المتورطَين في عملية الاغتيال واصفًا إياهما بـ «طليعة المُقاتلين» من أجل القضية النازيَّة. وفي أحد المراسم التي أُقيمت عند مقبرتهما، تخليدًا لذكراهما، أغدقَ القادة النازيون عليهما مدحًا. فقد أثنى إرنست روم، قائد كتيبة العاصفة، وهي الجناح شبهُ العسكري للحزب النازي، على «العمل المجيد» الذي أنجزه القاتلان. وقد أكَّد هينريش هيملر أنه «لولا صنيعُ هذين الرجلين، لأصبحت ألمانيا اليوم ترزح تحت نِير النظام البَلْشفي.» وفي الوقت ذاته، أقدم طلاب الجامعة في جميع أنحاء ألمانيا، بمساعدةٍ من أفراد قوات العاصفة ذَوي القمصان البُنية، على حرق كمٍّ هائل من الكتب كان من بينها مؤلفاتُ راتينو التي التهمَتها ألسنةُ اللهب. في ميدان أوبرنبلاتس في مدينة برلين، احتشد ٤٠ ألفَ شخص كي يستمعوا

إلى وزير الدعاية يوزِف جوبلز وهو يُعلن قائلًا: «نشهد اليومَ نهاية حِقبة المذهب الفكري اليهودي المتطرف.»

أما هتلر فقد ضمَّن حرفيًّا سيرتَه الذاتية أوراقَ اعتماده المعادية للسامية. ففي عام ١٩٢١، تباهى هتلر، في سيرةٍ ذاتية أُرسلت إلى جهةٍ غيرِ معلومة، قائلًا: «أعتقد أنني أنحدرُ من أسرة كوزموبوليتانية؛ لقد حوَّلَتني مدرسة الواقع المؤلم إلى معادٍ للسامية في عامٍ واحدٍ على أكثر تقدير.» وفي كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون»، «سمع هتلر نداء روح العشيرة واستجاب له بكل كِيانه»، حسبما ذكر المؤرخ نورمان كون. وقد ظهرت الترجمةُ الألمانية الأولى في عام ١٩٢٠، عندما كان هتلر في مستهلِّ حياته المهنية في مجال السياسة. فقد بدأ يستشهد بالكُتيب في خطبِه بدايةً من عام ١٩٢١؛ وهو العام نفسُه الذي كُشف فيه عن زيف البروتوكولات. ويُشير كون أنه في تلك السنوات المبكرة، احتفظ هتلر بصورةٍ كبيرة لهنري فورد — أشهر أمريكي مناصرٍ لما جاء في الكُتيب — بجانب مكتبه، وكان يقول عنه «الأمريكي البطل هنري فورد.»

إعلان هتلر عام ١٩٢٤ الذي يحمل عنوان «كفاحي» يتناول باستفاضةٍ واقعَ المؤامرة اليهودية، ويُثني بسخاءٍ على كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون». كتب هتلر يقول: «لقد أوضح كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» بتفردٍ وبما لا يدعُ مجالًا للشك إلى أي مدًى يستند الوجود الكامل لهذا الشعب على كذبة مُستمرة.» ورفض المزاعم التي تصف تلك البروتوكولات بالزيف، معتبرًا تلك المزاعمَ مجرَّد دعاية يهودية؛ وهو ما اعتبره دليلًا، في واقع الأمر، على صحةِ ما وردَ بالكُتيب من معلومات برغم كل شيء. وترديدًا لكلام هنري فورد والكثيرين من المثقفين غيره حينذاك، زعم هتلر أن «أفضل نقدٍ ينطبق عليهم هو الواقع. فمن يتأمَّل التطور التاريخي خلال المائة سنةٍ الأخيرة، من منظور هذا الكتاب، سيفهم على الفور ضجيج الصحافة اليهودية.» وتابع قائلًا: «لا يُهم كثيرًا ماهيةُ العقل اليهودي الذي هو مصدر تلك الإفشاءات، المهم في الأمر هو أنها تكشف على نحوٍ مرعب وبما لا يدع مجالًا للشك طبيعةَ الشعب اليهودي ونشاطه، وتفضح ارتباطه الداخلي وأهدافه النهائية.» وبمجرد أن أصبح الشعب الألماني على درايةٍ كافية بالأسرار التي كشف عنها كتابه، اختتم هتلر قائلًا: «التهديد اليهودي يُمكن اعتباره قد اندحر بالفعل.»

وبعد انقضاء أقلَّ من عشر سنوات، كان النازيون قد هيمَنوا على ألمانيا، وسرعان ما أضافوا كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون» إلى المناهج الدراسية القومية. وقد أهابت إحدى نُسخ الحزب النازي الرسمية التي نُشرت في عام ١٩٣٣، بالقارئ أنه «واجبٌ على

كل ألماني أن يدرس التعهدَ المرعب الذي قطعه حكماءُ صهيون على أنفسهم، وأن يُقارنها ببؤسِ شعبنا الذي لا حدود له، ثم يستخلص ما يلزم من نتائج.»

وخلال صعوده إلى السلطة والحكم كفيورر (وتعني بالعربية الزعيم)، أعلنها هتلر واضحةً مرارًا وتَكرارًا أنه «كي تستعيد ألمانيا الحرية والقوة ... فإن أول شيء يتعين فعلُه هو إنقاذها من اليهود الذين يُدمرون البلاد.» وكان يُشير باستمرارٍ إلى الشعب اليهودي بعباراتٍ شنيعة وتحقيرية، على غِرار وصفهم بأنهم خُرَّاج أو فطرٌ أو وباء فئراني أو عَدْوى يجب استئصالها لسلامة الأمة. وعلى مدار ثلاثينيَّات القرن العشرين، أخذ النازيون يُجردون المواطنين اليهودَ من حقوقهم على نحوٍ متصاعد. وقد أصبح اليهود في ألمانيا «مجرد جانحين عن القانون» في وطنهم، على حدٍّ وصف المؤرخ روبرت ويستريتش.

غير أنه برغم كل حديثه عن اليهود باعتبارهم آفةً وبكتيريا، لم يعتبرهم هتلر نوعًا أدنى من البشر ينبغي تهميشُه وطرده. فقد ألهمَته المؤامرة الشيطانية الكبرى التي انطوى عليها كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون»، الاعتقاد بأن الشعب اليهودي خَصم قوي، والمقابل الميتافيزيقي للجنس الآري. فقد قيل إنه سأل أحد المقرَّبين منه: «ألم يسترعِ انتباهك كيف أن اليهوديَّ يُمثِّل المُقابلَ التامَّ للألماني في كل جانب، ومع ذلك يجمع بينهما قرابةُ الدم. ثَمة مجموعتان مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا، لكن شتان بينهما.» فبالنِّسبة إلى هتلر، كانت المعركة بين اليهود والجنس الآريِّ لا يُمكن أن تنتهيَ إلا بصراع مروعٍ. فقد قال: «في واقع الأمر، إنها معركة من أجل مصير العالم!»

واستنادًا إلى ميزة تأمُّل الأمور بعد وقوعها، كان طموح هتلر فيما يتصل بالإبادة الجماعية واضحًا وضوحَ الشمس في واحدةٍ من خُطبه الأولى التي ألقاها عند مغادرته زنزانة لاندسبيرج عام ١٩٢٥. أوضح قائلًا: «ثمة احتمالان، إما أن يسيرَ العدو فوق جثامیننا أو نسير نحن فوق جثمانه.» وفي يناير ١٩٣٩، في الذكرى السادسة لاعتلائه سدَّةَ الحكم، قدَّم هتلر رؤية تحريضية مشئومة لما هو قادم:

> خلال حياتي، كنت نبوئيًّا دائمًا، وعادةً ما كان الآخرون يسخرون من ذلك. وخلال فترة كفاحي من أجل السلطة، كان الجنس اليهودي في المقام الأول هم أول مَن استقبلوا نبوءاتي بالضحك عندما قلت إنني سأتولَّى زَعامة البلاد؛ ومن ثَم زَعامة الأمة بأكملها، ثم سأمضي بعد ذلك في تسوية المعضلة اليهودية بين أشياء أخرى سأفعلها. كان ضحكهم صاخبًا، لكنني أعتقد أنهم لن يستمرُّوا في الضحك طويلًا. فاليوم، سأكون نبوئيًّا من جديد: لو نجح الخبراء الماليُّون

> الدوليون من اليهود داخلَ وخارج أوروبا في جرِّ الأمم من جديد إلى حرب عالمية، فإنه لن يترتب على ذلك هيمنةُ البلشفية على العالم؛ ومن ثَم انتصار اليهود، بل ستكون النتيجة إبادةَ الجنس اليهودي في أوروبا.

وقد تحققَت نبوءته. فبعد مُضي ثمانية أشهر، غزا هتلر بولندا، مُشعلًا بذلك شرارةَ الحرب العالمية الثانية.

وخلال الحرب، جرى حشدُ ملايين اليهود الأوروبيِّين بطريقة ممنهجة، وأُرسلوا إلى غرف الغاز، ومع ذلك ظل هتلر والمروجون النازيون يصفون الحرب بأنها حربٌ شنَّها يهود العالم على ألمانيا. وحتى عندما وضعت الحرب أوزارها، وتداعَت برلين من حوله، أصرَّ هتلر على أنه غيرُ مَلومٍ على ما حدث. فقد زعم في بيانه السياسي الأخير، الذي صدر في صبيحة يوم ٢٩ أبريل ١٩٤٥: «غير صحيح أنني، أنا أو أي شخص آخر في ألمانيا، أردنا الحرب في عام ١٩٣٩.» وتابع قائلًا: «لم تشتعل نيران الحرب إلا برغبةٍ وتحريضٍ من جانب ساسةٍ دوليِّين ينحدرون من أصول يهودية، أو كانوا يعملون لصالح اليهود.» وفي الجملة الأخيرة من بيانه، التي حملت كلماته الأخيرة إلى الأجيال القادمة من بعده، حرَّض هتلر خُلفاءه على الاستمرار في محاربة المؤامرة اليهودية. فقد قال: «قبل كل شيء، أُحمِّل زعماء الأمة ومَن دونهم مسئوليةَ الامتثال الشديد لقوانين الجنس [الآري] والمعارضة الضارية للمُفسدين العالميِّين الذين يبثُّون سمومهم في جميع الشعوب، ألا وهم يهود العالم.»

بحلول الوقت الذي انتحر فيه هتلر في اليوم التالي، كان قد قتل ستة ملايين يهودي — ثلثي يهود أوروبا — سعيًا وراء حلِّه الأخير للمشكلة اليهودية.

بدءًا من خطاباته السياسية الأولى وصولًا إلى آخرِ ما سُجل من كلماته، كان إيمان هتلر بالمؤامرة اليهودية الأسطورية، المُتجسِّدة في بروتوكولات حكماء صهيون، هو الركيزةَ الأساسية التي استندَت عليها رؤيته للعالم وأفعاله. كتب نورمان كون يقول إن «التلفيق المنافيَ للعقل» الذي يُحاك علانيةً من أجل أن «يُخاطب جميع قُوى التدمير والتجبُّر الكامنة لدى الجنس البشري» لم يكن سوى «تصريحٍ بالإبادة الجماعية.»

تصريح بالقتل

حجم الدمار الذي خلَّفه الرايخ الثالثُ تحت قيادة هتلر لا مثيلَ له، لكن هذه لم تكن المرةَ الوحيدة التي أدَّت فيها مؤامرةٌ وهمية إلى تلك البشاعات. فهناك أندرس بريفيك،

النرويجي الذي قتل ٧٧ شخصًا في عام ٢٠١١، بينهم الكثيرون من المراهقين الذين كانوا يحضرون معسكرًا صيفيًّا سياسيًّا. فوفقًا لبيانٍ مؤلَّفٍ من ١٥٠٠ صفحة كان قد رفعه على شبكة الإنترنت قبل شنِّ هجومه بوقتٍ قصير، كان بريفيك يتوهَّم أن ثمَّة مؤامرةً إسلامية متواصلة لتدمير الحضارة الغربية. وهناك أيضًا تامرلان تسارنييف، مُفجِّر ماراثون بوسطن. وفقًا لسالي جيكوبز مراسلة صحيفة «بوسطن جلوب»، توهَّم تسارنييف أن الحكومة الأمريكية كانت تتآمرُ ضد مواطنيها، وأعطى مالكة عقاره نسخةً من كُتيب «بروتوكولات حكماء صهيون»، مُخبرًا إياها بأنه «كتاب جيد.» هناك أيضًا جاريد لوفنر، الذي فتح النار على عضوة الكونجرس جابرييل جيفوردز، وحشدٍ من الناس كانت تتحدَّث إليهم في يناير ٢٠١١، ما أصاب جيفوردز بجروحٍ بالغةٍ وأدَّى إلى مصرع ستة من الحضور. ووفقًا لفيديو نشره لوفنر على «يوتيوب»، كان يعتقد وهمًا أن «الحكومة تُسيطر على العقول وتغسل أدمغةَ الناس عن طريق التحكم في قواعد اللغة.» كذلك هناك جيمس وينيكر فون برون، وهو عُنصري أبيض قتَل حارسًا رميًا بالرصاص في متحف الهولوكوست التذكاري الأمريكي في واشنطن، وذلك في يونيو ٢٠٠٩. ووفقًا لمذكرة عُثر عليها في سيارته، ظن برون واهمًا أن «المحرقة كذبة. أوباما صناعة يهودية. أوباما يفعل ما يُمليه عليه أسيادُه اليهود. لقد استولى اليهود على الأموال الأمريكية. كما أنهم يُسيطرون على وسائل الإعلام.»

هناك أيضًا تيموثي مكفاي، أحدُ محاربي الجيش الأمريكي القدامى، الذي كان مضطربًا نفسيًّا. ففي صبيحة ١٩ أبريل ١٩٩٥، أوقف مكفاي سيارته المُستأجرة أمام مبنى ألفريد بي موراه الفيدراليِّ في مدينة أوكلاهوما. وفي حقيبة السيارة، كان قد وضع خمسة آلاف رطلٍ من المتفجرات التي أعدها بالمنزل. أشعل مكفاي الفتيل وفرَّ هاربًا. أدَّى الانفجار الهائل إلى تحويل ثلث المبنى المكون من تسعة طوابق إلى ركام، وإصابة مئات الأشخاص وقتل ١٦٨ من بينهم ١٩ طفلًا. (فإضافةً إلى مكاتب ١٤ وكالة فيدرالية، كان الطابق الثاني بالمبنى يضمُّ مركزَ رعاية نهارية.)

وعندما أُلقي القبض عليه في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، كان مكفاي يرتدي قميصًا عليه صورة أبراهام لينكولن، وأسفل منها، العبارة اللاتينية التي كان يصيح بها جون ويلكس بوث عند سحبه الزناد كي يغتال لينكولن، وهي «الموت دائمًا للطغاة». ووَفْق الصحفي لو ميشيل ودان هربربيك، الذي استضاف مكفاي في حوار مُطوَّل بينما كان ينتظر حكم الإعدام، كان مكفاي قد أصبح قلقًا على نحوٍ متزايد على الحكومة الفيدرالية

والنظام العالمي الجديد منذ أن ترك الجيش. لقد انجرف نحو الحركة الوطنية المعروفة باسم «باتريوت»؛ حيث سمع شائعاتٍ تُفيد بأن الحكومة «كانت تُخطط لهجوم كبير على مسلَّحي وأفراد مجتمع الباتريوت في ربيع عام ١٩٩٥.» وكان يتعين فعلُ شيء، على حد اعتقاده. وعن هذا، قال الكاتب جور فيدال، فإن مكفاي «أعلن الحرب على الحكومة التي كان يشعر بأنها أعلنت الحرب على مُجتمعِه.»

لقد قال إن أحد الأسباب وراء التداعي المستمر لثقة مكفاي في الحكومة الفيدرالية تلك الحوادث التي وقعَت مثل حصار واكو في تكساس. وكان يوم ١٩ أبريل — تاريخ تفجير أوكلاهوما — هو الذِّكرى الثانية للنهاية العنيفة للحصار؛ حيث كان توهَّم مكتب التحقيقات الفيدرالي أن طائفةً دينية تُدعى «الفرع الداوودي» (برانش ديفيديانز) كانت تُجمِّع أسلحةً غيرَ قانونية وتعتدي على الأطفال؛ ومن ثَم فقد شنَّ غارة على الطريقة العسكرية على المُجمع. وقد اندلع حريقٌ، مُخلِّفًا ستةً وسبعين قتيلًا من أعضاء الجماعة، من بينهم خمسةٌ وعشرون طفلًا. لم يكن الإرهابيون وحدهم هم مَن يحملون برءوسهم أوهامًا خطيرة.

ما الذي يَعنينا في كل هذا؟ حوادث كهذه مُحبطة دون جدال ويستحيل تجاهلُها، لكن هل هي تُمثِّل القاعدة أو الاستثناء؟ هل منطق أصحاب المؤامرة في التفكير مرتبطٌ جوهريًّا بالعنف والتدمير؟

في عام ٢٠١٠، أجرى جامي بارتليت وكارل ميلر، وهما باحثان في مؤسسة بحثية تُدعى «ديموس»، مسحًا للمؤلفات والبيانات والدعايات التي تخصُّ ما يَزيد على خمسين جماعة متشددة، بحيث شمل مسحهما جميع الأطياف من أقصى اليمين وأقصى اليسار، ومن الجماعات والطوائف الدينية الراديكالية، وصولًا إلى المحاربين الإيكولوجيِّين والفوضويين. شكَّلت نظرياتُ المؤامرة عنصرًا أساسيًّا في الكثير من أفكار ومعتقدات الجماعات. وقد توصَّل الباحثون إلى نتيجةٍ مفادها أن نظريات المؤامرة، في بعض الأحيان، تدفع المتشدِّدين في اتجاهٍ أكثرَ تشددًا وأكثر خطورة على الأرجح عن طريق «الإشارة إلى قوًى تتجاوز نطاق سيطرتنا، أو الإشارة إلى عدوٍّ لكراهيته، أو الفصل الحاد بين المنتمين للجماعة وغير المنتمين لها، وأحيانًا، إضفاء صفة الشرعية على العنف.» لكن الأمر لم يكن واضح المعالم تمامًا. فقد توصَّل أيضًا بارتليت وميلر إلى أن الكثير من الجماعات تُصدِّق نظريات المؤامرة دون اللجوء إلى العنف (على غِرار حركةِ حقيقة أحداث الحادي عشرَ

من سبتمبر) ولم تُصدق الكثير من الجماعات المتشددة العنيفة نظريات المؤامرة فيما يبدو (على غرار الجيش الجمهوري الأيرلندي الحقيقي، وهو قوة قومية شِبهُ عسكرية).

هذا كافٍ فيما يخصُّ الجماعاتِ المتشددةَ المنظمة. ماذا عن الأشخاص العاديِّين. في عام ٢٠١٢، طلب جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت من ١٢٠٠ أمريكي أن يُجيبوا عن استطلاع رأيٍ صُمِّم من أجل معرفةِ ما إذا كان الأشخاص الذين يُصدِّقون نظريات المؤامرة لديهم ميول ربما تدفعهم إلى العنف. كانت النتائج متضاربةً بالمثل. فمن المفارقة أنه كلما زاد تصديقُ أحدهم نظريات المؤامرة، زادت احتماليةُ تحبيذه لقوانينِ رقابة على الأسلحة أقلَّ صرامة، وقَبولُه لعبارات على غِرار «يكون العنف أحيانًا طريقةً مقبولة للتعبير عن الاختلاف مع الحكومة»، و«العنف كطريقةٍ مقبولة لمنع الجماعات السياسية المتطرفة في بلدنا من إلحاق الضرر.» ولكن الشيء المطمئن أكثر أن أغلبية الناس — حتى بين أكثرِ أصحاب نظريات المؤامرة حَميَّة — قالوا إنهم يُعارضون استخدام العنف السياسي.

إذن فيما يخصُّ حَلْقة الوصل بين نظريات المؤامرة والتطرف العنيف، ثمَّة بعض الاحتمالات المقلقة، إلى جانبِ عددٍ قليل جدًّا من الجوانب اليقينية. فليس هناك جدالٌ في أن بعضًا من نظريات المؤامرة، في ظل ظروفٍ معينة، تصبح لديها القدرةُ على دفع أشخاص معيَّنين إلى ارتكابِ فظائع، لا سيما — كما أوضح الصحفي تشيب بيرليت — عندما يعتمدون على تحاملات أو أحكام مسبقة قائمة بالفعل، ويلجَئون إلى شيطنةِ أعدائهم الضعفاء أو استخدامهم ككِباش فداء، زاعمين أنه يتعيَّن اتخاذُ إجراء عاجل. ومع ذلك، من السابق لأوانه (فضلًا عن انطواء الأمر على شيءٍ من جنون الاضطهاد) أن نتصوَّر أن هناك جحافلَ من أصحاب نظريات المؤامرة الناقمين يترصدون لنا. فتصديق نظريات المؤامرة لا يؤدي بالضرورة إلى العنف. بل على النقيض من ذلك، معظم أصحاب نظريات المؤامرة يقولون إن العنف السياسي ليس تكتيكًا مقبولًا، وأغلب مَن يقولون إنه مقبولٌ لن يتصرفوا أبدًا بناءً على آرائهم تلك. يوضح أوسينسكي وبيرانت أنه «لو فُرض أن واحدًا بالمائة من السكان أيَّدوا بشدةٍ هذا التوجُّهَ بقوةٍ تكفي لاتخاذهم إجراءً عنيفًا، لملأت الدماء الشوارع يوميًّا.»

وأعمال العنف والإرهاب المأساوية التي تتصدَّر عناوينَ الصحف تستحوذ على اهتمامنا دون شك. لكن العواقب المحتملة لتصديق نظريات المؤامرة ليست دراماتيكيةً على نحوٍ يجعلها تُثير قلقًا. فآثارها تكون خفيةً في بعض الأحيان.

خيارات مُميتة

ستيفاني ماسنجر مؤلِّفةٌ أسترالية لكتب تربوية للأطفال تنشرها على نفقتها الشخصية، ومن بينها «لا تتنمَّر على بيلي» و«زيارة سارة لمعالجٍ بالمداواة الطبيعية». في عام ٢٠١٢، نشرت ماسنجر كتابًا، ذكرَت عنه المواد الترويجية أنه «يصحب الأطفال في رحلةٍ يتعلَّمون خلالها كيف أن التطعيمات غيرُ مُجدية ويعرفون أنه لا داعيَ لأن يخافوا من أمراض الطفولة، مثل الحصبة والجُديري المائي.» وتوضح النبذة الموجودة على الغلاف الخلفي للكتاب كيف أننا أصبحنا هدفًا لرسائل تحثُّنا على الخوف من الأمراض ومن الناس الذين لديهم «مصلحة أكيدة» في بيع «لقاحٍ أو دواءٍ ما».

وقد أطلقَت ماسنجر على الكتاب «حصبة ميلاني المذهلة». لعلها استوحَت الفكرة من كتاب «دواء جورج المذهل» الذي ألَّفه الكاتب البريطاني المحبوب رُوالد دال. وهذه مُفارقة، إذا علمْنا مشاعرَ دال الشخصيةَ عن الحصبة التي كتب عنها في عام ١٩٨٦.

> أُصيبت ابنتي الكبرى أوليفيا بالحصبة عندما كانت تبلغ من العمر سبعَ سنوات. وبينما كان المرض يتخذ مسارَه المعتاد، أذكر أنني كثيرًا ما كنتُ أقرأ لها وهي في الفِراش ولم أكن أشعر بكثيرِ انزعاجٍ عليها. ثم في صبيحة أحدِ الأيام، عندما كانت تتماثلُ للشفاء، كنت أجلس على فِراشها وكنتُ أُبيِّن لها كيف تصنع حيوانات صغيرة من أسلاكٍ ملونة تُستخدَم في تنظيف الغليون، وعندما جاء دورها لتصنع حيوانًا بنفسها، لاحظت أن أصابعها وعقلها لا يعملان في انسجامٍ معًا ولم تستطِع فعل شيء.
>
> سألتها: «هل أنتِ على ما يُرام؟»
>
> قالت: «أشعر بنعاس شديد.»
>
> وفي غضون ساعة فقدَت الوعي. وخلال اثنتَي عشرة ساعة، فارقَت الحياة. فقد تحوَّلت الحصبة إلى شيءٍ فظيع يُسمونه التهاب الدماغ الفيروسي الذي تُسبِّبه الحصبة، ولم يكن بأيدي الأطباء حيلةٌ لإنقاذها.

في عام ١٩٦٢، عندما قضت الحصبةُ على حياة أوليفيا، لم يكن يتوفَّر حينها لقاحٌ. وكان الجميع تقريبًا يُصابون بالحصبة في مرحلةٍ ما من طفولتهم. كان الغالبية يتعافَون دون أي ضررٍ مُستديم، لكن المرض كان يفتك بقرابة ١٠٠ طفلٍ في المملكة المتحدة وأكثر

من ٤٠٠ في أمريكا كلَّ عام، وكان يُودَع بسببه عشراتُ الآلاف غيرُهم في المستشفيات، ويؤدي إلى إصابة البعض بالعمى وآخَرين بالتلف الدماغي. وعندما أُجيز استخدام لقاح في الولايات المتحدة بعد انقضاء عامٍ، أي في عام ١٩٦٣، هبط عدد الأشخاص الذين أُصيبوا بالحصبة بنسبة ٩٨٪. وقد اختتم دال كلامه قائلًا: «أعتقد أن الآباء الذين يرفضون الآن تطعيمَ أطفالهم يُعرِّضون حياتهم للخطر.»

لحسن الحظ، لدينا الآن لقاحٌ لا يقي من الحصبة فحسب، بل يوفِّر الوقايةَ كذلك من التهاب الغدة النكفية والحصبة الألمانية: التطعيم الثلاثي ضد الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية. وفق تقديراتِ منظمة الصحة العالمية، أنقذ التطعيمُ ضد الحصبة في المدَّة ما بين عامَي ٢٠٠٠ و٢٠١٣، أكثرَ من ١٥ مليون شخصٍ حول العالم. لكن، لسوء الحظ، منذ أواخر تسعينيَّات القرن العشرين، كان التطعيم الثلاثي ضد الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية مثارَ جدلٍ محتدم وخوفٍ شديد، يستند إلى فكرٍ مؤامراتي خفي في كثيرٍ من الأحيان.

بدأت المشكلة مع التطعيم الثلاثي في المملكة المتحدة. فعندما طُرح اللقاح للمرة الأولى عام ١٩٨٨، حقَّق نجاحًا على الفور. ففي العام الأول، أخذ التطعيمَ مليونُ طفل. وخلال الأعوام العشرة التالية، ظلَّت نسبة تناول اللقاح أكثرَ من ٩٠٪. ثم في عام ١٩٩٨، نشر طبيبٌ يُدعى أندرو ويكفيلد، بالتعاون مع فريق من الزملاء، دراسةً أثارت الجدل. في تلك الدراسة، التي نشرتها دوريةٌ طبية رائدة هي «ذا لانسيت»، زعم ويكفيلد وزملاؤه أنهم اكتشفوا فيروس الحصبة في أمعاء عددٍ من أطفال التوحُّد. وتكهنت الدراسة بأن التطعيم الثلاثي ربما لعب دورًا في إصابة الأطفال بالتوحد، لكنها أوضحت أن النتائج غيرُ كافية لإثبات تلك العلاقة. ورغم ذلك، نقل ويكفيلد هذه النتائج مباشرةً إلى وسائل الإعلام. ففي مؤتمر صحفي عُقد قبل نشر الدراسة بيومٍ واحد — وقد رفض العديد من الباحثين المشاركين في الدراسة الحضور — زعم ويكفيلد أن الخطر الذي يُشكِّله التطعيم الثلاثي هائلٌ بحيث يتعيَّن سحبُ اللقاح على الفور، كما يتعيَّن أن تُعطى جرعاتٌ مُستقلة لكلٍّ من الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية؛ بحيث يفصل كلًّا منها عن الأخرى عامٌ بدلًا من ذلك. (جديرٌ بالذكر أن ويكفيلد نفسَه، لم يُعارض التطعيم مطلقًا؛ في الواقع، كان يُصر على أن اللقاحات جزءٌ لا غِنَى عنه في الرعاية الصحية؛ كلُّ ما هنالك أنه واصل زعمه أن التطعيم الثلاثي له علاقة بالتوحُّد.)

من المعلوم أن الآباء القلقين يتأثَّرون بوسائل الإعلام، وليس هناك دليلٌ أفضل على ذلك من الفزع الذي أعقب إعلانَ ويكفيلد المزعج. كان الاهتمام بالخبر بسيطًا في البداية. ففي عام ١٩٩٨، وهو العام الذي عُقد فيه مؤتمر ويكفيلد الصحفي، نقل عدد من وكالات الأنباء ادِّعاءه، وبدأت معدلات أخذ اللقاح في التراجع على نحوٍ طفيف. لكنه بحلول عام ٢٠٠١، بدأ الخبر ينتشر ويؤثِّر. فعلى مدار عدة سنوات، حَظِيَت الفكرة القائلة بأن التطعيم الثلاثي يؤدي إلى الإصابة بالتوحُّد بتغطيةٍ إعلامية في وسائل الإعلام البريطانية أكثرَ من أي خبرٍ عِلمي آخر. وعندما بلغت التغطيةُ المثيرة للهلع ذِروتَها في المدة ما بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٣، تراجعت معدلات تناول اللقاح لتصل إلى ٨٠٪. وفي بعض المناطق من البلاد، لا سيما في جهات من لندن، انخفضت معدلاتُ التطعيم بشدة.

وقد أدَّى تراجعُ معدلات التطعيم إلى نوباتِ تفشٍّ للأمراض التي يقي منها اللقاح. وقد ظهرَت نوبة التفشِّي الأولى في دبلن عام ٢٠٠٠؛ حيث كانت معدلات التطعيم أقلَّ بالفعل من معدلاته في لندن. وقد أُبلغ عن قرابة ١٦٠٠ حالة إصابة بالحصبة. وأُدخِل أكثر من ١٠٠ طفل المُستشفيات بسبب مضاعفات خطيرة، وتُوفِّي ثلاثة منهم. وقد تُوفِّي صبيٌّ يبلغ من العمر ١٣ عامًا في إنجلترا وذلك في عام ٢٠٠٦، ليصبح بذلك أولَ شخص يموت بسبب الحصبة في إنجلترا منذ عام ١٩٩٤. وفي عام ٢٠٠٨، أُعلنت الحصبة وباءً في المملكة المتحدة للمرة الأولى خلال ١٤ عامًا. وفي عام ٢٠١٢، ظهر أكثرُ من ٢٠٠٠ حالة إصابة بالحصبة في إنجلترا وويلز؛ التأثير الأكبر طال أطفالًا ومراهقين كان آباؤهم قد رفَضوا التطعيم الثلاثي قبل ذلك بسنوات. وفي عام ٢٠١٣، ظهرت نوبةُ تفشٍّ أخرى في ويلز؛ حيث أُصيب أكثر من ١٠٠٠ شخص، أُودع المستشفى على أثرها ٨٨ شخصًا وتُوفِّي بسببها رجلٌ يبلغ من العمر ٢٥ عامًا.

وفي عام ٢٠٠٤، تبيَّن أن كل الجدل الدائر حول تسبُّب التطعيم الثلاثي في التوحُّد كان قائمًا على كذبة. فقد كشف المحقِّق الصحفي براين دير أدلةً تُفيد بأنه قبل بدء ويكفيلد دراسته البحثية، كان قد شارك في طلب الحصول على براءة اختراع لبديلٍ زُعم أنه أكثرُ أمانًا من لقاح التطعيم الثلاثي. كما أنه كان قد حصل أيضًا على مبلغ مالي في حدود نصف مليون جنيه من شركة محاماةٍ متخصصة في مجال الضرر الشخصي من أجل إجراء الدراسة البحثية، وكانت شركة المحاماة ذاتها قد أحالت إلى ويكفيلد آباءً اعتقدوا أن أطفالهم قد أُضيروا بسبب اللقاح، بحيث يُمكنه الاستعانة بهؤلاء الأطفال في دراسته. لكن عدم إعلان ويكفيلد عن تعارض المصالح كان أقلَّ إساءةٍ فعلَها. فقد اكتشف دير

أن الدراسة التي تضمنَت إخضاع الأطفال الذين يُعانون تأخُّرًا في النمو لإجراءات طبية جراحية، لم تكن قد حصلت على إجازة أخلاقية. وأخيرًا، اتضح أن ويكفيلد ربما يكون قد تلاعب بعناصرَ من التاريخ المرَضي للأطفال بما ينسجم مع نظرية التوحُّد الناتج عن التطعيم الثلاثي، وقد أشار أحد زملاء ويكفيلد في العمل إلى أن الأخير قد نقل، رغم علمه، نتائجَ اختباراتٍ غير صحيحة. وفي نهاية المطاف، سُحبت الدراسة، كما سُحبت رخصةُ ممارسة الطب في المملكة المتحدة من ويكفيلد.

أرى أنه من العدل أن نقول إن هذا كلَّه أمرٌ سيِّئ، لكن لا يتعيَّن علينا بالضرورة أن نرفض الافتراض القائل بأن التطعيم الثلاثي يتسبَّب بدرجةٍ ما أو بأخرى في التوحُّد على أساسِ سلوك ويكفيلد وحده. فمنذ أن نُشرت دراسته، اكتشفت عشَرات الدراسات الكبيرة المستقلة التي أُجريت بشكلٍ جيد وشملَت مئات الآلاف من الأطفال في أنحاء قاراتٍ عديدة أنه ليس هناك علاقةٌ من أي نوعٍ بين لقاح التطعيم الثلاثي والتوحُّد. وقد أوضح بول أوفيت، طبيب الأطفال واختصاصي علم المناعة، أننا ما زلنا لا ندري على سبيل اليقين ما هي بالضبط العواملُ التي تُسبِّب التوحد، لكننا يُمكننا أن نقول حاليًّا بقدر كبير من التأكد إن اللقاحات يُمكن شطبها من قائمة العوامل المُشتبَه بها.

وبالرغم من نزعِ الثقة من دراسة ويكفيلد تمامًا، وبالرغم من وجاهة الأدلة المعارضة لمزاعِمه، لا تزال هناك مخاوفُ من التطعيم الثلاثي في بريطانيا وغيرها من دول العالم. فلم يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا حتى عبَر الفزعُ من التطعيم الثلاثي المحيطَ الأطلسي، حيث تبنَّى مشاهيرُ أمثال جيني مكارثي وصديقها جيم كاري قضية مناهضة التطعيم. وبمرور الوقت، تطورت المزاعم وأفرزَت مخاوفَ أخرى. وكان من بين الشواغل في الولايات المتحدة وجودُ مادة حافظة معتمِدة على الزئبق، وهي مادة ثيمْيروسال، في لقاحات متنوعة، وقد اعتبر بعضُ النشطاء المناهضين للقاح هذه المادةَ المسئولة عن زيادة شيوع التوحد. (أظهرت الدراسات أن هذا الزعم خطأٌ كذلك.) بالنِّسبة إلى الكثيرين من الآباء القلقين، فقد ألقى الجدلُ بظلالٍ من الشكِّ والرِّيبة على الجدول الزمني للقاح بكامله. فوفقًا لدراسة أُجريت عام ٢٠٠٩، رفض أكثرُ من واحدٍ بين كل ١٠ آباء أمريكيين لقاحًا واحدًا على الأقل أُوصي به لطفلهم، وضِعف عدد الآباء اختاروا تأجيل جرعاتٍ معينة، تاركين طفلَهم بلا حماية وقتًا أطول.

ويظل ويكفيلد رمزًا استقطابيًّا، أو بعبارة أخرى: بطلًا في نظر البعض ومحتالًا خطيرًا في نظرِ آخَرين. وقد وصفت مقالةٌ حديثة كُتبت في أعقاب نوبة تفشٍّ للحصبة

بدأت في ديزني لاند في ولاية كاليفورنيا في ديسمبر ٢٠١٤، ويكفيلد بأنه «رائد الحركة المناهضة للقاحات». ومع ذلك، فإن المخاوف التي لا سندَ لها تسبق أندرو ويكفيلد. في الواقع، لم تكن هذه المرة الأولى التي يذهب فيها طبيبٌ بريطاني إلى وسائل الإعلام بمزاعمَ مُختلَقة حول أضرارٍ ترتبط باللقاحات. فقد وقع حادثٌ مشابهٌ وشديد الغرابة قبل ويكفيلد ببضعة عقود.

نوبات السُّعال التي لا يُمكن السيطرة عليها هي أكثر أعراض السعال الديكي شيوعًا. فبسبب الضيقِ الذي يحدث في الحلق، فإن المشقة التي يجدها المرء ليأخذ نفَسًا ينجم عنها في بعض الأحيان صوتٌ عالٍ يُشبه صياح الديكة، وهذا هو السبب وراء تسميته بهذا الاسم. ويمكن أن يكون السعال شديدًا بما يكفي لإحداث نزيفٍ في مُقلتَي العينين، وكسرٍ في الضلوع والفتوق. وفي الحالات الحادة، يمكن أن يستمرَّ السعال مدةً تصل إلى أربعة أشهر، مؤديًا في بعض الأحيان إلى سوء التغذية وفقدان البصر أو حاسة السمع أو تلف الدماغ. لكن السعال الديكي أشدُّ خطرًا على الأطفال. فالأطفال لا يصدر عنهم صوتُ الصياح، وبدلًا من ذلك، يعجزون عن التنفس، وأحيانًا يزرقُّ لونُهم ويموتون في هدوء. وفق تقديرات منظمة الصحة العالمية، فإن ٢٠٠ ألف شخص تقريبًا يموتون كلَّ عام بسبب السعال الديكي في أنحاء العالم، وأغلب هؤلاء من الأطفال الصغار في الدول النامية.

ولحسن الحظ، فإن لدينا لقاحًا لا يحمي من السعال الديكي فحسب، بل يحمي أيضًا من الدفتيريا والتيتانوس؛ وهو اللقاح الثلاثي البكتيري (دي بي تي). لكن، للأسف الشديد، في سبعينيَّات وثمانينيات القرن العشرين، أصبح هذا اللقاح مثارَ جدلٍ محتدم وخوفٍ شديد، استند جانبٌ كبيرٌ منهما على نظريات المؤامرة.

ففي عام ١٩٧٣، قدَّم طبيب بريطاني يُدعى جون ويلسون عرضًا في مؤتمر أكاديمي زعم فيه أن مكوِّن السعال الديكي في اللقاح الثلاثي البكتيري كان يُسبِّب نوبات صرعٍ وتلف دماغي لدى الأطفال. استندت الدراسة البحثية إلى عدد صغير من الأطفال، وقد تبيَّن بعدها أنه حدث خطأٌ في تشخيص حالات الأطفال وأن البعض منهم لم يتلقَّ أصلًا اللقاح الثلاثي البكتيري. وبرغم ذلك، نقل ويلسون نتائجه إلى وسائل الإعلام، وظهر على شاشة التليفزيون وقتَ ذروة المشاهدة في برنامجٍ عرَض صورًا مُفزعة لأطفال مرضى، وزعم أن مئات الأطفال البريطانيين يعانون تلفًا دماغيًّا كلَّ عام نتيجةً للقاح الثلاثي البكتيري. وقد

تراجع معدل تناول اللقاح الثلاثي البكتيري من نحو ٨٠٪ في بداية العقد إلى ٣١٪ فقط بحلول عام ١٩٧٨. وقد أعقبت ذلك جائحةُ السعال الديكي خلال عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩؛ حيث أُبلغ عن مئات الآلاف من الحالات المصابة بالسعال الديكي في إنجلترا وويلز. ووفق التقديرات، لقي نحوُ ٦٠٠ طفل حتفه في تلك الجائحة.

وبالرغم من مثالب نظرية ويلسون، وأيضًا العدد المتنامي من الدراسات التي صرَّحَت بأنه لا توجد أدلةٌ على العلاقة المزعومة بين اللقاح الثلاثي البكتيري والتلف الدماغي، وصل الخوف بحلول أوائل الثمانينيات من القرن العشرين إلى أمريكا. وفي فيلم وثائقي عُرض عام ١٩٨٢ تحت اسم «دي بي تي: مقامرة اللقاحات» على شاشة التليفزيون الأمريكي. ومثلما عُرض في البرنامج البريطاني، كان الفيلم مليئًا بالمشاهد المؤثرة لأطفالٍ زُعم أنهم أُضيروا بسبب اللقاح الثلاثي البكتيري. وقد وارَت الحكومةُ أو تجاهلت الضرر وكذلك فعلَت المؤسسة الطبية؛ على حدِّ زعم الفيلم الوثائقي. صحيح أن الفيلم لم يطلب من الآباء بشكلٍ مباشر التوقُّفَ عن تطعيم أطفالهم، لكن الرسالة الضمنية كانت واضحة.

شاهدت إحدى الأمهات وتُدعى باربرا لو فيشر، فيلم «مقامرة اللقاحات»، وأصبحت تعتقد أن ابنها أُضير بسبب اللقاح الثلاثي البكتيري. وقد أسَّست فيشر بالتعاون مع آباءٍ آخَرين اعتقدوا أن أطفالهم أُضيروا بسبب اللقاحات جمعيةً أطلقت على نفسها اسم «الآباء الساخطون معًا». ولا تزال الجمعية قائمةً إلى الآن، لكن تغيَّر اسْمها ليصبح «المركز الوطني للمعلومات حول اللقاحات». وقد عكس التغيير في الاسم حقيقة أن عدم ثقتهم باللقاحات قد اتسعَ نطاقها بما يتجاوز اللقاح الثلاثي البكتيري. وبمرور السنين، شكَّكت جمعية فيشر وجمعياتٌ أخرى مشابهةٌ في أمانِ وفعالية كلِّ لقاحٍ تقريبًا يُتداول استخدامه.

هذا يُعيدنا إلى حيث بدأنا. احتوت طبعة ٢ مايو ١٩٩٨ من دورية «ذا لانسيت» على خطابٍ إلى المحرِّر بقلم باربرا لو فيشر ذاتها. فقد أشارت إلى مقالةٍ نقدية لدراسة أندرو ويكفيلد باعتبارها «ضربة استباقيَّة من قِبَل واضعي سياسات اللقاحات الأمريكيين.» وفي إيماءةٍ إلى الدوافع الشنيعة، كتبت فيشر تقول: «لعله من المفهوم أن مسئولي الصحة يسحبون ثقتهم من الأبحاث السريرية المُستجِدَّة في مجال الآلية البيولوجية للمشكلات الصحية ذات الصلة باللقاحات عندما رفَضوا بتصميمٍ إجراءَ هذا النوع من الأبحاث العلمية الأساسية بأنفسهم.» وقد منح مركز فيشر الوطني للمعلومات حول اللقاحات جائزة «الشجاعة في مجال العلم» في وقت لاحق لأندرو ويكفيلد.

لذا فإن الجائحة الحالية للخوف من التطعيم الثلاثي ما هي بصورة أو بأخرى سوى امتدادٍ للقلق من اللقاحات الذي تفاقم في سبعينيَّات القرن العشرين. في الواقع، أصبح الناس قلقين من أمان اللقاحات ودوافع مُصنعيها وبائعيها منذ اكتشاف أول لقاح على الإطلاق.

الجدل حول لقاح الجُدري

من الأعراض الشائعة لمرض الجُدري الرائحة الكريهة والبثور المؤلمة بشدةٍ والمليئة بالقيح في جميع أجزاء الوجه والجسم. والقرحات التي تنفتح داخل الفم تصبُّ جسيمات فيروسية في الفم والحلق، ما يعني أن المرض مُعدٍ بشدة؛ حيث ينتشر بالسعال والعطس، بل وحتى الكلام. وقد لقي واحدٌ بين كل ثلاثة أشخاص بالِغينَ مصابين بالعدوى حتفهم، وأربعة من بين كل خمسة أطفال. أما الذين نجَوا من المرض فكثيرًا ما أصبحوا مشوَّهين أو، وهو الأسوأ، أُصيب الكثيرون منهم بالعمى وأُجهضت الحوامل وحدث تأخرٌ في نمو الأطفال.

فتك الجدري بأناسٍ أكثرَ من أي مرضٍ آخر على الإطلاق في التاريخ. ففي عام ١٩٦٧، قتل الجدري ما يُقدَّر بمليونَي شخص حول العالم في ذاك العام وحده. وقد شكَّل الفيروس مجرى التاريخ. فقد حدثت انتصاراتٌ وهزائمُ في المعارك والحروب بسبب نوبات تفشي الجدري. وفتك بملوك وحكام. كما ساعد في تمهيد الطريق أمام استعمار الأمريكتَين الشمالية والجنوبية من قِبل المستوطنين الأوروبيين بقتل ملايين السكان الأصليين.

لحسن الحظ أنك لن تُصاب بالجدري. فقد استُؤصل المرض من البرِّية بفضل اكتشافِ أول لقاح في العالم منذ قرنين من الزمان. لكن الممارسات الجديدة في التطعيم أدَّت إلى القلق من اللقاح وإلى حشدِ حركاتٍ مناوِئة للقاحات لا تزال قائمةً حتى يومنا هذا.

اكتشف إدوارد جينر اللقاح. كان جينر رجلًا ريفيًّا إنجليزيًّا كلاسيكيًّا غريبَ الأطوار بعض الشيء، ينتمي إلى القرن الثامنَ عشر. كان مهتمًّا نوعًا ما بأشياءَ من قبيل جمع الحفريات والطيران في مناطيد الهواء الساخن وزراعة خَضراوات ذات أحجام أكبر من المعتاد. وقد ازداد اهتمامه بالجدري عندما كان يُغازل إحدى حالبات الأبقار في ظهيرة أحد الأيام، وعلم منها الاعتقاد الشعبي بأن الإصابة بجدري البقر، وهو مرض كان يُسبب بثورًا في ضروع الأبقار، كانت تقي على ما يبدو حالباتِ الأبقار وغيرها من عمال المزارع من الإصابة بالجدري. كان جدري البقر يُسبِّب للإنسان بضعَ بثور غير ضارة على اليدَين،

لكنه يُكسبه على ما يبدو مناعةً مدى الحياة ضدَّ مرض الجدري. قرَّر جينر اختبار مدى صحة هذا الاعتقاد الشعبي. فبدأ بتعريض ١٥ عاملًا من عمال المزارع الذين عانَوا في السابق من جدري البقر لفيروس الجدري البشري. ولم يُصَب أيٌّ منهم. بعد ذلك، وتحديدًا في عام ١٧٩٦، أجرى أجرأ تجرِبةٍ أُجريت حتى الآن. فقد أصاب صبيًّا صغيرًا بعدوى جدري البقر ثم عرَّضه للجدري البشري. لم يمرض الطفل. أطلق جينر على هذا الإجراء، vaccination وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية vaccinae ومعناها «من البقر» ونشر نتائجه عام ١٧٩٨. وبحلول عام ١٨٢٠، حصل ملايينُ الناس في بريطانيا وأوروبا والولايات المتحدة على التطعيم، وانخفض عددُ الأشخاص الذين يموتون بسبب الجدري إلى النصف.

لكن هذا الإنجاز لم يبهر الجميع. فسرعان ما ظهر معارضون في بقاعٍ شتَّى للقاح. وكانت الاعتراضات على اللقاح تستند إلى أسسٍ دينية؛ فقد زُعم أن تطعيم المرء نفسَه اعتراضٌ على المشيئة الإلهية. واعترض آخرون استنادًا إلى حججٍ اقتصادية، أو لمجرد تأفُّفِهم من حقيقة أن اللقاح مشتقٌّ من أبقارٍ مريضة، إضافة إلى عدم وثوقهم في الأطباء الذين يُعطون هذا اللقاح. بحلول عام ١٨٠٠، اضطُرَّ جينر إلى الدفاع عن لقاحه من المنتقصين من أهميته، فكتب يقول: «المساعي الواهية من قِبَل قلةٍ قليلة من أجل التحقير من شأن الإجراء الجديد سرعان ما ستُصبح مثارَ ازدراء.» لكن تفاؤله لم يكن في محله.

تعود جذورُ الحركات الأولى المناوئة للقاحات والمُنظمة بحقٍّ إلى قوانين التطعيم الإجباري التي أقرَّها البرلمان البريطاني في خمسينيَّات وستينيَّات القرن التاسع عشر. فالقانون الأول، الذي طُرح في عام ١٨٥٣، هدَّد الآباءَ الذين لم يتناول أطفالُهم اللقاحَ بالغرامات المالية والسجن. وقد حظي القانونُ في البداية بقَبولٍ كبير، ويرجع السبب الرئيس في ذلك إلى جائحةٍ شديدة السوء اكتسحت إنجلترا قبل إصدار القانون بعامٍ، لكن معدلات التطعيم انخفضت من جديد عندما أدرك الناسُ أن القانون لم يُفرض تنفيذُه ببساطة. فأجاز البرلمان قانونًا أكثرَ صرامة في عام ١٨٦٧. وكردةِ فعل على هذَين القانونين، تشكَّلت أولى الحركات المنظمة المناوئة للتطعيم. فقد زعم منتقدو اللقاح أنه عديمُ الجدوى في أفضل الحالات، وأنه تدليسٌ أو سمٌّ في أسوَئها. وبحلول عام ١٩٠٠، ظهر قرابة ٢٠٠ جماعةٍ مناوئة للتطعيم في أنحاء إنجلترا. وأعقبَتها الولايات المتحدة فقد بدأت الجمعيات الأمريكية المناوئة للتطعيم في الظهور على الساحة في سبعينيَّات القرن التاسع عشر.

في عام ١٨٩٨، حقَّق منتقدو اللقاح الإنجليز نصرًا. فقد أذعنت لهم الحكومةُ البريطانية؛ إذ أقرَّت قانونًا سمح للمعارضين الواعين المزعومين أن يختاروا عدم تطعيم أطفالهم. وقد جرى تسهيل الحصول على شهادات الاعتراض في عام ١٩٠٧. ومن ثَم شهدت معدلات التطعيم انخفاضًا، وارتفعت نوباتُ تفشِّي الجدري من جديد في أنحاء إنجلترا. وفي اسكتلندا وأيرلندا المجاورتَين؛ حيث لم تكن الحركات المناوئة للتطعيم اكتسبت القدرَ نفسَه من التأثير بعد، استمر قَبول التطعيم واستمرت معدلات الجدري في الانخفاض.

إذن فالقلق من اللقاح كان أحدَ الأعراض الجانبية للَّقاح الأول ذاتِه، ولم تنجلِ الأعراض تمامًا قط. ولعل الشيء اللافتَ بشأن الانزعاج الطويلِ الأمد من اللقاحات هو مدى ضآلة التغيير الذي طال الحجج الجدلية المطروحة على مر القرون. فقد ابتكر منتقدو جينر رسومًا كارتونية منمقة تُصوِّر الأطباء وحوشًا عديمةَ المشاعر، عازمةً على التضحية بالأطفال الأبرياء العديمي الحيلة. وكتب المناوئون للقاحاتِ في القرن الحادي والعشرين منشورات في مدوناتٍ حملت عناوينَ كثيرةً على غرار «الأطباء يريدون نفوذًا من أجل قتل الأطفال الأبرياء.» وزعم نشطاءُ القرن التاسع عشر أن لقاح الجدري احتوى على «سمِّ الأفاعي ودماء وأحشاء وإفرازات الخفافيش والضفادع والجِراء»، ودافعوا عن حقِّهم في أن يبقَوا «أنقياء وغير مُلوَّثين». أما حركة «اللقاحات الخضراء» الحديثة فلم يبلغ بها الحدُّ لتقول إن اللقاحات تحتوي على أحشاء، لكنها لا تزال ترى أن اللقاحات تحتوي على سموم بما يشمل مذيبًا لمنع التجمُّد وطاردًا للحشرات ومُبيدًا للنُّطف. وقد أوضح بول أوفيت أن المخاوفَ الحاليَّة من مسألة أن التطعيم الثلاثي يُسبِّب بطريقةٍ أو بأخرى التوحُّد هي منطقيةٌ بالقدْرِ نفسِه تقريبًا، من الناحية البيولوجية، مثل منطقية الزعم الذي جرى تداوله كثيرًا في أوائل العقد الأول من القرن التاسع عشر، الذي كان ينادي أصحابه بأن لقاح الجدري يؤدي إلى نمو قرون لدى مَن يتلقَّونه، ويجعلهم يسيرون على أربعٍ ويخورون كما تخور الأبقار.

وخلال كل ذلك، ظهرت نظرياتٌ تزعم أن مؤامرةً دولية كبيرة للتهويل من مخاطرِ الأمراض التي تُعالجها تلك اللقاحات، ولإخفاء حقيقة الأعراض الجانبية للقاحات، ولضمانِ تحقيق الشركات الدوائية الكبرى والحكومة أرباحًا. وقد كتب أحدُ النشطاء البريطانيين في القرن التاسع عشر عن الجدري يقول: «هذا الرعب من العدوى مختلَق، يُعززه الأطباء، إن لم يكونوا هم مَن صنعوه من الأساس، كوسيلة لتعزيز أهميتهم وإحكام قبضتهم على

الأمة التي لطالما كانت عديمةَ الحيلة وبلا حَراكٍ في قبضتهم.» وبعد انقضاء أكثرَ من قرن، وصفت باربرا لو فيشر لقاح فيروس الورم الحليمي البشري بأنه «أحد أكبر خُطط تحقيق الأرباح المادية في تاريخ الطب.»

في بعض أنحاء العالم، دفعت المخاوف المؤامراتية بشأن اللقاحات إلى تدابيرَ أكثرَ شدةً من مجرَّد اختيار عدم تلقي التطعيمات. ففي أجزاء من باكستان، انتقد الزعماء الدينيون المحليون التطعيمات معتبِرين إياها خطةً أمريكية لإصابة المسلمين بالعقم. ووفقًا لهيئة الإذاعة البريطانية، قُتل أكثر من ٦٠ شخصًا من العاملين في مجال التطعيم ضد شلل الأطفال أو سائقيهم أو حرَّاسهم في باكستان منذ عام ٢٠١٢. (تجدر الإشارة إلى أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية عزَّزَت دون قصدٍ من عدم الثقة من خلال

تأسيسها برنامجَ تطعيمٍ زائفًا في أبوت آباد في عام ٢٠١١، كجزء من سعيها للتأكد من مكانِ وجودِ أسامة بن لادن عن طريق تكليف موظَّفي اللقاحات سرًّا بأن يجمعوا عينات الحمض النووي من أفراد أسرة أسامة بن لادن. وعندما انكشفت هذه الخطة التي غاب عنها المنطق، وضعَت جميع العاملين في مجال التطعيمات في البلاد موضعَ اشتباه.) وقد حدثت عمليات قتل مشابهة للعاملين في مجال تطعيماتِ شلل الأطفال في نيجيريا. وليس من قبيل الصدفة، أن باكستان ونيجيريا هما اثنان من ثلاثة بلدان فقط على مستوى العالم لا يزال شللُ الأطفال يُشكِّل وباءً مُتوطِّنًا فيها.

بطبيعة الحال، ليس جميع الآباء الذين لديهم أطفالٌ لا يتلقَّون التطعيمات أصحابَ نظريات مؤامرة جامحين. فبعض الأطفال الذين لا يتلقَّون التطعيمات قد لا يزالون صغارًا في السن بدرجةٍ لا تسمح لهم بتناولها. وآخرون لديهم أسبابٌ مَرَضية تمنعهم تمامًا من تلقي تلك التطعيمات. وكثير من الآباء الذين لا يلتزمون بالجدول الزمنيِّ الموصى به للتطعيمات يفعلون ذلك، ليس بسبب الخوف من مؤامرة الشركات الدوائية الكبرى، ولكن بسببِ قلةِ ما لديهم من وقتٍ ومالٍ للذَّهاب إلى الطبيب، وبسبب أنهم سقطوا سهوًا من قوائمِ نظام الرعاية الصحية. هؤلاء هم الأطفال الذين يعتمدون على مَناعة القطيع؛ وهي الحماية التي تُكتسَب من مناعةِ معظمِ المحيطين بنا ضدَّ المرض. أما الآباء الذين يؤثِرون عدم تطعيم أطفالهم عن عمدٍ فهُم لا يُعرضون أطفالهم للخطر فحسب، بل يعرضون أطفال الآخرين لذلك أيضًا.

ورغم ذلك، ربما يكون من الخطأ شيطنةُ الآباء الذين يُؤثِرون عدم تلقي أطفالهم اللقاحات. فهؤلاء الآباء يملكون الوعيَ والحنان والاهتمام والنوايا الطيبة ويتمتعون بقدرٍ جيد من التعليم والاطلاع في أغلب الأحيان. وبسبب قلةٍ صغيرة ومفوَّهة في الوقت ذاتِه من المناوئين للقاحات، أصبحت شبكة الإنترنت تعجُّ بالمعلومات المضلِّلة المستندة إلى أفكارٍ مؤامراتية تُحرِّضنا على عدم الوثوق باللقاحات. ومما زاد الطين بِلة، أن وسائل الإعلام كثيرًا ما تُصوِّر الجدل بشيء من التحيُّز وغياب الحيادية. فقد سمع أغلب الآباء بالمزاعم المتعلقة بالتوحُّد واللقاحات، ووفقًا لدراسة حديثة، فإن مجرد القراءة عن نظريات المؤامرة المناوئة للتطعيمات يمكن أن يُقلل من رغبة الآباء في تطعيم أطفالهم. (سوف نتحدَّث بمزيدٍ من التفصيل لما يُسهِّل على الآباء القلقين تصديقَ المزاعم القائلة بأن اللقاحات قد تسبِّب ضررًا، وذلك في الفصل الثامن.)

العِلم واضح: اللقاحات لا تُسبِّب التوحُّد. لكن نظريات المؤامرة تُقوِّض ثقتَنا في العِلم، مطلقةً العِنان للجدل بأن يستمرَّ طويلًا حتى بعد حسمِ جميع الأمور.

محارَبةُ طواحين الهواء

إذن يترتَّب على نظريات المؤامرة حصدٌ لكثير من الأرواح. ففي حالة التطرفِ العنيف، يمكن أن تستغلَّ نظريات المؤامرة أسوأَ ما فينا من تحيُّزات وتحاملات؛ وفي حالة الخوف من اللقاحات، يمكن أن تلعب نظريات المؤامرة على وتر رغبتنا في حماية أحبائنا وأعزِّ مَن نملك. لكن قبل أن نفرَّ هاربين للنجاة بأنفسنا، تجدر الإشارة إلى أن معظم نظريات المؤامرة مصنوعةٌ من مادة أقل إحراقًا. فعندما يعتقد الناس أن اليهود منخرطون في مؤامرةٍ مُروعة، أو أن اللقاحات التي تنقذ الأرواح هي سمٌّ، فالأمرُ يكون مقلقًا. وعندما يعتقدون أن إلفيس لا يزال على قيد الحياة وبصحة جيدة ويعيش في كالامازو بولاية ميشيجان، فالأرجح أن الأمر لا يضطرُّنا إلى التفكير طويلًا بشأنه.

وبرغم ذلك، حتى الأفكار التي تبدو أكثرَ براءةً قد يكون لها عواقبُ سيئة. ففي عام ١٩٩٥، أجرى ثلاثة من اختصاصيِّي علم النفس بجامعة ستانفورد تحت إشراف ليزا باتلر حواراتٍ مع الناس قبل مشاهدتهم فيلم «جون إف كينيدي» (جيه إف كيه) للمخرج أوليفر ستون — وهو الفيلم المشحون بالمؤامراتية وقد عُرض في عام ١٩٩١ — وبعد مشاهدتهم الفيلم مباشرة. ومقارنةً بآراء الناس قبل مشاهدة الفيلم، قال الناس بعد مشاهدتهم الفيلم إنهم لن يُصوِّتوا على الأرجح في الانتخابات المقبلة، وإنهم لن يتبرَّعوا أو يتطوعوا لأي حملات سياسية. فمجرد مشاهدتهم الفيلم أفقدهم، على الأقل مؤقتًا، شيئًا من إيمانهم بالمشاركة المجتمعية.

وقد أجرى جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت مؤخرًا دراسةً عن الأمريكيِّين بعد الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٢ بفترة قصيرة. وتوصَّلا إلى أنه كلما زاد تصديقُ المرء لنظريات المؤامرة، قلَّت احتمالات تصويته في الانتخابات. كما أنه يصبح أقلَّ رغبةً في تعليق لافتات سياسية أو حضور مؤتمرات أو التطوع لصالح أحد المرشحين أو التبرع بالمال أو الترشُّح لمنصبٍ سياسي. (هؤلاء الذين يُصدِّقون نظريات المؤامرة تزداد احتمالية تصديقهم التلاعبَ في نتائج الانتخابات.)

ويوضح أوسينسكي وبيرانت أن هذا الانسحابَ السياسي هو اتجاهٌ مُخيِّب للآمال بشدة؛ نظرًا إلى أنه كلما انسحب المزيد من أصحاب نظريات المؤامرة من المشهد السياسي

العام، قلَّت احتمالاتُ توجُّه الساسةِ إليهم. وازدراء الحياة السياسية أبَديٌّ في ذاته، وهذا عارٌ بحقٍّ؛ لأنه ما من شكٍّ في أن أصحاب نظريات المؤامرة يمكن أن يكونوا مبادرين ومنظِّمين ومؤثِّرين. فهذه المزايا يمكن أن يُستفاد منها استفادةً جيدة بكشف الأفعال الشائنة ومقاومتها. لكن منطق العزلة الذاتية الذي تتَّسم به المؤامراتية معناه أن نظريات المؤامرة في أغلب الأحيان تجعلنا ندور في دوائرَ ذهنيةٍ مفرغة؛ تعقبًا لمتآمرين وهميِّين.

ذات مرة كنتُ في نيويورك في الذِّكرى العاشرة لهجمات الحادي عشرَ من سبتمبر. وبينما أتجوَّل في وسط منهاتن، سمعت أسماءَ الأشخاص الذين لَقُوا حتفهم في الهجمات، يتردَّد أصداؤها في الشوارع الهادئة نوعًا ما من الضاحية المالية، يقرؤها الأصدقاء والمحبون بصوتٍ عالٍ عند النُّصب التذكاري الذي اكتمل إنشاؤه حديثًا في المكان الذي كان يقف فيه البرجان التوءمان شامخَين في وقتٍ من الأوقات. لكن بعد عبوري عدة عمارات جهة الشرق، حجب هذا الصوت هتافٌ ينادي أصحابه «١١ سبتمبر، هدمٌ مدبَّرٌ» و«ثلاثة أبنية، وطائرتان». كان عشَراتُ الناس قد احتشَدوا، وكان الكثيرون منهم يرتدون قُمصانًا سوداءَ اللون تحمل شعارًا مكتوبًا عليه «١١ سبتمبر مَكيدةٌ داخلية!» كما كانوا يحملون لافتاتٍ وشعارات ونشراتٍ وأقراصَ فيديو رقميةً يوزِّعونها على المارَّة. أصبح هذا الاحتشادُ حدثًا سنويًّا، كضيفٍ متطفل يُرافق الفعاليات الرسميةَ لذكرى الحادي عشر من سبتمبر كل عام، يصرف شيئًا من الانتباه عن مشاعر الحزن والألم الحقيقيَّين التي لا تزال تكتنف الكثيرَ من قاطني نيويورك.

علاوةً على ذلك، تصرفُ نظريات المؤامرة الانتباهَ عن المشكلات الحقيقية التي وضعَتها الهجمات في دائرة الضوء. ففي حين أن الحكومة الأمريكية لم تُنفِّذ على الأرجح مؤامرةً شريرة كهذه، فإنه لا يُمكن إعفاؤها كليةً من اللوم. فثَمة أشياءُ كان يمكن، بل وكان ينبغي أن تؤدَّى بطريقةٍ مختلفة لتجنب هجماتِ الحادي عشر من سبتمبر. فمثلًا وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية كانت على علمٍ بأن اثنَين من الُمختطِفين كانا يعيشان في الولايات المتحدة لشهور قبل الهجمات. وكان سيصبح لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي السلطةُ للتحقيق مع الرجلين لو أنه علم بوجودهما في البلاد. ذكر لورانس رايت في كتابه «البرج الوشيك»، أحد العملاء المكلَّفين بوحدة أسامة بن لادن التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أرسل مرارًا وتَكرارًا رسائل بالبريد الإلكتروني إلى رؤسائه يطلب منهم تصريحًا بتمرير معلوماتٍ بالغةِ الأهمية إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي. ولم يردَّ أحدٌ على رسائله.

لم تكن المشكلةُ هي التآمُرَ داخل الحكومة وإنما عدم الكفاءة. فضَعفُ التواصل بين الوكالات، أو بعبارةٍ أخرى عدمُ إيصال المعلومات لمن يحتاجون إليها بشدة، يجعل الجميع عاجزين عن إبصارِ الخطرِ الواضحِ الموجودِ أمام أعينهم. لقد ارتُكبت أخطاء، وعن طريق التنبيهِ إليها، ربما نصبح قادرين على منع تكرار حدوث الأخطاء ذاتها مستقبلًا. ومع ذلك فإن شبكة الوكالات الأمريكية المختصة بالاستخبارات ومكافحة الإرهاب أصبحت الآن أكثرَ تعقيدًا من أي وقتٍ مضى، بمستويات لا تكفُّ عن الزيادة من البيروقراطية والعمالة الزائدة. فالحكومات تجمع كميات هائلة من المعلومات بشأن التهديدات السياسية (فضلًا عن كم المعلومات الذي تجمعه بشأن ملايينِ المدنيين المسالمين)، ومع ذلك، لا يزال الإرهابيُّون يتسللون عبر الشقوق من غير أن ينتبه إليهم أحد. وغالبًا ما لا تحظى هذه القضايا الحقيقية بالقدر الكبير من الاهتمام الذي تحظى به نظرياتُ المؤامرة من قِبَل عموم الناس ووسائل الإعلام.

بالطبع، لا يمكن أن نعزوَ كل شيء إلى عدم الكفاءة. فثمة مؤامرات حقيقية أيضًا. غير أنه من بين مفارقات المؤامراتية أن المخالفات الحقيقية يكشفها دائمًا الوشاةُ والصحفيون والأكاديميون والمسئولون الذين يعملون داخل النظامِ نفسِه الذي يُفترض أن الفساد تغلغل فيه على نحوٍ يتعذَّر إصلاحه. كتب تشيب بيرليت يقول: «أصحاب نظريات المؤامرة محقُّون في جانبٍ. فثمَّة عدمُ تكافؤٍ في السلطة والامتيازات في هذا العالم — بل وتهديداتٌ للعالم نفسه — بحاجةٍ إلى إصلاحٍ.» ومع ذلك، يرى بيرليت أن المؤامراتية ترتكز في أغلب الأحيان على صرف الانتباه عن العملِ الجادِّ في مجال البحث الاستقصائي والتغيير الاجتماعي. ويتابع: «تُسلط نظريات المؤامرة الضوءَ على الكثير من الأسئلة المذهلة، لكنها قلما تُركز على الإجابات المهمَّة.»

تُلون الرؤية العالمية المؤامراتية العالمَ باللونَين الأبيض والأسود؛ صورة كرتونية لأصحاب نظريات المؤامرة الأشاوس وهم يُواجهون المؤامرات الجِسام. لكن الواقع ظلالٌ رمادية. فمن خلال البحث عن كِباش فداءٍ من متآمرين وهميِّين، تصرف نظريات المؤامرة الانتباهَ عن مشكلاتٍ واقعية يمكن حلُّها. فلا يمكنك أن تُحقِّق نصرًا إذا كنت تُحارب مؤامرةً لا وجود لها أصلًا.

الفصل الثالث

ما معنى نظرية المؤامرة؟

في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، شنَّ مختطفون هجماتهم بالطائرات على برجَي مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك ومبنى البنتاجون في العاصمة الأمريكية واشنطن وحقلٍ في بنسلفانيا، ما أودى بحياة ٢٩٩٦ شخصًا. وكان الهجوم قد تم بتخطيطٍ سرِّي من أعضاء تنظيم القاعدة.

أو …

في الحادي عشرَ من سبتمبر ٢٠٠١، شنَّ مختطفون هجماتهم بالطائرات على برجَي مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك ومبنى البنتاجون في العاصمة الأمريكية واشنطن وحقلٍ في بنسلفانيا، ما أودى بحياة ٢٩٩٦ شخصًا. وكان الهجوم قد تم بتخطيطٍ سريٍّ من أعضاء الحكومة الأمريكية.

يبدو أن الجميع يعرفون ما تَعنيه نظرية المؤامرة. فهذه العبارة كثيرًا ما تُصادفنا في المواقع الإخبارية العامة ومُنتديات شبكة الإنترنت المغمورة على حدٍّ سواء؛ كثيرًا ما يتفوَّه بها الساسة والمثقَّفون، وتُزين عناوينَ الكتب والأفلام والعروض التليفزيونية؛ كما أنها تُلحَق بتفسيرات بديلة لكل شيء تقريبًا. ومن السهل أن أُعدِّد لك الأمثلة. فالهبوط على سطح القمر كان خُدعة، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية هي المتورطة في قتل كينيدي، والأميرة ديانا قُتلت، والماسونيون ضالعون في أشياءَ سيِّئة، والنظام العالمي الجديد آخذٌ في الهيمنة على العالم.

لكن مجرَّد سرد نظريات المؤامرة لا يُفسِّر المقصود بنظرية المؤامرة. تأمَّل هاتين الروايتين لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. كلتاهما تُقدِّمان تفسيرًا لشيء واحدٍ حدثَ في العالم. وكلتاهما تُفسِّرانه بأنه وقعَ نتيجة مؤامرة. وهذان الزَّعمان، من الناحية النظرية، متماثلان تقريبًا. الاختلاف الوحيد يتمثَّل في الجهة التي يُدَّعى تآمرُها. ومع ذلك فإن روايةً

واحدة منهما هي التي يُشار إليها على نطاقٍ واسعٍ بأنها نظريةُ مؤامرة. فما السبب؟ وما الاختلاف؟ وهل يوجد اختلاف؟

عند البحث عن تعريفٍ، فإن اللجوء إلى القواميس هو نقطة بداية جيدة. أضاف قاموس أكسفورد الإنجليزي مصطلحَ نظرية المؤامرة في عام ١٩٩٧: «النظرية التي تُفسِّر وقوع حدث معيَّن أو حدوث ظاهرةٍ ما بأنه ناتجٌ عن مؤامرة بين أطراف ذات مصلحة.» ويقدم قاموس ميريام وبستر الجامعي (الطبعة الحادية عشرة) تفسيرًا مشابهًا، غير أنه يُضيف إيماءة غامضة تُفيد بأنَّ المتورطين قد يكونون ذَوي نفوذ: «نظريةٌ تُفسِّر حدثًا ما أو مجموعةً من الظروف بأنها ناشئةٌ عن خطةٍ سريَّة يضعها متآمرون ذَوو نفوذ في كثير من الأحيان.»

ووفقًا لهذه التعريفات الحرفية، فإنَّ نظرية المؤامرة هي في الأساس نظريةٌ تتعلَّق بتخطيط المؤامرات. لكن عندما ينعَت الناسُ شيئًا ما بأنه نظريةُ مؤامرة، فإنهم لا يتحدَّثون عادةً عن أيِّ مؤامرة قديمة وحَسْب. فبرغم كل شيء، المؤامرات كثيرة للغاية. بدءًا من الجانحِين عن القانون الذين يُخطِّطون لسرقةِ البنوك وصولًا إلى مسئولي الشركات الذين يُخطِّطون لتضليل عملائهم، ومن تهريبِ المخدرات والرِّشوة إلى الانقلابات وعمليات الخطف والاغتيال والهجمات الإرهابية، فإن كثيرًا من الأشياء التي تحدث في العالم هي نتيجةُ مؤامرة بين أطرافٍ ذات مصلحة أو خططٍ سرِّية يُدبِّرها متآمرون أقوياء. وليس هناك من شيء جدير بأن يُذكر فيما يخصُّ وضع نظريات لوجود مؤامرات كهذه. فتعريفنا ينبغي أن يعكس الكيفية التي يستخدم بها الناسُ المصطلحَ فعليًّا، وفي المحادثات العادية، ليست كلُّ نظرية عن مؤامرةٍ ما تصلحُ أن يُطلَق عليها نظرية مؤامرة. فالمصطلح أكبرُ من مجموع أجزائه.

من بين الاعتراضاتِ الشائعة على دراسة نظريات المؤامرة باعتبارها ظاهرةً نفسية أن كل نظرية مُتفردة؛ فالنظريات تتنوَّع بشدةٍ في الأشكال والأحجام، ومن غير المنطقي أن نحشدها جميعًا في سلةٍ واحدة. ففي حين أن تأمُّلَ كلِّ زعمٍ استنادًا إلى أسانيده الثبوتية المتفردة هو الطريقة الوحيدة دون شكٍّ لتحديدِ ما إذا كانت نظريةٌ ما صحيحةً أو لا، فإن هذا الأمر لا يَعْنينا في هذا المقام. فنحن غيرُ مهتمين بنظريات المؤامرة باعتبارها فرضيات تجريبية، ولكن باعتبارها أفكارًا يُصدِّقها الناس أو لا يُصدِّقونها حسبما يقتضي الحال. والحقيقة أنه — برغم جميع اختلافاتها الظاهرة — لو نظرنا تحتَ السطح، وتحديدًا إلى المنطق والبِنْية والافتراضات التي تُشكِّل أساسًا لتلك المزاعم، تبدو نظرياتُ المؤامرة متماثلة.

ليس هناك تعريفٌ جامع مانع. فجميع تعريفات الأفكار المعقَّدة يصعب تحديدها تحديدًا دقيقًا لو فكَّرتَ فيها وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية. وقد رُبطت صعوبةُ تعريف مصطلح نظرية المؤامرة بمحاولة تعريف الإباحية؛ وهي مهمة اشتهَرت بأنها أجبرت بوتر ستيوارت، قاضيَ المحكمة الأمريكية العليا على أن يستنتجَ قائلًا: «أُدرك المقصود بها عندما أراها.» لكن حتى إذا كان يصعب علينا التوصُّلُ إلى تعريفٍ محدَّد ووجيز ومقبول بوجهٍ عام لنظرية المؤامرة، يُمكننا أن نضع تعريفًا مناسبًا ومفيدًا بما فيه الكفاية. تحدَّث ريتشارد هوفستاتر، الباحث المرموق في مجال المؤامراتية، عن نظريات المؤامرة باعتبارها «أسلوبًا» للتفسير. ومثلما قد يتحدَّث مؤرِّخ فني عن التصاميم والتصورات التي تُشكِّل مجتمعةً الأسلوبَ الباروكي أو يتحدَّث ناقدٌ موسيقي عن الفوارق الدقيقة بين نوعَين من موسيقى الرقص الإلكترونية وهما «دَبستيب» و«جرايم» فإن مهمتنا في تمييزِ نظريات المؤامرة عن النظريات القديمة العادية التي تتعلَّق بالمؤامرات هي أن نُحدِّد بعضًا من أهمِّ الموضوعات الاستعارية والأفكار والتعبيرات المجازية التي تُشكِّل مجتمعةً الأسلوبَ المؤامراتي.

أسئلةٌ تبحث عن إجاباتٍ

ليس هناك أفضلُ من أن نبدأ بالسؤال الذي يُسبِّب الجانبَ الأكبر من الخصومة بين أصحاب نظريات المؤامرة ومنتقديهم: هل نظريات المؤامرة خاطئةٌ ببساطة؟ لا شك أن المصطلح له دلالات غير مُستحسَنة، على الأقل في أوساط المفكرين والمثقفين. يقول نعوم تشومسكي: «لو كنتَ في مشربٍ في أحدِ الأحياء الشعبية، وقلتَ شيئًا لم يرُقْ للناس فإنهم سيضربونك أو يسبُّونك. أمَّا لو كنت في نادٍ جامعي أو في مكتب تحريري؛ حيث تكون أكثر تهذيبًا، فثمة مجموعة من العبارات التي يمكن استخدامها، وهي المكافئ الفكري لهذا السِّباب ونوبات الغضب. إحدى تلك العبارات هي «نظرية المؤامرة».»

كثيرٌ من الصحفيين — أو على الأقل، محرِّري عناوينهم الرئيسية — يروق لهم وصفُ نظريات المؤامرة بالوهم الغني عن البيان، ويحكمون استنادًا إلى معدلِ تَكرار اقتران مصطلح نظرية المؤامرة بصفاتٍ مثل «مجنونة» و«سخيفة» و«مختلَقة» في العناوين الرئيسية المثيرة لمؤلِّفين أكثرَ خجلًا في مواقفَ أخرى. الساسةُ أيضًا يستخدمون المصطلح عندما يرغبون في الإشارة ضمنيًّا إلى أن مزاعمَ لا تروقُ لهم تفتقر إلى أيِّ أساس. وقد أعطى جورج دبليو بوش مثالًا عندما حثَّ الأمريكيِّين قائلًا: «لا تتساهلوا أبدًا مع نظريات

المؤامرة الشنيعة حول هجمات الحادي عشر من سبتمبر، والأكاذيب الخبيثة التي تُحاول أن تُعفيَ الإرهابيِّين أنفسَهم من المسئولية عما اقترفوه.» هل يمكن أن يكون الباحثون أكثرَ تحفُّظًا؟ استنادًا إلى عناوينِ بعض الكتب التي تتناول الإيمان بنظريات المؤامرة، ليس هناك تحفُّظٌ كبير لدى الباحثين. فمثلًا، أطلق ديفيد أرونوفيتش على كتابه الذي يتناول نظريات المؤامرة في القرن العشرين اسم «تاريخ الهراء». وينتقدُها بالمثل فرانسيس وين في عنوان كتابه «كيف غزَت الأفكارُ الفارغة العالمَ» في حين وضع العنوان الفرعي لكتاب داميان طومسون «المعرفة المُضلِّلة» نظرياتِ المؤامرة جنبًا إلى جنب مع «الطب الخرافي والعِلم الزائف والتاريخ المختلق».

وماذا عن المُتهَمين بأنهم أصحاب نظرية مؤامرة؟ أقرَّ مايكل بارينتي قائلًا: «بالتأكيد، هناك بالفعل نظريات مؤامرة خرقاء.» وذلك في كتابه «حقائق قذرة»، لكنه يرى أن فكرة وجود مؤامرة وراء اغتيال جون إف كينيدي حقيقةٌ لا نزاعَ فيها؛ ومن ثَم فهي لا تندرج ضمن قائمة «الأوهام الغريبة». وبالمثل قدَّم الصحفيُّ البريطاني روبرت فيسك إخلاء مسئولية في مقالةِ رأيٍ نُشرت عام ٢٠٠٧ في صحيفة «إندبندنت» فيما يتصل بموضوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر. كتب يقول: «لستُ صاحبَ نظرية مؤامرة. لا شأن لي بالهراء، لا شأن لي بالمكائد.» وذلك بعد تَكراره مباشرةً للأكاذيب الكلاسيكية لحركةِ حقيقةِ أحداث الحادي عشر من سبتمبر، مثل الإنكار الواضح لانهيار المبنى السابع في مركز التجارة العالمي. يوضِّح عالمُ النفس جوفان بايفورد في كتابه «نظريات المؤامرة: مقدمة نقدية» أن بارينتي وفيسك لا يُنكران نظرياتِ المؤامرة باعتبارها زيفًا، وإنما يَصرفان اللومَ إلى الآخرين. ويتابع قائلًا إن نظريات المؤامرة يُفترض ألا تُصدَّق، لكن هذه ليست واحدةً منها. وفيما يبدو أن أناسًا آخَرين يُصدِّقون نظريات المؤامرة.

ويبدو أن الجميع تقريبًا يتفقون على أنه يجب التمييز. نظريات المؤامرة زيف؛ فزعمٌ صحيح بوجود مؤامرة لا يعني في واقع الأمر نظريةَ مؤامرةٍ على الإطلاق. هل هذا معناه أن نمضيَ قُدمًا ونضعَ تعريفًا لنظرية المؤامرة بأنها زعمٌ كاذب بحدوث مؤامرة؟ يعتقد بعضُ الباحثين ذلك. ووفقًا لتعريف المؤرخ دانييل بايبس، «نظرية المؤامرة هي الخوف من مؤامرةٍ لا وجودَ لها.» ويعترف أن بعضَ المؤامراتِ حقيقيةٌ، لكن نظريات المؤامرة «لا وجود لها إلا في مخيلةِ أصحابها.» وجهة النظر هذه ذاتُها تبنَّاها كاس سَنستاين وأدريان فيرميول، اختصاصيا العلوم السياسية، رغم التعبير عنها بلغةٍ أكاديميةٍ أكثرَ

تحفظًا؛ حيث اقترحا قصْرَ دراستهما لنظريات المؤامرة على المزاعمِ الواضحةِ الزيف، مستبعِدَين بذلك تلك النظريات «التي هي صحيحةٌ أو لم يثبت صحتُها بعد.»

المشكلة في سلوك مثل هذا المسلك هو أنه يتعامل مع الفارقِ بين الحقيقةِ والزيف، والواقعِ والوهم باعتباره مسألةً غيرَ معقَّدة تمامًا؛ مسألة يتم فيها الرجوع إلى الحقائق والاستناد إليها، أو حتى إعمال «فَهْم حَدْسي للكيفية التي تحدثُ بها الأشياء.» حسبما يرى ديفيد أرونوفيتش. لكن الحَدْس يقود الناس إلى نتائجَ مختلفةٍ للغاية بقدْر اختلافهم. فنظرية المؤامرة لدى شخصٍ ما هي حقيقةٌ مؤامراتية لدى آخر. وأي محاولة لرسم خطٍّ واضح بين المؤامرات الحقيقية والزائفة مصيرُها جدلٌ أبدي بشأن ماهية الأدلة القاطعة وهُوية الخبراء الحقيقيين، ومسألةِ ما إذا كان يمكن الوثوق بهم أو لا. هذه جميعها أسئلةٌ جيدة، لكن حسَب تعريفنا، مجرد الزعم بأن نظريات المؤامرة هُراء لا يفيدنا كثيرًا.

الأهم من ذلك، فإن الركون إلى تحديدِ ما إذا كان زعمٌ مُختصمٌ فيه صحيحًا أو زائفًا يُعوِزُه سِمةٌ أساسية من سمات الطريقة المؤامراتية. أوضحت كاثرين أولمستيد هذا الأمر جليًّا عندما كتبَت تقول: «نظرية المؤامرة هي مقترَح عن مؤامرة قد تكون حقيقيةً أو غيرَ حقيقية؛ فلم يثبت صحتها بعد.» للوهلة الأولى، قد يُثير هذا ببساطةٍ المزيدَ من الجدال فيما يبدو حول عبارة «يثبت صحَّتها.» بالنِّسبة إلى المصدِّقين، قد تكون نظريةٌ ما حقيقيةً بما لا يدَع مجالًا للشك، وبالنِّسبة إلى المتشكِّكين، ربما تكون زائفةً دون ريب. لكن هذه ليست المشكلة. لا أقول إن نظريات المؤامرة غيرُ مؤكَّدة لأنها تفتقر إلى الأدلة الكافية. بل إنني أرى ما هو أعمقُ من ذلك. نظريات المؤامرة غيرُ مؤكدة عن عمدٍ.

تأمَّل مثلًا تفسيرين محتملَين لفضيحة ووترجيت. ثمَّة روايةٌ تقول إن لجنة إعادة انتخاب نيكسون تآمرت للتجسُّس على خصومه السياسيِّين، وبعد ذلك تورَّط نيكسون نفسُه في المؤامرة لإخفاء الحقيقة. فبالرغم من ادعاء مؤامرة لتقويض الديمقراطية وصلَت إلى المكتب البيضاوي، لا يُطلق أحدٌ على هذه نظرية مؤامرة. لماذا؟ لأن الأمر يتعلَّق بمؤامرة انتهت وتمَّ التعامل معها. فقد أُلقي القبض على أعوان نيكسون وهم يقتحمون فندقَ ووترجيت، وكُشفت الأدلة على التستُّر، واستقال نيكسون في نهاية الأمر من الرئاسة. باختصار، افتُضِح الأمر.

وَفقًا لروايةٍ أخرى، وهي روايةٌ طرَحها جاري آلن، الذي اشترك في تأليف الكتاب الكلاسيكي «لا أحدَ يجرؤ على تسميتها مؤامرةً»، لم يكن نيكسون يقف وراءَ مؤامرة ووترجيت على الإطلاق. بل كانت خُطَّة مدبَّرة. فوفقًا لآلن، حِيكت الفضيحة بعنايةٍ من

أجلِ تنحية نيكسون عن البيت الأبيض كجزءٍ من مؤامرةٍ أكبر، بل أكثر خبثًا، شملت نلسون روكفلر وهنري كيسنجر ومجلسَ العلاقات الخارجية والنظام العالميَّ الجديد القادم. الآن أصبح لدينا نظريةُ مؤامرة. وهي مدبَّرة بحيث لا تثبت صحتها. حتى وإن اقتنعتَ بأنها حقيقية، تُخبرنا النظرية نفسُها أن التستُّر مستمر. فكيسنجر لم يعترف بالحقيقة، والناس لا يعرفون بعدُ حقيقةَ ما جرى، والحقيقة لم يُكشف النقابُ عنها تمامًا حتى الآن.

يمكننا أن نلحظَ الثنائية نفسَها في روايتَينا المتنافستَين لأحداث الحادي عشرَ من سبتمبر. فوفقًا للرؤية القائلة بأن تنظيم القاعدة هو مَن يقفُ وراءها، انتهت المؤامرة، وتقريبًا أصبحنا نعرفُ جميع الأشياء التي تتعلق بها؛ ليس أقلَّها أن أسامة بن لادن نسَب ما جرى لنفسه. لكنه وَفقًا للنظرية التي ترى أن الأحداث وقعَت بتدبيرٍ داخلي، فإن الذين يقفون وراء تلك الأحداث لا يزالون منهمِكين في التخطيط لإخفاء الحقيقة المذهلة. قد تكون النظرية حقيقية أو غيرَ حقيقية؛ وفي كِلتا الحالتَين، فإنَّ دعم النظرية معناه الاعتقادُ بأن المؤامرة لم تُكشَف تفاصيلها بعد. والشيء نفسُه ينطبق على أيِّ نظرية مؤامرة أخرى يمكن أن تخطرَ ببالك. فالفعل ربما يكون قد وقع، لكنَّ المقترفين له لم يعترفوا بعدُ أو لم يُلقَ القبض عليهم. ولا يزال الناس لا يعلمون الحقيقة، ولم يُفتضح الأمر بعد.

أوضح الباحثُ مارك فينستر أن نظريات المؤامرة لا تهدف إلى مجردِ وصف شيء قد حدَث، لكنها تزعم أنها تكشف مكائدَ خفيةً على أملِ إقناع الناس الذين لا يزالون يغفلون عن الحقيقة المزعومة. فهي تأتي مصحوبةً باعترافٍ ضِمني بأن الحقيقةَ المطلَقة لا يمكن الوصولُ إليها، وأنها مخبوءةٌ عن الأنظارِ وأننا يُمكن أن نلمحها، لكن لا يُمكننا أن نضع أيديَنا عليها. ومن ثَم فإن المؤامرة تظلُّ عصيةً على الكشف إلى الأبد، لكن الأدلة القاطعة بعيدةُ المنال؛ أو بعبارةٍ أخرى الأدلة الحاسمة التي ستوقظ الجمهور وتقلب الموازين في نهاية الأمر، لم تُكتشف بعد. وسواءٌ تبيَّنت صحة هذه النظريات أو عدم صحتها، ستظلُّ في أعماقها أسئلةً تبحث عن إجابات.

لا شيء على النحو الذي يبدو عليه

تزعم أغلبُ نظريات المؤامرة المتعلِّقة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر أن الهجمات كانت عمليةً من عمليات «العلَم الزائف». هذا المصطلح يشير في الأساس إلى السفن التي ترفع حرفيًّا عَلَمًا بخلاف علَمِها الحقيقي، لأغراض القرصنة أو الحرب. وقد اتسع نطاقُ هذا

المصطلح بحيث أصبح يشمل الآن أيَّ أمثلة أو حالات يُنظم فيها بلدٌ هجومًا ضدَّ مواطنيه على أن يبدوَ الأمر لعموم الناس وكأنَّ طرَفًا آخر قد ارتكبه، كذريعةٍ من أجل تحقيق هدف شنيع مثل تمرير قوانين متشددة أو الخوض في حروب.

وكسابقةٍ على الرغبةِ المزعومةِ لدى الحكومة الأمريكية لتدبيرِ هجماتٍ ضدَّ مواطنيها، قد يُشير المرء إلى عملية «نورثوودز». كانت الخُطة التي وضعها قادةُ الجيش في أوائل ستينيَّات القرن العشرين هي أن يُرتِّبَ عملاءُ تابعون للحكومة الأمريكية أعمالًا إرهابيةً ضد الجيش الأمريكي وأهدافٍ مدَنية ثم يُلصِقوها بالحكومة الكوبية. جاء في إحدى الوثائق: «بمقدورنا أن ننسفَ سفينةً أمريكية في خليج جوانتانامو ونتهمَ كوبا. ومن ثَم فإن قوائم الضحايا في الصحف الأمريكية قد تُثير موجةً مفيدة من الاستياء الشعبي.» ومن بين الأفكار الأخرى إغراقُ سفينة تنقل لاجئين كوبيِّين قادمين، وشن هجمات إرهابية في فلوريدا والعاصمة واشنطن. لكنه، لحسنِ الحظ، حتى القادة العسكريُّون اضطُروا إلى خططٍ كهذه بأوامرَ من رؤسائهم، وقد رفضت إدارة كينيدي في الحال تنفيذ العملية.

لكنه وفقًا لأصحاب نظريات المؤامرة، فإن الإدارات الأخرى تبيَّن أنها أكثرُ إذعانًا للأمر. فوفقًا لهذه النظريات، فإنه فيما يتعلق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، ما تبدو أنَّها أحداثٌ من تدبير تنظيم القاعدة كانت عملًا داخليًّا مدبَّرًا، أو بعبارة أخرى: هجومًا ذاتيًّا. ففي السنوات التي أعقَبَت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كانت الصيحات الزاعمة بأن ما يجري عملٌ داخلي مدبَّر تتعقب كلَّ عملية إطلاق نيران جماعي وكل هجوم إرهابي تقريبًا. لكن النهج الجديد الذي تسيرُ عليه نظريات العمل الداخلي المدبَّر جاء نِتاجًا لعادات قديمة. فالعنصر الحاسم الثاني من عناصر النهج المؤامراتي يتمثَّل في الفكرة القائلة بأننا لا نبقى على جهلٍ بأمرٍ ما فحَسْب، بل نُخدَع كذلك. فوفقًا لنظريات المؤامرة، فإن المظاهرَ في هذا العالم مُضلِّلة، ولا شيء على النحو الذي يبدو عليه.

هذه السِّمة تُصبح أكثرَ جلاءً عندما تتعرَّض نظريات المؤامرة للروايات الرسمية. فيُقال لنا إن هجمات الحادي عشر من سبتمبر قد شُنَّت بواسطة ١٩ مختطِفًا تابعًا لتنظيم القاعدة، الذين اقترفوا جريمتهم بِناءً على خططٍ وضعها أسامة بن لادن، وكان السبب الرئيس في نجاحهم عدمَ الكفاءة والبيروقراطية والتنافسات التافهة بين الوكالات المسئولة عن الأمن. وقد انهار البرجان التوءمان والمبنى السابع في مركز التجارة العالمي نتيجةً لتدميرِ بِنيته والنيران التي اشتعلَت فيه. هذه الرواية العامة تستند إلى العديد من التحقيقات الموسعة، التي جمعَت آراء الآلاف من الخبراء من مختلِف التخصصات

والانتماءات، والتي عكفَ المزيدُ من الباحثين المستقلِّين على التقصِّي بشأنها والتحقُّق منها واستيضاحها وتوسيع نطاقها.

لكنه بالنِّسبة إلى نظريات المؤامرة، فإن جورج دبليو بوش أو مَن يتولَّى زِمام الأمور في حقيقة الأمر اختلق هذه الرواية. وعندما يعترض أصحابُ نظريات المؤامرة على الروايات الرسمية أو التفسيرات التي تُقِرُّها الحكومة، فهم يشيرون ضمنيًّا إلى أنَّ الفَهم العام للحدث ليس أكثرَ من مجردِ تفسيرٍ واحدٍ محتمل، جرى تحضيره من قِبَل سلطة أعلنَت من جانبها عنه. والأسوأ من ذلك، كثيرًا ما يُعتقد أن هذا التفسير قُدِّم من قِبَل الأشخاص ذاتِهم الذين يقفون وراء المؤامرة المزعومة. فهو ليس مجردَ رواية مغلوطة، بل اختلاقٌ متعمَّد. فأصحاب نظريات المؤامرة يرَون أن الرواية الرسمية هي ما تريد السلطات منا أن نُصدِّقه.

بطبيعة الحال، لا يتعينُ علينا تصديقُ الروايات الرسمية دون تحفُّظ. فكلٌّ من تقرير لجنة وارين بشأن اغتيال جون كينيدي وتقريرِ لجنة أحداث الحادي عشر من سبتمبر يتضمَّنان خللًا وقصورًا. لكن هذا ليس معناه أن كِلا التقريرين لا فائدة منه مطلقًا. أفضل تفسير هو التفسير الذي يكون مدعومًا بمصادرَ متعددةٍ ومستقلة تُشير إلى نتيجة واحدة. وتصوير أحد التفسيرات على أنه الرواية الرسمية معناه أنه يُمكن إنكاره على نطاقٍ واسع، حتى وإن كان يعكس فعليًّا خلاصة الآراء الكاشفة التي أدلى بها عددٌ هائل من الناس الذين لديهم انتماءات وأجندات مختلفة، والتي تصل جميعها إلى استنتاجٍ واحد متَّسق. (وقد أُضيف أنه أحيانًا يُستخدَم مصطلح «نظرية المؤامرة» لرفضِ آراءٍ مزعجةٍ دون الالتفات كثيرًا للأدلة.)

لكنَّ معارَضةَ تفسيرٍ رسمي ليست شرطًا أساسيًّا. فنظريات المؤامرة يمكن أن تنطلقَ في أعقابِ حدثٍ ما على الفور، حتى قبل أن يُعلن عن الرواية الرسمية. وأحيانًا تكون نظرية المؤامرة هي ذاتُها الروايةَ الرسمية. يوضح جيسي ووكر في كتابه «الولايات المتحدة وجنون الارتياب»، أن أمريكا تأسسَت على شكوكٍ مؤامراتية. فإعلان الاستقلال يسرد بشكلٍ جاد «سيلًا من الانتهاكات والاغتصابات» عانته المستعمرات، وأدَّى إلى «خُطة» لترسيخ «الطغيان المطلَق على هذه الولايات».

وعدم استساغةِ الروايات الرسمية هو مجردُ أحد أعراض المنطق الأعمق للنهج المؤامراتي. يوضح مايك وود وكارين دوجلاس أن نظريات المؤامرة تعمل على أساس الافتراض بأن «هناك عالَمين: أحدهما حقيقي وغير مرئي (في أغلبه)، والآخر وهمٌ خفي وماكر يهدف إلى التستُّر على الحقيقة.» ونتيجةً لذلك، فإن نظريات المؤامرة بطبيعتها تسير

عكس التيار. فهي تَقْلب الاعتقاد السائد رأسًا على عقب. فنظريات المؤامرة ترى أن الإجابة البديهية الواضحة لا تكون صحيحةً أبدًا في هذا العالم، وأن ما خفيَ أعظم. فالحوادث مدبَّرةٌ والديمقراطية زائفة وجميع الوجوه أقنعةٌ وجميع الأعلام كاذبة. وبالنِّسبة إلى نظريات المؤامرة المتطرفة، يُلقي النَّهْج المؤامراتي بظلالٍ من الشكوك على كل شيء تقريبًا، حتى فَهْمنا الأساسي للواقع. فالحقيقة تُصبح خيالًا والخيال يصير حقيقة: فالجامعات هي التي تُزود الدولة بالأكاذيب في حين أن المكائد المؤامراتية في الأفلام السينمائية والكتب هي بَرْمجة تنبؤية صُمِّمت من أجل إعدادنا على المستوى اللاشعوري للنظام العالمي الجديد القادم.

كتب دانييل بايبس يقول: «صاحب نظرية المؤامرة البارع يُحوِّل الأَسوَد إلى أبيض، والأبيض إلى أسود. وليس هناك أحدٌ أكثرُ براعة من ديفيد أيك.» يستجدي أيك قرَّاءَ كتابه «دليل ديفيد أيك للمؤامرة الدولية» (مقتبسًا من كلام ممارِس الطب البديل مايكل إلنر). فيقول: «فقط تأمَّل حالنا، كل شيء يسير إلى الوراء، كل شيء انقلب رأسًا على عقب. الأطباء يُدمِّرون الصحة، والمحامون يُدمِّرون العدالة، والجامعات تُدمِّر المعرفة، والحكومات تُدمِّر الحرية، ووسائل الإعلام الكبرى تُدمِّر المعلومات، والأديان تدمِّر الروحانية.»

كل شيء تحت السيطرة

يُعد الهجوم الذي شنَّه ١٩ عضوًا من أعضاء تنظيم القاعدة الشبابِ باختطاف طائرات تِجارية واستخدامها في تدميرِ معالِمَ أمريكية أكثرَ الهجمات الإرهابية التي وقعت في أمريكا دمويةً، وقد شكَّل أحداثًا حول العالم لسنواتٍ تلَت. ومع ذلك، كما أن الهجمات لم تَسِر وَفق الخطة الموضوعة تمامًا، حدث الشيء نفسُه مع المؤامرة.

أقلعت رحلة الخطوط الجوية الأمريكية رقم ٩٣ من مطار نيوارك ليبيرتي في الساعة ٨:٤٢ صباحًا، بعد موعد مغادرتها المحدَّد بـ ٤٠ دقيقة. كانت الطائرة الوحيدة المخطوفة التي تأخَّرت على نحوٍ ملحوظ. وبعد مضيِّ خمسٍ وأربعين دقيقة، اندفع المختطِفون الأربعة الذين كانوا على متن الطائرة نحو مقصورة القيادة، وقتلوا ضابطَين ومُضيفة، ثم اتجهوا بالطائرة نحو العاصمة واشنطن. كانت الخطة الموضوعة هي التوجُّهَ بالطائرة نحو البيت الأبيض أو مبنى الكابيتول. وبعد مضيِّ دقائق، وتحديدًا في الساعة ٩:٣٢ صباحًا، سمع أحدُ مسئولي المراقبة الجوية في كليفلاند رسالةً صوتية من مقصورة القيادة تقول: «السيدات والسادة: الكابتن يتحدَّث إليكم، يُرجى منكم البقاءُ في مقاعدكم. هناك

قنبلة على متن الطائرة. لذا يُرجى الجلوس في أماكنكم.» اعتقد المختطف على ما يبدو أنه كان يتحدَّث إلى ركاب الطائرة وليس إدارة المراقبة الجوية. وبحلول ذلك الوقت، كانت الطائرات قد اصطدمت بالفعل ببرجَي مركز التجارة العالمي. وبدأ الركاب والطاقم على متن الرحلة ٩٣ في الاتصال بالناس على الأرض من هواتفهم المحمولة والهواتف الجوية على متن الطائرة، وسرعان ما عَلِموا أن أمريكا تتعرَّض لهجوم. وقد أدركت مجموعةٌ من الركاب أن المختطِفين كانوا في مهمة انتحارية، ومن ثَم قرروا المقاومة. كان آخر شيء أخبر به أحدُ الركاب زوجته قبل أن ينقطع الصوت: «لا تقلقي، سنفعل شيئًا ما حيالَ ذلك.» وبعد دقائق من ذلك، سقطت الطائرة لتتحطم في حقلٍ فارغٍ في بنسلفانيا.

على الجانب الآخر، لا ترى نظرياتُ المؤامرة أن ذلك كان خطأً في تنفيذ الخطة؛ بل ترى أن كل شيء كان يجري بالضبط وفقًا للخطة الموضوعة. فهي ترى أن الطائرة يونايتد ٩٣ لم تتحطَّم على الإطلاق. فموقع التحطُّم في شانكسفيل كان مُعَدًّا سلفًا بحيث يبدو كموقع تحطم طائرة. والمكالمات الهاتفية التي أجراها بعض ركاب الطائرة بذَويهم كانت ملفَّقة. وهبطت الطائرة في مطار كليفلاند هوبكينز حيث أُخذ الركاب إلى مرفق بحثي قريب يتبع وكالة الفضاء الأمريكية ناسا، ولم يُسمع عنهم شيءٌ بعد ذلك. والأكثر من ذلك، كانت الحكومة الأمريكية تُدير بعناية كلَّ تفصيلةٍ مما حدث في ١١ سبتمبر. وكلَّ ما وصفه تقرير لجنة أحداث الحادي عشر من سبتمبر بأنه إخفاقات «التخيل والسياسة والإمكانات والإدارة» لم يكن، في واقع الأمر، سوى جزءٍ من مكيدة مدبَّرة بحرصٍ شديد.

العالم مكانٌ معقَّد بأجزاء كثيرة متفاعلة. وكما يُظهر لنا مصيرُ الرحلة ٩٣، فضلًا عن المؤامرات التي أخفقَت مثل فضيحة ووترجيت أو فضيحة إيران كونترا، من الصعب تشكيل مؤامرةٍ جيدة، والأصعب من ذلك هو منعُ أيِّ شخص من إفسادها أو إفشاء سرِّها. وهذا لن يمنع الناس من المحاولة، لكنه حتى عندما تسير الأمور وَفْق الخطة المرسومة، كثيرًا ما تحدث عواقبُ غيرُ مقصودة يتعذَّر التنبؤ بها. وكقاعدة عامة، تختلفُ النتائج المتحققة عن النتائج المستهدفة.

وفقًا لنظريات المؤامرة، تبدو الأشياء في هذا العالم أبسطَ بكثير. يقول دانييل بايبس إن أصحاب نظريات المؤامرة، لديهم فيما يبدو «إيمان مذهل بقدرات أعدائهم.» فعلى أقلِّ تقدير، أصحاب نظريات المؤامرة يقترحون أنه عندما يُحرِّك المتآمرون الأحداث، تصبح لديهم القدرةُ على التنبؤ بما ستصير إليه الأمور ببصيرةٍ وفطنة ظاهرتَين. فالمتآمرون على ما يبدو يكون لديهم الاستعداد والقدرة على التضافر سويًّا كفريقٍ في انصياعٍ تامٍّ

للمؤامرة، كما لو كانوا عضوًا واحدًا وليس مجموعة من الناس، كلٌّ منهم لديه طموحاته وخوالجه وأُسره وهواياته.

ويرى أصحاب نظريات المؤامرة، في أكثر حالاتهم تطرفًا، أن المتآمرين لديهم القدرةُ على فعلِ كلِّ شيء تقريبًا. رصد ريتشارد هوفستاتر هذا العنصر من عناصر النهج المؤامراتي. فقد كتب يقول: «على العكس من بقيتنا، لا يسقط العدو في شَرَكِ الآلية الضخمة للتاريخ، وهو نفسه ضحيةٌ لماضيه ورغباته وجوانب قصوره.» ويُتابع قائلًا إنه على النقيض من ذلك «هو يُصمِّم ويصنع آلية التاريخ بنفسه، أو يحاول تحويل المسار الطبيعي للتاريخ، في واقع الأمر.» كثيرًا ما يُقال إن المؤامرة تفرض سيطرةً تامة على مصدرٍ ما فعَّال للسلطة؛ فهي تتحكَّم في وسائل الإعلام والاقتصاد والعلم؛ وهي تتلاعب بالانتخابات وتنال من دوائنا وغذائنا. والمؤامرة مسئولة عن جميع عِلل العالم. فهي «تصنع الأزمات، وتدفع المودِعين إلى سحبِ أموالهم من البنوك، وتُسبِّب الركود، وتفتعل الكوارث، ثم تستمتع وتنتفع من البؤس» الذي تتسبَّب فيه. واختتم هوفستاتر كلامه بقوله إن هذا تفسيرٌ شخصي جدًّا للتاريخ، وإن «الأحداث الحاسمة لا تُؤخذ كجزء من مسار التاريخ، ولكن كعواقبَ لإرادةِ شخصٍ ما.»

لكن هناك نقطة ينبغي الانتباهُ لها. فالمتآمرون يتمتَّعون بكفاءة بالغة؛ باستثناء ما قد يعتريهم من زللٍ بسيط من آنٍ لآخَر. وكما الحال مع الكثير من نظريات المؤامرة، فإن الفكرة القائلة بأن الرحلة يونايتد ٩٣ هبطت بأمانٍ في كليفلاند أفرزها تقرير إخباري مغلوط، وتكرَّرَت بتعجُّلٍ في خضمِّ الارتباك الدائر، ثم سُحبت سريعًا عندما رُصد الخطأ. لكن بالنِّسبة إلى نظرية المؤامرة، كان التقريرُ صحيحًا على طول الخط، وسحبه كان دليلًا على التستُّر. زلَّاتٌ مُريبةٌ كهذه هي أساس الكثير من نظريات المؤامرة. فلو كانت المؤامرة محبوكة تمامًا، برغم كل شيء، ولو لم يُفلت من أيدي المتآمرين دليلٌ واحد أبدًا، لما علم أحد قطُّ بما يصنع المتآمرون. أوضح لورين كولينز هذه الفكرة بجِلاء عندما قال إن المؤامرة دائمًا ما تكون على ما يبدو «على قدر من الكفاءة والقوة والتأثير على النحو الذي أراده صاحبُ نظرية المؤامرة.»

الشر يكمن في جميع الأشياء

أخبر البروفسير ديفيد راي جريفين الجماهير خلال جولة عام ٢٠٠٥ للترويج لكتابه «بيرل هاربر الجديد: أسئلة مقلقة عن إدارة بوش وأحداث ١١ سبتمبر» الذي جذب قاعدةً

عريضة من القراء، وأخبر جماهيره قائلًا: «من الممكن فعليًّا أن تعرف شيئًا مهمًّا جدًّا لا يدَع مجالًا للشك. كان تدمير مركز التجارة العالمي عملًا داخليًّا، أداره إرهابيون محليون.» واختتم جريفين قائلًا: «رفاهية جمهوريتنا وربما حتى بقاءُ حضارتنا يعتمدان على فضح حقيقة ما جرى في ١١ سبتمبر.» قُوبل كلامه بعاصفةٍ من التصفيق الحار.

البروفسير جريفين هو الوجه الأكاديمي والصوت الهادئ لحركة حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ألكس جونز، وهو رجل من ولاية تكساس ذو صوت غليظ له عرضٌ إذاعي يومي يبثه العديد من المحطات الإذاعية المحلية، يُضيف مزيدًا من الجرأة لما يحدث. فقد أمسك جونز بمكبرٍ للصوت في احتشاد المناصرين لحركة حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر وسط شيكاغو، وأخبر المارة بأن «الحكومة تُنفِّذ هجماتٍ إرهابيةً كذريعة لتحويل أمريكا إلى دولة بوليسية. لماذا؟ كي تأسِرَنا، كي تجعلنا رقيقًا سياسيِّين، كي تستخدمنا كمحركٍ لإمبراطورية عالمية، كي تغزوَ الكوكب. السيدات والسادة، ١١ سبتمبر مؤامرة داخلية.»

التهويل المُروع نهجٌ اعتاد عليه جونز وجريفين. فالمزاعم المهيجة للمشاعر هي عنصرٌ محوري من عناصر النهج المؤامراتي، بدءًا من فِرية الدم المعادي للسامية وصولًا إلى نظريات المؤامرة الأولى كاملةِ الأركان التي ظهرت في أعقاب الثورة الفرنسية. جون روبينسون هو مؤلِّف إحدى الأطروحات المناهضة للمتنورين التي أشرنا إليها في الفصل الأول (وكان استخدامه المتحرِّر للحروف الكبيرة من أجل إيصال مدى عِظم إفشاءاته إرهاصًا لإساءة استخدام مفتاح الحروف الكبيرة بعد مرور قرونٍ من جانب معلِّقي الإنترنت الغاضبين)، كتب يقول: «تشكَّلت جمعيةٌ من أجلِ غرضٍ صريح وواضح، وهو اقتلاع جميع المؤسسات الدينية والإطاحة بجميع حكومات أوروبا الحاليَّة.»

ويمكن أن تكون المؤامرة شيئًا ضروريًّا ومحمودًا. فالناس يتآمرون لإقامة حفلات مُفاجئة لأصدقائهم. والوكالات الاستخباراتية تتآمرُ لحماية الأمن القومي (على الأقل نظريًّا). وبرغم ذلك، فالمؤامرات القاسية والمدمرة شائعة، بدءًا من المكائد التي يُدبِّرها أحد الأزواج لقتل زوجته من أجل صرفِ بوليصة التأمين على الحياة، وصولًا إلى الأعمال الإرهابية الشنيعة. وأحيانًا يتطلب الأمرُ السرِّيةَ وذلك يرجع تحديدًا إلى كون الفعل المُتستَّرِ عليه مشبوهًا من الناحية الأخلاقية. لكن حتى هذه الأنواع من المكائد غالبًا ما تكون محدودة في الطموح والنطاق. تلخِّص إيما جين وكريس فلمينج، الباحثان المختصان في المؤامرات نوعَ النشاط المؤامراتي الذي نعرفه. فيقولان: «حسب علمنا، نحن لا نعيش في

عالمٍ تعتمل فيه مؤامرة قوية أو اثنتان، لكننا نعيش في عالمٍ تعتمل فيه ملايينُ المؤامرات الصغيرة — وربما بعض المؤامرات المتوسطة — التي لا تهدأ أبدًا.» ويُضيفان أن أغلب المؤامرات الحقيقية «مبتذلة وتافهة ولا تستحق التنظير بشأنها.»

والنهج المؤامراتي ليس لديه وقتٌ لمثل هذه التفاهات. فنظريات المؤامرة تتَّسم عمومًا بنوعية متآمرين أكثرَ مكرًا وطموحًا. وعلى أقل تقدير، يُقال إن المتآمرين لديهم سِمةٌ بارزة من سمات مكيافيللي. فهم «لديهم غنيمةٌ تستحق التدليس من أجلها، ولديهم الإرادة والقدرة على الحصول عليها مهما كلَّفهم الأمر.» على حد قول جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت. فأصحاب نظرية المؤامرة لديهم لازمةٌ تتردَّد كثيرًا وهي: مَن المستفيد؟ فأي شخص يرون أنه يستفيدُ من موقفٍ ما يُعد تلقائيًّا في نظرهم مشتبهًا به. وإمعانًا في المكيدة، كثيرًا ما يظهر أن الأوغاد هم الأفراد أو المؤسسات التي نتوقَّع منها عادةً أن تتصرف بما هو في الصالح العام، على غرار الزعماء الذين تولَّوا مناصبَهم بانتخابات ديمقراطية، ومقدمي خدمات الرعاية الصحية، ووسائل الإعلام. وفي كثير من الأحيان، فإن تسويغ نظريات المؤامرة قد يؤدِّي إلى تبرير الإطاحة بحكومات بأكملها، وحلِّ مؤسسات وصناعات برمَّتِها والملاحقة الجنائية لها، وإعادة كتابة التاريخ.

وفي الحالات المتطرفة، تصبح نظريات المؤامرة «التعبيرات الجامعة المانعة لكل أشكال الشر المنظَّم التي تجعل من الفساد السياسي في فضيحة ووترجيت يبدو وكأنه كذبة طائشة تافهة.» على حد قول جين وفلمينج. فنحن لا نتعامل مع مجرمين عاديِّين. فطموحهم الخبيث يتجاوز مجرد المكائد اليومية التي تُولَد من رحم المصلحة الذاتية والتنافس والفساد والقسوة والإجرام. فهؤلاء أوغادٌ يبدو وكأنهم قد خرَجوا من صفحات أحد الكتب المصورة. فهم متَّهَمون بأنهم يتسببون في جميع العلل التي نُعانيها، ويرتكبون جميعَ الأعمال الوحشية المقيتة غير المتصورة على نحوٍ روتيني ويسعَون في نهاية المطاف لتقويض أو تدمير كل شيء نعتزُّ به. فالعالم، في نظر أصحاب نظريات المؤامرة، يعجُّ بالأخطار الجسيمة والمبادئ الأخلاقية المطلقة. فنحن جميعًا في مواجهة الشر المتجسِّد بكل أركانه. كتب بول زاوادزكي، اختصاصيُّ العلوم السياسية، يقول: «يمكن للمرء أن يقول على سبيل المفارقة إن [نظريات المؤامرة] أعادت الشيطان، لكنه في هذه المرة شيطانٌ بشري.» إذا شعرت بأن هذا نوعٌ من المبالغة، فقط أنصِتْ إلى ديفيد راي جريفين، الأكاديمي الهادئ: «لقد استحوذت علينا قوة شيطانية، وأصبح تركيزنا مُنصبًّا للغاية على شهوة الثراء والسيطرة بحيث أضحى كل شيء تقريبًا ممكنًا.»

البحث عن الأشياء الغريبة

لاحظ ريتشارد هوفستاتر «المساعي البطولية» من جانب أصحاب نظريات المؤامرة لتجميعِ أدلةٍ تدعم مصالحهم. ويقول جوفان بايفورد: «لا ينظر أصحاب نظريات المؤامرة إلى أنفسهم باعتبارهم رواةً لقصصٍ مغوية، ولكن يعتبرون أنفسهم باحثين ومحقِّقين.» فثمَّة منظومات كاملة كرَّسَت نفسها لأحداثٍ مثل اغتيال كينيدي وهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وغير ذلك من نظريات المؤامرة التي لا تُحصى. ويمتلك أكثرُ المتآمرين التزامًا معرفة تفصيلية ودقيقة بموضوعهم، تفوق بكثير، في أغلب الأحيان، معرفةَ مناهضيهم. فلو جادلت أحدَ أنصارِ حركةِ حقيقةِ أحداثِ الحادي عشر من سبتمبر، فربَّما تبهرك قائمةٌ لا تنتهي من الحقائق والحجج التي تُشير بوضوحٍ في اتجاه المؤامرة باعتبارها التفسيرَ الوحيد. لكن النهج المؤامراتي لا يتعامل مع جميع الأدلة على نحوٍ متكافئ.

في الساعة ٤:٥٤ بتوقيت المنطقة الزمنية الشرقية، ظهيرة يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كانت مراسلة هيئة الإذاعة البريطانية في مدينة نيويورك، تقف على مسافة من رُكام البرجَين التوءمين خلفها الذي ينبعث منه الدخان، وقالت إن ناطحة سحاب ثالثةً قد انهارت للتو؛ وكانت تقصد المبنى السابع في مركز التجارة العالمي. المشكلة الوحيدة في تقريرها هي أن المبنى السابع لم يكن قد انهار بعد. في الواقع، كان من الممكن أن نرى في الخلفية، من أعلى كتفِ المراسِلة، جزءًا كبيرًا لا يزال قائمًا. لو كانت هذه نهاية القصة، لكان التقرير الخاطئ قد أصبح في طيِّ النسيان على الأرجح منذ وقت طويل. لكن بعد مضي ٢٦ دقيقة من ذلك، وتحديدًا في الساعة ٥:٢٠؛ وبعد انقضاء خمس دقائق فقط من انقطاع الإرسال لسببٍ غامضٍ بين المراسِلة واستديو هيئة الإذاعة البريطانية في لندن، انهار المبنى.

التقرير السابق لأوانه عن انهيار المبنى السابع هو مثالٌ نموذجي لنوعية الأدلة التي تستند إليها نظريات المؤامرة. وبالنِّسبة إلى الرواية الرسمية، فليس للتقرير أيُّ أهمية حقيقية. فالأمور كانت مُلتبِسة في وسط منهاتن، وكان معلومًا أن المبنى في حالة سيئة، وكان التقرير بشأن انهياره مجردَ خطأ. لكنه وفقًا لبعض نظريات المؤامرة، فإن التقرير يُفيد كثيرًا في فهمنا لهجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ فهو دليل. فأشياء كهذه — تفاصيلُ تبدو غريبةً ولا تستطيع الرواية الرسمية تفسيرها على الفور — بمثابةِ شريانِ حياة لنظريات المؤامرة. وكلُّ شيء تافهٍ غريب يولِّد سلسلةً من الأفكار التي تقود إلى نتيجةٍ مفادُها أن الأمر برمَّته مؤامرة. فوفقًا لنظريات المؤامرة، يُشير التقرير الخاطئ عن المبنى السابع، إلى أن هيئة الإذاعة البريطانية كانت على علمٍ بما سيحدث، وأن المراسِلة استبَقَت

النصَّ المكتوب لها؛ إحدى تلك الزلات البسيطة في مؤامرةٍ كانت ستصبح بلا ثغرةٍ لولاها. وإذا كان انهيار المبنى السابع قد خُطِّط له مسبقًا، فهذا يستتبعُ أن يكون قد خُطِّط أيضًا لانهيار البرجين التوءمين، وهو ما يعني أن الكارثة بأكملها دُبِّرت بدقةٍ من بدايتها.

أوضح الفيلسوف براين كيلي قائلًا إنه عن طريقِ استخدام كلِّ شيء غريب وتافه في نسج نظرية جامعة كبيرة، يمكن أن تبدوَ نظريات المؤامرة أقوى من الروايات الرسمية لمجرد تكامُلَ أركانها. فنظريات المؤامرة «دائمًا ما تعطي تفسيرًا يفوق النظريات المنافسة؛ لأنه من خلال ادعاء مؤامرة، يمكن لنظريات المؤامرة أن تُفسِّر كلًّا من بيانات الرواية المتلَقَّاة والبيانات الشاذة التي تعجز النظرية المتلقاة عن تفسيرها.» لكن كيلي يستدرك قائلًا إن هذه الميزة الظاهرية مجردُ وهم. فيمكنك أن تجد أشياءَ غريبة وشاذة في كل مكان إذا اجتهدتَ في بحثك. وفهمنا للأحداث المعقَّدة سينطوي دائمًا على أخطاءٍ وتناقضاتٍ وثغرات. فالتاريخ مشوش والبشر غير معصومين. ويختتم كيلي بقوله: «استنادًا إلى طبيعة فَهمنا للعالم التي يعتريها النقصان، ينبغي أن نتوقَّع أنه حتى أفضل النظريات المحتملة قد تعجز عن تقديم تفسير لجميع البيانات المتاحة.»

هذا ليس معناه أن مثل هذه الأشياء الغريبة عديمةُ القيمة في جوهرها. فكثير من الاكتشافات العلمية والتحسينات تنشأ من اكتشاف بيانات غريبة تعجز عن تفسيرها النماذجُ الحاليَّة. لكن النهج المؤامراتي يُضفي أهميةً بالغة على كل شيء ضئيل غريب، مستخدمًا إياه في إلقاء ظلالٍ من الشك على التفسير السائد بأكمله. لا يمكن أن تُصبح القيمة الحقيقية للشيء الغريب موضعَ تقييمٍ عادل إلا من خلال وضعه في سياق الحقائق التي يبدو أنه يُشكك فيها.

كمثالٍ على هذا، بعض الخبراء المهتمين باغتيال جون كينيدي يُولون أهميةً كبيرة للحقيقة القائلة بأنه في ذلك اليوم، صرَّح بعضُ المارة في حديقة ديلي بلازا في دالاس بأنهم سمعوا أكثر من ثلاث طلقات نارية؛ وهو الأمر الذي إذا ثبَتَت صحته — واستنادًا إلى إطلاق لي هارفي أوزوالد ثلاثَ طلقات نارية حسبما يُفترض — فإنه يمكن أن يُلقيَ بظلالٍ من الشك حول النتائج التي توصَّلت إليها لجنةُ وارين والتي تُفيد بأن أوزوالد عمل بمفرده. وبناءً عليه، تُعطى أدلة شهود العيان هذه أولويةً على الأدلة الأخرى التي تشير إلى وجود مؤامرة. ما لا تُعنى نظريات المؤامرة بذكره (أو تعزوه إلى التستر) هو حقيقة أن خمسةً في المائة فقط من الشهودِ هم مَن صرَّحوا بسماعهم أربع طلقات نارية أو أكثر. وقد سمِع ٨١٪ من الشهود ثلاث طلقات.

الغلَبة في جميع الأحوال

يشتهر إيرل وارين بدوره الشرفي في لجنة وارين، وهي أول لجنةِ تحقيقٍ رسمية في اغتيال كينيدي. ونظرًا إلى جهوده، فقد أصبح وارين شخصيةً محورية في كثير من نظريات المؤامرة التي حِيكَت حول اغتيال كينيدي؛ حيث أُعطي الدور الرئيس في عملية التستُّر الكبيرة. لذا فمِن المفارقة أنه قبل عقدَين من ذلك الوقت، كان وارين مثالًا صارخًا — وذا أهمية كبيرة — للعنصر الأخير من عناصر النهج المؤامراتي الذي سنجعله جزءًا من تعريفنا. فنظريات المؤامرة تتمحورُ حول منطقٍ لا يمكن مهاجمته أو دحضه، وبناءً عليه لا شيء على الإطلاق ينفي المؤامرة؛ حتى الأدلة التي تُثبت العكس.

في ١٩ فبراير ١٩٤٢، وقَّع الرئيس فرانكلين روزفلت الأمرَ التنفيذي رقم ٩٠٦٦ الذي يُخوِّل وزير الحرب بتحديد بعض أجزاء البلاد كمناطقَ عسكرية يجوز أن يُمنع منها جميع الأشخاص. وبرغم صياغته الغامضة، كان الأمر التنفيذي يستهدف مجموعةً محدَّدة من الأشخاص. فقد طُرد أكثر من ١٠٠ ألف شخص ذَوي أصول يابانية — أكثر من نصفهم كانوا مواطنين أمريكيين — من منازلهم وأُرسلوا إلى معسكرات اعتقال. اعتُبر هذا الإجراء الصارم ضروريًّا نظرًا إلى أن الأمر التنفيذي رقم ٩٠٦٦ أوضح أن «الاستكمال الناجح للحرب يتطلب جميعَ أوجه الحماية الممكنة من التجسُّس والتدمير» على الجبهة الداخلية.

إذن ماذا كان الدليل على أن الأشخاص ذوي الأصول اليابانية كانوا يتآمَرون لتقويض الجهود الحربية؟ لم يكن قد وقعت أيُّ أعمال تخريبية خلال الأسابيع الستة التي أعقبت الهجوم الياباني على بيرل هاربر، وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد توصَّل إلى عدم وجود أدلةٍ على أي تهديدات أمنية. لكنه بالنِّسبة إلى نظريات المؤامرة، فإن عدمَ وجود أدلة معناه أن المؤامرة تسير بفعاليَّة. وكان إيرل وارين، المدعي العام لولاية كاليفورنيا آنذاك، أحد أقوى المدافعين عن الاعتقال. فقد قال وارين في شهادته أمام الكونجرس: «للأسف، كثيرون مِن شعبنا وبعضٌ من مسئولينا يعتقدون أنه نظرًا إلى عدم وجود أيِّ أعمال تخريبية وعدم وجود أي نشاط للطابور الخامس في هذه الدولة منذ بَدْء الحرب، فإن ذلك معناه أنه ليس هناك أحدٌ يُخطِّط ضدنا. لكنني أتبنَّى وجهة النظر القائلة بأن هذا أوضح دليل ينذر بشؤم في موقفنا برمَّته.» أخبر وارين اللجنة بأن كلَّ ما هنالك أن المخربين ينتظرون اللحظةَ المواتية لتوجيه ضربتهم. أوضح وارين: «أعتقد أن تلك محاولةٌ لإشعارنا بحالة زائفة من الأمن.»

أنصار حركة حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر لديهم ريبةٌ مشابهة إذ يعتقدون بوجودِ أدلة مفقودة، كما عبَّر عن ذلك المذيعِ الإذاعي تشارلز جويت في لقاءٍ محتدم عام ٢٠٠٦ مع ديفيد كوبيرن، أحد مراسلي مجلة «بوبيولار ميكانيكس» الذي كان يعمل على تأليفِ كتابٍ يدحض نظرياتِ المؤامرة حول الهجمات. اختلف الاثنان حولَ أهمية الأدلة المحجوبة. فقد تساءل جويت في حنقٍ: «اللعنة! لقد مرَّت خمسةُ أعوام. متى سيطَّلع الشعب الأمريكي على الأدلة؟» وبدأ كوبيرن في الرد قائلًا: «أعتقد أن هناك كفايةً من الأدلة المتاحة التي تُفسِّر ما حدث.» لكن جويت قاطعه بقوله: «حسنًا، لسنا مهتمِّين بالأدلة التي عرَفناها، لكننا مهتمون بالأدلة التي لم نعرفها. ما يَعنينا هو الأدلة المحجوبة.»

وإذا كان عدم وجود أدلة دليلًا على المؤامرة، فإنَّ وجود أدلة مُناقضة يمكن أن يكونَ حتى أكثر إدانة. فبالنِّسبة إلى الكثيرين من أنصار حركة حقيقة أحداث الحادي عشرَ من سبتمبر، كانت التحقيقات الرسمية في أفضلِ الأحوال متحيزةً ومنقوصة عن عمدٍ، وفي أسوأ الأحوال، انطوَت على تدليس، في حينِ أن فيديوهات أسامة بن لادن التي اعترف فيها بمسئوليته عن الهجمات كانت مفبرَكة حيث استُخدم شبيهٌ له. ووفقًا للمنطق المؤامراتي، فإن الإنكار المباشر من جانب المتآمرين المتهمين يمكن حتى تفسيره بأنه اعترافٌ ضِمني بالجريمة. فقد أشارت مذكرة من مذكرات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لعام ١٩٦٧ التي تتناول موضوع نظريات مؤامرة اغتيال كينيدي، والتي أُرسلت إلى العملاء الخارجيِّين، أن أي مؤامرة جديرةٍ بهذا الوصف كانت لتُنظِّم عملية الاغتيال بطريقة مختلفةٍ للغاية. («فأوزوالد لم يكن ليُصبح الخيارَ الصحيح للشخص المتآمر لدى أيِّ إنسان عاقل»، مثلًا.) لكن بالنِّسبة إلى لانس ديهافن-سميث، مؤلف كتاب «نظرية المؤامرة في أمريكا»، فإن الحقيقة القائلة بأن عمليةَ الاغتيال بدَت غيرَ متقنة، هي، على النقيض، دليلٌ على أن العملية تمَّت على أيدي أشخاصٍ محترفين. كتب ديهافن-سميث يقول: «عملية الاغتيال كانت تنطوي على جميع سِمات الخبرة الحقيقية، وهي القدرة على استخدام المعرفة الخبيرة والمهارات في الوقت الذي يبدو فيه المرء مجرد هاوٍ.»

بفضل منطق العزل الذاتي هذا، فإن محاولة دحض نظرية المؤامرة أمرٌ مستحيل. فبما أن نظريات المؤامرة غيرُ مُثبتة جوهريًّا، فإن النظرية دائمًا ما تكون في حالةِ اعتمال؛ إذ تكون قادرةً على مواجهةِ أيِّ محاولة لدحضها عن طريق اختلاق التواءات وانعطافات جديدة. فكل محاولة لدحضها ستُفسَّر على أنها محاولةُ تضليلٍ للباحثين عن الحقيقة، في حين أن الإخفاق المتواصل من جانب أصحاب نظريات المؤامرة في إماطة اللثام عن المؤامرة

لا يدل إلا على مدى قوة ونفوذ أعدائهم (وسذاجة عموم الناس). ولا تتمتَّع نظريات المؤامرة بحصانةٍ من الدحض فحسب؛ بل هي تزدهر بسببه. فإذا ما بدا الأمر مؤامرة، فهو مؤامرة. وإذا لم يبدُ مؤامرة، فهو بالتأكيد مؤامرة. فالأدلة ضد نظرية المؤامرة تصبح أدلةً على وجود مؤامرة. فهي صائبة في كل الأحوال.

تعريف مناسب

عرَضْنا إذن ستةَ عناصر حاسمة للنهج المؤامراتي. لكن قبل تقييم الموقف والمضيِّ قُدمًا، ثمَّة تحذيرٌ واجب هنا. الوصول إلى قائمةِ مراجعة يُمكن أن يُعطيَ انطباعًا زائفًا بالموضوعية، أو بعبارة أخرى: الشعور بأن بحوزتنا صورةً لملامحِ وجهِ مَن نبحث عنه؛ أو ما يُطلق عليه بيتر نايت الباحث في نظريات المؤامرة نهجَ «كيف تستنتج أنَّ جارك شيوعي». لكن إيما جين وكريس فلمينج يوضِّحان أن «المؤامرات ونظريات المؤامرة تتباينُ بشدة في مدى مصداقيتها ونطاقها وتأثيرها، وهي تُشبه أحيانًا اختبارَ بقع الحبر لرورشاك. فكل محلِّل ينظر إليها ويُفسِّرها بطرق مختلفة.» وتعريف مفهوم غامض مثل نظريات المؤامرة مسألةٌ ذاتية. إذن انظر إلى الخصائص الستِّ التي أوردناها هنا باعتبارها قواعدَ مُجرَّبة لا باعتبارها قوانينَ ثابتة.

وإضافة إلى ذلك، في حين أن بعض نظريات المؤامرة عبارةٌ عن أطروحات مُسهبة وجامعة وتفصيلية ومُستفيضة، فإن البعض الآخر منها يظهر في صورةِ تعبير عن إحساس داخلي، أو بعبارة أخرى: شيء من قبيل تكتيك «أطرح سؤالًا فحسب». فبدلًا من افتراضِ رواية متماسكة، يطرح صاحب نظرية المؤامرة هنا أسئلةً تُثير فيما يبدو مشكلاتٍ تتعلق بالرواية الرسمية — ويكون ذلك مغلفًا دومًا بافتراضٍ ضِمني أن شخصًا ما يكذب — تاركًا مهمةَ فَهْم التفاصيل إلى السامع. هذا التكتيك، وفقًا لعالم النفس مايك وود، اكتسب فيما يبدو رَواجًا مع ظهور شبكة الإنترنت؛ حيث يمكن دحضُ نظريات المؤامرة فور طرحها، ويمكن أن يُفيد الغموض كدرعٍ واقيةٍ من النقد. لكن هذه ليست استراتيجية جديدة. ولا تُستخدم فحسب كآلية دفاعية رخيصة من جانب الأشخاص الذين يفتقرون إلى الجَلَد في الخصومات الفكرية. الفيلسوف البريطاني برتراند راسل، الحائز على جائزة نوبل في الأدب، اشتهَر عنه أنه شكَّل لجنة حول المُتسبِّب في مقتل كينيدي ونشر مقالةً بعنوان «١٦ سؤالًا حول عملية الاغتيال»، ألمحت إلى أن أوزوالد كان مغفَّلًا وأن لجنة وراين كانت متسترة.

يجدر بنا التأكيدُ على أنه ليس هناك خصيصةٌ واحدة — في حد ذاتها — من الخصائص التي تحدَّثنا عنها — تُميز بين حقيقة المؤامرة ووهم المؤامرة. ومجرد انطباق المعايير الستة على زعمٍ ما، ليس معناه أن ذلك الزعم صحيح. تجدر الإشارة أيضًا إلى أن أصحاب نظريات المؤامرة يُواجهون عددًا من المشكلات الفريدة من نوعها. فأولًا، في حين تنحرف نظريات المؤامرة عن المسار الطبيعي الذي يسير العالم فيه على ما يبدو، فإن المؤامرات التي نعرفها فقط هي تلك التي لم تكن جيدة بما يكفي؛ فإما أن تكون قد أُفسِدَت، وإما أن يكون أحدٌ قد أفشى سرَّها، وإما أن تكون قد حققت هدفها ولم يَعُد هناك حاجةٌ إلى سريَّتها. فعندما تكون المؤامرة جيدةً بحق، على حدِّ قول أصحاب نظريات المؤامرة، فإننا ربما نبقى عاجزين عن إثباتها إلى الأبد. وثانيًا، يوضِّح براين كيلي أنه على العكس من العلماء القدامى الملِّين الذين يرتدون معاطفَ لمختبراتهم ويحملون أنابيبَ اختبار، لو أن أصحاب نظريات المؤامرة محقُّون بشأن نظرياتهم، فإنهم ينخرطون في بحثٍ يُحاول شخصٌ آخر بقوة أن يُعرقله: «تخيَّل أن النيوترينوات لا يصعب رصدُها فحسب، بل تسعى جاهدةً لئلا تُرصد!» (علامات التعجب غيرُ معهودة في الأبحاث الأكاديمية، لكنه من غير المعتاد أن يحظى الباحثون بفرصةِ تخيُّل صورة ذهنية لمجموعة من النيوترينوات المراوغة.) وفي ضوء ذلك، تفسير الأدلة التي تنفي حدوثَ مؤامرة على أنها أدلة تُثبت حدوث مؤامرة لا يفتقر بالضرورة إلى العقلانية إلى هذا الحد.

فرفضُ كلِّ زعمٍ بوجودِ مؤامرةٍ دون تروٍّ قد يكون بقدْر الخطأ نفسِه الذي ينطوي عليه القَبولُ بلا تمحيص. فأحيانًا تخدع المظاهر بحقٍّ. فبعض القُوى المؤثِّرة تُحاول أحيانًا حجب الأدلة وتضليلَ الناس. وأحيانًا، تحدث على أرض الواقع مكائدُ خبيثة لا يمكن تصديقها أو تصوُّرها. فعملية «نورثوودز» التي لم يُخطَّط لها بعناية (فضلًا عن عدم قانونيتها ولا أخلاقيتها) تبدو أشبهَ بالمادة التي حيكت منها أكثرُ نظريات المؤامرة غرابة؛ باستثناء حقيقة أنها كانت مدبَّرة في واقع الأمر من قِبَل مسئولين حكوميِّين رفيعي المستوى. (لحسن الحظ، أن مسئولين كبارًا يَعْلونهم منصبًا رفضوا تنفيذ الخطة؛ لكننا سنرى — لاحقًا في الفصل الخامس — مثالًا مزعجًا لخطةٍ غيرِ أخلاقية حققت نجاحًا على أرض الوقع.)

وصفُ شيءٍ ما بأنه نظرية مؤامرة كثيرًا ما يُستخدَم لاستبعادِ زعمٍ ما باعتباره مثيرًا للسخرية. كنت أتمنَّى أن أُقدِّم تعريفًا أقلَّ ازدراءً. وبرغم ذلك، فإن تعريفنا ليس محايدًا بالكامل. فيبدو من العدالة أن نقول إن هناك علاقةً عكسية على الأرجح بين مدى

إظهارِ نظريةٍ ما كلَّ خصيصة من خصائصنا الستِّ ومدى معقوليتها. وبعبارة أشمل، كلَّما زادت واقعية الزعم، زادت احتمالاتُ أن يكون صحيحًا.

وفي جميع الأحوال، تُثير نظريات المؤامرة قدْرًا بالغًا من الاهتمام، والسبب في ذلك تحديدًا هو أن نظريات المؤامرة توجد على طولِ مقياسٍ متدرِّج للمعقولية، ولأنه لا يوجد خطٌّ واضح في الرمل يفصل بين حقيقة المؤامرة ووهم المؤامرة. في الواقع، تُعد النظريات الشاملة للخدع المُروعة التي تفتقر إلى أدلةٍ مثيرةٍ — أو بعبارة أخرى: النظريات التي تنسجم على نحوٍ أمثلَ مع تصوُّرنا عن نظرية المؤامرة — هي أقلُّ شيءٍ يتمخَّض عنه النهج المؤامراتي إثارةً للاهتمام. وكما سنعرف من خلال ما تبقَّى من هذا، فإنه حيثما يكون الحاجز بين الفكر التقليدي والفكر المؤامراتي في أكثر حالاته تشوشًا — أو بعبارة أخرى: حيثما تبلغُ صعوبة التمييز بين المعقولية وجنون الارتياب مداها — نكون على استعدادٍ لتعلُّم الكثير والكثير عن آلية عمل عقولنا.

وبوضعِ كلِّ المحاذير في الاعتبار، هيا نُعِدْ وصفَ نظرية المؤامرة بشيء من الإيجاز. نظرية المؤامرة، بمفهومها الأساسي، هي سؤال بحاجةٍ إلى جواب؛ فهي تفترض أنه ما من شيءٍ على حاله الظاهر؛ وتصوِّر المتآمرين بأنهم ذَوو كفاءة منقطعةِ النظير، ويُحرِّكهم كمٌّ هائل من الشرور، ونظرية المؤامرة تقوم على أساس تصيُّد الأشياء الغريبة، وهي غير قابلةٍ للدحض في نهاية المطاف. هذه الخصائص تُفيد كثيرًا في التفريق بين روايتين لأحداثِ الحادي عشر من سبتمبر اللتَين بدأنا بهما هذا الفصل. فحتى بالرغم من أن الزعم القائل بأن المختطفين المنتمين لتنظيم القاعدة تآمروا لشن الهجمات يطرح نظريةً عن مؤامرةٍ ما، فإن هذا الزعم لا ينسجم مع معاييرِ نظرية المؤامرة، في حين أن الزعم القائل بأن الهجمات كانت عمليةً داخلية مدبرة ينسجم مع الوصف تمامًا.

والأهم من ذلك أنه عن طريق معرفة الدوافع التي تقفُ وراء نظريات المؤامرة؛ فقد كشفنا بعضَ الدلائل حول الدوافع المحرِّكة لأصحاب نظريات المؤامرة. فنظرياتُ المؤامرة على هذا النحو؛ لأنها نِتاجٌ لخيال شخصٍ ما، وهي تلقى رواجًا لأنها تنسجمُ مع خيالات الآخرين. وخيالنا — نوع الأفكار التي نجدها جذابة ومعقولة — تقيده سيكولوجيتنا. فحتى تقتنع بزعمٍ يفي ببنود تعريفنا، قد يكون من المفيد مثلًا أن تنفتحَ على جميع مزاعم التآمر غير المُثبتة، إذا كنت معتادًا على رفض الرأي السائد، وإذا كنت تظن أنه لا شيء يحدث عن طريق الصدفة، وإذا كنت تعتزم الدخول في مواجهةٍ مع الشر، وإذا كنت

ترغب في تفسير الأشياء الغريبة، وأيضًا إذا كنتَ قادرًا على الاحتفاظ بقناعاتك مهما كانت الأدلة (أو إن غابت الأدلة).

ما نوعية الناس الذين يَميلون للتفكير بهذه الطريقة، وما السبب؟ هذان سؤالان عكف علماءُ النفس على دراستهما، على مدار عقود، بطريقةٍ ما أو بأخرى. والإجابة عن السؤال الأول هي: نحن جميعًا، بدرجةٍ ما أو بأخرى. أما فيما يخص معرفة السبب وراء تفكيرِنا بهذه الطريقة، فالأمر يحتاج إلى مزيد من التوضيح.

الفصل الرابع

العقلية المؤامراتية

«إذن هل يوم نظرية المؤامرة مجردُ اجتماعٍ بريءٍ لأشخاصٍ متشابِهي التفكير، أم شيءٌ أفظع وأشدُّ غموضًا من ذلك بكثير؟» كان الارتياب يتصاعد على أحدِ منتديات الإنترنت التابعة لإحدى القنوات التليفزيونية الفضائية البريطانية الغامضة والتي توقَّف نشاطها حاليًّا — قناة «كونتروفيرشال تي في»، القناة ٢٠٠. وقال مستخدمٌ آخر: «كلما فكرتُ في هذا الأمر، أشعر بمزيد من عدم الارتياح.» وتساءل مُعلِّق يُطلق على نفسه «أنجريهيد»: «هل من الممكن أن يكون المؤتمر الوشيك في لندن خطوةً صامتة نحوَ وضعِ أسسٍ للإقصاء المستقبلي ثم الاضطهاد لأصحاب نظريات المؤامرة من خلال نظام الدولة؟»

المؤتمر الذي كانوا يتحدثون بشأنه كان يتضمن سلسلةً من الأحاديث عن الإيمان بنظريات المؤامرة، يُلقيها لفيفٌ من الأكاديميين وكنت واحدًا من بينهم. لكنه قبل بدء المؤتمر، استرعى انتباهَ منظِّم الحدث التدقيقُ الذي كانت تحظى به أجندتُنا. وبروح الانفتاح والشمولية، وجَّه دعوةً. فقد أشار بإرسالِ متحدثٍ يُمثِّل وجهة النظر الأخرى. وقد حضر إيان آر كرين. ووفقًا لموقعه الإلكتروني، فإن كرين «مسئول تنفيذي سابق في مجال النفط، وهو يُحاضر حاليًّا وله مؤلفاته، كما تُذاع له أحاديثُ حول الشبكات الجيوسياسية التي تُحاك في الوقت الراهن، مع تركيزه الخاصِّ على الهيمنة الأمريكية وأجندة النظام العالمي الجديد للسيطرة على موارد العالم.»

الجمهور المعتاد لمثل هذه النوعية من الفعاليات يضمُّ في الأساس باحثين وَديعين لديهم اهتمامٌ بالعلوم الاجتماعية. لكنه بفضل الجدل الذي كان دائرًا على المنتدى المذكور، ومشاركة إيان، كان من بين الحضور مجموعةٌ من متابعي قناة «كونتروفيرشال تي في» الذين كانوا يعتقدون أننا جميعًا أبواقٌ حكومية. وكان التوترُ واضحًا. كنتُ المتحدثَ الأول في هذا اليوم، ويمكنني أن أضيفَ قائلًا إنني كنت حينذاك طالبًا في مرحلةٍ مبكرة من

الدراسات العليا للحصول على درجة الدكتوراه، وكنت بريءَ الملامح حيويَّ المظهر. كانت تلك أولَ تجرِبة لي في الخطابة. ونظرًا إلى شعوري بأنني أواجه موقفًا لم أتهيَّأ له تمامًا، خطرت ببالي فكرةٌ حسبتُها جيدةً بأن أستهلَّ كلامي بشيء طريف. قلت إنه من اللطيف أن أرى المتحدثين الآخرين؛ إذ لم نجتمع في قاعة معًا منذ مؤتمر بيلدربيرج. لكن فكرتي لم تُفلح كثيرًا.

يتعين عليَّ أن أقول إن وجود إيان وتنوُّع الرؤى بين الوفود كان عاملًا مهمًّا في خروج المؤتمر بشكل جيد. فقد كان هناك جدلٌ حيوي بين المتحدثين وأفرادٍ من الجمهور خلال المؤتمر، وكان حديث إيان الذي تمحورَ حول كيف أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت عمليةً داخلية مدبَّرة، بمثابة وجهة النظر المُعارضة لأحاديثِ الآخرين. ثم حانت اللحظة التي استرعَت انتباهي بشدة — ككثيرٍ من أكثر اللحظات إثارةً في الحياة — في المشرب بعد ذلك. فقد تحدثت مع أحد أفراد الجمهور الذين كانوا على يقينٍ من أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت عمليةً داخلية مدبَّرة. لكن اتضح لي، أنه لم يكن مُغرمًا كثيرًا بإيان آر كرين. سألته إذا كانت الحكومة تقف بالفعل وراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولماذا يُسمح لإيان بأن يتجولَّ في كل مكانٍ مخبِرًا هذا وذاك؛ ولماذا لا يُخرِسه المتآمرون وينتهي الأمر؟ نظر إليَّ ومال نحوي. قال إنه من الوارد جدًّا أن يكون إيان آر كرين يعمل لصالح الحكومة، محاولًا تجريدَ أصحابِ نظريات المؤامرة من المصداقية عن طريق إظهارهم بمظهر الحمقى.

هذه كانت مفاجأةً بالنِّسبة إليَّ. لم أشعر بالصدمة من أن زملائي الأكاديميين وأنا كنا موضعَ شك في أن نكون عملاءَ مدعومين من الحكومة لترويجِ معلوماتٍ مضلِّلة. كنا نقول في الأساس إنه ربما ليس هناك تسترٌ، وبرغم كل ذلك، هذا ما يُفترض أن أقوله كشخص يُمثل جزءًا من التستُّر المزعوم. لكن فكرةَ أن يكون شخصٌ ما يزعم أنه يسعى لفضحِ تستُّرٍ ما جزءًا من التستُّر الذي يسعى لفضحه تُمثِّل مستوًى آخر مختلفًا تمامًا من المراوغة.

كانت تلك هي المرةَ الأولى التي أصادف فيها هذا النوع من نظريةِ ما وراء المؤامرة. لكنه اتضح لي أن هذه فكرةٌ شائعة للغاية بين أصحاب نظريات المؤامرة المخلصين. في كتابه «إفشاءات: التواصل مع الكائنات الفضائية والخداع البشري»، يعتقد جاك فالي اختصاصيُّ علم الفيزياء الفلكية وعلم الأجسام الطائرة المجهولة الهوية أن الكثير من المزاعم الخاصة بمشاهدات للأجسام الطائرة المجهولة الهوية وعمليات الاختطاف

الخارجية هي جزءٌ من حملة التدليل الممنهجة التي تهدفُ إلى تقويض مصداقية الباحثين الجادِّين (أمثال فالي نفسه بطبيعة الحال) في مجال الأجسام الطائرة المجهولة الهُوية. فالمنطق يقول إن التخويف أو الترغيب أو القتل أو غير ذلك من وسائل إسكاتِ كلِّ صاحبِ نظريةِ مؤامرة يصطدم بالحقيقةِ غيرِ المعقولة؛ قد يكون مرهقًا ومكلِّفًا للغاية. ربما يكون من الأسهل تجريدُ الحركات المؤامراتية من مصداقيتها من داخلها، عن طريقِ نشرِ نظرياتٍ أكثرَ تعقيدًا وسخفًا وهزلًا، وأبعدَ ما تكون عن المعقولية؛ ومن ثَم تهيئة مناخ يُنظر فيه إلى أصحاب نظرية المؤامرة دومًا بأنهم مجردُ أشخاصٍ غريبي الأطوار لا يُلتفَت إلى كلامهم الفارغ. وكما يقول فالي، لا يمكنك أن تُوقف قطارًا مسرعًا بمجرَّد الوقوف أمامه. ربما تكون الوسيلة الفُضلى أن تصعد على متنه وتَزيد من سرعته إلى أن يفقدَ السيطرة ويخرج عن القضبان.

بل إن هناك حتى نظريةَ مؤامرة لِرَواج مصطلح نظرية المؤامرة نفسِه. فحسبما يقول لانس ديهافن-سميث، فإن الحقيقة القائلة بأن المصطلح جاء ليقترن بالتفكير المختل «كانت شيئًا مخطَّطًا له ومدبَّرًا من جانب الحكومة نفسها.» وعلى وجه التحديد، بدأ عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية الترويج سرًّا للمصطلح في ستينيَّات القرن العشرين «كحملةٍ تُدار من وراء الكواليس ضد نقَّاد لجنة وارين»؛ طريقة مختصرة لوصف الشخص الذي يزعم هذا بأنه مجنون. ووفقًا لبوب بلاسكيافيتش، الذي يُدرِّس مقرَّرًا عن نظريات المؤامرة بجامعة ويسكونسن أو كلير، بدأت هذه الفكرة في أواخر تسعينيَّات القرن العشرين، ومنذ ذلك الحين اكتسبت زخمًا. وفي كتابه الذي صدر عام ٢٠١٣ تحت اسم «نظرية المؤامرة في أمريكا»، يتحسَّر ديهافن-سميث قائلًا: «حملة وكالة الاستخبارات المركزية لترويج مصطلح نظرية المؤامرة وجعل الاعتقاد في المؤامرات هدفًا للسخرية والخصومة، تُعد للأسف أكثرَ مبادرات الدعاية نجاحًا في جميع الأوقات.» (وذلك بالرغم من أن ديهافن-سميث يعترف في الجملة التالية مباشرةً أن الناس يتشكَّكون في رواية القاتل الوحيد أكثرَ من تصديقها، وهو ما يبدو، على الأقل من وجهة نظري، أنه يُقلل بدرجةٍ ما أو بأخرى من نجاح الحملة المُغرضة المزعومة.)

كل هذا يُسلِّط الضوء على واحدة من السمات المحورية للعقلية المؤامراتية. فالمؤامراتية عدسة يمكن رؤية العالم من خلالها، وهي قادرة على تشويهِ كل شيء في مجال رؤيتها. فكل شيء — حتى ولو كان مؤتمرًا أكاديميًّا بسيطًا — يمكن أن يصبح جزءًا من المؤامرة، ويمكن أن يكون كل شخص متورطًا فيها، سواءٌ كان ينشر نظريات المؤامرة أو يكشف

زيفها. بطبيعة الحال، ليس كلُّ مَن يُصدِّق نظريات المؤامرة يسقط في قاع هذا الجحر الفكري الغائر. غير أنه، كما سنرى، العقلية المؤامراتية تدفع خبراء المؤامرة على تلطيخ كل شيء في أغلب الأحيان باللون ذاته؛ حتى عندما يكون هذا معناه الاعتقاد بأن كل شيء تذكره الصحف مؤامرة، أو تصديق قصص ملفَّقة عن مشروبات الطاقة أو الانسياق وراء نظرياتٍ يُعارض بعضُها بعضًا في الوقت ذاتِه.

هاشتاج العِلم الزائف

في ١٤ ديسمبر ٢٠١٢، قرَّر آدم لانزا، وهو شابٌّ مضطرب شُخِّصت حالته بأنه يُعاني متلازمةَ أسبرجر واضطرابَ الوسواس القهري، أن يقتل عددًا من الناس رميًا بالرصاص. وقتل والدته في منزلهم في نيوتاون، بولاية كونيتيكت، ثم اتَّجه بسيارته إلى مدرسة ساندي هوك للتعليم الأساسي؛ حيث أطلق الرصاص على ستةٍ بالغين و٢٠ طفلًا وأرداهم قتلى. وعندما وصلت الشرطة، أطلق لانزا الرصاصَ على نفسه.

استغرق الأمرُ من المحققِين أيامًا كي يجمعوا تفاصيلَ ما حدث ويُطلِعوا الجمهورَ على ما توصَّلوا إليه من معلومات. لكنه في الساعات التي أعقبت المأساة، كان الارتباك سيدَ الموقف. فقد تنافست وسائلُ الإعلام الإخبارية على إذاعة الأخبار الحصرية، ما أدَّى إلى نشر شائعات غير مؤكدة عن هوية الشخص أو الأشخاص المسئولين عما جرى ودوافعهم، ثم بعد ذلك بدقائق أو ساعات تراجعت تلك الوسائل الإعلامية عن المزاعم التي أذاعتها عندما أُعلنت نتائج التحقيقات. وعلى مدار اليوم، أُذيع خطأً أن ثمَّة قاتلًا ثانيًا تورَّط فيما حدث، وهو رجل قيل إنه يرتدي زيًّا عسكريًّا؛ وإن القاتل كان أبًا لطفلٍ في المدرسة؛ وإن والدة القاتل كانت معلِّمة في المدرسةِ ذاتِها. والأسوأ من ذلك، أنه اتُّهم لبضع ساعاتٍ، شقيق القاتل الفعلي، ويُدعى رايان لانزا، خطأً بأنه الجاني في حين أنه في حقيقة الأمر كان مستقلًّا حافلةً من مكتبه في منهاتن إلى منزله الجديد في نيوجيرسي؛ حيث دافعَ عن براءته بغضب وهياج شديد عبر موقع «فيسبوك».

ومع ذلك، حتى في ساعات الفزع التي أعقبت إطلاقَ النار مباشرة، لم يكن يشعر بعض الناس بأن ثمَّة حاجةً إلى مزيدٍ من التفسير لما جرى. فقد عرَفوا بالفعل مَن يقف وراء عملية إطلاق النار: الحكومة الأمريكية هي التي دبَّرت ما جرى. وسرعان ما غمرت المقالاتُ والتعليقات مواقعَ نظريات المؤامرة الإلكترونية؛ حيث زُعم أن القاتل (أو عددًا من القتَلة، على الأرجح) كان شخصًا ساذَجًا استغلَّته الحكومة تحت تأثير غسيل الدماغ.

وزعم أصحاب نظريات المؤامرة أن آباء الأطفال القتلى المفجوعين كانوا أشخاصًا يؤدون دَورًا قد رُسم لهم، وأن الرئيس أوباما كان يتظاهر بالبكاء خلال مؤتمر صحفي. وقد اعتبر البعض تراجع وسائل الإعلام عن المعلومات غير الصحيحة دليلًا على التستُّر. وأرسل أحد أصحاب نظريات المؤامرة رسالةً إلى والد آدم لانزا، مؤكدًا له أن ابنه قد جرى تخديرُه بواسطة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وأُجبر على ارتكاب أفعاله تلك بهدف كسبِ الدعم لقانون الرقابة على الأسلحة.

عندما تُعرَض الأحداث على الشاشات، فإن فرصة المحققين الهواة لاستخراجِ أدلةٍ على وجود مؤامرة تكون أكبر. في ١٥ أبريل ٢٠١٣، انفجرت عبوتان ناسفتان بالقرب من خط النهاية لماراثون بوسطن. قُتل ثلاثة أشخاص، وجُرح أكثر من ٢٠٠ آخرين. وخلال ساعة، كتب ألكس جونز أحد أصحاب نظريات المؤامرة المحترفين، على حسابه عبر موقع «تويتر»: «انفطرت قلوبنا على الجرحى والقتلى ... لكن ما حدث تفوحُ رائحته لتبلغ عَنان السماء #العلَم الزائف.» وفي عصر اليومِ نفسِه، خلال مؤتمر صحفي متلفز، سأل أحدُ زملاء جونز ويُدعى دان بيدوندي حاكمَ ولاية ماساشوستس ديفال باتريك ما إذا كان ما حدث «هجومًا داخليًّا آخَر لانتزاع حرياتنا المدنية وتعزيزِ الأمن الداخلي من خلال تشديد القبضة الأمنية علينا في الشوارع.» كانت إجابة باتريك القاطعة: «لا، السؤال التالي.»

على شبكة الإنترنت، أخذ آلافٌ من الناس يفحصون الصور التليفزيونية والفيديوهات الإخبارية وصور وفيديوهات الهواة وروايات شهود العيان من مسرح الانفجارات، باحثين عن أيِّ مظاهر غريبة قد تسترعي انتباهَهم. وظهر في إحدى الصور التي جرى تداولها على نطاق واسع — كانت قد التُقطت في اللحظة التي انفجرت فيها العبوتان الناسفتان — رجلٌ كان يسير مسرعًا على ما يبدو فوق سطح أحد الأبنية القريبة، ما أثار الظنونَ بأن الرجل كان له علاقةٌ بالانفجارات. وظهر في صورة أخرى رجلان غامضان يرتدي كلٌّ منهما قبعةً ويحمل حقيبة على ظهره، وزُعم أنهما تابعان للجيش وأنهما كان يُديران الهجوم سرًّا. وأظهرَت صورة ثالثةٌ التشابهَ بين أحد الجرحى وجندي فقدَ كِلا ساقَيه في أفغانستان قبل الحادث بعامين، وقد جرى تداول هذه الصورة باعتبارها دليلًا على أن التفجير كان مدبَّرًا، وأن الضحايا كانوا يُمثِّلون فحسب. وقد كتب فيليب بامب، على موقع «واير» أنه بدءًا من الساعة ١٠:٣٠ مساء اليوم الذي وقع فيه التفجير — أي بعد ثماني ساعات من الانفجارات — كانت عملياتُ البحث على محرك البحث «جوجل» عن عبارة «العلَم الزائف لماراثون بوسطن» أكثرَ من ٨٥ ألف عملية.

وتحظى الأحداثُ التي تقع في أماكنَ أخرى من العالم بقدْرٍ مشابهٍ من التدقيق. ففي حوالي الساعة الثانية من عصر يوم ٢٢ مايو ٢٠١٣، هاجم رجلان جنديًّا بريطانيًّا يُدعى لي ريجبي وأرْدَياه قتيلًا في أحد شوارع وولويتش، إحدى ضواحي لندن، في محاولةٍ لقطع رأسه بمنجل على مرأًى من المارَّة المذعورين. وعلى شبكة الإنترنت، فحص المعلِّقون أصحابُ العقلية المؤامراتية صورًا وفيديوهات من مسرح الجريمة، مُسلِّطين الضوءَ على وجودِ أشياءَ غريبةٍ ظاهرةٍ مثل ما اعتبَروه عدم وجود كمية كافية من الدم. وبالمثل، في صبيحة ٧ يناير ٢٠١٥، أطلق مسلحان النارَ على مكتب باريس للصحيفة الفرنسية الهزلية «شارلي إيبدو»، ما أدَّى إلى مقتل ١١ شخصًا وجرح ١١ آخرين. وبينما كان المسلحان يفران هاربَين من مسرح الجريمة، توقَّف أحدهما ليُطلق الرصاص على أحد ضباط الشرطة ليُصيبه في الرأس؛ حيث استلقى على الأرض متوسِّلًا الإبقاءَ على حياته. وعندما ظهر فيديو الإعدام الصادم، الذي صوَّره أحد شهود العيان من مبنًى قريب، شكا بعضُ أصحاب نظريات المؤامرة مجددًا من عدم كفاية الدماء في مسرح الجريمة. وقد كتب أحد المعلقين على الفيديو قائلًا: «الروايات الرسمية مشكوكٌ فيها؛ لأن القوة دائمًا ما تحتاط لنفسها، يبدو هذا مثالًا جيدًا — سواءٌ كان ما يُظهِره شيئًا غيرَ مؤذٍ نسبيًّا أو خبيثًا — لتذكيرنا بهذه الحقيقة.»

حتى الطقس قد يكون جزءًا من المؤامرة. يظل إعصار كاترينا الذي ضرب الجزء الجنوبي الشرقي من الولايات المتحدة في أغسطس ٢٠٠٥، أحدَ أسوأ الكوارث الطبيعية التي حدثت في أمريكا. وفقًا للتقديرات، فإن أكثر من ١٨٠٠ شخص لَقُوا حتفهم، وبلغت كُلفة الدمار ما يُقارب ٨١ مليار دولار أمريكي. وكانت أكثر المناطق تضررًا بالإعصار هي نيو أورليانز حيث انفجرَت السدود لتغمر المياهُ المدينةَ. وقد انطلقت نظريات المؤامرة عن إعصار كاترينا دون إبطاء، وهي لا تزال رائجة. فالبعض يزعم أن السدود دُمِّرت عمدًا في محاولةٍ للاستغلال التجاري أو التطهير العرقي؛ في حين زعم البعض الآخر أن الإعصار كان من تدبير حكومة بوش باستخدام تقنية عسكرية سرية بالغة التأثير للتلاعب بالطقس.

لا أقول إن التفكير المؤامراتي نتاجُ العصر الرقمي. فكلٌّ من وسائل الإعلام بوجهٍ عامٍّ ومنتقديها يسعَون جاهدين لإشباع الطلب المتصارع على الحقيقة والرغبة في الوصول إلى إجاباتٍ سريعة. كلُّ ما هنالك أن شبكة الإنترنت جعلت تداول المعلومات أسهلَ وأسرع

من أيِّ وقتٍ مضى، حتى أثناء تكشُّف الأحداث شيئًا فشيئًا. فخلال دقائقَ من وقوع حدثٍ ما يهزُّ الشبكات الإخبارية، يمكن لأي شخص لديه اتصالٌ بشبكة الإنترنت أن يبدأ في الإدلاء بدلوِه كيف أن ما جرى دليلٌ على نوعٍ ما من المؤامرة أو التستُّر. وكما أشار عالم النفس مايك وود، فإن شبكة الإنترنت والأخبار التي لا تنقطع على مدار الساعة تُوفِّران مادةً خِصبة تستغلها نظريات المؤامرة إذ يقول: «نظرًا إلى هذا الكمِّ الهائل، تزداد احتمالاتُ وجود تناقضات وشذوذات يمكن اقتناصها واستغلالها كأدلةٍ ضدَّ الرواية السائدة للحدث.» وتتيح شبكة الإنترنت، من ناحية أخرى، إمكانيةَ دحض نظريات المؤامرة سريعًا بمجرد ظهورها.

الفكرة أن إطلاق النار في مدرسة ساندي هوك وتفجير بوسطن وهجمات وولويتش وشارلي إيبدو وإعصار كاترينا هي مجردُ بضعة أمثلة حديثة نسبيًّا من بين عددٍ لا ينتهي من الأحداث التي تُمثِّل وقودًا لخيالات أصحاب نظريات المؤامرة. فبدءًا من التفجيرات وعمليات إطلاق النار مرورًا بكوارث الطائرات واختفائها، والصراعات الدولية وصولًا إلى نوباتِ تفشِّي الأمراض، قلما تجد حدثًا في الأخبار لا يُثير على الأقل موجةً قصيرةَ الأمد من نظريات المؤامرة.

الحقيقة القائلة بأن بعض الناس يُسارعون في استنتاج نظريات مؤامرة أو الاقتناعِ بها، حتى في الدقائق الفوضوية التي تعقبُ الحدث، عندما يصعب الوصولُ إلى تفسيرٍ فوري لما جرى، تُلمِّح إلى أن ضلوع التفكير المؤامراتي في الأمر أكثرُ من التقييم الحيادي للأدلة. ففيما يخص أحداث على غرار اغتيال جون كينيدي، والهبوط على سطح القمر، أو حتى هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد مرَّت السنون، وجُمعت المعلومات؛ ومن ثَم يمكن للأشخاص الذين يدعمون نظريات المؤامرة أن يزعموا بمعقولية أنهم قد درَسوا الأدلة. لكن في خضمِّ حالة الارتباك التي تعقب أي حدث — كما هي الحال عندما تكون وسائلُ الإعلام غيرَ متيقِّنة من عدد المسلحين الذين فتحوا النار على الأطفال العُزَّل في مدرسة ساندي هوك، أو غيرَ متأكدة من هُوية الجاني في حالةِ تفجير بوسطن — يكون من الصعب الوصولُ إلى استنتاجاتٍ سريعة نظرًا إلى قلة الأدلة، ويمكن أن تتغير الرواية سريعًا بمجرد ظهور معلومات جديدة. في مثل هذه المواقف، لا يمكن أن يكون زعمُ أي شخص ليس لديه معلومات خاصة أن هناك مؤامرةً، قائمًا على دراسة واعية للأدلة. فالأمر أشبهُ بما لو أن النظريات جرى فبركتُها سلفًا. تقول إيما جين وكريس فلمينج: «هذه استنتاجات تترصَّد لأيِّ حقائقَ داعمة.»

مؤامرة واحدة في صور شتَّى

التلميح الثاني إلى أن المؤامراتية لا تتعلق بالأدلة فحَسْب يتمثَّل في أن الأحداث المتنوعة التي تبدو غيرَ مترابطة والتي تؤدي إلى ظهورِ نظرياتِ مؤامرة نادرًا ما تُفسَّر على أنها نِتاج مؤامراتٍ غيرِ مترابطة خطَّطت لها مجموعاتٌ مستقلة بدوافعَ وأهدافٍ شديدة التفرُّد. وعوضًا عن ذلك، يمتلك أصحاب نظريات المؤامرة براعةً واضحة في حياكة عدد كبير من الأحداث التي تبدو غيرَ مترابطة معًا، لتشكيل نسيج قوي واحد.

ففيما يتعلق بعملية إطلاق النار في مدرسة ساندي هوك، تزعم كثيرٌ من النظريات أن تلك العملية لم تكون سِوى الحدثِ الأخير ضمن سلسلةٍ من العمليات المدبَّرة داخليًّا التي تشمل عمليات إطلاق النار على مدرسة كولومباين الثانوية وجامعة فيرجينيا للتقنية وسينما في أورورا بكولورادو ومعبد سيخ في ويسكونسن وأحد مراكز التسوق في أوريجون، وهلم جرًّا. ويقولون إن كل هذه الأحداث المفزعة جزءٌ من المهمة ذاتها: مكيدةٌ من تدبير عملاء الحكومة السريين بهدف إلغاءِ حقِّ امتلاك الأسلحة الذي أقرَّه التعديلُ الثاني. (وبهذه الطريقة، لن يكون الشعب قادرًا على مقاومةِ تطبيق النظام العالمي الجديد حينما يحين أوانه.) بل قد تمتدُّ الروابط المؤامراتية بين الأحداث لتشملَ استخدام نفس اللاعبين في شنِّ فظائعَ مختلفة؛ يوضح مايك وود قائلًا: «العديد من فيديوهات موقع «يوتيوب» تزعم أنها تُظهر أشخاصًا في موقع تفجير ماراثون بوسطن يُشبهون على نحوٍ غامض أشخاصًا آخرينَ تورطوا في إطلاق النار في مدرسة ساندي هوك، ما يدعم أكثرَ الفكرة القائلة بأن كِلا الحادثَين كان نِتاجَ خدعة استُعين فيها بنفس الأشخاص.»

وبحسب بعض الأشخاص الذين يعتقدون أن إعصار كاترينا كان جزءًا من مؤامرة إبادة جماعية، فإن عواصفَ أخرى شديدةَ التدمير وأمواج تسونامي عاتية وزلازلَ بالغة القوة هي أيضًا، في نظرهم، جزءٌ من تلك المؤامرة. وهم يزعمون أن مصدرَ كلِّ ظاهرة طبيعية خارجة عن المألوف، بدءًا من الزلازل المدمِّرة وصولًا إلى المعدلاتِ غيرِ المعتادة لهطول لمطر، هو برنامجُ أبحاث الشفق النشط عالي التردد؛ وهو مرفق بحثي عسكري أمريكي (تقرَّر إيقافه مؤخرًا) تستخدمه الحكومة للتلاعب بالعواصف وافتعال الزلازل دون التفكير في العواقب، حسب اعتقادهم.

هذه الرغبة الملحَّة في تفسيرِ كلِّ شيء تقريبًا يحدث في العالم كجزء صغير من خدعةٍ أكبر بكثير يتغلغل في ثنايا التفكير المؤامراتي. قضى جوناثان كاي، وهو مراسلٌ لصحيفة «ناشونال بوست» الكندية، بعض الوقت في التحاور مع أصحاب نظريات المؤامرة فيما

يخصُّ أحداث الحادي عشرَ من سبتمبر، وذلك خلال تأليفه كتاب «وسط مناصري حركة الحقيقة»، وقد وجد أن الحديث عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر سيقود حتمًا إلى نظرياتِ مؤامرةٍ أخرى؛ وكثيرًا ما يصل الأمر إلى الحديث عن هُوية المتورِّط في قتل جون كينيدي. كتب كاي يقول: «استهِلَّ حديثًا مع أحد أنصار حركة حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر بشرط أن يكون في منتصفِ العمر، وأؤكد لك أنك ستجدُه صاحبَ نظرية مؤامرة فيما يتعلَّق بمقتل جون كينيدي.» وقد لمستُ الاتجاهَ ذاته عند حديثي في مهرجان بيلدربيرج الذي يُقام على هامش مؤتمر بيلدربيرج إلى مجموعة من الناس الذين يُفسِّرون كل شيء، بدءًا من الاحترار العالمي وصولًا إلى الطاعون الأسود، على أنه مكائدُ خبيثة. (سوف نعرف المزيد عن مهرجان بيلدربيرج في الفصل السادس.) ولعل أوضح مثال يأتينا من ديفيد أيك. اشتهَر عن أيك إلقاءُ محاضراتٍ طويلةٍ غيرِ مكتوبة مدتها ١٠ ساعات، على أسماع جموع غفيرة؛ حيث يُفسر خلالها التجرِبةَ الإنسانية برُمَّتها على أنها جزء من مؤامرةٍ متداخلةِ الأبعاد. يقول أيك خلال محاضرةٍ ألقاها عام ٢٠١٤ في ساحة ويمبلي في لندن: «يقول الناس إنني أرى مؤامراتٍ في كل مكان؛ وهذا غير صحيح. فأنا أرى مؤامرةً واحدة تتَّخذ صورًا شتَّى.»

الناس، باختصار، لا يقتنعون في الأغلب بنظريةِ مؤامرةٍ واحدة فحسب. وبدلًا من ذلك، فإن الشخص الذي يعتقد أن مؤامرةً ما تقف وراء حدثٍ ما يعتقد على الأرجح أن التفسير الأمثل للكثير من الأحداث الأخرى أنها وقعت نتيجةً لخططٍ ومكائدَ وعملياتِ تستُّر مماثلة. وبالمنطق ذاته، فإن الشخص الذي يُشكك في نظرية مؤامرة معينة يُشكك على الأرجح في الكثير من نظريات المؤامرة الأخرى.

هذا قد لا يكون شيئًا مستغرَبًا. فقد وجدنا أنفسنا جميعًا نُجادل شخصًا يبدو أنه يعتقد أن كل شيء يحدث في العالم هو دليلٌ على مؤامرة. لكن ينبغي أن يُثير هذا استغرابَنا. فالسؤال حول ما إذا كان إطلاقُ النار الجنونيُّ في فرنسا كان مخطَّطًا له من قِبل عملاء حكوميِّين لا صلة له، كما هو ظاهرٌ، باحتمالية أن تكون الأميرة البريطانية قد اغتيلت على يد الأسرة الحاكمة، وهو بدوره لا صلةَ له بمسألة ما إذا كانت الحكومة الأمريكية تمتلك تقنية سرية للتلاعب بالطقس، وهو ما ليس له صلةٌ بمسألةِ ما إذا كان مقطع الفيديو الذي يعرض قفزة البشرية العملاقة لنيل أرمسترونج قد صُوِّر على سطح القمر أو في أحد الاستديوهات السينمائية الأرضيَّة. ويُفترض من الباحثِ غيرِ المتحيِّز أن

يُخصِّص لكل زعم درجةً مختلفة من المعقولية. لكن هذا، فيما يبدو، ليس الحال. فقد شهدنا مؤشراتٍ لهذا الاتجاه في الاندفاع التلقائي نحو تصنيف الأحداث الجارية كجزءٍ من مؤامرة، والميل نحو رؤية كل مؤامرة على أنها مجردُ عنصرٍ من مؤامرةٍ أكبر. لكن من المهم أن نتأكد من عدم تحيزنا، بانتقاء عددٍ من الأمثلةِ غيرِ الدالة. فنحن بحاجةٍ إلى دعم الملاحظات الروائية ببياناتٍ واقعية.

فيما يتعلَّق بقياسِ مدى الاعتقاد بنظريات المؤامرة، لا يسأل علماء النفس الناسَ ببساطة ما إذا كانوا يعتقدون أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر مثلًا مؤامرةٌ داخلية أو لا. هذه نقطة مهمة، لأننا لسنا مهتمين فحسب بعقولِ أكثرِ أصحاب نظريات المؤامرة التزامًا، بل نحن مهتمُّون أيضًا بالكيفية التي يُشكِّل بها الجميعُ أفكارهم ومعتقداتهم. ففي حين أن هناك بعضَ الناس بالتأكيد على قناعةٍ تامة بأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت مؤامرةً داخلية — وبعض الناس على قناعةٍ بأنها لم تكن كذلك — فإن أغلب وجهات نظر الناس تنحصرُ في المنطقة الرمادية بين الرفضِ التامِّ والقبول التام. فلعله يعتريك شكٌّ طفيف بأنها كانت مؤامرة؛ أو ربما تكون متأكدًا تمامًا من أنها لم تكن مؤامرة؛ أو ربما لم تحسم أمرَك بهذا الشأن بعد. بعبارةٍ أخرى الاعتقاد ليس مسألةَ نعم أو لا؛ بل له نطاقٌ متدرِّج. ونريد أن نرصد هذا النوع من التباين؛ لذا فإننا لا نكتفي فقط بقياس الاعتقادِ الصِّرف أو عدم الاعتقاد الصرف. كما أننا لن نقيس الاعتقاد بنظرية مؤامرة واحدة فحسب. فحتى نتبيَّن ما إذا كان هناك نمط للطريقة التي يُقيِّم بها الناس النظريات المختلفة، نحن بحاجةٍ إلى أن نسأل عن مجموعةٍ منها.

قد يبدو هذا معقَّدًا من الناحية النظرية، لكنه في الواقع العملي، شيء مباشر للغاية. تخيَّل (أو ربما يكون من الأفضل أن تكتب على ورقة) الأعداد من ١ إلى ٧، في صفٍّ، من اليسار إلى اليمين. الرقم ١ يعني أنك مقتنع تمامًا بأن أحداث الحادي عشرَ من سبتمبر لم تكن مؤامرةً داخلية دبَّرَتها الحكومة الأمريكية، والرقم ٧ معناه أنك على قناعة تامةٍ بأنه كان مؤامرةً داخلية، والرقم ٤ في الوسط معناه أنك متردِّد بين كلا التفسيرَين، ولم تحسم أمرَك. والأرقام الواقعة في الوسط تُمثِّل درجاتٍ متفاوتةً من الشك أو اليقين. أيَّ رقم ستختار؟ الآن تخيَّل صفًّا آخرَ مماثلًا من الأعداد أسفل الصف الأول. لنقل إن هذا الصف يتعلَّق باغتيال جون كينيدي؛ الرقم ١ يعني أنك مقتنعٌ تمامًا بأنَّ لي هارفي أوزوالد قد ارتكب جريمةَ الاغتيال وحده، والرقم ٧ يدل على أنك مقتنعٌ تمامًا بأنه لم يفعلها، وهكذا. الآن تخيَّل مقياسًا آخرَ أسفل هذا الصف، وهو مقياسٌ يتعلَّق بالهبوط على سطح

القمر، ثم تخيَّل مقياسًا رابعًا يتعلَّق بالفكرة القائلة بأن مجموعةً سرِّية صغيرة تتحكم سرًّا في أحداث العالم، ومقاييس أخرى لأي نظرياتِ مؤامرة قد تخطر ببالك.

هل ثَمة نمطٌ في الأعداد التي تضع دائرةً حولها؟ ليس هناك سببٌ يفسِّر عدمَ توزع إجاباتك بطول المقياس. صحيحٌ أن ذلك قد يكون عليه الحالُ بالنِّسبة إلى البعض. لكن عندما نطلب من أعدادٍ كبيرة من الناس استيفاء مقاييسَ كهذه، نجد أن إجاباتهم في أغلب الأحيان، تُشكِّل خطًّا مستقيمًا تقريبًا أسفل الصفحة. فإذا قيَّمتَ إيمانك بنظرية مؤامرة أحداث الحادي عشر من سبتمبر برقم ٣، فالأرجح أنك ستُقيِّم جميعَ النظريات الأخرى بهذا الرقم أو برقمٍ قريب منه. فالشخص الذي يميل إلى إعطاء نظرية مؤامرة الهبوط على سطح القمر تقييمًا مقداره ٥ أو ٦، سوف يختار على الأرجح أرقامًا مشابهةً عندما يُطلب منه تقييمُ أحداث الحادي عشر من سبتمبر واغتيال جون كينيدي والنظام العالمي الجديد وغير ذلك من النظريات الأخرى التي يؤمن بها إيمانًا متوسطًا. وبتعبيرٍ متخصِّص أكثر، ثمَّة ارتباط بين الإيمان بنظريةِ مؤامرةٍ ما والإيمان بنظريات المؤامرة الأخرى؛ حتى عندما لا يكون هناك رابط منطقي ظاهر بين النظريات.

وباستثناءات نادرة، توصَّلت جميع الدراسات تقريبًا التي فحصَت العلاقات بين مستويات التصديق لنظريات مؤامرةٍ مختلفة إلى هذه الأنواع من الارتباطات. فالأمريكيون الذين يعتقدون أن حكومتهم تُخفي مخلوقاتٍ غريبةً في المنطقة ٥١ يُرجَّح أنهم يعتقدون أن اللقاحات غيرُ آمنة. واللندنيون الذين يعتقدون أن ثَمة مؤامرةً تقف وراء تفجيرات ٧ يوليو ٢٠٠٥، على مترو الأنفاق في لندن، يعتقدون على الأرجح أن اغتيالَ مارتن لوثر كينج الابن حدثَ نتيجةَ مؤامرةٍ دبَّرتها الحكومة الأمريكية. والنمساويون الذين يعتقدون أن ثمة مؤامرةً تقف وراء جريمةٍ معروفة وهي اختطاف ناتاشا كامبوش يعتقدون على الأرجح أن الإيدز من صُنع الحكومة الأمريكية. والألمان الذين يعتقدون أن عمليات هبوطِ بعثة أبوللو على سطح القمر كانت مفبرَكة يعتقدون على الأرجح أن النظام العالميَّ الجديد يسعى للهيمنة. وزائرو منتديات علم المناخ الذين يعتقدون أن تغيُّر المناخ مجرد خدعة يعتقدون على الأرجح أن الأميرة ديانا اغتِيلَت على يد الأسرة الملكية في بريطانيا.

لكن لعل أبرزَ مظاهر هذه القوة التنبؤية تتجلَّى في الحقيقة القائلة بأن بعضَ الناس قد يصدِّقون حتى نظرية مؤامرة حاكها علماء النفس من وحي خيالهم. ففي دراسةٍ أُجريت في النمسا، اختلق فريقٌ من الباحثين تحت قيادة فيرين سوامي نظريةً حول مشروب الطاقة الشهير «ريدبول». زعمت النظرية أن هذا المشروب يحتوي على موادَّ

محظورةٍ قانونًا (مُستخلَصة من خصيتي الثور) يجعل الناس يرغبون في شرب المزيد من المنتج، والأكثر إزعاجًا من ذلك، أنه أدَّى إلى نمو أجنحةٍ بدائية لدى فئران التجارِب (ومن ثَم ظهر شعار «ريدبول يمنحك أجنحة»). وقد أشارت النظرية إلى أن المشروب وصل إلى الأسواق لأن مبتكِرَه دفع أموالًا لمفتشي الأغذية. لم يكن ريدبول اختيارًا عشوائيًّا؛ فقد اختير كأساس لنظرية المؤامرة لتُناسبه بشكل خاص مع النمساويين المشاركين في الدراسة. فقد ابتكر هذا المشروبَ رجلٌ نمساوي، والشركة الأم لعلامته التجارية هي واحدة من أكثرِ الشركات النمساوية نجاحًا على مرِّ العقود القليلة الماضية. وقد أوضح الباحثون أن المزاعم التي تقول إن نجاح هذا المشروب يستند إلى مؤامرةٍ ينبغي أن يوفِّر أساسًا جيدًا لتشكيل نظرية مؤامرة. وكما هو متوقَّع، قال بعض المشاركين في تقييمهم للمشروب إن تلك المزاعمَ وَجيهة. وكما هو متوقَّع أيضًا، كان الأشخاص الذين اقتنعوا بنظريات المؤامرة تلك الملفَّقة تمامًا، هم نفسَ الأشخاص الذين كانوا على قناعةٍ بأن جون كينيدي قد قُتل بسبب مؤامرة، وأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت مؤامرةً داخلية، وأن النظام العالمي الجديد يُحاول الهيمنة على العالم، وهكذا. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن الأشخاص الذين شكَّكوا في نظريات المؤامرة الراسخة تلك، شككوا على الأرجح في نظرية المؤامرة الجديدة أيضًا.

بإيجاز، نقول إن تفاصيل النظريات لا تُهم كثيرًا فيما يبدو. فإذا كنتَ تعرف موقفَ شخصٍ ما من نظرية مؤامرة معينة، فيمكنك أن تتنبَّأ بمواقفه من نظريات المؤامرة الأخرى بدرجةٍ معقولة من التأكد، حتى عندما لا يكون هناك أيُّ ارتباط ظاهر بين النظريات وبعضها.

ميتٌ وحيٌّ

لماذا يعني اقتناعُك بنظرية مؤامرة قَبولَك على الأرجح بجميع النظريات الأخرى (أو، على الجانب الآخر، تشكيكك في إحدى نظريات المؤامرة، معناه رفضُك للنظريات الأخرى)؟ إحدى الإجابات المحتملة التي طرَحها اختصاصيُّ علم الاجتماع تيد جورتزيل، هو أن العقلية المؤامراتية تعمل وفقًا للمنطق المتزعزع القائل بأنه إذا كانت إحدى نظريات المؤامرة صحيحةً، فمن الممكن أن تُؤخذ كدليلٍ على صحةِ نظريات المؤامرة الأخرى. فإذا كنت تظن أن عملاءَ الحكومة الأمريكية قد تورَّطوا في اغتيال جون كينيدي، فالأرجح أنهم تورَّطوا كذلك في شيءٍ مثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وإذا كانت السلطات هاجمت

مُواطنيها في هجمة إرهابية خادعة، فما الذي يوقفها عن تسميمنا سرًّا بإضافة المواد الكيميائية إلى الماء وإضافةِ السموم إلى اللقاحات؟ وإذا لم تجد غَضاضة في الكذب على مواطنيها بشأن صحتهم وسلامتهم، فلماذا لا تختلقُ الهبوط على سطح القمر وتتستَّر على وجود مخلوقات غريبة؟ وإذا كانت هناك مجموعةٌ صغيرة من المخطِّطين الخارجين عن القانون يستطيعون أن يُفلتوا من العقاب رغم كلِّ ما اقترفوه، فربما هناك مجموعةٌ سريةٌ ما من النخب تُخطِّط لكل شيء يحدث في العالم. وهكذا دواليك. فنظريات المؤامرة، تُشكِّل شبكة أبدية من المعتقدات؛ لأنها جميعًا يدعم بعضُها بعضًا. وإذا لم تكن على استعداد لاتخاذ الخطوة الأولى في تصديقِ نظريةٍ ما، فإن بقية النظريات تبدو غيرَ وجيهة بالمثل. لكن بمجرد اقتناعِك بنظريةٍ ما، فإن هذا يفتح البابَ لجميع النظريات الأخرى.

من الناحية النظرية، إقناعُ أحدِ الأشخاص بأن نظريةَ مؤامرةٍ ما صحيحةٌ لا بد أنه يجعله أكثرَ انفتاحًا على نظرياتٍ أخرى من الواضح أنها غيرُ ذات صلةٍ بتلك النظرية. فمثلًا، تخيَّل أنني أخبرك بأن ثمَّة أسبابًا تدعو إلى الشك بشأن حادث السيارة الذي قُتِلت فيه الأميرة ديانا. من المعلوم أن الحكومة البريطانية لم تكن راضيةً عن علاقتها بدودي الفايد، وهو مسلمٌ مصري، ولا عن انخراطها المتزايد في السياسة. فقبل وفاتها بثلاثة أيام فقط، نُقل عنها أنها وصفَت الحكومة بأنها «ميئوس منها». وكان الساسة ينادون بمعاقبتها، حيث جرَت على ألسنتهم تعليقاتٌ قاسية، على غرارِ «ما هذه المرأة التي تُقحم نفسها في السياسة، لماذا لا تنشغل برعاية أطفالها؟» كما وصَفوها بأنها شخص خطير لا يُمكن السيطرة عليه. واستنادًا إلى كل هذا، كان من المنطقي تمامًا أن يتساءل الكثيرون عما إذا كان موتُها حادثًا مأساويًّا فحسب، أو شيئًا أعظمَ من ذلك.

كان هذا، على الأقل، هو ما أخبر به عالِما النفس دانييل جولي وكارين دوجلاس نصف المشاركين في دراسة ٢٠١٤. وقد قرأ النصف الآخر مجموعةً مشابهة من المزاعم، لكنها على العكس كانت تميل إلى معارضة نظرية المؤامرة: «من المعلوم أن شعبية الأميرة ديانا جعلَت بعض أعضاء الحكومة يشعرون بحالةٍ من عدم الارتياح. لكن ليس هناك دليلٌ على الإطلاق يُشير إلى أن الحكومة البريطانية تورَّطَت في قتلها ... كان موتها مجردَ حادث مأساوي.» فمن غير المستغرَب أن الأشخاص الذين قرَءوا النسخة المؤيدة لوقوع مؤامرة صرَّحوا بأنهم يعتقدون بقوةٍ أن حادث السيارة الذي لقيت فيه الأميرة ديانا حتْفَها كان اغتيالًا. والأكثر إثارة من ذلك أنهم كانوا أكثرَ انفتاحًا كذلك على نظريات المؤامرة بوجه عام، مثل الفكرة القائلة بأن الحكومة اعتادت توريطَ نفسها في مكائدَ وخططٍ سرية

دولية. وكما هو متوقَّع، فإن عرض نظرية المؤامرة ضدَّ ديانا كنظريةٍ وجيهة فتحَ الباب فيما يبدو أمام الاعتقاد بأن الخطط وعمليات التستر الأخرى شائعةُ الحدوث.

المنطق الأبدي الداعم الذي وضَّحه تيد جورتزيل قد يكون جانبًا من العقلية المؤامراتية، لكنه لا يُمثِّل الروايةَ بأكملها. فالأشياء تبدو أكثرَ إثارةً للاهتمام، كما تبين مفارقة عجيبة تتعلق بأسامة بن لادن.

بعد هجمات الحادي عشرَ من سبتمبر بوقتٍ قصير، أثار الرئيس بوش فكرةَ الغرب الأمريكي القديم؛ حيث تعهَّد بإحضار أسامة بن لادن «حيًّا أو ميتًا». وسرعان ما جرى البحث عن الرجل في كل مكانٍ بالعالم. وقد تمكَّن بن لادن من تجنُّب القبض عليه قرابةَ عَقد من الزمان، حتى أرشد البحثُ عنه في نهاية المطاف إلى مجمَّعٍ سكَني في أبوت آباد في باكستان. وفي الساعات الأولى من ٢ مايو ٢٠١١، شنَّت فرقةٌ من القوات الأمريكية الخاصة هجومًا بمروحياتِ شبحٍ على المجمَّع، بأوامر من الرئيس أوباما. وأعلن الرئيسُ لاحقًا أن الفِرقة «تمكَّنت من قتْل أسامة بن لادن بعد تبادلٍ لإطلاق النار.»

لكن هل قتَلوه فعلًا؟ ماذا لو أن بن لادن مات، في واقع الأمر، لأسبابٍ طبيعية قبل ذلك بعَقد من الزمان؟ فبرغم كلِّ شيء، من المعلوم على نطاقٍ واسع أنه كان يُعاني مجموعةً من الأمراض، بدءًا من قدمٍ مصابة وصولًا إلى داء السُّكري. والأهم من ذلك، يعتقد بعض الناس أن بن لادن ربما كان يُعاني متلازمةَ مارفان. والأشخاص الذين يعانون متلازمةَ مارفان غالبًا ما يكونون طِوالَ القامة ونحفاءَ الجسم كما تكون أصابعُ أيديهم رفيعةً وطويلة، ويكون عمودهم الفقري منحنيًا تمامًا مثل بن لادن. كما تتسبَّب هذه المتلازمة في حدوث مشكلات في صمام القلب يُمكن أن تؤديَ إلى قتْل مَن يعانون منه دون سابقِ إنذار. ووفقًا لأصحاب نظريات المؤامرة، فإن هذا ما قتَل بن لادن في واقع الأمر. وقد حدث هذا في أواخر عام ٢٠٠١ أو أوائل عام ٢٠٠٢، بعد شهور فقط من هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وقد تستَّر المجتمع الاستخباراتي الأمريكي على موته، مُبقيًا على شبحه حيًّا في وعي الناس على مدار سنين كإرهابي مروعٍ لتبرير الحرب على الإرهاب. وطيلة هذه الفترة، حفظوا سرًّا جثة بن لادن، بحيث تكون جاهزة لإظهارها في اللحظة المناسبة.

هل قتلوه فعلًا؟ ماذا لو كان أسامة بن لادن، في واقع الأمر، لا يزال على قيد الحياة، وبصحةٍ جيدة؟ فبرغم كل شيء، رفضت الحكومة الأمريكية تقديمَ أدلة ماديةٍ على أنهم

قتلوه بالفعل. كل ما أكدوه هو أن الجثمان دُفن في البحر وفقًا للشريعة الإسلامية، وأن عرض صور مروعة لجثمان بن لادن قد يدفع الإرهابيِّين إلى ارتكاب أعمال عنف انتقامًا له. وقد أشار جلين بيك وهو مذيعٌ أمريكي ينخرط في المؤامراتية كثيرًا إلى أن بن لادن ربما يكون قد قُبض عليه حيًّا بالفعل، ويجري استجوابه في غرفةٍ سريةٍ ما بشأن أي خططٍ قد يكون تنظيم القاعدة في مرحلة التجهيز لها. ووفقًا لآخرين، ربما يعتني الأمريكيون حتى بأسامة بن لادن. فقد قالوا إنه كان يُمثِّل شيئًا مهمًّا للولايات المتحدة طيلة الوقت؛ حيث جرى تجنيدُه من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في ثمانينيَّات القرن العشرين عندما اصطفَّت الاستخبارات الأمريكية جنبًا إلى جنب مع الجماعات الجهادية لقتال السوفييت في أفغانستان. حتى الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، اتفق مع هذه النظرية، حيث تكهَّن في مقابلةٍ مع شبكة «إيه بي سي» الأمريكية (في ٢٠١٠، أي قبل عامٍ من الإعلان عن مقتل بن لادن) أن بن لادن لا يزال حيًّا وفي مأمنٍ في العاصمة الأمريكية واشنطن.

إذن لدينا هذه الاحتمالات المختلفة للغاية. فلدينا «الرواية الرسمية» التي تقول إن بن لادن قُتل على أيدي الجيش الأمريكي في ٢ مايو ٢٠١١. كما أن هناك أيضًا نظريتَيْ مؤامرةٍ متعارضتَين؛ فإما أنه مات بالفعل منذ سنوات عند حدوث الهجوم، أو أنه لا يزال على قيد الحياة. والواضح أن نظريتي المؤامرة كِلتَيهما لا يمكن أن تكونا صحيحتَين في الوقت نفسِه. وكما أشار عنوان دراسة بحثية أجراها الباحثان مايك وود وكارين دوجلاس إلى أن بن لادن لا يمكن أن يكون «ميتًا وحيًّا» في الوقت ذاتِه. ومع ذلك فإن دراستهما تشير إلى شيء غريب. فعندما سأل وود ودوجلاس الناس إلى أيِّ مدًى هم يتفقون مع نظريتَي المؤامرة المتعارضتين، وجدا أن الأشخاص الذين يُصدِّقون إحدى النظريتين يظنون على الأرجح أن وجهة النظر المعارضة صحيحة أيضًا. بعبارة أخرى: الأشخاص الذين كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن بن لادن مات فعلًا اعتقَدوا على الأرجح أنه لا يزال على قيد الحياة؛ فبعض الناس قبِلوا على ما يبدو الفكرة القائلة بأن بن لادن قد يكون إرهابيًّا من نوعٍ ما على شاكلة قطة شرودينجر، أي حي وميت في الوقت ذاتِه.

وإمكانية قَبول نظريات مؤامرة متعارضة لا تقتصر على الموتِ غيرِ المؤكد لأسامة بن لادن. فقد أجرى وود ودوجلاس دراسةً أخرى عن الإيمان بمجموعةٍ من نظريات المؤامرة المتعلقة بالأميرة ديانا. فمن جديدٍ، عارضَت بعضُ النظريات بعضَها الآخر. فإحدى النظريات زعمت أن الأميرة ديانا تظاهرَت بالموت من أجل الهروب من الأضواء، في

حين اقترحَت نظريةٌ أخرى أن موتها حدثَ بتدبيرٍ من المخابرات البريطانية. وكما الحال بالنِّسبة إلى الأشخاص الذين اعتقدوا على ما يبدو أن بن لادن كان ميتًا وحيًّا في الوقت ذاتِه، فإن الأشخاص الذين ظنوا أن الأميرة ديانا تظاهرت بموتها مالوا إلى الاعتقاد بأنها اغتيلت على أيدي عملاء سريِّين. وقد توصَّل فريقٌ آخرُ من الباحثين إلى أنه كلما زاد ميل المرء إلى الاعتقاد بأن الحكومة الأمريكية كانت على علمٍ مسبق بهجمات الحادي عشر من سبتمبر وأن كلَّ ما هنالك أنها سمحَت لتنظيم القاعدة بتنفيذ تلك الهجمات، زادت احتمالية ميله إلى الاعتقاد بأن الحكومة الأمريكية خطَّطَت عن عمدٍ كلَّ شيء. وتشير نيكولي ناتراس إلى أن تابو إيمبيكي، رئيس جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٨، زعم أن الإيدز من صنْع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، في حينِ أنه كان مقتنعًا فيما يبدو بالفكرة القائلة بأن الفيروس غيرُ مؤذٍ، أو أنه حتى لا وجودَ له من الأساس. ويوضح دانييل بايبس، من خلال تأمُّله للمؤامراتية في الشرق الأوسط، أنه «عندما يحدث توافق بين واشنطن وبغداد، تشكُّ طهران أن هناك مؤامرةً؛ وعندما يتقاتلان، تعتقد طهران أن هناك مؤامرةً أخرى».

لماذا يمكن أن يعتقد بعضُ الناس على ما يبدو أن أسامة بن لادن ميت وحي في الوقت ذاتِه، وأن ديانا تظاهرت بموتها وقُتلت في الوقتِ ذاته، وأن الحكومة الأمريكية قد خطَّطت ولم تُخطِّط في الوقت ذاته لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأن الإيدز سلاحٌ بيولوجي وخرافة في الوقت ذاته، وأن السلام والحرب كلَيهما دليلٌ على المؤامرة؟ كما يوضِّح باحثا دراسة بن لادن، العلاقة الإيجابية بين هذين الاعتقادَين تفتقر بديهيًّا إلى المنطق. صحيح أن الارتباطات بين النظريات المتعارضة لا بد أن تكون سلبية: فكلما صدَّقْتَ نظريةَ مؤامرة معينة أكثر، قلَّت احتمالية تصديقك لشيءٍ ما يتناقض معها. فنظامُ الاعتقاد أحادي الجانب لدى تيد جورتزيل، الذي يكون فيه الوجودُ المزعوم لمؤامرةٍ ما دليلًا لصالح نظريات المؤامرة الأخرى، لا يمكن أن يفسر هذه الارتباطات. فليس هناك منطقٌ في الاعتقاد بأن مقتل بن لادن دليل على أنه لا يزال حيًّا.

كُشف عن تفسير هذه المفارقة عن طريق سؤال إضافي آخر ضمَّنه وود ودوجلاس في دراستهما. فقد سألا: إلى أيِّ مدًى توافق على أن الحكومة الأمريكية «تخفي معلومة مهمة أو مدمرة بشأن الهجوم الذي شنَّته على بن لادن؟» هذا الزعم الأكثرُ غموضًا القائل بأن الرواية الرسمية للأحداث لا يمكن ببساطةٍ الوثوق بها لأسبابٍ غيرِ معلومة اتضح أنه مِفتاح إشكالية المعتقدات المتناقضة. فكلما زاد قَبول المرء لفكرةِ أن شيئًا ما يجري التسترُ

عليه، زاد استعداده للاقتناع بنظريتَين متناقضتين. وبمجرد أخذ هذا الأمر في الحسبان إحصائيًّا، تتلاشى العلاقة بين النظريتين المتناقضتين. بعبارة أخرى: ليس تصديقُك أن بن لادن قد مات بالفعل هو ما يجعلك تميل إلى تصديقِ أنه لا يزال حيًّا، أو العكس. بل إن تصديقك أن شيئًا مريبًا يحدث هو ما يَزيد من احتمالية قبولك لأي نظريات مؤامرة؛ حتى في حالة نظريتي مؤامرة تُعارض كلٌّ منهما الأخرى.

العقلية المؤامراتية

هذا يأخذنا إلى جوهر العقلية المؤامراتية. فقد رأى جورتزيل أن مقدار تصديقِك لنظرية مؤامرةٍ ما لا تُحدِّده الحقائق فحسب، ولا مجرد مقدار الدعم الذي تُقدِّمه كلُّ نظرية لجميع النظريات الأخرى. بالأحرى، تتحدَّد مشاعرك حيال كلِّ نظرية مؤامرة بالدرجة الكبرى عن طريق مقدار اقتناعك بالمجموعة الأساسية من الافتراضات التي تخدُم جميع الأغراض بشأن طبيعة العالم، على غِرار الفكرة القائلة بأن هناك دائمًا شخصًا ما يتورَّط في الخداع، وأن ما خفي دائمًا كان أعظم، وأننا لا نطَّلع أبدًا على الحقيقة كاملة؛ بعبارة أخرى: يُمكننا أن نقول إن الأمر كلَّه يتوقَّف على مدى قوة تأثير عقليتك المؤامراتية. وفي ضوء هذا، تُشبه المؤامراتية إلى حدٍّ كبير أيَّ سمة شخصية أخرى. فمثلما أن معرفتك لدرجةِ شخصٍ ما على مقياس الانبساطية تُعطيك دليلًا على الكيفية التي سيتصرَّف بها ذلك الشخص في مجموعةٍ من المواقف الاجتماعية، فإن معرفتك بدرجةِ شخصٍ ما على مقياس المؤامراتية يُخبرنا بالطريقة التي يستجيب بها هذا الشخص على الأرجح إزاء نظرياتِ المؤامرة المتنوعة.

وصفُ التفكيرِ المؤامراتي بهذه الطريقة — أي باعتباره نزعةً نفسية — يجعل بعض الناس، لا سيَّما أولئك الذين يُصدِّقون نظريات المؤامرة، يميلون إلى الاعتقاد بأن ذلك نوعٌ من الحماقة. فهم قد يتعلَّلون بالقول: «الأمر لا علاقة له بعلم النفس، فالحقائق واضحةٌ وضوحَ الشمس.» واعتراضهم هذا مفهومٌ تمامًا. فعندما نُصدِّق شيئًا ما، لا يبدو تصديقنا ناتجًا عن أيديولوجيةٍ ما يصعب الإفصاحُ عنها؛ إنما يبدو هذا التصديق صحيحًا ومستقلًّا عن نقائصنا وتفضيلاتنا. ولكن القول بأن هناك أسبابًا نفسيةً تقف وراء تصديق نظريات المؤامرة ليس معناه أنها غيرُ مألوفة في هذا الصدد. فعلى النقيض من ذلك، تُشكل سيكولوجيتنا أغلب، إن لم يكن كل، معتقداتنا وأفكارنا.

وليس هناك أسهلُ من رصد التأثير الأيديولوجي المشوِّش للفكر في مجال السياسة. وكمثالٍ على ذلك، يُشير جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت إلى سلسلة مطاعم «جدفاذرز بيتزا». فحتى بدايات عام ٢٠١١، كان المصوِّتون الديمقراطيون والجمهوريون يحبُّون سلسلةَ المطاعم على نحوٍ متكافئ، وفقًا لتقديرات مؤشر «يوجفز براندإندكس». ثم في مايو ٢٠١١، أعلن هيرمان كين الرئيسُ التنفيذي السابق لسلسلة المطاعم هذه، أنه يسعى لترشُّحِه عبر الحزب الجمهوري لخوض الانتخابات الأمريكية. مهام كين كرئيس تنفيذيٍّ قبل ذلك بنحو ١٥ عامًا أصبحت مثار نقاش خلال حملته الانتخابية. ثم، حدث شِقاقٌ مفاجئ بين محبِّي البيتزا الديمقراطيين والجمهوريِّين. وارتفعت تقديرات «جدفاذرز بيتزا» بين الجمهوريين وانخفضَت بين الديمقراطيين.

ربما ننساق وراء الاعتقاد بأن انتماءنا السياسي نتاجُ جميع قراراتنا وأحكامنا الفردية وغير المتحيِّزة بشأن المرشحين والسياسات. غير أنه، في واقع الأمر، يتضح على نحوٍ متزايد أن أيديولوجيتنا لها الأسبقية، وأنها تؤثِّر في تفسيرنا للحقائق. فمن المفترض أن مطاعم «بيتزا جدفاذرز» لم تبدأ في تقديم بيتزا أفضلَ للجمهوريين وأقلَّ جودةً للديمقراطيين. فجودة البيتزا لم تتغيَّر. الشيء الوحيد الذي تغيَّر كان الكيفيةَ التي توافقت بها الشركةُ مع الأيديولوجية السياسية لدى مرتادي مطاعمها.

بالمثل، فيما يتعلَّق بنظرية المؤامرة، يكون من السهل الانسياقُ وراء الاعتقاد بأن تصديقنا أو عدمَ تصديقنا يعتمد على تقييمٍ منصِف للحقائق. لكن الحقيقة هي أن معتقداتنا وأفكارنا تُشكِّلها رؤيةٌ عالمية عامة أكثر مما قد نرغب في الاعتراف به. وكما قلت، المؤامراتية عدسةٌ نرى من خلالها العالَم؛ وجميعنا لديه توصيفٌ مختلِف. فقلة قليلة من الناس هي مَن تقبلُ كل نظريةٍ بسذاجة، وقلةٌ قليلة هي مَن ترفض كلَّ طرح لمؤامرة بثبات. أغلبُنا في موضعٍ ما على منتصف المقياس؛ حيث نتشكَّك بدرجةٍ ما في نظريات المؤامرة المطروحة، ولكن ليس لدينا استعدادٌ لاستبعادها تمامًا.

فَهْم هذه الخصيصة الجوهرية للعقلية المؤامراتية هي خطوتنا الأولى نحو فهمِ سيكولوجية نظريات المؤامرة. فيمكننا أن نبدأ ببحث أسباب ظهور نظريات مؤامرة حول أحداثٍ ما حتى قبل أن تكون هناك روايةٌ رسمية، ولماذا يميل الناس الذين يقتنعون بمؤامرةٍ ما إلى رؤية تلك المؤامرة في أغلب الأحيان على أنها مجردُ جزء من مؤامرة أكبر. كما يمكننا أن نبحث الأسباب التي تقف وراء اقتناعِ بعض الناس بنظريةٍ زائفة أو زعْمَين يُناقض كلٌّ منهما الآخَر. كما يمكننا أن نبحث لماذا قد يبدو نشرُ نظريات المؤامرة مؤامرةً.

ولعلنا نستطيع بحْث الأسباب التي تجعل حتى مؤتمرًا أكاديميًّا متواضعًا يبدو إيذانًا بالنظام العالمي الجديد القادم.

لكن هذه مجردُ بدايةِ رحلتنا لِسَبر أغوارِ سيكولوجيةِ نظرياتِ المؤامرة. فبرغم كل شيء، هذا لا يُفسِّر أسباب انخراط بعض الناس في التفكير بالعقلية المؤامراتية أكثرَ من غيرهم، أو أسباب امتلاكنا عقليةً مؤامراتية من الأساس. تلك هي الأسئلة التي ينبغي أن نركزَ عليها في الجزء التالي؛ حيث سنبدأ بالفكرة المتداوَلة كثيرًا: الأشخاص الذين يُصدِّقون نظرياتِ مؤامرةٍ هم مجرد أشخاص يُعانون جنونَ الارتياب.

الفصل الخامس

جنون الارتياب

ظلت رواية ألدوس هكسلي لعام ١٩٣٢ التي تحمل اسم «عالَم جديد جميل» تقضُّ مضاجعَ أصحابِ نظريات المؤامرة على مدارِ الجزء الأكبر من القرن. ففي تلك الرواية، يتخيَّل هكسلي مستقبلًا يوتوبيًّا فاضلًا على ما يبدو. ليس هناك حروبٌ أو فقر. وكل الناس تقريبًا راضون بالحياة. لكن، بطبيعة الحال، الأشياء ليست ورديةً تمامًا كما تبدو للوهلة الأولى. فالسلام والسعادة الظاهران كلاهما مصطنَع؛ حيث صنعَتهما بعناية ديكتاتوريةٌ ظالمةٌ تتحكَّم بدهاءٍ في كل جانب من جوانب حياة مواطنيها. فالحكومة تتأكَّد من أن جميع المواطنين لا يُشككون أبدًا في النظام؛ وذلك من خلال غسيل أدمغتهم برسائلَ لا شعورية تحثُّهم على الإذعان بلا تفكير، وإدمانِ المخدِّرِ الذي يوقف نشاطَ العقل ويُدعى «سوما». ويُعامل الناسُ معاملةً أفضلَ قليلًا من الماشية، إذ يُربَّون من أجل العمل والاستهلاك والموت.

وباختصار، تشتمل رؤية هكسلي للعالَمِ الجديدِ الجميلِ على جميع عناصر نظرية مؤامرة جيدة، وكثيرًا ما ينظر إليها أصحابُ العقلية المؤامراتية باعتبارها إنذارًا متبصرًا بالأشياء التي ستحدث. ولذا من المناسب أن أحد الرموز الأيقونية للمؤامراتية كانت من ابتكار الأخ الأكبر لأدلوس هكسلي ويُدعى جوليان.

ففي قصةٍ قصيرة كتبها هكسلي الأقلُّ شهرة في ١٩٢٧، يكتشف عالِمٌ غريبُ الأطوار سرَّ التخاطر. وفي نهاية المطاف يُدرك أنه يستطيع استخدام هذا السر كسلاح نفسي قوي، لديه القدرة على السيطرة في الخفاء على عقول الناس عبر مساحاتٍ كبيرة. والعُقدة الوحيدة هي أن الشخص الذي يُصدر الأوامر المُخدِّرة يكون عُرضةً لها مثل ضحاياه المستهدفين تمامًا. ولحسن الحظ، يكتشف العالم طريقةً لوقاية نفسه من الطاقة النفسية. والحيلة هي أن يعزل المرءُ نفسه بمعدنٍ عن طريق صُنع غطاءٍ بديلٍ للرأس من رقاقة

معدنية. ومن هنا، ظهرت فكرة قبَّعة رقاقات القصدير كخطٍّ دفاع فعَّال، وإن لم تكن مسايرة للموضة، ضد أشعة التحكم في الدماغ.

ومنذ ذلك الحينِ أصبحت رقاقاتُ القصدير ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنظريات المؤامرة والأشخاص الذين يُصدِّقونها؛ رمزٌ تهكُّمي للإيمان غير العقلاني بأعداء غير مرئيِّين ومكائد وهمية. وقد استُخدم هذا الرمزيُّ لأغراضٍ ساخرة في أفلامٍ مثل فيلم «ساينز»، وهو فيلم عن غزو الكائنات الفضائية للمخرج إم نايت شياMالان، كما استُخدم في عروضٍ تليفزيونية من «ذا إكس فايلز» إلى «ذا سيمبسونز». وقد استُخدم كوسيلةٍ للتهكم على نحوٍ مسلٍّ من جانب الموسيقيِّ الساخر وِيرد أل يانكوفيك. فأغنيته التي طُرحت عام ٢٠١٤ باسم «فويل» تبدأ بتقديرٍ جادٍّ لمزايا رقاقات القصدير في حفظِ ما يتبقى من طعام. لكن المقطع الثاني يتخذ منعطفًا مشئومًا عندما يرتدي يانكوفيك غطاءً للرأس، ويعترف أنه اكتشف مؤامرةً كبرى، ويُحرِّض سامعيه على صنْع قبعات من رقاقات القصدير؛ تحسبًا لرغبة الكائنات الفضائية في السيطرة على محتويات جماجمنا (وغيرها من تجاويف الجسد).

ومثلما استحوذَت قبعات رقاقات القصدير على اهتمام أصحاب نظريات المؤامرة في الأدب الروائي، كثيرًا ما تُستخدَم في السخرية من الأشخاص الواقعيين الذين يُعتقد أنهم يتصرفون بشيءٍ أو كثيرٍ من جنون الارتياب. ويلجأ الصحفيون كثيرًا إلى مجاز رقاقات القصدير عند الكتابة عن نظريات المؤامرة وعن الناس الذين يُصدِّقونها. وحتى الساسة غالبًا ما يلجَئون إليه. ففي عام ٢٠١٤، شارك المولون في ولاية ميزوري دون قصد في لعبة الرقاقة. فبعض معارضي إحدى المبادرات التي تهدف إلى إدخال المنهجِ المدرسيِّ الأساسي المشترك إلى مدارس ميزوري اتهموا أصحاب المبادرة بأنهم يُدبِّرون خطةً لجمعِ بياناتٍ عن الأطفال أو ربما حتى إجراء غسيل لأدمغتهم. وقد سخِر نائب الولاية مايك لير من منتقدي المنهج المدرسي الأساسي المشترك؛ وذلك بتقديمه مقترحًا بتخصيص ثمانية دولارات من أموال الضرائب في ميزانية التعليم لشراء «لفافتَين من الألومنيوم العالي الكثافة من أجل صنْع أغطية للرأس، مصمَّمة لتعطيل تقنية غسيل الأدمغة والسيطرة عليها.» (خصوم المنهج المدرسي الأساسي المشترك، لم تَرُق لهم مزحةُ لير. وثأروا لأنفسهم عندما غلَّف مخادعون مكتب لير وكل شيء عليه برقاقات القصدير.)

قبَّعة رقاقات القصدير هي على الأرجح أول الأشياء التي تردُ على الذهن عندما تستدعي صورةً ذهنية لصاحب نظرية مؤامرة. فهذا الرمز جزءٌ لا يتجزأ من الصورة

النمطية السائدة لأصحاب نظريات المؤامرة: مجموعة من المجانين الذين يتَرصَّدون على حواف أحد المجتمعات المحترمة، ويميلون ميلًا شديدًا إلى منتديات الإنترنت الغامضة والبرامج الحوارية الإذاعية ورقاقات القصدير. وبالنِّسبة إلى الكثيرين من المثقفين النظريِّين، ثمَّة تفسيرٌ بسيط لأسباب تصديق الناس نظريات المؤامرة: هم أشخاص مجانين يعانون جنونَ الارتياب إلى حدٍّ ميئوس منه. لكن هل يستحق أصحاب نظريات المؤامرة حقًّا وصْفَهم بجنون الارتياب؟

الأسلوب القائم على جنون الارتياب

هناك رجلٌ فعل أكثرَ مما فعله أيُّ شخص آخر من أجل إضفاء الشرعية على الرؤية القائلة بأن نظريات المؤامرة هي مظهرٌ من مظاهر البارانويا أو جنون الارتياب. هذا الرجل هو ريتشارد هوفستاتر، الذي شغَل منصب أستاذ التاريخ الأمريكي بجامعة كولومبيا المرموقة في مدينة نيويورك من أربعينيَّات القرن العشرين حتى وفاته في عام ١٩٧٠. كان مظهره كلاسيكيًّا كمفكِّري منتصف القرن العشرين حيث كان شعره قصيرًا ومصفَّفًا بعناية، وكان يرتدي ربطة عنق قوسية الشكل ونظارة كبيرة قرنية الإطار كالتي يرتديها الباحثون أمثالُه. وقد قال عنه أحدُ طلابه بأنه شخص «يكاد يتعذَّر وصْفه.» لكنَّ مظهره المتواضع هذا كان يُخفي وراءه شغفًا بأفكارٍ غيرِ مألوفة. فقد فاز هوفستاتر بجائزتَي بوليتزر عن كتابَيه اللذين تناول فيهما الشعبوية ومناهضة الحركة الفكرية في الثقافة الأمريكية، إضافةً إلى معالجته موضوعاتٍ مثل الداروينيةِ الاجتماعية وقلقِ السعي إلى المكانة. وكما يقول أحدُ زملائه المؤرخين، كرَّس هوفستاتر الكثيرَ من حياته المهنية لفهْم «الجوانب الغريبة والهزلية والمنحرفة والمجنونة في الحياة الأمريكية.» من المفهوم إذن أنه حوَّل انتباهه في نهاية المطاف إلى نظريات المؤامرة.

نشر هوفستاتر مقالةً في عام ١٩٦٤ في مجلة «هاربرز مجازين»؛ حيث لخَّص فيها دور نظريات المؤامرة في التاريخ الأمريكي وتكهَّن بشأن الأسباب المحتملة للتفكير المؤامراتي. ومن ثَم، أصبح واحدًا من اختصاصيِّي العلوم الاجتماعية الأوائل الذين درَسوا نظريات المؤامرة، محوِّلين إياها إلى موضوعٍ يمكن طرْحه للنقاش الأكاديمي المحترم. ويمكن القول إن الغالبية العظمى من تحليلات المؤامراتية التي ظهرت منذ ذلك الحينِ تَدين بالفضل للأفكار الرائدة التي طرحها هوفستاتر في مقالته. وبما يتجاوز الأوساط الأكاديمية، أسهمَت مقالته في تشكيلِ الصورة النمطية لصاحب نظرية المؤامرة المنبوذ،

المصاب بجنون الارتياب، ولا يزال يُستشهد بها كثيرًا من قِبل المثقَّفين الذين يُثنون عليها. وهو شيء مؤسف؛ لأن تحليل هوفستاتر، كما سنرى، كان مَعيبًا بقدْرِ ما كان كاشفًا.

فقد أعطى هوفستاتر مقالته عنوانًا استفزازيًّا عن عمدٍ وهو: «الأسلوب البارانوي في السياسة الأمريكية». وتحسُّبًا لئلَّا تكون رسالته قد وصلت، راقَ له أن يوضِّح أنه عندما قال «الأسلوب البارانوي»، كان يقصد الإهانة. فوفقًا لهوفستاتر، الأسلوب البارانوي طريقةٌ مشوَّهةٌ لرؤية العالم، تتَّسم بالتفكير الوهمي، والارتياب المفرِط، والبحث الرديء، والمبالغة في تصوير الوقائع، والقفزات التخيلية غير المبرَّرة. لكنه ذكر أن السِّمة الرئيسة هي الوهم المؤامراتي. وسلَّم هوفستاتر بأن هناك، بطبيعة الحال، مؤامراتٍ مشروعةً في مجال السياسة؛ ومن ثَم فإن مجرد التكهُّن بوجود مؤامراتٍ محتملة ليس بالضرورة وهمًا. وأوضح: «الشيء الفارق بشأن الأسلوب البارانوي لا يتمثَّل في أن أربابه يرَون مؤامراتٍ أو مكائدَ في كلِّ موضع من التاريخ، وإنما يتمثَّل في أنهم يرون أن مؤامرةً كبرى أو هائلةً هي القوة المحرِّكة في الأحداث التاريخية.» بعبارة أخرى: الأشخاص الذين يُعانون الأسلوبَ البارانوي يرَون مؤامراتٍ في كل مكان. وكتب هوفستاتر بانفعال شديد: «المتحدِّث البارانوي يُتاجر في ميلاد وفناء عوالِمَ بأكملها، وأنظمة سياسية بأكملها، ومنظومات كاملة من القيم البشرية.» وتابع يقول: «دائمًا ما تجده حارسًا لمتاريسِ الحضارة. ويعيش دومًا عند نقطة تحوُّل: فإما الآن أو مطلقًا في تنظيم المقاومة ضد المؤامرة. وهو يرى دومًا مؤامرةً ما يتحتَّم التحرُّك حيالها على الفور. والوقت بالنِّسبة إليه آخذٌ في النفاد على الدوام.»

يعتقد هوفستاتر أن الأسلوب البارانوي قد لوَّث تفكيرَ حركات الأقليات السياسية عبر التاريخ الأمريكي، وحول العالم. فحتى بالرغم من أن تلك الجماعات المتباينة لديها أجندات شديدة الاختلاف، تبقى دائمًا الخصائصُ الأساسية للأسلوب البارانوي دون تغيير. فيرى هوفستاتر أن «العقلية التي تميل إلى رؤية العالم بهذه الطريقة ربما تكون ظاهرةً نفسية ملحَّة، ففي حينِ تتجلى في موجاتٍ متفاوتة من الشدة، يبدو أنه يصعب استئصالها تمامًا.» ويستدرك، مختتمًا كلامه بالقول، إنه من حسن الحظ أنها لا تُصيب عادةً سوى «أقلية بسيطة من السكان لديها عقولٌ غاضبة على نحوٍ غير مألوف.» بعبارة أخرى: الأسلوب البارانوي يزدهر على هامش مجتمعٍ محترم.

ونتيجةً للتصوير المفعَم بالحيوية الذي قدَّمه هوفستاتر عن أصحاب نظريات المؤامرة باعتبارهم شرذمةً صغيرة من المعتوهين الهامشيِّين الذين يُعانون طريقةً بارانوية مروِّعة

في التفكير، انصبَّ تركيزُ جانبٍ كبيرٍ من أبحاث العلوم الاجتماعية بعد ذلك على استكشافِ ما إذا كان الأشخاص الذين ينخرطون في نظريات المؤامرة لديهم بالفعل استعدادٌ بارانوي غير معتاد. كان من بين أوائل هؤلاء الباحثين الذين اختبَروا أطروحة هوفستاتر هو تيد جورتزيل، أستاذ علم الاجتماع في جامعةِ روتجرز في ولاية نيوجيرسي. وفي عام ١٩٩٢، اتصل جورتزيل وفريقٌ من الباحثين هاتفيًّا بمئاتٍ من سكان ولاية نيوجيرسي عشوائيًّا، سائلين إياهم عن شعورهم إزاءَ عددٍ من نظريات المؤامرة التي كانت رائجةً آنذاك. وبعد ذلك، طرح الباحثون أسئلةً أُعدت لقياسِ عنصرٍ واحد من عناصر التفكير البارانوي: الارتياب. وكان السؤال: إلى أيِّ مدًى تثقُ في أصدقائك وأسرتِك وجيرانك والسلطات الرسمية كالشرطة مثلًا؟ وكانت الإجابات واضحة؛ كلما قلَّت ثقةُ الناس فيمن حولهم، زاد ميلُهم نحو الاقتناع بنظريات المؤامرة.

وقد طرح علماء آخرون أسئلةً مشابهةً واكتشفوا الاتجاه نفسَه. فقد وجد الباحثون ارتباطاتٍ بين الاقتناع بنظريات المؤامرة وبين المؤشرات الأخرى الدالة على جنون الارتياب؛ فالأشخاص الذين يُصدِّقون نظريات المؤامرة بقوة يميلون إلى شيءٍ من العدوانية والتهكُّم وتحدي السلطة والتوتُّر وسوء الطِّباع أكثرَ من الأشخاص الذين يرفضون نظريات المؤامرة. وهذه الدراسات شملَت آلاف الأشخاص، بدءًا من مرتادي الكنائس الأمريكيِّين الريفيين من أصلٍ أفريقي وصولًا إلى الطلاب الجامعيين البريطانيين. ولم تكن النتائجُ واضحةً تمامًا؛ فقد توصلَت إحدى الدراسات، على سبيل المثال، إلى أن الأشخاص الذين نشروا تعليقاتٍ على شبكة الإنترنت ينتقدون فيها نظريات المؤامرة كانوا أكثرَ عدوانيةً في بعض الأحيان من الأشخاص الذين أيَّدوا نظريات المؤامرة. وبرغم ذلك، فإن النمط متسقٌ إلى حدٍّ كبيرٍ في العموم. فالأشخاص الذين يُصدِّقون نظريات المؤامرة عمومًا، لديهم في الأغلب نزعةٌ بارانوية أكثر من الأشخاص الذين يتشكَّكون في صحةِ نظريات المؤامرة عمومًا.

أطروحة هوفستاتر تمضي على ما يُرام إلى الآن (وكذلك نمط قبَّعة رقاقة القصدير).

ماذا عن العناصر الرئيسة الأخرى لأطروحة هوفستاتر؛ زعمه بأن الأسلوب البارانوي يتَّسم به في الأساس الأشخاصُ الذين يعيشون على هامش المجتمع؟ ودعمًا لأطروحته، لم يجد هوفستاتر غضاضةً في أن يسوق أمثلةً لحركاتٍ سياسية مُهمَّشة روَّجَت مزاعمَ مؤامراتية عبر ثلاثة قرون من التاريخ الأمريكي. ومن الأمثلة البارزة تحذيرُ واعظ ولاية ماساشوستس الذي أثار بلبلةً في عام ١٧٩٨ من «متآمرين ملحدين» يُخطِّطون لهدمِ

أسسِ المسيحية، وأيضًا سيناتور الخوف الأحمر جو مكارثي الذي سأل مجلس الشيوخ الأمريكي في كلمته عام ١٩٥١: «كيف يُمكننا أن نُفسِّر موقفنا الحاليَّ ما لم نُصدِّق أن رجالًا رفيعي المستوى في هذه الحكومة يتآمرون لإيقاعنا في كارثة؟»

ماذا عن الأشخاص الآخرين المطرودين إلى هامش المجتمع؛ أو بعبارة أخرى: الأشخاص الذين ليس لديهم بالضرورة أجندةٌ سياسية؟ مثلما سأل جورتزيل أفرادَ عيِّنته من قاطني ولاية نيوجيرسي عن مدى تشككهم، سألهم أيضًا عن مدى شعورهم بالسخط حيال المجتمع. ووجد أنه كلما زاد اقتناعهم بأشياءَ من قبيل «أغلب المسئولين الحكوميِّين ليسوا مهتمِّين بالمواطن العادي.» و«من غير العدل أن تُنجب طفلًا في عالم اليوم.» زادت احتمالات اقتناعهم بنظريات المؤامرة. وتوصَّلت دراسات أخرى إلى أنه كلما قلَّ رضا الناس عن الحياة بوجهٍ عام، وتراجع شعورهم بأنهم مسيطرون على ظروفهم الخاصة، زادت احتماليةُ تقبُّلِهم لنظريات المؤامرة.

وعلاوةً على ذلك، يبدو أن نظريات المؤامرة تَشيع بشكل خاصٍّ بين الأشخاص الذين لديهم مبررٌ جيد للغاية للشعور بالعجز والسخط على المجتمع؛ على غِرار أفراد الأقليات العِرْقية والإثنية (في الولايات المتحدة على الأقل، وهي البلد الذي أُجري فيه البحث بأكمله). والجماعات العرقية الأساسية الممثَّلة في عينة جورتزيل من قاطني ولاية نيوجيرسي كانوا أمريكيِّين من أصلٍ إسباني وأمريكيِّين من أصل أفريقي وقوقازيين. وقد توصَّل إلى أن الأمريكيِّين من أصلٍ إسباني والأمريكيين من أصل أفريقي، مالوا في العموم إلى اعتبار النظريات معقولةً أكثرَ مما اعتقد القوقازيون. وفي عام ١٩٩٩، رصد فريقٌ من الباحثين في جامعة ولاية نيوميكسكو الاتجاه نفسَه بين طلابهم. وفي عام ٢٠٠٦، اتصل فريقٌ آخرُ من الباحثين هاتفيًّا وبشكل عشوائي بأكثر من ١٠٠٠ أمريكي، سائلين إياهم عن رأيهم في نظريات المؤامرة المتعلِّقة بأحداث الحادي عشرَ من سبتمبر. ومن جديد كانت الأقليات (في هذه الحالة، الأمريكيون من أصل أفريقي، والأمريكيون من أصل إسباني، والأمريكيون من أصل آسيوي) أكثرَ تقبلًا بوجهٍ عامٍّ للنظريات مقارنةً بالقوقازيين. وتُشير استطلاعات الرأي الحديثة إلى فروقٍ ديموغرافيةٍ مشابهةٍ فيما يتعلَّق بعددٍ من النظريات.

ومن ثَم يبدو أن هوفستاتر قد أصاب الهدف. ويبدو أن نظريات المؤامرة رائجةٌ بين الأشخاص الذين يعانون حالةً شديدة من جنون الارتياب، إضافةً إلى الأشخاص الذين يشعرون بأنهم أغرابٌ عن مجتمعاتهم وبأنهم تحت رحمةِ قُوًى تخرج عن نطاق سيطرتهم. ومن المغري أن نتوقَّف هناك، بعد أن تأكدنا تمامًا من الأنماط المتعلِّقة

بالمهمَّشين المصابين بجنون الارتياب. لكننا إذا توقَّفنا هناك، فلربما لن نرى سِوى جزءٍ صغيرٍ من أحجيةٍ أكبرَ بكثير. فبرغم كلِّ تبصُّرِ هوفستاتر، فإنه أخفقَ في رصد النطاق الحقيقي للمؤامراتية.

الجموع البارانوية

المشكلة الأبرز في تناول هوفستاتر للأسلوب البارانوي تتمثَّل ببساطة في أن نظريات المؤامرة لا تقتصر على كونها سِمةَ المهمشين. إنه لم يُخطئ في توضيحه أن المؤامراتية تزدهر على هامش المجتمع. إنما كان خطؤه أنه توقَّف عند ذلك. ونتيجةً لهذا، تغاضى عن الحقيقة القائلة بأن نظريات المؤامرة تزدهر في المجتمع بوجهٍ عام أيضًا. فقد وجد جيسي ووكر الكثيرَ جدًّا من الأمثلة المنسوجة بعمقٍ في نسيج المجتمع الأمريكي إلى حدٍّ أنه عنونَ كتابه الذي تناول هذا الموضوع بـ «الولايات المتحدة وجنون الارتياب». في هذا الكتاب، غيَّر عنوان مقالة هوفستاتر الشهيرة ليُعنون أحد فصوله على النحو التالي: «الأسلوب البارانوي هو السياسية الأمريكية». ويوضِّح ووكر أن المؤسسة نفسَها تنطوي على نظريات مؤامرة خاصة بها.

فالرئيس جورج واشنطن، وهو أحد الرؤساء المؤسِّسين للولايات المتحدة، لا يمكن اتهامُه بأنه شخصية هامشية مثلًا. ولكن عندما اتهم أحدُهم واشنطن بعدم إيمانه بمؤامرة المتنوِّرين، سرعان ما أوضح الأمر حيث كتب يقول إنه «ليس هناك أحدٌ أكثرُ اقتناعًا بهذه الحقيقة مني.» وبعد مرور قرن، شعر كلٌّ من الرئيسَين ثيودور روزفلت وودرو ويلسون بأن هناك يدًا خفية تُحرك الحكومة. فقد كتب روزفلت يقول: «خلف الحكومة الظاهرة تجلس حكومةٌ غيرُ مرئيَّة صاحبةُ نفوذ، لا تدين بأيِّ ولاء ولا تُقر بأي مسئولية حيال الشعب.» وبعد ذلك بعامٍ، حذَّر ويلسون متشائمًا: «بعض أكبر رجالات الولايات المتحدة، في مجال التجارة والتصنيع، خائفون من شيءٍ ما. هم يعلمون أن هناك قوةً في مكانٍ ما على درجة عالية من التنظيم والخفاء والترقُّب والتماسك والتكامل والتغلغل، حتى إنه سيكون من الأفضل أن يَخفضوا أصواتهم عندما ينتقدونها.» ويُشير لانس ديهافن-سميث في العقود الثلاثة التي أعقبت الحربَ العالمية الثانية، إلى أن «مسئولين أمريكيِّين أكدوا أن الشيوعيين كانوا يتآمرون للاستحواذ على العالم، وأن البيروقراطية الأمريكية كانت تعجُّ بالجواسيس السوفييت، وأن الحقوق المدنية والحركة المناهضة للحرب في ستينيَّات القرن

العشرين كل هذا كان من صنْع السوفييت.» (تذكَّر أن أحد أمثلة هوفستاتر التي ساقها على أصحاب نظريات المؤامرة المُهمَّشين كان جو مكارثي، وهو سيناتور أمريكي منتخَب. ويبدو أن هذه الحقيقة قد غابت عن هوفستاتر.) حتى الرئيس الأمريكي باراك أوباما، اتُّهم، في حملة إعادة انتخابه عام ٢٠١٢ «مليارديرات نفطيين سريِّين» بتشويه سجلِّه ومحاولة شراء الانتخابات.

بطبيعة الحال، لا تشغل المؤامراتُ من آنٍ لآخرَ بعضًا من أعضاء الحكومة رفيعي المستوى فحسب. فنظريات المؤامرة الخاصةً بالمهمشين غالبًا ما يكون لها نظراءُ مؤسسيون. ففي حين أن العبيد في أمريكا قبل الحرب كانوا يخشون من أن يكون الأطباءُ البِيضُ منخرطين في التخطيط لاختطافهم وذبحهم، انزعج أصحاب المزارع من أن يكون عبيدهم موضعَ استغلال من جانب الحركة الشمالية للتحرير من العبودية الذين يسعَون، على حد زعمهم، لدفعهم إلى التمرُّدِ العنيف. وفي حينِ انزعج شعبويُّو مطلع القرن من أن تكون الحكومة قد خضعَت لسيطرةِ مجموعةٍ من المصرفيِّين الدوليِّين، شجب آخَرون الشعبويين ذاتَهم باعتبارهم «مجموعةً منظَّمة وقوية شُكِّلت بمكرٍ ودهاء.» وبين الفينة والأخرى، تنخرط حشودٌ من العامة في حالةٍ من الهوس المؤامراتي. ففي بداية القرن العشرين، استحوذت المخاوفُ على عموم الأمريكيِّين من مؤامرةٍ آثمةٍ كبرى تهدف إلى اختطاف الشابَّات البريئات البيض، وإجبارهن على ممارسة البِغاء. وقد أثَّرت الروايات المروِّعة إلى حدٍّ أن الرئيس ويليام هوارد تافت الذي سرعان ما سنَّ قانونَ حظر تجارة الرقيق الأبيض، الذي خصَّص ٥٠٠٠ دولار أمريكي لتشكيل الوكالة التي عُرِفت في نهاية المطاف باسم مكتب التحقيقات الفيدرالي. وفي ثمانينيَّات وتسعينيَّات القرن العشرين، اكتسحت بريطانيا موجةٌ من «الفزع الشيطاني» وكذا الولايات المتحدة، ووفقًا لها حِيكَت مؤامرةٌ شريرة كبرى من جانبِ قتلةٍ يعبدون الشيطان لاستغلالِ الأطفال الأبرياء وذبحهم بشكل جماعي.

تجدر الإشارة إلى أنه بمرور الوقت، بدأ هوفستاتر، فيما يبدو، يعتقد أن المؤامراتية ربما تكون ظاهرةً أكبرَ من تلك التي تخيَّلَها في بداية الأمر. ففي حين أن النسخة الأولى من مقالته ذكرت أن الأسلوب البارانوي لا يُؤثِّر إلا على أقليةٍ «متواضعة» من السكان، حدَّث هوفستاتر تقديراته لاحقًا ليقول أقلية «مُعتَبَرة». لكن هوفستاتر لم يكن لديه أرقام يدعم بها مزاعمه، وحتى هذا التقدير الأكثر سخاءً لا يزال قاصرًا عن رصد النِّطاق الحقيقي

للمؤامراتية. وقد خرجت إلى النور على مدار السنوات القليلة الأخيرة عشراتُ الاستفتاءات واستطلاعات الرأي، وتبيَّن أن الأمر لا يقتصر على حَفنة صغيرة من أشخاصٍ يُعانون جنونَ الارتياب ويشعرون بالاغتراب في مجتمعاتهم، بل رُصِدت أعدادٌ ضخمة من الناس الذين يُصدِّقون نظريات المؤامرة. ففيما يتعلَّق بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، أو مقتل الأميرة ديانا، أو الهبوط على سطح القمر، أو النظام العالمي الجديد الوشيك، أو إضافة الفلوريد إلى الماء الذي نشربه، أو أمان اللقاحات، أو وجود كائنات غريبة، على سبيل المثال، يُصدِّق ١٠٪ إلى ٣٠٪ من الناس الروايات المؤامراتية. وفيما يتعلق بمقتل جون كينيدي، فإن أصحابَ نظريات المؤامرة هم الأغلبية؛ فوفقًا لبعض استطلاعات الرأيِ التي أُجريت على مرِّ السنين، اعتقد عددٌ قليل من الناس — بمعدل شخص أو اثنين من كل عشَرة أشخاص — أن لي هارفي أوزوالد ارتكب جريمةَ الاغتيال بمفرده.

لكننا لا نستطيع أن نستنتج النطاقَ الحقيقيَّ للتفكير المؤامراتي بالنظر فقط إلى أعداد الأشخاص الذين يقولون إنهم يُصدِّقون نظريةَ مؤامرةٍ معينة. فالنظريات تزدهر وتخبو. فالبعض منها يزداد رَواجًا بمرور الوقت في حينٍ يتلاشى بعضها الآخر. والبعض منها سريعُ الزوال، وسرعان ما يطويه النسيان بمجرد ظهوره. يوضح جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت أنه ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن قياسَ مدى تصديق «إحدى نظريات المؤامرة مؤشرٌ دقيق لنظريات المؤامرة على اتساعها؛ الأمر لا يختلف كثيرًا عن كون سعر سهم شركة جنرال موتورز مؤشرًا أوليًّا لسوق الأسهم».

ولمعرفة مدى شيوع التفكير المؤامراتي بوجهٍ عام، نحتاج إلى منظورٍ أوسع نطاقًا. فأولًا، يُمكننا أن نتأمل نسبة الأشخاص الذين لا يُصدِّقون نظريةَ مؤامرة واحدة فحسب، بل يصدِّقون كلَّ نظرية مؤامرة. فقد توصَّل تيد جورتزيل في استطلاعٍ أجراه عام ١٩٩٢، إلى أن الجميع تقريبًا قد قَبِلوا نظريةً واحدة على الأقل من نظريات المؤامرة عندما سألهم عنها، وأن أغلبهم كانوا يعتقدون أن العديد من تلك النظريات صحيحةٌ دون شك أو على الأرجح. وفي وقتٍ أحدثَ من ذلك، أشار استطلاعٌ للرأي أُجري عام ٢٠١٣، إلى أن ٦٣٪ من الشعب الأمريكي يُصدِّقون نظريةَ مؤامرة سياسية واحدة على الأقل. وبالمثل، توصَّل استطلاعٌ للرأي أُجري عام ٢٠١٤ إلى أن نصف الأمريكيين يُصدِّقون نظريةَ مؤامرة طبية واحدة على الأقل.

مستويات الاعتقاد أو التصديق هذه تُوسِّع نطاق أيِّ تعريف لمصطلح «الهامش» بما يتجاوز هذا النطاق بكثير. لكن حتى هذه الأرقام الكبيرة ذات الدلالة لا تُعبِّر عن الشيوع

الحقيقي للتفكير المؤامراتي. كلُّ ما تُظهره أن الأشخاص الذين شاركوا في الأبحاث كانوا يُصدِّقون على الأقل نظريةً واحدة من العدد المحدود من النظريات التي سألهم الباحثون عنها تحديدًا في استطلاعاتهم. فقد سأل جورتزيل عن ١٢ نظرية مختلفة، وتعرَّض استطلاعٌ عام ٢٠١٤ المتمحورُ حول المؤامرات الطبية، لستِّ نظريات، واستقصى استطلاع ٢٠١٣ السياسي عن أربع نظريات فقط. وسؤال الناس عن كلِّ نظرية مؤامرة في هذا العالم سيكون مفيدًا أكثر، لكن ليس هناك الكثيرون من الناس الذين لديهم الاستعداد للخضوع لهذا الاستجواب. فإذا استطعنا بطريقةٍ ما تنفيذَ دراسة طموحة، فأعتقد أننا سنجد أن كل شخص تقريبًا يُصدِّق نظرية أو أخرى من نظريات المؤامرة. فنحن جميعًا أصحابُ نظريات مؤامرة، على الأقل في بعض الأحيان.

جنون الارتياب اليومي

لماذا إذن لا يزال من السهل للغاية أن ننساقَ وراء القالَبِ النمطيِّ لصاحب نظرية المؤامرة المُتعرِّق اليدين والهامشي والمرتدي لقبعة رقاقة القصدير؟

حسنًا، يكمُن في هذا القالبِ النمطي لُبُّ الحقيقة. فكما رأينا، الأشخاص الذين يقتنعون بنظريات المؤامرة بحماسٍ بالغٍ يكونون على الأرجح، في واقع الأمر، أكثرَ اعتلالًا بجنون الارتياب من الذين يرفضون نظريات المؤامرة. المشكلة تكمن في افتراضِ أن جنون الارتياب شيءٌ غيرُ مألوف إلى هذا الحد. فعند سماع مصطلح جنون الارتياب، يكون من المغري تصوُّر شخصٍ ما غير قادر على التصرف أو التحرك؛ لأن خوفه من ترصُّدِ شخصٍ ما له يعذبه باستمرار. هذا النوع من جنون الارتياب المَرَضي موجود بالتأكيد، ويمكن أن يكون موهنًا. فجنونُ الارتياب الحادُّ هو عرَضٌ أساسي من أعراض الاعتلالات العقلية مثل فصام الشخصية والاضطراب الثنائيِّ القطب. لكن هذا النوع من جنون الارتياب الموهن لا يُعانيه سوى نسبةٍ ضئيلة جدًّا من السكان. فلا يمكن أن يُفسِّر جنون الارتياب المرضي الإيمانَ بنظريات المؤامرة.

لكن ليس هذا هو نوعَ جنون الارتياب الذي قاسته الدراساتُ التي تحدَّثنا عنها في وقتٍ سابق. كما أنه يختلف عمَّا كان يعتقده هوفستاتر. فقد أوضح في مقالته أنه بالرغم من استعارته مصطلحَ جنون الارتياب من متلازمةٍ سريرية، لم يقصد وصف أولئك الذين اتهمَهم بإظهار الأسلوب البارانوي بأنهم مختلُّون عقليًّا. بل كان يستخدم مصطلح جنون الارتياب، حسب قوله، بالمعنى الدارجِ أكثر. ومع ذلك، رغم استخدام هوفستاتر المتحفظ

للمصطلح، ظلت لغته تَصِمُ الشخص الذي يصفه بجنون الارتياب. فليس من المنطقي إلى حدٍّ كبيرٍ أن تقول إن نظريات المؤامرة نتاجُ «عقول غاضبة على نحوٍ غيرِ مألوف.» على حد وصف هوفستاتر، عندما تكون هذه العقولُ مألوفةً وشائعة في واقع الأمر.

في الواقع، لا يتطلب الأمر أن يكون المرءُ ذا عقلٍ غاضب على نحوٍ غيرِ مألوف حتى يتشكَّك فيمن يُحيطون به. فالأفكار البارانوية تُغطي طيفًا واسعًا من الشدة، وليس هناك هوَّة واسعة تفصل ما هو مرضيٌّ عما هو عادي. فأوهامُ الاضطهادِ متكاملةُ الأركان التي تُؤرق بعض الناس بفصام الشخصية تقع عند أحدِ طرَفَي المقياس، وهي نادرةٌ لحسن الحظ. لكن الطرف الآخر من المقياس — وهو عدم ورود أي فكرة بارانوية عابرة مطلقًا على عقلك — أمرٌ نادر أيضًا. هل سبق لك أن وجدتَ نفسك على متن قطار مزدحم، وشعرت كما لو أن شخصًا غريبًا تمامًا يرمقك بنظرات استنكارية دون سببٍ واضح؟ أو لعلك شعرت بأن أشخاصًا في العمل يُرسلون رسائلَ بريد إلكترونيٍّ عنك من وراء ظهرك، أو مرَّ بك صديق دون أن يقول لك «مرحبًا!» فأخذت تتساءل هل تجاهلَك عن عمد. أو ربما وجدت نفسك وحيدًا بالمنزل ليلًا وانتابك شعورٌ سخيف بأن ثمَّة شيئًا ما يترصَّد لك في الظلام؟ إذا كان هذا قد حدث لك؛ فقد انتابك جنون الارتياب.

لكن لا تقلق، لستَ وحدك. فكلُّ الناس تقريبًا لديهم أفكار بارانوية، وأكثر بكثير مما تظن. كرَّس عالم النفس دانييل فريمان حياته المهنيَّة لدراسة جنون الارتياب. ففي عام ٢٠٠٥، طرح فريمان وفريقٌ من زملائه سؤالًا على أكثرَ من ١٠٠٠ طالب جامعي عادي حول المعدل الذي تُراودهم به أفكارٌ بارانوية بسيطة، على غِرار تساؤلهم عما إذا كان شخصٌ ما يُحاول استغلالهم، أو عما إذا كان الناس يتحدَّثون عنهم من وراء ظهورهم. وقد اعترف جميعهم تقريبًا بأن هذه النوعيةَ من الشكوك تنتابُهم من آنٍ لآخر. ولعل الشيء الأكثر غرابة أن أكثر من ثلاثة أرباع الطلاب اعترفوا بأن فكرةً بارانوية أو أكثر تُراودهم كلَّ أسبوع على الأقل. بل اعترف قرابة ثُلث الطلاب بأن ثمَّة أفكارًا بارانوية تُراودهم بمعدلٍ أعلى من ذلك.

عندما قاس تيد جورتزيل وآخَرون جنونَ الارتياب، كانت أسئلتهم تستهدف تقييمَ هذه النوعية من الشكوك اليومية. فالشكوك التي تُراود المرء عن دوافعِ الناس، وسوء الظن، وتحدي السلطة، والعدائية، والتهكُّم التي تنسجم مع اعتقاده بأنه يعيش في عالمٍ لا يُمكنه أن يثق فيه دومًا بالناس هي جميعها مشاعرُ شائعة جدًّا بين الناس العاديين. بطبيعة الحال، بعض الناس أكثرُ عرضة نسبيًّا لهذه المشاعر من غيرهم. وليس من

الصعوبة أن تُدرك كيف أن نزعةً بارانوية نسبية وطفيفة في الوقت ذاتِه يُمكن أن تؤديَ إلى الانخراط في نظريات المؤامرة. فعندما تتشكك في الناس، لا سيما المسئولين، ولا تثق بهم، فالأرجح أنك تتشكَّك تمامًا في التفسيرات الرسمية. وإذا كنت تعتقد أن أغلب الناس لديهم دوافعُ خبيثة خفيَّة، فإن نظريات المؤامرة تصبح التفسير الأكثر منطقية بالنِّسبة إليك. فجنون الارتياب ينسجم تمامًا مع نظريات المؤامرة، لكن نظريات المؤامرة لا تقتصر على أناسٍ هامشيِّين؛ لأن جنون الارتياب لا يقتصر على أناس هامشيين.

بالمثل، ثَمَّة شيءٌ من الحقيقة في الفكرة القائلة بأن أصحاب نظريات المؤامرة يشعرون في أغلب الأحيان بالاغتراب والنبذ والعجز النِّسبي. لكن هذه أيضًا تجرِبةٌ أكثرُ عموميةً مما قد تُخيِّله لنا القوالب النمطية المتعلقة بالمنعزلين القابعين على شبكة الإنترنت. فلطالما فَطِن علماءُ النفس لأهمية شعور المرء بسيطرته على زمام الأمور، وليست هذه رغبةً مقصورة على الأشخاص الهامشيِّين. فكل الناس يودُّون أن يعتقدوا أنهم يفهَمون ظروفهم ويتحكَّمون في مصائر أنفسهم. غير أن العالم لديه عادة مقيتة وهي أنه يُذكِّرنا بأننا تحت رحمة العشوائية. فمن فقدان المرء لوظيفته حال حدوث ركود اقتصاديٍّ إلى دخول مسمارٍ صَدِئ في قدمه، ثمَّة مصادرُ عشوائية للحظِّ العاثر لا تُعد ولا تُحصى، ويستحيل التنبؤ بها أو التحكم فيها، كما أن بمقدورها تغييرَ مسار حياتك؛ أو على الأقل إفساد يومك في لحظة. ونحن نُواجه تحدياتٍ مستمرةً تختبر شعورنا بالسيطرة بصورٍ أقلَّ دراماتيكية أيضًا، تتمثَّل في تغيير التحالفات الاجتماعية والتمييز والشعور بالنبذ والاغتراب والظلم والإجحاف، أو حتى مجرد الشعور بأن شخصًا ما لديه سلطانٌ علينا.

وعندما يُصبح شعورنا بالسيطرة مهدَّدًا، فإننا حينَذاك تحديدًا نُصبح أكثرَ عرضةً لشيءٍ من جنون الارتياب. فإدراكُ أن العالَم فوضويٌّ أمرٌ مزعج للغاية، بالنِّسبة إلى أغلبنا. والقلق الوجودي يدفعنا لإيجادِ طرقٍ أخرى نُرضي بها حاجتنا إلى النظام والسيطرة؛ وعندما نُصبح عاجزين عن السيطرة على الأمور بأنفسنا، نركن إلى الاعتقاد بأنَّ شخصًا ما (أو شيئًا ما) هو مَن يتولَّى دَفة القيادة. ويطلق علماء النفس على هذا الأمر «السيطرة التعويضية».

ويكون أمامَنا بضعةُ خيارات عندما يتعلق الأمر بإيجاد سيطرة تعويضية. وأحد تلك الخيارات هو الاعتقاد بأن لدينا حليفًا قويًّا. فالأديان التي تقوم على فكرةِ وجودِ إلهٍ

محبٍّ للخير يتحكم في العالَم، تُطمئِنُ المؤمنين بذلك أن كل شيء يحدث لسببٍ ما. وإذا نظرنا إلى الأمر بمنظور واقعي أكثر، فإننا نضع ثقتَنا في مؤسساتٍ مثل الحكومة. وتُشير الدراسات النفسية إلى أنه عندما يتضاءل شعور المرء بالسيطرة الشخصية، يصبح أكثرَ نزوعًا إلى الإيمان بإلهٍ يتدخل في كل شئون العالَم (لا في معبود لا يتدخَّل كثيرًا في مجريات الأمور) وأكثر ميلًا إلى زيادة الضوابط الحكومية.

ثَمة طريقةٌ أخرى تتحقَّق بها السيطرة التعويضية وهي الاعتقاد بأن لديك عدوًّا قويًّا. قد يبدو هذا تناقضًا؛ فهل هناك مِن شيء أكثرَ إزعاجًا من تخيُّلك أن الناس يُخططون ضدك؟ لكن وجود أعداء لك له مزاياه. فلْتتذكَّر أن الشيء الذي نودُّ تجنُّبه قبل كل شيء هو أن نرى العالمَ عشوائيًّا. فلو أن الأشياء تحدثُ لنا محضَ صدفة، فلن يكون لدينا كثيرُ أملٍ في فَهم مصائرنا والتنبؤ بها والتحكُّم فيها. والاعتقاد بأن شخصًا ما في مكانٍ ما هو مَن يُسيطر على مجريات الأمور — حتى وإن لم يكن هذا الشخص يعبأ كثيرًا بمصالحك — أفضل من الاعتقاد بأن حياتك تتلاعبُ بها الصُّدف. فعلى العكس من العشوائيةِ العديمةِ الملامح، قد يكون ممكنًا إفشالُ أعدائك المعروفين أو التحكمُ فيهم أو على الأقل فهمهم.

هذا ليس قرارًا شعوريًّا. فأدمغتنا تُؤدي الجزءَ الأكبرَ من هذه المهمة نيابةً عنا، دون أن يتطلَّب الأمر منَّا حتى إدراك سبب شعورنا بالانزعاج. يصف رودريك كرامر، وهو اختصاصيٌّ آخرُ في العلوم الاجتماعية متخصصٌ في جنون الارتياب، كيف أن التهديدات التي تعترض شعورنا بالسيطرة تدفع أدمغتَنا للتحرُّك. فنحن نُصبح أشدَّ مبالغةً في الحرص؛ إذ نُدقِّق في سلوك الناس بعنايةٍ تفوق ما هو معتادٌ بكثير ونطيل التفكير في الدوافع المحتملة وراءَ سلوكهم هذا، باحثين عن مفاتيحَ ودلائلَ تُساعدنا على استعادة النظام والفهم. ومن خلالِ جمعِ هذه المعلومات الغامضة والركون إليها بحماس، تزداد احتماليةُ قراءتنا لنوايا خبيثةٍ خفيةٍ في أحداث عادية، وسوء تفسيرنا لسلوك بريء ظانِّين انطواءه على تهديد. ونتيجةً لذلك، من السهل أن يتولَّد لدينا خوفٌ من أن شخصًا ما قد لا يكون أهلًا للثقة أو أنه يترصَّد بنا، وهو ما يُؤدي إلى مزيدٍ من الاحتراز واجترار الأفكار. وقبل أن ننتبهَ إلى الأمر، يمكن أن تُهيمن شكوكنا علينا، دافعةً إيانا إلى المبالَغة في تقدير درجة سيطرة أشخاص آخرين أو قُوًى أخرى على الأمور ومدى سعيهم لإلحاق الضرر بنا.

يُظهِر عددٌ من التجارِب الحديثة إلى أيِّ مدًى يسهُل تفعيل هذه العملية. فمثلًا، صمَّم عالِم النفس دانييل سوليفان وزملاؤه مجموعةً من التجارِب جرى فيها التحكم في الشعور بالسيطرة لدى عددٍ من المشاركين غير المرتابين. ففي إحدى الدراسات، طلب الباحثون من المشاركين تقييم مدى سيطرتهم على أشياءَ من قبيل «هل أنا عُرضة للإصابة بمرضٍ ما؟» أو «هل يُعاني أفراد أسرتي أو لا؟». وقد قيَّمت مجموعةٌ مختلفة عباراتٍ أكثرَ براءةً على غِرار «أتحكَّم في مقدار الوقت الذي أقضيه أمام شاشة التليفزيون.» وكانت النتيجة أن المجموعة الأولى التي جرى تذكير أفرادها على نحوٍ خفيٍّ بالتهديدات الوجودية التي تستعصي على السيطرة كانت أكثرَ ميلًا على نحوٍ دلالي إلى الاقتناع بنظرية مؤامَرة مختلَقة بشأن تزوير الانتخابات.

توصَّل عالِما النفس جنيفر ويتسون وآدم جالينسكي إلى نهجٍ آخر. ففي دراستهما، طلبا من المشاركين في الاختبار تذكُّرَ تجرِبة ليس لديهم سيطرةٌ عليها، أو تجرِبة لديهم سيطرةٌ تامة عليها. وبعد ذلك، طلبا من كل واحدٍ من المشاركين أن يتخيَّل أنه أحد الإداريين المرموقين في شركته. وتستلزم وظيفته، بين أشياء أخرى، مُراقبة شبكة الإنترنت واستخدام كلِّ موظَّفي الشركة للبريد الإلكتروني. كما طلبا أن يتخيَّل أنه على وشك الترقِّي، وأنه قبل يوم المقابلة المهمة مع رئيسه في العمل، يُلاحظ زيادةً غير مألوفة في عدد رسائل البريد الإلكتروني التي يتبادلُها زميله في العمل الجالس بجواره ورئيسه في العمل. وعندما يلتقي برئيسه في العمل، يكتشف أنه لن يحصل على الترقية، وهذه هي نهاية السيناريو. سأل عالِما النفس المشاركين: «ما مدى احتمالية تأثيرِ زميل العمل على قرار رئيسك في العمل؟» وكانت النتيجة أنه مقارنة بالأشخاص الذين جرى إشعارهم بأهميتهم وأنهم متحكمون في الأمور، زادت احتماليةُ تشكُّك الأشخاص الذين جرى إشعارهم بالعجز أن ثمة مؤامرةً ما في الأمر.

وبعيدًا عن المختبرات، طلبت عالِمةُ النفس البولندية مونيكا جريشاك فيلدمان من الطلاب الإجابةَ عن أسئلةٍ تتعلق بمؤامرة محتملة، وذلك قبيل بدء امتحان مهم بـ ١٥ دقيقة. وبالمقارنة مع الطلاب الذين كانوا ينتظرون بدءَ محاضرة عادية وحسب، زادت احتمالية أن يظن المُمتحَنون المتوتِّرون بأن ثَمة نظريةَ مؤامرة. وبالمثل، توصَّل رودريك كرامر إلى أن الأشخاص المستجِدِّين في مكانٍ ما، أو الذين يكونون تحت تدقيق شديد، أو يكونون في مكانة متواضعة نسبيًّا (كطلاب السنة الأولى في الدراسات العليا والأساتذة المساعدين)

تزداد احتمالية اعتقادهم أن الآخرين يُخططون ضدَّهم من وراء ظهورهم مقارنة بزملائهم ذوي المكانة الأعلى.

جنون الارتياب الحصيف

يقودنا هذا إلى وجهةِ نظرٍ عن جنون الارتياب تختلف بشدةٍ عن الفكرة النمطية التي تُفيد بأن جنون الارتياب ناتجٌ عن «عقول غاضبة على نحوٍ غيرِ مألوف». ففي جميع الحالات باستثناء أشدِّ الحالات، لا يكون جنون الارتياب ناتجًا عن خللٍ في مشابك عصبية تستدعي أوهامًا خبيثة. فعلى النقيض من ذلك، تَشيع الحالات الطفيفة من جنون الارتياب بين الأشخاصِ العاديِّين للغاية، فهي نتاجُ دافعٍ نَهمٍ لفهْم العالَم ومكاننا فيه، والشعور كما لو كنا نملك زمامَ الأمور.

وجنون الارتياب ليس دائمًا شيئًا سيئًا. فبرغم كل شيء، غالبًا ما يكون العالَم مكانًا غامضًا ومخيفًا. وكما يوضح دانييل فريمان: «السير في شوارعَ معينةٍ قد يُشعرك بالخطر. والأصدقاء ليسوا دائمًا أصدقاءَ صالحين.» فربما يسخر الناس منك في واقعِ الأمر من وراء ظهرك. وربما يترصَّد أحدهم بك. فاحترازك من «نوايا عدائية محتملة لدى الآخَرين يُمكن أن يكون استراتيجية مناسبة يتعيَّن عليك أن تتبناها.» ويُطلق رودريك كرامر على هذه الاستراتيجية «جنون الارتياب الحصيف». فهو كما يقول «نظام الإنذار المبكِّر في العقل» ويُمكن أن يكون بمثابة «آلية دفاعية صحِّية ضد أيِّ خطر خارجي حقيقي.» غير أن هناك خيطًا رفيعًا يفصل بين الارتياب الصحي من تهديدات محتملة والأفكار الجامحة غير المبرَّرة التي تتمحورُ حول وجود نوايا خبيثة. ويُمكن أن يكون من الصعب التمييزُ بين الوقت الذي ينبغي علينا فيه أن نثقَ بشخصٍ ما والوقت الذي يكذب علينا فيه؛ أو بعبارة أخرى: متى يكون شخصٌ ما محبًّا للخير أو غيرَ مبالٍ حيالنا ومتى نكون عُرضةً لخطر استغلالنا. وعندما نكون في حالةٍ من الشك، ننزع إلى ما يُطلِق عليه كرامر «خطأ العزو الخبيث». فنستغرق في الشعور بالارتياب حيالَ الآخَرين.

هَبْ أنك خرجتَ لتشتريَ نظارة شمسية جديدة. وتخيَّل أنك دخلتَ في محلٍّ صغير لطيف، وجرَّبت إحدى النظارات الشمسية. وبمجردِ أن ارتديتَ هذه النظارة الباهظة الثمن، وجدت البائع يقول لك شيئًا من قَبيل: «هذه نظارة جيدة حقًّا، تبدو رائعًا وأنت ترتديها!» ما الشعور الذي ينتابك عندما تسمع هذه المجاملة؟ بطبيعة الحال، قد يكون البائع صادقًا

فيما قال (وأنا على يقينٍ أنك رائع وأنت ترتديها). لكن من جديد، لدى البائع دافعٌ مستتر من مدحِك؛ فثَمَّة عمولة سيتقاضاها وأهدافُ مبيعات يريد أن يُحققها. فربما يمتدحك في محاولةٍ منه لتشجيعِك على شراء السلعة ودفع مقابلها من النقود. عندما وضعت عالِمة النفس كيلي مين وزملاؤها المتسوقين في هذا الموقف (بطبيعة الحال، دون عِلمهم أن هذا كان جزءًا من الدراسة)، تشكَّك المشترون على نحوٍ مفهوم من دوافع البائع. فبسبب هذا الموقف الغامض، ومعرفتهم أن البائع يُحاول خداعهم لغرضٍ ما، انتاب المتسوقين نوعٌ حصيف من جنون الارتياب.

الرؤية الكاشفة بحقٍّ التي توصلتْ إليها هذه الدراسة، كان مصدرها سيناريو آخر، تلقَّى فيه المتسوقون المجاملةَ نفسها من بائعٍ بعد أن اشترَوا نظارة شمسية بالفعل. لم يَعُد هناك دافعٌ ظاهر لدى البائع ليكذب عليهم؛ فالمتسوِّق قد دفع ثمن النظارة فعليًّا. ومع ذلك ظلَّ المتسوق يظن أن المجاملة كانت لغرضٍ ما. قد تقول إن شيئًا من جنون الارتياب المتبقي مبرَّرٌ. فربما يحاول البائع ضمان تَكرار الشراء من المحل الذي يعمل به. لكن المجاملة كانت تتعلَّق بهذه النظارة الشمسية تحديدًا التي كان يحملها المشتري. فقبل الصفقة، كان من الممكن أن تُؤثِّر المجاملة تأثيرًا مباشرًا على القرار الفوري للمشتري؛ دافع الكذب قوي. وبعد الصفقة، ربما تؤثِّر فحَسْب على سلوكه المستقبلي الافتراضي؛ الدافع هنا أضعفُ كثيرًا. ومع ذلك فإن توقيت المجاملة لم يصنع أيَّ فارق من أيِّ نوع. فالمتسوقون ارتابوا من المدح بالقدْر نفسِه قبل وبعد الصفقة. هذه التجرِبة البسيطة تُبين إلى أيِّ مدًى يسهُل أن يتحوَّل الارتيابُ المبرَّرُ إلى فقدان ثقةٍ غيرِ مبرَّر. فنحن نُجيد رصد الدوافع المستترة، لدرجةِ أننا نراها أحيانًا تتخفَّى وراء السلوك البريء.

في ضوء هذا، يُمكننا أن نبدأ في إدراك أسباب انتشار نظريات المؤامرة إلى هذا الحد. في الواقع، لدينا مبرِّر جيد يجعلنا ننخرط في جنون الارتياب الحصيف عندما يتعلَّق الأمر بالكثير من مُدبِّري نظريات المؤامرة الأكثر رواجًا، ومن بينهم الحكومات والوكالات الاستخباراتية والمؤسسات والتنظيمات السرِّية. فنحن نعلم أنَّ جماعاتٍ معينةً من الناس ترغب في خداعنا وتترصَّد بنا. وبشيءٍ من جنون الارتياب الحصيف، يُمكن لأدمغتنا أن تنخرطَ في جمْع المعلومات والمبالغة في تحليلها حتى نرى الدوافعَ الخفيةَ ودلائلَ الخداع؛ سواءٌ كانت مبرَّرةً في واقع الأمر أو غيرَ مبررة. فكما الحال بالنِّسبة إلى المتسوقين الذين استمرُّوا في عدم الوثوق بالبائع حتى عندما لم يَعُد هناك دافعٌ للكذب، شعورنا الصحي بالارتياب من أولئك الذين لديهم سُلطة يمكن أن يجرَّنا أحيانًا إلى تصوُّر وجود مؤامرة.

دمٌ فاسد

تأمَّل من جديد الأبحاثَ التي تُشير إلى أن الأقليات العرقية في الولايات المتحدة أكثرُ تصديقًا بوجهٍ عامٍّ لنظريات المؤامرة من القوقازيِّين. فلا يصعب عليك أن تُدرك أسبابَ وجودِ مبرِّرات لدى المنتمين إلى أقلياتٍ عِرْقية للانخراط في جنون الارتياب الحصيف، لا سيما فيما يتعلَّق بالمؤسسات والسلطات البيضاء المهيمنة. فوفقًا لإحدى الدراسات التي أُجرِيَت في ولاية لويزيانا إحدى ولايات الجنوب الأمريكي، تزداد احتمالية قَبول السود الذين كانوا ضحيةً للتمييز العنصريِّ أو المضايقات الشرطية لنظريات المؤامرة مقارنةً بمن لم يخوضوا تجارِبَ قاسيةً كهذه. وهناك عاملٌ أكثرُ تأثيرًا وهو درجة السيطرة التي اعتقدوا أن السُّود يمتلكونها في مجال السياسة؛ فأولئك الذين يعتقدون أن السود يُمكن أن يؤثِّروا في العملية السياسية تقلُّ احتمالية تصديقهم نظريات المؤامرة، في حينِ أن أولئك الذين يشعرون بالنبذ والاستبعاد من العملية يكونون أكثرَ قَبولًا لنظريات المؤامرة. بالمثل، أظهرت دراسةُ تيد جورتزيل أنه، على وجه العموم، يكون الأمريكيون من أصلٍ أفريقي والأمريكيون من أصل إسباني أقلَّ رضًا عن المجتمع مقارنةً بالقوقازيين. ففي تحليله، هذا السخط الزائد فسَّر أغلبَ أوجه الاختلاف في دعم نظريات المؤامرة.

انصبَّ تركيز أغلب الأبحاث التي تناولَت المؤامراتية والسلالة على الأمريكيِّين من أصل أفريقي على وجه التحديد. فقد أُطلِق على نظريات المؤامرة «شريان حياة مجتمع الأمريكيِّين من أصل أفريقي.» ثمَّة نظريات تزعم أن أبرز المتحدِّثين عن الحقوق المدنية أمثال مالكولم إكس ومارتن لوثر كينج الابن اغتالهم عملاءُ سريُّون تابعون للحكومات؛ وأن علاماتٍ تِجاريةً معيَّنة للوجبات الخفيفة والمشروبات الغازية والسجائر تحتوي على مكونات تهدف إلى إصابة السود بالعُقم؛ وأن الحكومة الأمريكية تتعمَّد صنع الأسلحة والعقاقير المحظورةِ قانونًا في مجتمعات الأمريكيين من أصل أفريقي؛ وأن تحديد النسل جزءٌ من خطة تهدف إلى تحجيم شريحة السُّود السكانية. ومن بينِ أكثر النظريات انتشارًا الفكرة القائلة بأن الحكومة والمؤسسة الطبية لا يُخبرون الناسَ بالقصة الكاملة عن مرض الإيدز، أو حتى أن مرض الإيدز سلاحٌ بيولوجي يستهدف انتقائيًّا السودَ. فقد استُهلت مقالةٌ نشرتها صحيفةُ «نيويورك تايمز» عن الانتشار الكبير لنظريات المؤامرة في مجتمعات السود بالقول: «قد يبدو الأمر غريبًا بالنِّسبة إلى أغلب الناس، ولكنَّ الكثير من الأمريكيين السود يعتقدون أن الإيدز والتدابيرَ الصحية المستخدَمة حياله هما جزءٌ من مؤامرة تهدف إلى استئصال الجنس الأسود.»

في الواقع، لدى الأمريكيِّين السودِ ما يُبرِّر انخراطهم في جنون الارتياب الحصيف أكثر من غيرهم، لا سيَّما عندما يتعلَّق الأمر بصحتهم واستقلالهم الذاتي. ففي الجنوب قبل الحرب، كان مُلَّاك الرقيق البيض يتحكمون في حقوق عبيدهم الإنجابية، وكان العبيدُ والعُتَقاء الملوَّنون يُستخدَمون على نحوٍ غيرِ متكافئ في التجارِب الطبية ودروس التشريح. وبعد الحرب الأهلية، روَّج بعض البيض الذين كانوا يسعَون لامتلاك زمام السيطرة على عبيدهم المحرَّرين، شائعاتٍ عن «الأطباء الليليين» الذين كانوا — على حدِّ زعمهم — يسرقون السود ويقتلونهم ويُشرِّحون أجسادهم. وفي القرن العشرين كانت الإعدامات دون محاكمةٍ شكلًا من أشكال الترفيه العام. فالمصوِّرون الفوتوغرافيون كانوا يلتقطون صورَ هذه الإعدامات في بعض الأحيان، ثم يبيعون بطاقاتٍ بريديةً عليها صورة الجثة المشنوقة مقابل ٥٠ سنتًا لكلِّ بطاقة بريدية. وفي حقبة الستينيَّات من القرن العشرين، أصبحت مؤسَّسات الحقوق المدنية وزعماؤها الهدفَ الرئيس لبرنامج مكافحة التجسُّس التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي والمعروف باسم برنامج «كوينتيلبرو» الذي استخدم التجسُّس غير القانوني والتسلل غير المشروع في محاولةٍ «لفضح أو تفتيت أو تضليل أو تشويه سمعة أو تحييد» الأنشطة «الهدامة» التي تُمارسها تلك المؤسَّسات وزعماؤها. وحتى في الوقت الراهن، لا تزال أمريكا تُعاني اضطرابًا متجدِّدًا بسبب التعامل الشرطي مع السود. فبعد مقتلِ مراهقٍ أسودَ غيرِ مسلَّح في أغسطس ٢٠١٤ على يد أحد ضباط الشرطة البيض في بلدة فيرجسون بولاية ميزوري، توصَّل أحد مكاتب التحقيق التابعة لوزارة العدل إلى أدلةٍ على تمييزٍ عنصري متعمد في الممارسات الشرطية في البلدة.

ولعل أشهرَ الأحداث فظاعةً وسوءًا فيما يخص المعاملة السيئة التي لقيها السودُ على يدِ البيض في أمريكا إبَّان القرن العشرين؛ دراسةُ توسكيجي لمرض الزهري غير المعالج لدى الذكور الزنجيِّين. فقد بدأت الدراسة بنوايا طيِّبة. ففي أواخر عشرينيَّات القرن العشرين، بدأت خدمة الصحة العامة الأمريكية في تصميمِ برنامَجٍ لفحوصات مرض الزهري وعلاجه يستهدف السودَ المعدمين في الجنوب الأمريكي الريفي. غير أنه قبل أن تبدأ المرحلة العلاجية من الدراسة، استنفد الكسادُ الكبير عام ١٩٢٩ جزءًا كبيرًا من تمويل الدراسة، تاركًا الباحثين في حاجةٍ ماسةٍ إلى الموارد اللازمة لتقديمِ أيِّ نوع من العلاج. وفي محاولةٍ يائسة لإنقاذ البيانات العِلمية المفيدة، أُعيدَ تصوُّر المشروع على نحوٍ متعجل على أنه دراسة للتطور الطبيعي للمرض. وكما قال مبتكر التجرِبة بابتهاج: «قدَّم مجتمع ألاباما فرصةً لا تُضاهى لدراسة تأثير مرض الزهري غير المعالَج.»

وقد شارك في الدراسة ٦٠٠ شخصٍ من المزارعين السود المعدمين الذين يعملون بالأجرة. ففقرُهم وأملُهم في الحصول على رعايةٍ صحية مجَّانية جعلَهما على استعداد للمشاركة. ولم يُخبرهم أحدٌ بأنهم كانوا يُسجلون في دراسة عن الزهري، أو حتى ما إذا كانوا مصابين أو لا (قرابة ٤٠٠ من الرجال كانوا يُعانون الزهري، والباقين كانوا يُمثلون المجموعة الضابطة غير المصابة). كل ما أُخبروا به أنهم سيُعالجون من «الدماء الفاسدة»، وهو مصطلحٌ فضفاضٌ كان يُشير إلى عدد كبير من العلل والأمراض المتنوعة. في الواقع، لم يكن علاجُ هؤلاء الرجال جزءًا من الخطة مطلقًا. وكان مخططًا للدراسة في البداية أن تستمرَّ لبضعة أشهر فقط، لكن ما حدث أن الدراسة استمرت مدة ٤٠ سنةً، بفضل حماس الباحثين الراغبين في إشباع فضولهم العلمي وتجاهلهم التامِّ لحقوق مَرْضاهم. وعندما يُهمَل مرض الزهري ويُترك دون علاج، فإنه يُمكن أن يتطوَّر ليتحوَّل إلى مرض الزهري العصبيِّ الذي يُصيب الجهاز العصبي المركزي ويُسبِّب التشوش والعمى والخَدَر والشلل والخرف. وعندما بدأت الدراسة، لم يكن يوجد أيُّ علاج موثوق. كان العلاج المعتاد هو أخذ حُقَن تحتوي على الزرنيخ والزئبق مدة عام. لكنه بحلول عام ١٩٤٣، اكتُشف علاجٌ آمن وفعال وهو البنسيلين. وبدلًا من إلغاء الدراسة وعلاج المصابين، منعتهم خدمةُ الصحة العامة من تلقي العلاجِ حتى تضمنَ استمرارية التجرِبة. فالباحثون كانوا مصرِّين على تَعقبِ مَرضاهم حتى المرحلة الأخيرة؛ وأقصد بذلك طاولة التشريح.

ولم يبدأ بعضُ العاملين في خدمة الصحة العامة في التشكيك في الدراسة من الناحية الأخلاقية إلا في ستينيَّات القرن العشرين. ومع تمكُّن حركة الحقوق المدنية من انتزاع المزيد من حقوق الأمريكيين السود، أدركت خدمة الصحة العامة أن دراسة توسكيجي يُمكن أن تشكِّل مشكلة محتملة في العلاقات العامة. لكن الدراسة لم تنتهِ حتى عام ١٩٧٢، عندما سرَّب أحد الوشاة القصة للصِّحافة. وقد أشعلت القصة غضبًا شعبيًّا عارمًا، وأدت إلى عَقْد جلسات استماع بشأنها في الكونجرس، وفي نهاية الأمر، صدر اعتذارٌ رسمي من الرئيس بيل كلينتون وذلك في عام ١٩٩٧. ومنذ ذلك الحين، سُنَّت القوانين لحماية الأشخاص المشاركين في الأبحاث الطبية من أي ضرر. فلجانُ الأخلاقيات يجب أن تُجيز وتعتمدَ تصميمات الدراسة، ويجب أن يقبل المشاركون المشاركةَ طَواعيةً، بعد أن يُطلَعوا إطلاعًا تامًّا على الإجراءات والمخاطر التي تتضمَّنها الدراسة. ومِن ثَم فنحن مطمئنون إلى أن دراسةً كدراسة توسكيجي لن تحدثَ مرة أخرى أبدًا.

ومع ذلك، فإنها تركت، دون شك، انطباعًا باقيًا لدى مجتمع الأمريكيين من أصل أفريقي. فالسود الذين لديهم علمٌ بدراسة توسكيجي تزداد احتماليةُ تصديقهم لنظريات

المؤامرة المتعلقة بمرض الإيدز. وعلى نحوٍ أعمَّ، تتوصل الدراساتُ بشكل متواتر إلى أن الأمريكيين من أصل أفريقي أكثرُ ميلًا من الشرائح السكانية الأخرى إلى الشعور بأنهم قد يَجري استخدامهم كفئران تجارِبَ دون موافقةٍ منهم، والتشكك في أن الأطباء يوضحون المعلومات المتعلقةَ بالمشاركة في الأبحاث بشكل وافٍ. ونظريات المؤامرة، قد تبدو غريبةً إذا ما نظرنا إليها منفردةً، كما أوضحت المقالة التي نُشرت في صحيفة «نيويورك تايمز» عام ١٩٩٢. لكنه في السياق التاريخي، ليس من الصعب معرفةُ أسباب تشكك الأمريكيين من أصلٍ أفريقي على وجه الخصوص في أن السلطات تعبأُ كثيرًا بمصالحهم.

كلٌّ ما هنالك أنك تُعاني جنونَ الارتياب

في مقالته «الأسلوب البارانوي»، وصف ريتشارد هوفستاتر المنطقَ المؤامراتي بأنه يستند إلى «قفزة كبيرة من الأشياء التي لا يمكن إنكارُها إلى الأشياء التي لا يُمكن تصديقها». وكان هوفستاتر محقًّا عندما اعتقد أن نظريات المؤامرة تقوم على أساس شيء من المعقولية لا يُمكن إنكاره. لكن الحقيقة أنه بالنِّسبة إلى الكثيرين منا — أو ربما بالنِّسبة إلى معظمِنا — من الواضح أن نظريات المؤامرة لا تستعصي على التصديق. فالتحول من جنون الارتياب الحصيفِ إلى المزاعم المحالة ليس قفزةً كبيرةً بقدْر ما هو جولةٌ عشوائية متمهلة. فمن الممكن أن يصعب على المرء تحديدُ نقطة البدء والنهاية لكلٍّ منهما.

أشار بيتر نايت الباحثُ في نظريات المؤامرة إلى أن التصوُّرَ النمطي لشخصٍ أحمقَ بارانوي يرتدي قبعةً من رقاقات القصدير تصوُّرٌ أجوف: «تصنيفُ رؤيةٍ ما على أنها بارانوية أصبح وصفًا فارغًا يدور في حَلْقة مفرَغة ببريقٍ علمي زائف؛ فالشخص البارانوي هو شخص يؤمن بنظرياتِ المؤامرة، والعكس الصحيح، فالسببُ في إيمان الناس بنظريات المؤامرة هو أنهم بارانويُّون.» ويمكننا أن نتجاوزَ الآن هذه الصورةَ الهزلية الخرقاء. فنحن ينتابُنا جميعًا شيءٌ من جنون الارتياب من وقتٍ لآخَر، لا سيما عندما لا يكون لدينا سيطرةٌ كبيرة على ظروفنا. وبطبيعة الحال، يحدث ذلك لبعض الناس أكثرَ من غيرهم؛ ويكون هناك مبررٌ جيد لذلك في بعض الأحيان.

واستنادًا إلى معرفتنا بالتجسُّس غير القانوني من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالي على أي شخص يعتبرونه مخرِّبًا؛ والخُطط العسكرية الرامية إلى اغتيالِ زعماءَ أجانبَ ومدنيِّين أبرياء؛ والإفشاءات التي خرجت إلى النور مؤخرًا عن القدرات التجسُّسية غيرِ المسبوقة لدى وكالةِ الأمن القومي، ربما نكون محقِّين في الانخراط في شيءٍ من جنون

الارتياب الحصيف. ومع ذلك، بدلًا من أن نطمئنَّ عندما تنكشف خُطةٌ ما، نغضب للغاية ونشعر بالرعب من الإفشاءات التالية. فعلمنا بمؤامرةٍ ما، يجعلنا عاجزين عن منعِ أنفسنا من تخيُّل أسرارٍ أخرى لم تنكشف بعد. وكلما زاد عِلمنا، أصبحنا أكثرَ انخراطًا في جنون الارتياب الحصيف. والمؤامرات تُولِّد نظرياتِ مؤامرة. وجنون الارتياب لا ينتهي أبدًا.

باختصار، لستَ بحاجةٍ إلى أن تكون واحدًا مما يُعانون دومًا جنونَ الارتياب كي تُصدِّق نظريات المؤامرة، كما أنك لستَ مضطرًّا إلى أن تكون لديك خِزانة مليئة بقبعات رقاقات القصدير. وهو الأفضل على الأرجح؛ حيث إن ذلك لا يُجدي على ما يبدو في كلِّ الأحوال. في عام ٢٠٠٥ — بعد مضيِّ ٨٠ سنة تقريبًا على طرح هكسلي فكرةَ ارتداء المرء قبعةً معدنية لحمايةِ نفسه من القُوى النفسية غير المرئية — اختبر علماءُ معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا الفكرةَ أخيرًا. فقد حلَّل الباحثون بصرامةٍ قدرةَ رقاقة القصدير على منع المجالات الكهرومغناطيسية التي يحتمل أن تُشوش العقل، باستخدام أحدث المعدات عالية التقنية ومجموعة متنوعة من تصاميم القبعات بما يشمل القبعة الكلاسيكية والطربوش والخوذة. وعلى العكس مما هو متوقَّع، أشاروا إلى أن هذه القبعات القصديرية لم تفشَلْ فحسب في حجب موجات الراديو، بل إنها عملت بالفعل على تضخيم تردُّدات معينة، لا سيَّما نطاقات الترددات المخصصة للحكومة الأمريكية لأغراض الاتصالات الخاصة بنظام تحديد المواقع العالمي.

فليس لمجرد أنك تُعاني جنونَ الارتياب، فإنك لن تنساقَ وراء نظريات المؤامرة. (لكن هذا لا يعني بالضرورة أيضًا أنك ستنساقُ وراءها.)

الفصل السادس

أريد أن أصدُق

الثامن من يونيو ٢٠١٣. إنه يوم دافئٌ في بداية فصل الصيف. وأنا في إحدى ساحات واتفورد، التي لا تبعُد سِوى مسافة قصيرة يقطعها القطارُ شمالَ لندن. وفي هذه الساحة، يحتشد ٢٠٠٠ شخصٍ معي، وهذا ضِعف العدد الذي خطَّط له المنظِّمون. في هذه اللحظة تحديدًا، حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً، يقف شخص متحذلق من ولاية تكساس على منصةٍ صغيرة أمام الحشد، يصيح في مكبرِ الصوت. كان يقود الألفَي شخصٍ في ترديد هتافٍ موجَّهٍ إلى فندقٍ يبعُد نحوَ ميل أعلى تلة وتُواري الأشجارُ نصفه تقريبًا: «نعلم أنكم قتَلة! نعلم أنكم قتلة! نعلم أنكم قتلة!»

في كل عام، تُوجَّه الدعوة إلى أكثر من ١٠٠ من الأشخاص الأكثر ثَراءً وتأثيرًا على ظهر الكوكب لحضور اجتماعٍ سري، يناقشون فيه مصيرَ العالم. لستُ مازحًا. وهذه الفعالية يُطلق عليها بيلدربيرج، وقد سُمِّيت تشريفًا لأول فندق استضاف الوفد المرموق في عام ١٩٥٤، فندق دي بيلدربيرج في أوستربيك في هولندا. (وقد اتضح أن المجموعة تلتقي دائمًا في فندقٍ من فئة خمسة نجوم مزوَّدٍ بمرافقَ لممارسة رياضة الجولف.) من البداية، كانت اجتماعاتُ بيلدربيرج محاطةً بالسرية. فلا يُسمح بحضور الصحفيين أو المراسلين. والغموض يكتنف أغلب الأمور التي تخص تلك الاجتماعات بدءًا من أسماء السادةِ الحضور، ووصولًا إلى موضوعات النقاش.

وَفقًا لأحد مواقع بيلدربيرج الإلكترونية الرسمية (حسنًا، لقد أصبحت أقلَّ سرية نوعًا ما هذه الأيام)؛ فإن المؤتمر لا يَزيد عن كونه «منتدًى لمناقشاتٍ غير رسمية عن القضايا الكبرى التي يُواجهها العالم.» ليس هناك شيءٌ خبيث أو آثم في الأمر.

لكنه وفقًا لبعض النقاد، فإن المجتمعين في بيلدربيرج لا يتناقَشون فحسب. إنهم يُقرِّرون أيضًا. هم يُقرِّرون توقيت حدوث الركود القادم، والهجمة الإرهابية القادمة، والحرب القادمة، ويُبْرِمون اتفاقياتٍ سرِّية ويَحيكون خططًا غيرَ مشروعة ويوجِّهوننا نحو حكمٍ عالمي ظالم؛ ذاك النظام العالمي الجديد المخيف. لسنوات، ظلَّت مجموعةٌ صغيرة من المؤامراتيين المتحمسين تترصَّد لمؤتمرات بيلدربيرج. فقد ظلوا يتعقَّبون المجتمعين في بيلدربيرج حول العالم، لمعرفة توقيتِ اجتماعهم القادم ومكانه، ومحاولة التسلل وتوثيق اجتماعاتهم، والسعي لزيادة الوعي بالمكائد الخبيثة التي ينسجها المجتمِعون في بيلدربيرج.

وبالفعل ازداد الوعيُ كما أرادوا. ففي عام ٢٠١٣، احتشد نقَّاد بيلدربيرج ذَوو العقلية المؤامراتية في هذه الساحة بواتفورد، وهي ساحةٌ مُتاخمة للفندق — فندق جروف الراقي، والمنتجع الترفيهي، وملاعب الجولف — الذي يستضيف المؤتمرَ كلَّ عام. وقد أطلقوا على احتشادهم هذا «مهرجان بيلدربيرج الهامشي»: احتفال واحتجاج ضد الحكامِ السريِّين للعالم. ومن بين أبرزِ أسماءِ الاتجاه المؤامراتي الذين حضَروا المهرجان: ديفيد أيك، ولوك رودوفسكي (مؤسس مجموعةِ «نحن التغيير» (وي آر تشينج) المنبثقةِ عن حركةِ حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر)، وألكس جونز (الشخص المتحمِّس الذي كان يَصيح في مكبِّر الصوت بهتاف «نعلم أنكم قتَلة!»)، وفي خيمة الجهة المنظمة، كانت هناك قُمصانٌ للبيع تحمل شعار «ذهبتُ إلى بيلدربيرج عام ٢٠١٣، ولم أحصل على شيء سوى هذا النظام العالميِّ الجديد القذر.»

وخلال دردشتي مع مرتادي المهرجان بين المحاضرات، كانت ثَمة قضيةٌ واحدة يتفق عليها الجميعُ على نحوٍ غريب. فقد قالوا إن المجتمعين في بيلدربيرج يُبيِّتون شرًّا. لكن عندما كانوا يأتون على ذكرِ التفاصيل، لم أكن أجدُ منهم سوى مزاعمَ تُصيبني بالدُّوار. كانت الخُطة، حسب زعمهم، تشمل كل شيء بدءًا من اغتيال جون كينيدي وروبرت كينيدي وأبراهام لينكولن، وصولًا إلى الاحترار العالمي واللقاحات والتلوُّث والمواد المضافة للأغذية وسحب الكيمتريل، واستغلال الأطفال والموت الأسود والأسرة الملكية البريطانية. والأعجب أن المؤامراتية لم تكن الأيديولوجيةَ الوحيدة المعروضة. فبينما كنت أنتظرُ في طابورٍ من أجل التفتيش الأمني، تحدثتُ مع أحد ممارسي السحر الأبيض. وكان بداخل الساحة منتسِبون لحركة «هاري كريشنا» الهندوسية وراقصون بالأطواق، ومعالجون بطاقة الريكي، ومدخِّنو حشيش ودوائرُ طبل جماعية وعازفو جيتار، ورجل يرتدي زيَّ

المنتمين إلى منظَّمة «جيداي» الرهبانية، وآخر يحمل دُميةً خشبية ويتكلم من بطنه، وثالثٌ يرتدي أذنين مدببتَين مُستعارتين (أوضح لي قائلًا: «أُرافق مجموعة من الحوريات.») وبجانب خيمة الصحافة، كان هناك زوجان في منتصف العمر يَبيعان زجاجاتٍ من الفِضة والذهب. وعلى مَقرُبة منهما، كانت هناك مجموعةٌ من المتأملين يجلسون القُرفُصاءَ في دائرة كبيرة، يَنهَلون من المشاعر التي تنبثق حسبما يعتقدون من هرمٍ نُحاسي كان موضوعًا وسط الدائرة.

لقد فُوجئت بهذا المزيج من الأيديولوجيات في مهرجان بيلدربيرج الهامشي. لم أكن أتوقَّع أن أجدَ هذا الانسجام الكبير بين روحانية العصر الجديد الميتافيزيقية والمزاعم الأكثرِ واقعيةً عن الجشع البشري والفساد والخداع. لكن اتضح لي أن بوتقةَ انصهار الأفكار في مهرجان بيلدربيرج الهامشي تكشفُ الكثيرَ عن العقلية المؤامراتية. فقد رأينا بالفعل أن تصديق إحدى نظريات المؤامرة يعني في الغالب تصديقَ نظرياتٍ أخرى؛ لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. فالمؤامراتية مجردُ نتيجةٍ واحدة محتملة لرؤية عالمية أوسع نطاقًا بكثير.

عقول ساذجة

طبقًا لإحدى طرق التفكير، فإن السبب وراء تصديق الناس لنظريات المؤامرة بسيط؛ أو بالأحرى هو البساطةُ عينُها. أوضحت المؤرِّخة كاثرين أولمستيد هذا الأمر بإيجاز عندما قالت: «نظريات المؤامرة طرقٌ سهلة لحكي قصص معقدة.» كذلك أوضح بينجامين سيجل، وهو أحد باحثي بروتوكولات حكماء صِهْيَون، أنه من خلال نظريات المؤامرة، «هذه الوصفة البسيطة تُقدم حلًّا قاطعًا لأخطر وأعقد مشكلات وجودية تواجهها أيُّ أمة من الأمم.» وقال مايكل بيليج: «نظريات المؤامرة بسيطة في جوهرها؛ فالأحداث ليس لها أسبابٌ متعددة وعنصر الصدفة يُحذَف من التاريخ. وكل الأحداث تُختزل في قراراتٍ متعمَّدة اتخذها المتآمرون.» بالمثل، يصف دانييل بايبس نظرياتِ المؤامرة بأنها تبسيطٌ للواقع؛ إذ يقول: «هذا الكمُّ الهائل من مُثيري المتاعب يصبحون قوةً عدائية واحدة.» بعبارة أخرى: تجعل الأمور المبهمة واضحةً والأمور المعقدةَ قابلةً للفهم. فهي تُعطي تفسيرًا واحدًا لهذا الواقع الملتبس والغامض والفوضوي بزعمها أن جهةً ما متورطةٌ فيما يحدث.

ومن ثَم يُعتقد أن نظريات المؤامرة تروق في الأساس للأشخاص الذين يفتقرون إلى الرغبة في الإصغاء إلى تفسيراتٍ أكثرَ تعقيدًا. وجهة النظر هذه تعود إلى بداية نظرية

المؤامرة الحديثة. ففي ردَّة فعل على نظرية مؤامرة المتنورين لأوجستين دي بارويل بشأنِ الثورة الفرنسية، زعمَ الناقد جون-جوزيف مونييه بوضوح: «لقد استُعيض عن الأسباب المعقَّدة للغاية بأسبابٍ بسيطة، تتناسبُ مع قدراتِ أكثرِ العقول سطحيةً وتراخيًا.» رأى سيجل نجاح نظريات المؤامرة الخاصة بالمتنوِّرين ومعاداة السامية بالمنظور نفسِه. فقد قال: «هذه الفلسفة التاريخية الساذَجة إلى الحدِّ الذي يُثير السخرية تُخاطب عقول السذَّج من الناس؛ لأنها لا تدفعهم إلى إعمالِ ملَكاتهم النقدية.»

يميل المرء دائمًا إلى رفض الأشخاص الذين يختلف معهم معتبرًا إياهم أدنى منه مِن الناحية الفكرية، لكن هل هذا صحيح؟ كان مونييه قد ألمَحَ للمرة الأولى إلى أن نظريات المؤامرة لا تنطلي إلا على السُّذَّج، ولم يختبر اختصاصيُّو علم الاجتماع هذه الفرضيةَ إلا في عام ١٩٩٩، أي بعد قرنَين من تلميحه ذاك. فقد أعطى فريقٌ من علماء النفس تحت إشراف مارينا أبالاكينا-باب الطلابَ مجموعةً من الاستبيانات أُعِدَّت من أجل تقييم طريقتهم في التفكير. تَقيس هذه الاستبيانات ثلاثَ سِمات: الحاجة إلى المعرفة (إلى أي مدًى تستمتع بالألغاز وحل المشكلات وغيرها من التحديات الذهنية)؛ وتحمُّل الغموض (إلى أي مدًى تشعر بالارتياح حيالَ المواقف اللايقينية)؛ والتعقيد العزوي (إلى أي مدًى أنت على استعداد لتقبُّل تفسيراتٍ معقَّدة دقيقة لسلوك الناس). وانسجامًا مع القوالبِ النمطية السائدة، تنبَّأ الباحثون بأنه كلما ازداد اقتناعُ الطلاب بنظريات المؤامرة، تضاءلت الدرجاتُ التي يُحرزونها فيما يتصل بكل سمة من السمات الثلاث، أي زادت الطريقةُ التي يفكر بها المرء سذاجةً وتراخيًا وجمودًا. لكن على النقيض من التوقعات، أنه ليس هناك علاقةٌ بين هذا وذاك على الإطلاق.

وفي دراسةٍ أحدثَ من تلك، قاس عالِما النفسِ باتريك ليمان وماركو سينيريلا سِمةً مشابهة، الحاجة إلى الإغلاق المعرفي (الرغبة في الاستقرار سريعًا على تفسيرٍ لشيءٍ ما؛ ومن ثَم وقف الحاجةِ إلى مزيد من الجهد الذهني). ومن جديد، لم يكن هناك فارقٌ بين مؤيدي نظريات المؤامرة ومعارضيها.

وبتأمُّل الموقف، ليس من المستغرَب إلى هذا الحدِّ ألا يصمد القالب النمطي. فمن نواحٍ عدة، نظريات المؤامرة أكثرُ تعقيدًا من البديل عنها. يُشير دانييل بايبس إلى أنه في حينِ أن نظرياتِ المؤامرةِ بسيطةٌ من منظورٍ معيَّن، «يجد أصحاب نظريات المؤامرة، في الوقت ذاتِه، سلواهم في التعقيد.» فالتفسيرات المعقَّدة والتفصيلية لا تُخيفهم. ففي العالم المؤامراتي، القاعدة المنطقية المعروفة باسم «نصل أوكام» — التي تنصُّ على أن أبسطَ

تفسير هو الأقربُ إلى الصواب — مُعطلة. وأفضل نظريات المؤامرة هي أكثرها تعقيدًا وتشابكًا. وبالنِّسبة إلى أكثر المؤامراتيِّين إخلاصًا لتوجُّههم، لا يكون التفسيرُ الأبسط صحيحًا مطلقًا. فثَمة طبقةٌ أخرى دائمًا من القُوى غيرِ المرئية والدوافع المخبوءة التي تحتاج إلى كشفها.

ويبدو الأمرُ كما لو أن الأشخاص الذين يُعتبرون نظريات المؤامرة تفسيراتٍ ساذجةً متسرعة — يُفضلها مَن لا يُبالون ولا يريدون أن يُرهقوا أنفسهم بالتفكير — سرعان ما ينساقون هم أنفسُهم وراء تفسيرٍ ساذَج. فالمعلومات ببساطة لا تُقدِّم دعمًا كبيرًا للفكرة القائلة بأن أصحاب نظريات المؤامرة أدنى مرتبةٍ في قدرتهم على التفكير من المتشككين في المؤامرات. في واقعِ الأمر، تُشير الأبحاث الحديثة إلى أنه إذا أدخَلْنا أصحاب نظريات المؤامرة في منافسةٍ مع هؤلاء المتشكِّكين، يكون أصحاب نظريات المؤامرة أكثرَ مغامرةً من الناحية الفكرية بطريقةٍ ما أو بأخرى؛ ومن ثَم ليس من المنطقي وصفهم بأنهم بُلداء كما يَشيع عنهم.

عقول منفتحة

الانفتاح إحدى السِّمات الخمس الجوهرية التي تُلخِّص شخصيةَ الفرد حسبما يرى علماء نفس الشخصية. (السمات الأربع الأخرى هي: يقظة الضمير، والانبساطية، والمقبولية، والعصابية.) بعض الدراسات توصلَت إلى أنه كلما زادت درجة المرء على مقياس الانفتاح، زادت احتماليةُ تصديقه نظريات المؤامرة. لكن العلاقة كانت محدودة، وأخفق عددٌ من الدراسات الأخرى في رَصدِها مرةً أخرى. لذا، لم تُحسم بعدُ مسألةُ ما إذا كان التفكير المؤامراتي مرتبطًا بالانفتاح عمومًا، وإذا كان ثَمة علاقة، فالأرجح أنها علاقةٌ محدودة. (أنا على يقينٍ من أنك ستتغاضى عن هذا الوضعِ اللايقيني والمحبِط.)

لكنْ هناك عددٌ من العناصر المختلفة للانفتاح. فهو يتضمَّن كون المرء خِصب الخيال ومغامرًا وواعيًا على المستوى العاطفي ومحبًّا للاستطلاع على المستوى الفكري ومُقدرًا للفنون والآداب. لست بحاجةٍ إلى أن تفيَ بجميع هذه المعايير كي تُصبح درجتُك مرتفعةً على المقياس العامِّ للانفتاح. فربما تعشقُ السفر إلى بلدان أخرى، لكن لا يستهويك الشعر. على أي حال، ليس هناك شيءٌ من هذه العناصر له علاقةٌ كبيرة، فيما يبدو، بتصديق نظريات المؤامرة. فالأرجح أن نظريات المؤامرة ترتبط بخصِّيصةٍ أخيرة من خصائص الانفتاح: الميل إلى رفض التفكير السائد، وتبنِّي ما هو غيرُ تقليدي. مصدرُ هذه الرؤية

الكاشفة دراساتٌ تبحث نوعياتِ الأشياء الأخرى التي يميل أصحابُ نظريات المؤامرة إلى تصديقها. وقد ظهر توجُّه متَّسق. فكلما زاد اقتناعُ المرء بنظريات المؤامرة، زادت احتمالية قَبوله لمجموعةٍ كاملة من مزاعمَ غيرِ تقليدية.

إحدى أكثرِ الدراسات شموليةً حتى وقتِنا الحاليِّ أجراها فريقٌ من علماء النفس تحت إشراف إميليو لوباتو. فقد عرَض لوباتو وزملاؤه على الطلاب الجامعيِّين عددًا كبيرًا من المزاعم التي تُمثِّل ثلاثَ نوعيات مختلِفة من الغرابة: نظريات المؤامرة والعِلم الزائف والقُوى الخارقة للطبيعة. وقد قيَّم الطلابُ إلى أيِّ مدًى هم يُصدِّقون كل زعم من تلك المزاعم، وقد جرى حسابُ مجموع إجاباتهم لإعداد درجاتٍ ثلاثٍ منفصِلة. واتضح أن جميع الدرجات الثلاث كانت مرتبطةً بعضها ببعض. فكلما زادت درجةٌ ما، زادت الدرجتان الأُخرَيان في الأغلب. فالأشخاص الذين اقتنَعوا بفكرة العِلم الزائف القائلة بأن معالجة الداءِ بالداء يُمكن أن يشفيَ أمراضًا خطيرة مالوا إلى تصديق الزعم القائل بأن القُوى النفسيةَ الخارقة للطبيعة حقيقيةٌ، وأن اغتيال كينيدي كان مؤامرة. بالمثل، أحد الذين اعتقدوا أن ألفيس لا يزال على قيد الحياة مال إلى الاعتقاد بأنَّ الأشباح حقيقية، وأننا لا نستخدم سِوى ١٠٪ من أدمغتنا. لكن إذا تشكَّك أحدُهم في نظريات المؤامرة، فإنه كان يميل إلى التشكُّك في العِلم الزائف والقُوى الخارقة للطبيعة كذلك.

بل إن دراساتٍ أخرى كشفَت المزيد عن هذه الأفكار الغريبة. فأولًا، يميل أصحابُ نظريات المؤامرة إلى التصديق النِّسبي للخرافات. فكلما زاد تأييدُ المرء لنظريات المؤامرة، مال إلى الارتياب حيالَ القطط السوداء والمرايا المكسورة والسَّير تحت سُلَّم خشبي. وثانيًا، مال هؤلاء إلى الاعتقاد بأن ثَمة شيئًا من الحقيقة في أساطيرَ شائعةٍ على غِرار الأسطورة القديمة عن استيقاظ رجال الأعمال في أحواض استحمام مليئة بالثلج وقد فقَدوا كُلْياتهم. وأصحاب نظريات المؤامرة لا يميلون إلى قَبول العِلم الزائف مثل التنجيم والطبِّ البديل فحسب، بل إنهم يَميلون أيضًا إلى رفض العلم السائد ومنتجاته كاللقاحات والأغذية المعدلة جينيًّا. ويُقدِّم العديد من الدراسات بياناتٍ لدعمِ اكتشافي غير المتوقَّع في مهرجان بيلدربيرج الهامشي: الشخص الذي يُصدِّق نظريات المؤامرة يميل إلى تصديق روحانية العصر الجديد التي تشمل كلَّ الأفكار الميتافيزيقية مثل مفهوم كارما الهندوسي وتناسخ الأرواح والإسقاط النَّجْمي والاستشفاء بالطاقة، والفكرة القائلة بأن الكون بأكمله نوعٌ ما من كلٍّ حيٍّ غيرِ مُجزَّأ.

لا أقول إن كلَّ مَن يُخبرك بأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت مؤامرةً داخلية سيؤمن حتمًا بوجود الأشباح أو بالبِلَّورات الشافية أو بالرجال الخضر الصغار. بوضوح أقول، هذه علاقاتٌ إحصائية؛ أو بعبارةٍ أخرى درجات من الاحتمال. فبطبيعة الحال هناك أشخاصٌ يُصدِّقون نظريات المؤامرة، لكنهم لا يؤمنون بتاتًا بالقُوى الخارقة للطبيعة كما أن هناك مَن يؤيدون روحانية العصر الجديد، لكن لا يهتمون بالأنظمة العالمية الجديدة. لكن بوجهٍ عام، كلما زاد انفتاح الفرد على نظام معتقداتٍ وأفكارٍ غيرِ تقليدي، زادت احتمالية انفتاحه على أنظمةِ غيره.

الحقيقة هناك

للأمانة أقولُ إن بعضَ الارتباطات بين المعتقدات الانتقائية ليست مستغرَبةً للغاية. فبرغم كلِّ شيء، تصديق أن الحكومة تتستَّر على وجودِ رجالٍ خضرٍ صغار، يتطلب منك الإيمان بوجود الرجال الخضر الصغار في الأساس. ومن المنطقيِّ أن تُصدِّق أن الاستشفاء بالطاقة يُجدي نفعًا إذا كنت تعتقد أن الشركات الصيدلانية الكبرى مهتمةٌ بمحاربته. وفي مثل هذه الحالات، تُؤدي التداخلات الأيديولوجية دورَها. لكن بعض الارتباطات يصعب شرحها قليلًا. فليس هناك سببٌ بديهي يقف وراءَ ميل الشخص الذي يعتقد أن وكالات الاستخبارات المركزية الأمريكية قتلت كينيدي إلى قَبول الزعم القائل بأن هناك أشباحًا أو قُوًى نفسية أكثر من ميل الشخص الذي يعتقد أن لي هارفي أوزوالد قد قتله. كما لا يوجد سببٌ جيد يُفسر وجود أي ارتباط بين تصديق الشخص أن الطَّرْق على الخشب يجلب له الحظَّ، ورأيه بشأن العلم الذي يقف وراء تغيُّر المناخ.

والحقيقة القائلة بأن منظوماتِ الأفكار والمعتقدات غير التقليدية التي لا يوجد ترابطٌ بينها على ما يبدو تظهر غالبًا في الدوائرِ نفسِها ليست كشفًا جديدًا مذهلًا. فبالعودة إلى الوراء وتحديدًا في سبعينيَّات القرن العشرين، كتب كولين كامبيل، اختصاصيُّ علم الاجتماع عن «العالَم السرِّي» الفكريِّ للمجتمع؛ حيث تزدهرُ وتختلط شتَّى الأفكار الغريبة والرائعة. وأطلق على هذا العالَم «البيئة الطائفية». قد يتبادرُ إلى الذهن عند قراءة هذا المصطلح زعماءُ الطوائف المؤثرين وهم يُحرضون الضعفاءَ من الناس على تسليم كلِّ مدَّخَراتهم (أو حياتهم). لكن هذه الأنواع من البيئات العقائدية، حسبما رأى كامبيل، ليست سِوى الجزءِ الظاهر من الجبل الجليدي؛ التجليات الأكثر اتضاحًا لطريقة تفكيرٍ أوسعَ نطاقًا بكثيرٍ وأكثر ضبابيةً وأشدَّ تغلغلًا. والبيئة الطائفية، وَفقًا لكامبيل، هي سِمة

دائمة الوجود لكل مجتمع. فحيثما وُجدت مُعتقَدات تقليدية، وُجد أشخاصٌ ينساقون وراء ما هو غير تقليدي.

ويستشهد كامبيل، على سبيل المثال، بقائمةٍ طويلة من المعتقدات والأفكار الجمعية: «العلم غيرُ التقليدي، الدِّين القائم على الأفكار الغريبة والهرطقة، الطب المنحرف … العوالم الخفيَّة والسحرية، وعوالم الروحانية والظواهر النفسية، وعوالم الغموض والفكر الجديد، وعوالم المخلوقات الغريبة والحضارات المفقودة، وعوالم الاستشفاء بالإيمان والاستشفاء الذاتي.» وقد نُضيف إلى كل هذا مزاعمَ تتعلَّق بعلمِ التنجيم وعلمِ الأعداد وعلم النفس الغيبي والتاريخ المُعدَّل، وقصةِ الخلق والتنبُّؤات الغيبية وتجارِب الاقتراب من الموت والأنظمة الغذائية الخارقة. وبالرغم من أن هذه التشكيلةَ من المعتقدات والأفكار الغريبة والشاذة، قد تبدو ظاهريًّا متنوعةً على نحوٍ لا ينتهي (ومتناقضة أحيانًا)، فإن ثمَّة سِمةً رئيسة تجمع بينها، وهي أن الجماعات ذاتَ النفوذ والتأثير في الذَّوق والسياسة ترفضها كما تُعارضها الاتجاهات والمذاهب التقليدية، ومن ثَم تُصبح إلى حدٍّ بعيد معزولةً فكريًّا عن المجتمع.

وقد لُخِّصت خصائصُ البيئة الطائفية بطريقةٍ مُحكمة في التعويذة التي تقول «الحقيقة هناك» والتي وردَت في مسلسل «ذا إكس فايلز». فثَمة إجاباتٌ عن أسئلة الحياة الكبرى، لكنك لن تجدَها في الأماكن التي تُوجِّهك إليها الجماعاتُ صاحبةُ النفوذ في المجتمع والمذاهب التقليدية، بل يجب أن تتعقَّبها بنفسك. (والمعنى الثاني ينطبق بالمِثل على البيئة الطائفية: الحقيقة هناك؛ إنها أغربُ مما يُمكنك أن تتخيَّل.) فيرى كامبيل أن المكُرِّسين أنفسَهم للبيئة العقائدية التي نتحدَّث عنها يتَّحِدون في سعيهم الذاتي وراء التنوير. وبالنِّسبة إلى المتحمِّسين بحقٍ، فإن الرحلة أهمُّ من الوجهة. فثَمة طرقٌ كثيرة تقود إلى الحقيقة، وليس هناك داعٍ إلى الكفِّ عن البحث لمجردِ أنك وجدتَ نبعًا من ينابيع الحكمة الغامضة. فلماذا تضعُ البيضَ كلَّه في سلة واحدة؟ ويوضح كامبيل أن هذا هو سببُ أن الأفكارَ غيرَ التقليدية، التي هي غيرُ مترابطة في سياقاتٍ أخرى، كثيرًا ما تكون متحدةً ويسير بعضُها بموازاةِ بعض. فمثلًا يقول كامبيل: «الزائرون من الفضاء الخارجي ثبَت أنهم مخلوقاتٌ روحانية، والوسطاء الروحانيون يُؤكدون أن هناك حياةً على الكواكب الأخرى.»

لم يذكر كامبيل نظرياتِ المؤامرة، لكن استنادًا إلى الروابط التي رأيناها لتونا، يُمكننا أن نقول إن نظريات المؤامرات تنسجمُ تمامًا على ما يبدو مع هذه البيئة الطائفية.

وكما تُشير نيكولي ناتراس، فإنَّ إطلالةً خاطفة على عالم نظريات المؤامرة تكشف لنا عن «شبكةٍ منظَّمة من النشطاء الذين لا يكتفون — من خلال مواقعهم الإلكترونيةِ ومؤتمراتهم وأبحاثهم وكتبهم وأفلامهم الوثائقية وعلاقاتهم الاجتماعية — بتشكيل أيديولوجيةٍ مُنافسة للعلم فحسب، بل يُشكِّلون أيضًا عالَمًا اجتماعيًّا بديلًا متكاملَ الأركان له أبطالُه وقيمه ومعتقداته ومُمارساته.» وعالم المؤامرة كثيرًا ما يتَصارع مع الأيديولوجياتِ غيرِ التقليدية الأخرى، مثلما يزعم ديفيد أيك أنه يتلقَّى رسائلَ روحانية عن طبيعة الواقع، أو مثلما يُعلن ألكس جونز عن منتجاتٍ صحيةٍ بديلة مثل «فيتامين «ب-١٢» فائقِ التطور بتركيبةِ سرِّ حياة الحروب المعلوماتية».

والأكثر من ذلك، يتطلب المنطق المؤامراتي، أكثرَ من أي أيديولوجية غيرِ تقليدية أخرى، أن يغوصَ المؤمنون به أكثرَ في البيئة الطائفية. فإذا كانت المصادرُ السائدة للمعلومات هي جزءًا من المؤامرة، فإن حقيقة رفضِ فكرةٍ ما من جانب العلماء أو الأكاديميِّين أو وسائل الإعلام يُمكن اعتبارُه دليلًا على صحة تلك الفكرة. وتُحوِّل نظريات المؤامرة، في واقع الأمر، البيئةَ الطائفية إلى المصدر الوحيد للمعرفة الموثوق بها.

التجرؤ على المعرفة!

استنادًا إلى ميزة النظر من مستوًى فكريٍّ علوي، من السهولة أن ننظرَ بازدراءٍ إلى البيئة الطائفية التي أشار إليها كامبيل باعتبارها منطقةً فكرية غامضة غريبة، يكون فيها كلُّ شيءٍ مقبولًا. فنجد الصحفيَّ فرانسيس وين ينتحب في كتابه الذي بعنوان «كيف غزَت الأفكار الفارغة العالم»؛ لأن أصحاب نظريات المؤامرة ومَن على شاكلتهم من اللامنطقيين «هجروا قيمَ التنوير». وفي كتابه «وسط مناصري حركة الحقيقة»، يرى جوناثان كاي أنَّ مناصري حركة حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر هم أعداءُ التنوير، ويشعر بالقلق من أن تكون نهاية عصر المنطق على أيديهم. ويُمثل وين وكاي وجهة نظرٍ شائعةٍ للغاية بين المتشكِّكين في نظريات المؤامرة وغيرها من الأفكارِ غيرِ التقليدية، التي تصِمُ الأشخاص الذين يُناهضون المعتقداتِ السائدةَ بأنهم معاتيهُ متخلفون فكريًّا. تقول إيما جين وكريس فلمينج إن هذه الرؤية للبيئة الطائفية «تُصوِّر المؤامراتيِّين ومَن على شاكلتهم من أصحاب الأفكار الفارغة بأنهم المكافئُ الفكري لأصحاب الحِمْية الغذائية الفاشلين؛ ففي حين أن المفكرين الكبارَ في عصر المنطق يسعَوْن جاهدين لإصلاح التفكيرِ المختلِّ والمترهل لدى المجتمَع، يُطلق عموم الناس العِنان لأنفسِهم وشهواتهم.» لكن قبل أن نُبالغ في الثناء على

أنفسنا، هيا نستكشف إلى أيِّ مدًى انسلخَت البيئة الطائفية عن مُثُل التنوير، في حقيقة الأمر.

استهلَّ الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت حركةَ التنوير بكتابه «تأملات في الفلسفة الأولى» عام ١٦٤١؛ حيث اعتزم فيه نبذَ جميع المعتقدات والأفكار التقليدية، والتشكُّك في كل شيء أمكَنه التشكُّكُ فيه، وإعادةُ تشكيل فهمه للعالم من الصِّفر، دون الوثوق بشيءٍ سِوى بقدراته وملَكاته النقدية. وبعد مرور نصفِ قرنٍ من ذلك الحين، كتب الفيلسوف البريطاني جون لوك يقول: «من المؤكد أننا سنُحرز تقدُّمًا أكبرَ في اكتشاف المعرفة العقلانية والتأملية إذا استفدنا من أفكارنا لا أفكار الآخرين في العثور عليها؛ وذلك لأنني أعتقدُ أننا قد نتطلع عقلانيًّا إلى أن نرى بأعينِ الآخَرين كما نُدرك بفَهم الآخرين.» وبعد قرنٍ من ذلك الوقت، عندما دُعي الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط إلى الإجابة عن السؤال التالي: «ما هو التنوير؟» أجاب، مُستخدمًا عبارةً أشبهَ بشعارٍ: «التجرُّؤ على المعرفة!»

وقد تلحظُ أنه ليس هناك من بين التطلعات الفكرية السامية لمفكِّري التنوير ما يختلف اختلافًا جذريًّا عن السِّمات المُحدِّدة للبيئة الطائفية التي أشار إليها كامبيل، التي وصفها بـ «شن هجوم على الأفكار التقليدية» و«الدفاع عن حرية الفرد في المعتقَد والممارسة». وأحيانًا يكون التشابهُ مثيرًا للاستغراب جدًّا. فبعد حثِّه القراءَ على استجماع شجاعتهم من أجل استخدام فَهمِهم الذاتي، بدأ كانط في السخرية من التكاسل الفكري وجبن «القطيع» غير المفكِّر الذين يتمرَّغون في جهلٍ فرَضوه على أنفسهم بوثوقهم فيما قرَءوه في الكتب والسماح للآخرين بالتفكير نيابةً عنهم؛ وكل هذا قبلَ قرونٍ من رَواج عبارة «استيقظ أيها الأبله!» التي تتردَّد على ألسِنة أصحاب نظريات المؤامرة. تقول جين وفلمينج: «التفكير المؤامراتي أبعدُ عن أن يُمثِّل انسلاخًا عن العقلانية، وهو يتَّسم بالاتساق على نحوٍ يدعو إلى الحيرة.» مع مُثُل التنويريِّين.

فالبيئة الطائفية ليست أرضَ عجائبَ غريبةَ الأطوار ومناهضةً للعلم يُعطَّل فيها المنطق بالكلية. فبرغم كل شيء، ليس هناك الكثيرُ من الناس الذين يرفضون النهجَ القائم على الأدلة في التعامل مع الواقع بشكلٍ كامل. حتى ديفيد أيك نفسه، الذي كثيرًا ما يُذكِّر جمهورَه بأن العلماء جزءٌ من مؤامرة شريرة، يستشهد بالدراسات العِلمية عندما يرى أنها تنسجم مع ما يَطرحه من أفكار.

والبيئة الطائفية تنشأ عندما تتصادمُ الرغبة في الاستقلال الفكري مع واقع الحياة في عالَم متزايدِ التعقيد. وتوضِّح جين وفلمينج أن المفكِّرين التنويريين عاشوا في زمانٍ كانت الحكمة التقليدية فيه تأتيهم بشكلٍ أساسي من الكنيسة، وكانت جميعُ المعرفة الفنية والعلمية والفلسفية لهذا العالم تكمن بيُسرٍ في دائرةِ معارفَ محدودةٍ نسبيًّا في نطاقها. بعبارة أخرى: في القرن السابعَ عشر، كان نبذُ الأفكار التقليدية واعتبارُ نفسك الحكمَ الأمثل على ما هو صحيح؛ هدفًا قابلًا للحياة.

ومنذ ذلك الحينِ، أضحى فَهمُنا العلمي الجمعي للعالَم أكثرَ تعقيدًا وتخصُّصًا بكثير. وأصبحت معرفةُ ما هو صحيحٌ وما هو هُراء مهمةً متزايدةَ الصعوبة بالنِّسبة إلى غير الخبراء. كما أصبحت عبارةُ «تُشير الدراسات» من الأكليشيهات الفارغة. فغالبًا ما يُحتاج إلى دفعِ مقابلٍ مالي للاطلاع على الدراسات العِلمية، وقد يتعذَّر على شخصٍ ليس لديه الخبرةُ المتخصصة اللازمة فَهمُها على أي حال. وقد يتطلب مجرَّدُ فهمِ مُلصقٍ على إحدى الوجبات المُجمدة العادية في متجر البقالة معرفةً على نفس المستوى المعرفيِّ لطلاب الدراسات العليا في الكيمياء والهندسة وعلم الأحياء والتغذية. فاستقلالُنا الفكري يُنتزَع منا أكثرَ وأكثر، ونجد أنفسنا مجبرين على الإذعان للخبراء.

والبيئة الطائفية تسمح لنا بالتشبُّث باستقلالنا الفكري. فهي تُخبرنا بأننا نستطيع أن نكون خبراءَ أيضًا، وأننا غيرُ مضطرِّين إلى الإصغاء لما يُملى علينا، وأنَّ بمقدورنا العثورَ على الإجابات التي نبحث عنها بمجردِ أن نسلك الطرقَ التي قلَّ سالِكوها. استيقظ! الحقيقة هناك! تجرَّأ على المعرفة!

أطلق كامبيل على البيئة الطائفية العالَم الثقافي السُّفلي، لكن نظريات المؤامرة وغيرها من الأفكار غير التقليدية لا تقتصر، كما هو واضحٌ، على عالَمٍ فكريٍّ سُفليٍّ قذرٍ. فقلَّة قليلة من الناس هم مَن ينغمسون في البيئة الطائفية إلى حدِّ الانصهار فيها، لكنَّ الجميع تقريبًا يحتكون بها. ورواج كتاب «السر» والدكتور أوز، وديباك تشوبرا، وعُروضٍ مثل «قدامى الفضائيِّين» (Ancient Aliens) خيرُ شاهدٍ على الحقيقة القائلة بأن أعدادًا ضخمةً من الناس لديهم على الأقل اهتمام سطحي عابر بالأشياء الغامضة وغير التقليدية. ولا نُلام على ذلك. فامتلاك معرفةٍ غامضة أمرٌ له جاذبيته السيكولوجيةُ العميقة. وتُوضح سوزان هاردينج وكاثلين ستيوارت أن هناك متعةً يحصل عليها المرءُ من فك شفرة الرموز وتفسير الإشارات والعلامات واكتشاف المعرفة المفقودة والمكائد السرِّية. وقد كتب

ريتشارد هوفستاتر يقول إن صاحب نظرية المؤامرة أصبح يُعدُّ «أحد أفراد الطليعة الذين لديهم القدرة على إدراكِ المؤامرة قبل أن تتضح مَعالمها للجمهور الغافل.» ويقول داميان طومسون إن المعتقدات غير التقليدية يمكن أن تكون «جواز سفرٍ لكونٍ بديل مثير دُفنت فيه أطلانطس في القارة القُطبية الجنوبية، ووُري فيه تابوت العهد في إثيوبيا، وتلاعبَ في ظله الفضائيُّون بأحماضنا النووية، وقامت فيه حضارةٌ على كوكب المريخ في وقتٍ من الأوقات.»

لكننا لا نُصدِّق على وجه العموم أشياءَ لمجرد التسلية بها. فحتى نُصدِّق بحقٍّ شيئًا ما، يجب أن يكون هذا الشيء وجيهًا. فكيف يتأتَّى لأصحاب المعتقدات الطائفية أن يكونوا على هذا القدْر من اليقين بأنَّ رحلتهم خارج المنظومة الفكرية التقليدية قادَتْهم إلى الحقيقة، في الوقت الذي يكون فيه الاتجاه العلمي السائدُ مُضللًا أو خادعًا؟ الأمر لا يتطلب زعيمَ طائفةٍ يتمتَّع بكاريزما كي يُغرِيَنا بالانخراط في البيئة الطائفية؛ فكلُّ ما يتطلبه الأمرُ أحيانًا هو أن يُخبرنا عقلُنا المتفائل للغاية أننا نفهم العالَم أكثرَ بكثيرٍ من فهمنا الفعلي له.

«أعتقد أنني أعرف أقلَّ مما كنت أظن!»

تأمَّلِ الدراجة العادية. إنها آلة بسيطةٌ إلى حدٍّ كبير: فهي مكوَّنة من عجلتَين وهيكلٍ ومِقوَدَين ودواسات وجنزير (يُمكننا أن نتجاهل جميعَ التروس والمكونات المعقَّدة، بما يتوافق مع المثال الذي نسوقه). على الأرجح أنه كان لديك في مرحلةٍ ما من حياتك دراجةٌ أو رَكِبتَ واحدةً على الأقل. وإذا كنتَ تعيش في مدينة، فالأرجح أنك تراها كلَّ يوم، مركونةً بجانب أعمدة الإنارة أو تندفع نحوَك عند عبورك الشارعَ. بالتأكيد أنت تعلم معلومةً أو اثنتَين عن الدراجات، أليس كذلك؟

إذن فالتمرين التالي سيكون سهلًا للغاية. فيما يلي رسمٌ تخطيطي بسيط لدراجةٍ ينقصها بعضُ الأجزاء الأساسية. كلُّ ما أريده منك أن تستكملَ الأجزاء الناقصة. ارسم الأجزاء الناقصة من الهيكل والجنزير والدواسات. لا يُهم إن كانت بعضُ خطوطك مهتزَّةً بدرجةٍ ما أو بأخرى. فهذا ليس اختبارًا في موهبة الرسم. يمكنك أن تستكمل التمرين في عقلِك إن لم يكن لديك قلمٌ الآن. كلُّ ما أريده منك أن تُشير إلى المواضع التقريبية التي يجب أن تُركَّب فيها الأجزاء المختلفة الناقصة كي تصبحَ الدراجة صالحةً للعمل.

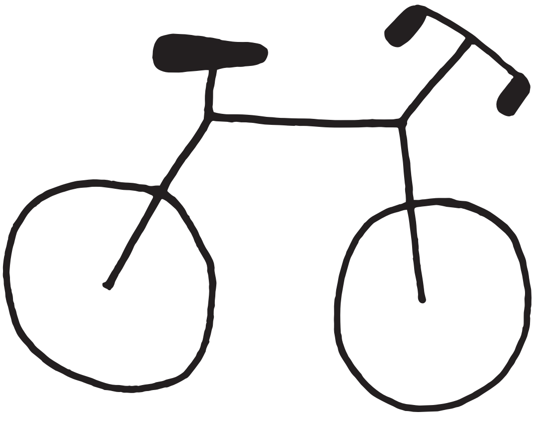

كيف كان أداؤك؟ عندما قدَّمَت ريبيكا لوسون هذا التحديَ للناس، أخطأ نصفُهم تقريبًا في شيءٍ ما؛ بالرغم من حقيقة أن جميعهم تقريبًا كانوا يعرفون كيف يركبون دراجة، وأن الكثيرين منهم كانوا يمتلكون واحدةً بالفعل في منازلهم. ولم تكن أخطاؤهم أخطاءً تافهة. فقد كانت عُيوبًا في التصميم من شأنها أن تجعل الدراجةَ عديمةَ الفائدة. فالبعض منهم رسَم هيكل الدراجة متصلًا بكلٍّ من العجلتين الأمامية والخلفية، وهو ما يجعل من الصعوبة تحريكَ مِقودَي الدراجة. والبعض الآخر رسَم الدوَّاسات متصلةً بمركزِ كلِّ عجلة، وهو ما يجعل وصولَ قدميك إليها أمرًا صعبًا. أما الخطأ الأكثرُ شيوعًا فكان وضعَ الجنزير في المكان الخاطئ؛ فبعضُ الناس رسَموه كعُقدةٍ بين العجلتَين الأمامية والخلفية، وهو ما من شأنه أن يُعيق حركةَ الدراجة. والإجابة الصحيحة هي أن يبرز الهيكلُ من أسفل المقعد وصولًا إلى موضعٍ بين العجلتَين، ويتصل من هناك بالعجلة الخلفية وبالجزء العلويِّ من الهيكل عن طريق الدواسات، ما يصنع مثلثَين. وتكون الدواسات بين العجلتَين، ويُكوِّن الجنزير حلقةً حول الدواسات والعجلة الخلفية (انظر الصورة في المراجع: الفصل السادس: أريد أن أصدق). هذا البِنْية تسمح للدواسات بإدارة الجنزير ودفع العجلة الخلفية، في حينِ أنها تتركُ العجلة الأمامية لتدور بحرِّية. هل ارتكبتَ أيَّ أخطاء؟ هل كان الأمر أصعبَ مما كنت تظن؟

هذه المهمة البسيطة على نحوٍ خادعٍ تكشف أن الكثير من الناس ينقصهم الفهمُ الأساسيُّ لآليةِ عمل الدراجة. وهي في حدِّ ذاتها ليست كاشفةً إلى هذا الحد. فبمقدورنا أن نخوض معتركَ الحياة دون فَهمِ الجوانبِ الأكثرِ دقةً من تصميم الدراجة. المثير في الأمر

أننا لا نُدرك افتقارنا للفهم إلى أن اضطُررنا إلى إظهار هذا الفهم عن طريق استكمال الرسم التخطيطي، ووجدنا أنفسَنا نتعثر. وقبل عرض هذا الرسم على المشاركين، كانت لوسون قد سألَتهم إلى أي مدًى هم يحسبون أنهم يفهمون جيدًا الآليةَ الأساسية لعمل الدراجة. وعلى مقياسٍ يتراوح من واحدٍ (أي «أعرف القليل جدًّا أو لا أعرف شيئًا مطلقًا عن آلية عمل الدراجة.») إلى سبعة (أي «لديَّ معرفة تامَّة بآلية عملِ الدراجة.») قيَّم المشاركون أنفسَهم بأربعةٍ أو خمسة، في المتوسط؛ أي كانوا يظنون أن لديهم معرفةً معقولة بالأمر. لكن بالنِّسبة إلى الكثيرين منهم، اتضح أن فهمهم كان وهمًا. فعندما اتضحَت أخطاؤهم على الرسم التخطيطي — أو بعبارة أخرى: عندما وُوجِهوا بجهلهم — تلاشى هذا الوهمُ فجأةً. كانت تجرِبةً مثيرة للدهشة. وقد لخَّص أحد المشاركين الجادين الموقف المؤسف قائلًا: «أعتقد أنني أعرف أقلَّ مما كنتُ أظن.»

وليست آليةُ عمل الدراجات وحدها هي التي نظنُّ أننا نفهمُها أفضلَ مما نحن عليه في حقيقة الأمر. فنحن لدينا ثقةٌ مفرِطة أننا نفهم جميعَ الأشياء على نحوٍ جيد. في سلسلةٍ مكثَّفة من التجارِب، سأل روزنبليت طالبُ الدراسات العليا بجامعة ييل وفرانك كيل المشرفَ على أبحاثه الناس عن مدى جودةِ فهمهم للآلات التي تتراوحُ بين التعقيد والمألوفية، بدءًا من فتَّاحات العلب ومرورًا بالسحَّابات الخاصة بالملابس، ووصولًا إلى طائرات الهليكوبتر. وفي كل حالة، كان أغلبُ الناس يظنُّون في البداية أن لديهم فكرةً تفصيليةً معقولة عن آلية عمل الآلة. ولكن عندما طلب منهم الباحثان أن يكتبوا توضيحًا تفصيليًّا للكيفية التي يمكن أن تفتحَ بها الفتَّاحةُ العلب، أو الكيفيةَ التي تطير بها طائرة الهليكوبتر، لم يَفِ الكثيرون منهم بالمطلوب. فكما كان الحال مع تمرينِ الدراجات الذي أعدَّته لوسون، عبَّر كثيرون من المشاركين في اختبار روزنبليت وكيل عن «دهشتهم الفعلية وإدراكهم لمدى قلةِ ما يعرفونه مقارنةً بما كانوا يظنون.»

ولا يقف الأمرُ عند هذا الحد. فالناس يُبالغون في تقييمهم لِفَهمهم للمسائل الفيزيائية البسيطة، مثل المسار الذي سيأخذُه شيءٌ ساقط، والظواهر الطبيعية الأكثرِ تعقيدًا مثل كيفية حدوث الزلازل ولماذا للمذنَّبات ذيول، أو كيف يتكوَّن قوسُ قزح. ويعتقد الناس أنهم يفهمون القانونَ والاستراتيجيات السياسيةَ أفضلَ مما هم عليه في واقع الأمر. يُشير دان سايمونز وكريس تشابريس في كتاب «الغوريللا الخفية» إلى أن ميل مشروعات على غِرار مشروع الأنفاق «بيج ديج» في بوسطن نحو تخطِّي الميزانية وتجاوز المواعيد النهائية

للأعمال، يدلُّ على أن حتى الخبراء أنفسَهم يُبالغون أحيانًا في تقديرِ مدى معرفتهم عندما يُخطِّطون لمشروعٍ معيَّن.

قد نظن أننا نفهم شيئًا ما بتعمُّق، لكن عندما نُوضَع على المحك، يتضح لنا أن ثمة فجواتٍ كثيرةً في فهمنا.

الأشياء التي لا نعرف أننا نجهلها

لماذا نُخطئ كثيرًا في الحكم على عُمق فهمنا؟ فالأمر، على ما يبدو، ليس مجردَ أننا نكذب على أنفسِنا إطراءً لها أو نُحاول الظهور بمظهرٍ مبهر. فإغراءُ الناس بنقودٍ فعلية لتقييمِ فَهمهم أو قدراتهم بأمانةٍ ودقة — حتى عندما يُعطَون مبلغًا كبيرًا مقداره ١٠٠ دولار — لا يُقلل من فرط ثقتهم. كما لا يفي بالغرض إجبارُهم على تبرير تقييمهم لقدراتهم الشخصية لزملائهم ومن ثَم مواجهة احتمالية الظهور بمظهر المتعجرِف أو الأحمق بسبب تقييمٍ مُفرط الثقة.

السببُ الفعليُّ وراء ثقتنا المفرِطة منشؤه خللٌ وراءَ معرفي. ومصطلحُ ما وراء المعرفة يُقصَد به «التفكير في طريقة التفكير». فعندما تقول شيئًا من قَبيل «أنا جيِّد في الرياضيات» «من السهل تشويشُ انتباهي»، فإنك قدمتَ بذلك رؤيةً كاشفة وراءَ معرفية. لكن مثلما يكون عليه حالك عندما يطلبُ منك أحدُهم أن تَلعق مرفقك، يتبيَّن لنا أن التفكير في طريقةِ تفكيرنا ليست مهمةً سهلة بقدرِ ما تبدو عليه. فثَمة حدودٌ لقدرتنا على التقييم الدقيق لما نعرفه، وإدراكِ مقدارِ ما لا نعرفه على وجه الخصوص. لخَّص وزير الدفاع الأمريكي الأسبقُ دونالد رامسفيلد هذه المشكلة بعبارات شهيرة:

> كما نعلم، ثَمة أشياءُ نُدرك أنها معلومة لدينا؛ أو بعبارة أخرى: أشياءُ نعرف أننا نعرفها. ونعرف أيضًا أن هناك أشياءَ نعرف أننا نجهلُها؛ بمعنى أننا نعرف أن هناك أشياءَ لا نعرفها. لكن هناك أيضًا أشياء مجهولة لا نعرف أننا لا نعلم عنها شيئًا؛ تلك الأشياء التي لا نعرف أننا لا نعرفها ... وتلك الفئة الأخيرة من الأشياء هي التي تكون صعبة.

ربما تؤدِّي عباراتُ رامسفيلد إلى نوعٍ من الارتباك لديك (وقد تَلقَّى بعضَ النقد من بعض اللُّغويين المدقِّقين في دقائق اللغة بسبب عباراته هذه)، لكن الفكرة التي يطرحُها مهمة.

هيا بنا نتأمَّل كلَّ فئة على حِدَة. الأشياء المعروفة التي نعرف أننا نعرفها سهلة. فمثلًا ما هي عاصمة إنجلترا؟ أعرف الإجابة: إنها لندن. عندما قرأتَ السؤال، وجدتُ كما لو أن عقلي كتبها على محرِّك بحث، فظهرَت الإجابة مباشرة. ثم يأتي دور الأشياء المجهولة التي نعرف أننا لا نعرفها وهي لا تُمثِّل مشكلة كبيرة هي الأخرى. فمثلًا، ما عاصمة ناميبيا؟ لا أعرف. لكنني أعرفُ أنني لا أعرف. ويبدو الحال كما لو أن ضغطة على زرِّ البحث تُظهر صفحةً فارغة برسالةٍ تقول: «لم يُفلح بحثك في إظهارِ أيِّ نتائج.» وجد ليون روزنبليت أنه فيما يتعلَّق بالمعلومات البسيطة مثل عواصم الدول، غالبًا ما لا نُبالغ في تقييمِ معرفتنا. فنحن نكون على علمٍ بالإجابة أو لا؛ وليس لدينا مشكلةٌ في التفريق بين هذا وذاك. ونتعامل مع الأشياء المجهولة التي نعرف أننا لا نعرفها باعتبارها فجوةً بسيطة محدَّدة في معرفتنا بانتظار أن تُملأ. (وبفضل محرِّك بحثٍ فائق السرعة، أستطيع الآن أن أسدَّ هذه الفجوة: عاصمة دولة ناميبيا هي ويندهوك.)

لكن هناك أيضًا الأشياء المجهولة التي لا نعرف أننا لا نعرفُها. وهذه الأشياء أكثرُ مراوَغةً. فهي بقعةٌ معرفية عمياءُ، ويميل عقلُنا إلى مَلءِ البقع العمياء. وقد توصلَت ريبيكا لوسون وليون روزنبليت وغيرهم إلى أن هذه البقعَ العمياء تظهر لدينا لا سيما عندما يتعلق الأمرُ بالظواهر الفيزيائية مثل الزلازل أو الأمور الآلية، مثل الدراجات أو الأنظمة المعقَّدة مثل القانون والسياسة. وأوضح روزنبليت أن المشكلة هي أن أغلبنا لا يشتَغِلون بميكانيكا الدراجات، وليسوا اختصاصيِّين في العلوم السياسية، لكننا جميعًا لدينا معرفة عابرة ببعض الخصائص الظاهرة للدراجات والسياسة. وهذا القدر البسيط من المعرفة الغامضة يُمكن أن يوقِعَنا في متاعب؛ لأن الأمر يتطلَّب شيئًا من الخبرة المتخصصة لمجردِ أن تعرف مقدارَ ما لا تعرفه عن شيءٍ ما. فبدون هذه الخبرة، يمكن أن يكون من الصعب معرفةُ الفارق بين الفهم العميق والفهم الضَّحل.

يوضِّح عالم النفس ديفيد دانينج المسألة بطريقةٍ مباشرة أكثر؛ إذ يقول: «العقل الجاهل ليس وعاءً فارغًا بلا بقع.» فهو مليءٌ بالمعلومات؛ «جميع الخبرات الحياتية والنظريات والحقائق والمؤسسات والاستراتيجيات والخوارزميات والاستدلالات والاستعارات والافتراضات» التي تراكَمَت لدينا على مرِّ السنين. وعندما لا نعلم — وجميعنا يجهل الكثير من الأشياء — يستخدم عقلُنا دون تمييزٍ ما هو متاحٌ لديه من أجل تغطيةِ البقع المعرفية العمياء.

بالنِّسبة إلى المشاركين في اختبارِ ريبيكا لوسون الذين قيَّموا فهمهم للدراجات بأنه قويٌّ ثم أخطَئوا في استكمال الرسم التخطيطي، هم كانوا لا يعرفون أنهم لا يعرفون. فعندما طلبَت منهم لوسون أن يُقيِّموا فَهمهم، أَجْرَوا بحثًا ذهنيًّا، ولم يردَّ المخُّ برسالةٍ فارغة تُشير إلى عدم الوصول إلى نتائج. فعوضًا عن ذلك، رأوا صفحةً ظهرت للوهلة الأولى مليئةً بقدرٍ لا بأس به من المعلومات؛ أسماء الأجزاء المختلفة والذكريات المشوشة عن خصائص دراجاتهم في مرحلة الطفولة وتجارِبهم في ركوب الدراجات، وربما معرفةٌ بالكيفية التي يُمكن بها إصلاح ثَقب في إطارها. وقد خلَطوا بين كل هذه المعرفة الضَّحلة إلى حدٍّ كبيرٍ والفهمِ المتعمق بالكيفية التي تعمل بها الأجزاء معًا على أرض الواقع من أجل إدارةِ العجلات. ولم يزُل فهمهم الوهمي مثل السراب إلا عندما اضطُرُّوا إلى فحص الصفحة بمزيدٍ من التدقيق عندما واجهَتْهم عالمةُ النفس المزعجة بأخطائهم في رسمٍ تخطيطي بسيط.

يقول روزنبليت وكيل، إننا نخلط أحيانًا بين رسمٍ تخطيطي هيكلي غيرِ كامل وشعورٍ «زاهٍ أشبهَ بمخطط» لآلية عمل الأشياء. أو يُمكننا أن نُعبر عما قاله كريس تشابريس ودان سايمونز بالقول إننا نعتقد أننا نفهم آليةَ عمل الدراجة في حينِ أن كلَّ ما تفهمه هو كيف تقود دراجةً.

ربما يكون هذا صعبًا إلى حدِّ إرباك عقلك. فبرغم كلِّ شيء، لدينا بقعةٌ عمياء فيما يتعلَّق ببقعنا العمياء المعرفية. لكن ربما تكون قد جرَّبت الشعور بعدم الارتياح عندما انكشفت إحدى بقعك العمياء على نحوٍ غيرِ متوقَّع. فلعلك وجدت نفسك خلالَ دردشتك مع أصدقائك قد انخرطتَ في محاضرةٍ عن موضوعٍ معين تشبَّثتَ برأيك فيه مؤخرًا. ووسط خُطبتك قاطعَك أحدُهم بسؤالٍ بريء على غِرار: ما مدى تأثير سياسات تجارة الانبعاثاتِ على انبعاثات الكربون عالميًّا بالضبط؟ فجأةً تجد نفسَك مرتبكًا. فقد كنت تظن أنك تستند إلى أرضيةٍ معرفية صُلبة، لكنك تكتشف أنَّ فهمك قد فقد الأرضية الصُّلبة وأصبح عديمَ الحيلة عالقًا في الهواء مثل شخصية وايل إي كويوت. فأحيانًا لا نستطيع رؤية الحد الذي ينتهي عنده فَهمُنا إلا عندما يُصبح فهمنا هذا على المحك. إذا لم تكن قد جرَّبت هذا الشعور من قبل، فإما أنك عبقريٌّ أو أنك تتحدَّث دومًا وحَسْب عن الأشياء التي لديك معرفةٌ متخصصة بها، أو ربما تُعاني حالةً سيئة جدًّا من عدم معرفتك أنك لا تعرف.

جامعة جوجل

ما رأيك في تقنية النانو؟ هل لديك معرفةٌ كافية بها ليكون لديك رأيٌ مطَّلع؟ يقول ديفيد دانينج: «قد يظن المرءُ أن الآراء المتعلِّقة بتقنيةٍ شديدةِ التخصص يصعب الحصولُ عليها.» ويُتابع قائلًا: «بالتأكيد، تتطلَّب معرفةٌ ما إذا كانت تقنية النانو هي إنجازًا هائلًا للبشرية أو خطوةً نحو التعجيل بفَنائها، معرفةً من نوعٍ ما بعلم المواد والهندسة والبِنْية الصناعية والمشكلات الرقابية والكيمياء العضوية، وعلم السطوح وفيزياء أشباه الموصِّلات، والتصنيع الدقيق والبيولوجيا الجزيئية.» ومع ذلك فإن الآراء المتعلقة بالموضوع أبعدُ ما تكون عن الاقتصار على الأشخاص ذوي الخبرة الفنية في التخصصات ذات الصلة.

في دراسةٍ مَسْحية أُجريت عام ٢٠٠٦، صرَّح أغلب المشاركين بمعرفتهم الضئيلةِ بتقنية النانو أو انعدام معرفتهم بها. فعندما طُلب منهم تقييمُ المخاطر والمزايا التي تمتاز بها تقنية النانو، قال قرابةُ نصفهم إنهم لا يستطيعون الإجابة. فبالنِّسبة إليهم، كانت المزايا والسلبيات المحتملة شيئًا مجهولًا يعرفون أنهم لا يعرفونه. لكن الأمر لم يتطلَّب سِوى القليل من المعلومات لاستثارة وَهْم الفهم. ففي دراسةٍ أخرى، استطاع دان كاهان وزملاؤه أن يَزيدوا من عدد المشاركين الذين لديهم استعداد لتقديم وجهة نظرهم عن مزايا وسلبيات تقنية النانو إلى تسعةٍ من أصل ١٠؛ وذلك فقط من خلال وصفٍ للتقنية مكوَّنٍ من جملتين، ولا ينطوي مطلقًا على أي أحكام.

وللأمانة، كان موقفُ معظم المشاركين محايدًا؛ فبوجهٍ عامٍّ كان المشاركون غيرَ راغبين في الابتعاد عن منتصف المقياس؛ حيث قيَّموا المزايا والمخاطرَ على أنها متكافئة إلى حدٍّ كبير. لكنَّ مزيدًا من المعلومات حسَمَت الأمر. فقد طلب كاهان من مجموعةٍ مختلفةٍ من المشاركين أن يقرَءوا فِقرتَين موجزتين عن تقنية النانو، وكانت إحدى الفقرتين تُوجز بعض المزايا المحتملة في حينِ كانت الأخرى توجز بعضَ المخاطر المحتملة. في الواقع، لم يكن القدْر الضئيلُ من المعلومات الغامضة والمتناقضة كافيًا لتشكيل رأيٍ مطَّلع لدى المشاركين. لكن لم يبدُ الأمر كذلك بالنِّسبة إلى المشاركين الذين قرَءوا الفقرتين. فعددُ الأشخاص الذين لم يكن لديهم استعدادٌ للإدلاء برأيِهم انخفض إلى النصف، من ١١ بالمائة إلى خمسةٍ بالمائة فقط. والأهمُّ من ذلك، شجَّع ذلك المشاركين على التحرُّك بعيدًا عن منتصف المقياس. فبعد قراءتهم الفِقرتين الغامضتين، نزعَ الناس إلى تقديمِ آراءَ أقوى بكثيرٍ بطريقةٍ ما أو بأخرى. فالقليل من المعلومات — حتى وإن كانت غيرَ كافية لتشكيل رأيٍ مطلع — يمكن أن يدفعَنا إلى التشبُّث برأيٍ معيَّن. ووهمُ الفهم الذي يمكن أن يجعل

شخصًا ما يميل إلى اتخاذِ موقفٍ بشأن التقنية التي يكاد لا يدري عنها شيئًا يُمكن هو ذاته أن يُغرِيَ بعض الناس نحو البيئة الطائفية التي أشرنا إليها في السابق.

في ١٨ سبتمبر ٢٠٠٧، ظهرَت جيني مكارثي في برنامج «أوبرا وينفري شو» للترويجِ لكتابها «أعلى صوتًا من الكلمات: رحلةُ أمٍّ في علاج التوحُّد». في هذا الكتاب، تصف مكارثي كيف شُخِّصت حالة ولدها إيفان بأنه يُعاني التوحُّدَ، وتُجادل بأن اللقاحات هي السببُ وراء ذلك. تتمتع جيني مكارثي بالكثيرِ من المهارات، فهي تعملُ عارضةَ أزياء وممثِّلة ومؤلفة، لكنها لم تتلقَّ أيَّ تدريب طبِّي رسمي. إذن ما الذي أهَّلَها لتشخيصِ سببِ التوحُّد الذي يُعانيه طفلها؟ أخبرت مكارثي أوبرا قائلةً: «لقد تلقيتُ درجتي العلمية من جامعة جوجل.» عندما شُخِّصت حالة إيفان بأنها توحُّد، قالت: «أول شيء فعلته هو أن استعنتُ بجوجل. كتبتُ كلمة توحُّد على محرك البحث. وبدأت أطَّلِعُ على النتائج.» وعندما قرأَت أوبرا، بدافع الشعور بالواجب، بيانًا من مراكزِ السيطرة على الأمراض والوقاية منها يُفيد بأن أفضل العلم المتاح لا يدعمُ الزعمَ القائلَ بوجود ارتباط بين اللقاحات والتوحُّد، كانت مكارثي قد أعدَّت حُججَها المناهِضة بالفعل. فقد قالت: «علمي اسمه إيفان، وهو في البيت. هذا هو علمي.»

ليست جيني مكارثي هي الوحيدة التي تعتقد أنها تعرفُ أفضلَ مِن الطب السائد. الأمر نفسه ينطبق على كريستين ماجيوري وهي سيدةُ أعمال من شيكاغو. ففي عام ١٩٩٢، ثبَتت إيجابيةُ فحص الدم الروتيني، وتبيَّن إصابتها بفيروس نقص المناعة البشرية المكتسب، الذي يُسمَّى بمرض الإيدز. وبالرغم من أنها لم تتلقَّ أيَّ تدريب علمي أو تحصل على أي درجة جامعية، غاصت ماجيوري في المؤلفات الطبية حول مرض الإيدز. وتوصَّلَت إلى نتيجةٍ مفادُها أن الإيدز لا يُسبِّبه فيروس نقص المناعة البشرية المكتسَب، وإنما ينتج من استخدام العقاقير والجنس الشرجي، بل وحتى العقاقير الموصوفة لعلاج مرض الإيدز. وقد أسَّسَت منظمةٌ أطلقت على نفسِها اسم «ألايف آند ويل إيدز أولترنتيفز» لنشر رسالتها. وفي عام ٢٠٠٠، نظَّمت فرقةُ موسيقى الروك «فو فايترز» حفلًا موسيقيًّا خيريًّا بِيعَت جميع تذاكره لصالح منظمة «ألايف آند ويل» في هوليود. أخبرت ماجيوري الجمهور قائلة: «قيل لي إنه لم يتبقَّ من عمري سوى مدَّة تتراوح بين خمسٍ وسبع سنوات.» وتابعَت: «الآن بعد مُضيِّ ثماني سنوات، أعيش في صحةٍ مثالية دون أيِّ أدوية للإيدز ... والسبب فيما أتمتَّع به من صحةٍ اليومَ هو أنني لم أتَّبع أوامرَ طبيبي. لقد تشكَّكَت فيها. وأحثُّكم جميعًا على التشكك فيما تُخبَرون به بشأن فيروس نقص المناعة

البشرية المكتسَب ومرض الإيدز.» عندما حملت ماجيوري، لم تأخذ أيَّ أدوية لمنع انتقال الإيدز إلى أطفالها. وقد ماتت ابنتها إليزا جين بسبب الإيدز عندما بلغَت من العمر ثلاثَ سنوات ونصفًا. وماتت ماجيوري نفسها في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨، وهي تبلغ من العمر ٥٢ عامًا، بسبب أشكال من العدوى الانتهازية الشائعة لدى الأشخاص الذين لا يُعالَجون من مرض الإيدز.

قليلٌ من العلم

جامعة جوجل يحضرها أعدادٌ هائلة من الناس. فبعد مشاهدةِ عددٍ من فيديوهات «يوتيوب» عن عمليات الهدم المُتحكَّم بها، قد يُغريك اعتبارُ نفسك صاحبَ معرفة كافية في مجال الهندسة الإنشائية لدرجةٍ تجعلك تعتقد أن انهيار بُرجَي مركز التجارة العالمي كان هدمًا مُتحكَّمًا فيه. وقد شاهدنا جميعًا أفلامًا نجد فيها رجلًا أُطلِق عليه الرصاص يُدفَع إلى الخلف بفعل قوةِ الرصاصة؛ من المغري أن نستنتجَ أننا نعرف كلَّ ما نحتاج إلى معرفته عن الفحص الجنائي للأسلحة النارية لنستدلَّ على موقع القاتل الخفي؛ استنادًا إلى حركة رأسِ جون كينيدي إلى الخلف وجْهةَ اليسار. ونعرف أن السماء المظلمة غير الملبَّدة بالغيوم لا بد أن بها نجومًا؛ من المغري أن نعتقدَ أننا نستطيع إثباتَ أن رحلة الهبوط على سطح القمر كانت مزيفة، وذلك ببساطة من خلال الإشارة إلى الغياب الواضح للنجوم في صور سماءِ القمر. معظمنا ليسوا خبراءَ في الهندسة الإنشائية أو الفحصِ الجنائي للأسلحة النارية أو التصوير الفَلكي. لكن عندما نعرف القليلَ من السهل أن ننجرفَ نحو الاعتقاد بأننا نعرف الكثير. فوهمُ الفهم يجعلنا جميعًا خبراءَ على المستوى النظري.

وعندما نُضطرُّ إلى تقدير مدى عُمق معرفتنا غالبًا ما نصطدم بالقاع أسرعَ بكثير مما هو متوقَّع. ولكن في أغلب الأحيان، نخوض غِمارَ حياتنا بالطفو على السطح، غيرَ مدرِكين أبدًا جميع الأشياء التي لا نعرف أننا لا نعرفها. ولم تُطرَح كثيرًا تحدياتٌ أمام أوهامنا. فقلما نُصادف علماء نفس يعطوننا اختباراتٍ على غرار اختبار الدراجة الناقصة، وغالبًا ما يتحلى أصدقاؤنا بأدبٍ جمٍّ يمنعُهم من أن ينتقدونا، كما أننا نُجيد إحاطة أنفسنا في غُرف أصداء فكرية يُعزِّز فيها المحيطون بنا أفكارَنا ومعتقداتنا. بحلول الوقت الذي وُضعت فيه أفكار كريستين ماجيوري وجيني مكارثي وملايين الخبراء النظريين غيرهم على المحك، صار وهمُ الفهم لديهم اعتناقًا وعقيدة راسخةً.

لقد بدَأْنا الفصل بألفَي شخصٍ تجمعوا في ساحة، يُوجِّهون صياحهم إلى فندقٍ بعيدٍ قائلين: «نعلم أنكم قتَلة!» وكل مَن تحدثتُ إليهم كانوا على يقينٍ من أن المشاركين في مؤتمر بيلدربيرج منخرِطون في مؤامرة إجرامية، لكن عندما ألححتُ في طلب تفاصيلَ محددةٍ منهم — ما هي أهداف المشاركين في المؤتمر بالضبط، وكيف ينجحون في مؤامراتهم الكبرى، وما الذي يُمكن فعله حِيالَ ذلك — كانت إجابات الناس شديدةَ التفاوت والتبايُن، وكانت غامضة في كثير من الأحيان إلى حدٍّ محبِط. وقال أحد المحتشدين في ذلك المهرجان: «حسنًا، هذا يكشف الحقيقةَ بصفة أساسية. من البديهي أن تختلفَ الحقيقة باختلاف الناس، لكنني لا أعترف إلا بنسخة واحدةٍ من الحقيقة، وأي نسخ أخرى منها هي ببساطة مجردُ حقائقَ زائفة. كما تعلم، الأمر يحدث على مستوًى أعمقَ من مستوى هؤلاء الأشرارِ هناك، فالأمر يصل إلى ...» توقَّف هُنيهة عن الكلام. ثم تابع قائلًا: «لا أجدُ الكلماتِ التي أشرح بها ذلك.»

كتب الشاعر ألكسندر بوب في قصيدته التي تحمل اسمَ «مقالةٌ عن النقد» في عام ١٧٠٩ يقول: «قليلٌ من العلم شيء خطيرٌ للغاية؛ تشبَّعْ بينابيع العلم أو لا تتذوَّقْ ماءه؛ فالجرعات البسيطةُ منه تُسمِّم العقل، والتشبعُ بمائه يمنحنا الحكمة.» أما إيما جين وكريس فلمينج، فيطرحان، بأسلوبٍ أقلَّ شاعرية، ولكن بطريقة أكثرَ برجماتية لربما، أسانيدَ قوية لأهمية أن تتقبَّل حقيقةَ أنك لا تملك جميعَ الإجابات. «فالاعتراف بأنك تعرف أقلَّ مما تظن، وأنك قد تُصبح أكثرَ جهالةً في الغدِ من جهالتِك اليوم» شيءٌ يجب اعتباره فضيلةً على حدِّ قولهما. «ربما يجب عليك أن تتوقَّف من آنٍ لآخرَ لتقول لنفسك: «ربما ليس لديَّ فكرةٌ مطلقًا عما أتحدَّث فيه.»»

الفصل السابع

الروايات الرَّسمية

لطالما كان ديفيد أيك مستغرِقًا في أحلام اليقظة. فيذكر أنه في المدرسة، كان المعلمون يُخبرونه بالتوقُّف عن الاستغراق في أحلام اليقظة، وكان يُفكِّر في نفسه قائلًا: «حسنًا، أحبُّ أحلام اليقظة أكثرَ من حبي الاستماعَ إليكم؛ لذا سوف أذهب وأستغرق في تلك الأحلام.» ترك أيك المدرسة في سنِّ الخامسة عشرة ليتخِذَ مسارًا مهنيًّا في مجال كرة القدم. وعندما أجبره التهابُ المفاصل المؤلم على التقاعد في سنِّ ٢١ عامًا، تحوَّل إلى الصِّحافة. وبحلول ثمانينيَّات القرن العشرين، كان أيك قد أصبح اسمًا مشهورًا في مجال البرامج الرياضية لدى هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي». لكن بالرغم من نجاحه، اعترف أيك في سيرته الذاتية التي نُشرت عام ١٩٩٣، بأنه كان يشعر باستياءٍ متزايد من حياته. كان يشعر بأن حياته يجب أن تكون أعظمَ مما هي عليه. أخذ هذا الشعور يُراوده عندما بدأ في تلقِّي رسائلَ روحانيةٍ تُخبره بأن العالَم يحكمه سرًّا جنسٌ شريرٌ من الزواحف المتداخلة الأبعاد.

إليك قصة الواقع حسبما جرى على لسان ديفيد أيك.

في وقتٍ ما، عاشت البشرية عصرًا ذهبيًّا. كان ذلك العصر يسوده الانسجامُ والسعادة والهناء. فقد عاش أسلافُنا القدامى مترابطِين معًا ومع الكون. فلم تكن هناك حروبٌ أو مجاعات أو تلوُّث؛ ومن ثَم كان ثمَّة توافق بين الجميع. ثم تداعى ذلك السِّلم. إذ بدأت قوةٌ خبيثة سرِّية تُلقي بظلالٍ مظلمة على البشرية. وكانت ثَمة مؤامرة.

فعلى مدار الآلاف من الأعوام حتى الآن، كان المتآمرون يُنفِّذون سرًّا نظامَ تحكُّمٍ متقنًا ومعقَّدًا، صُمِّم خِصِّيصى لقطع اتصالنا الطبيعي بالكون وإسقاطنا باستمرارٍ في شرَك حالةٍ من الخوف والحيرة لا ينتهيان. والعالم الحديث هو قِبلة مكائدهم الخفية. فوسائل الإعلام والمنظومة التعليمية والعلم والسياسة والطبُّ الغربي جميعها أدواتٌ لتلك المؤامرة، وهي تُستخدَم للسيطرة على العقول وإخضاعنا. وكل شيء يحدث في العالم — كل حرب

وركود وكارثة طبيعية وهجوم إرهابي — صنيعة مكائد سرِّية يحوكها رجالٌ ذَوو سُترات داكنة في قاعات إدارية يملؤها الدخان. ويستدرك أيك أن هذا مجردُ الحافة الخارجية للحفرة الغائرة. فهؤلاء الطغاة الأرضيُّون هم مجردُ دُمًى في أيدي عدوٍّ أكثرَ خبثًا بكثير.

فوفقًا لأيك، فإن مَن يحوك هذه المؤامرة الشنيعة في واقع الأمر هم جنسٌ مِن كائنات فضائية زاحفة متداخلةِ الأبعاد يُطلق عليها الأركون. ويقول إن المؤامرة تتجاوز حواسَّنا الخمس. فمخلوقات الأركون تقتاتُ على الطاقة البشرية مثل مصَّاصي الدماء. فهي تعشق الخوف والكراهية، وتحصد أكثرَ عواطفنا كآبة وظلمةً من خلال إيقاعنا المستمر في شرَكِ سجن واقع افتراضي. ويوضح أيك أن الكون ليس سِوى صورة ثلاثية الأبعاد، وأن مخلوقات الأركون قد هاجمت نسيجَ الكون ذاته. فعن طريق السيطرة على إدراكنا للواقع، بمقدور تلك المخلوقات التلاعب بأفكارنا، مُبقيةً علينا في شَرَك تأثيرها نُعاني حالةً دائمة من الحيرة والخوف، بحيث نصبح عبيدًا بلا وعيٍ لأسيادٍ غير مرئيين.

تبدو الأشياء كئيبة. فنحن في قبضة تلك المخلوقات الشريرة. والبشرية على حافة العبودية التامة. اللعبة انتهت، وقد أُعلن فوزُ تلك الزواحف.

لكنَّ هذا المصيرَ ليس حتميًّا بالضرورة. فثمة بصيصُ أمل. فمخلوقات الأركون لديها نقطةُ ضعف قاتلة. فهي مضطرَّة إلى العمل في الظلام سرًّا. وعندما تُكشَف خُططها، على حد قول أيك، ينكسر سحرها ويتلاشى تأثيرها، ويتداعى نظام سيطرتها بسهولة. وثَمة تغييرٌ أصبح شائعًا. فالمزيد والمزيد من الناس أصبَحوا متفتِّحي العقول ويقظين وبدَءوا في التحرُّر من قيودِ تلك المخلوقات وأتباعها البشريين. وإذا ثابَرْنا على ذلك، فستنهزم مخلوقات الأركون، وتنقشع ظلالها الكئيبة. ثم يُولَد فجر جديد. فالبشرية ستلتحمُ معًا من جديد وستستعيدُ وعيها الكامل، كما ستستردُّ مكانها الصحيح في هذا الكون.

الآن، إذا لم تكن مؤمنًا بالفعل بما يقوله ديفيد أيك، قد تبدو هذه الأفكار مزاعمَ شديدةَ الجموح، على أدنى تقدير (لم أذكر حتى ما يتعلَّق بحلقات كوكب زحل التي يراها أيك قرون استشعار راديوية، وحديثه عن القمر الأجوف). يقول لورين كولينز في كتابه «العثور على الحقائق في عصر التزييف المعلوماتي» إن ديفيد أيك ومخلوقاته الزاحفة «أصبحت الرمز الذي يُعبِّر عن أكثر الأفكار شرودًا وجموحًا»؛ أو بعبارة أخرى: أبرز مثال على نظريات المؤامرة المجنونة التي لا يُمكن أن يُصدِّقها أصحابُ العقول السوية. لكن الحقيقة أن أفكار أيك لا تَروق لأصحاب الفكر الجامح فحَسْب. فلديه متابعون مخلصون. فمُنتداه على شبكة الإنترنت واحد من أكثرِ المواقع المؤامراتية من حيث عددُ الزيارات،

وقد نشر أكثر من اثني عشر كتابًا يُفصِّل فيها أفكارَه، ويُهلل آلافُ المعجبين لمحاضراته الطويلة في أماكنِ التجمعات الكبيرة مثل ساحة ويمبلي في لندن.

لماذا ينجذب إذن هذا العددُ الهائل من الناس لنظريات أيك المعقَّدة والفضفاضة هذه؟ عندما كنتُ لا أعلم شيئًا عن أيك سوى أنه يعتقد أن العالم يخضعُ لتأثيرِ مكيدة تُدبرها مخلوقاتٌ زاحفة لها طموحاتٌ سياسية، رفضتُ أنا أيضًا أفكاره هذه باعتبارها أكثرَ الأفكار جُموحًا. لكن عندما تبدأ في معرفة رؤية أيك للعالم — وسيكولوجيات رواية القصص — يتضح لك جانبٌ آخر. قلت هذه قصةُ الواقع من وجهة نظر أيك؛ والحقيقة أن نظرياتِ ديفيد أيك ليست أكثرَ غرابةً من بعض أكثرِ القصص نجاحًا وتأثيرًا التي نعرفها ونعشقها.

ذات مرة …

أقدَمُ قصةٍ كُتبت على الإطلاق — أو بالأحرى أقدمُ قصةٍ عُثر عليها — هي «ملحمة جلجامش». فيُعتقد أن أجزاءً من هذه القصة رُويت منذ ٥٠٠٠ سنة. وفي النهاية، في وقتٍ ما في القرن السابع قبل الميلاد تقريبًا، جُمِعت القصيدة ودُوِّنَت على ١٢ لوحًا من الصلصال، وأُودِعَت في مكتبة الملك الآشوري أشور بانيبال في نِيْنَوى. ولم يمرَّ وقتٌ طويل حتى اندلعَت الحرب بين الإمبراطورية الآشورية والبابليِّين. وانهارَت الحضارة الآشورية وسُوِّيت نِيْنَوى بالأرض ودُفنت الألواح تحت رمال الصحراء على مدار أكثرَ من ٣٠٠٠ سنة تقريبًا. وبعد ذلك، وتحديدًا في عام ١٨٤٩، تمكَّن عالِم الآثار الإنجليزيُّ أوستين هنري لايارد من الكشف عن بقايا المدينة القديمة والألواح التي طواها النسيانُ. وقد استغرق فكُّ شفرة الأبجدية المسمارية عَقدَين من الزمان. وعندما تُرجمت القصيدة القديمة في نهاية المطاف، أسَرَت ألباب الجمهور الفيكتوري.

بطلُ هذه القصة هو الملك القويُّ والحكيم الذي كان يحكم مدينة الوركاء والذي كان يُدعى جلجامش. وتبدأ إحدى مغامراته بشرٍّ هائل كان يُلقي بظلاله على مملكته التي كانت تنعم بالسلم فيما سبَق. مصدر تلك المشكلات عملاق متوحش، يُدعى خومبابا، كان له، وفقًا لكثيرٍ من الأوصاف، وجهُ أسدٍ وقرونُ ثور ومخالبُ نَسْر وجسدٌ مغطًّى بحراشيفَ شوكية. ويتلقى جلجامش تحذيرًا من أحد أصدقائه الذي يقول: «إنه مخلوق يُروع البشرية. فزئير خومبابا فيضانٌ هائج، وفمُه موت محقَّق وأنفاسه نيران مستعرة.» ويقطع جلجامش المغوارُ نصف العالم سفرًا لمواجهة خومبابا في مخبئه تحت الأرض، ثم

يعقب ذلك معركةٌ حاسمة. قوة خومبابا تتجاوز بكثير قوة جلجامش. ولا يبدو أنَّ ثمَّة أملًا في النصر. ولكن عندما يوشك البطلُ على الهزيمة، يستحضر عملًا خارقًا، ويسحق الوحش. ويعود السِّلم إلى مملكة الوركاء من جديد.

«ملحمة جلجامش» قصةٌ جيدة؛ في الواقع هي جيدة لدرجةِ أن الناس أخَذوا يُعيدون تأليفها لا شعوريًّا على مدار آلاف السنين. تأمَّلْ مثلًا قصة «بيوولف» التي ألَّفها الشعراء في إنجلترا إبَّان العصور الوسطى، في وقتٍ ما بين القرنَين الثامن والعاشر. بطل هذه القصة هو محاربٌ قوي وحكيم يُدعى بيوولف. وتبدأ المغامرة بشرٍّ هائل يُلقي بظلاله على مجتمع هِيروت الذي كان يَنعم بالسِّلم فيما مضى. ومصدر المشكلات جريندل، وهو عملاق وحشي ذو عينَين تستعران نارًا ومخالبَ قاتلةٍ وفكَّين قويَّين وجسدٍ مغطًّى بحراشيف لا يمكن اختراقها. وبعد مُضيِّ الليالي، ليلةً تِلو أخرى، يبث جريندل الخوفَ والفزع بين سكان هِيروت، منتزعًا الرجالَ من فُرُشهم ليمزِّق إياهم إربًا. ويسافر بيوولف عبر أنحاء أوروبا لمواجهة جريندل. لكن يتضح أن جريندل مجرَّد مقدمة لعدوٍّ أكثرَ ترويعًا، وهو أمُّه الأكثر وحشية. ويُغامر البطل ويدخل إلى مخبئها تحتَ الماء، ويعقب ذلك معركةٌ حاسمة. الوحش أكثرُ قوةً بكثير من بيوولف. ويبدو أنه لا أملَ في النصر. ولكن بعدما يُفقد الأمل على ما يبدو، يستحضر بيوولف قوةً خارقة، ساحقًا الوحشَ بسيفٍ صنعَته أيدي العمالقة. ويُرفرف السلام من جديد على هِيروت.

وُلدت قصَّتا بيوولف وجلجامش، كلٌّ منهما مستقلة تمامًا عن الأخرى، من رَحِم ثقافتَين شديدتَي التباعد، ويفصل بين القصتين آلافُ السنين، غير أن ثمَّة أوجُهَ تشابهٍ بينهما تُثير الاهتمام. فاليوم دُور السينما المكيفة الهواء والأفلام الباهظة التكلفة تختلفُ اختلافًا شاسعًا عن الأروقة البدائية المفتوحة ومجالس الشعراء الغنائيِّين في الماضي، ومع ذلك ما زلنا نتأثر كثيرًا بالقصص التي تُروى عن أبطالٍ شُجعان يُحاربون أشرارًا مروِّعين. تأمَّل مثلًا فيلم «جوز» (الفك المفترس) لستيفن سبيلبرج. تبدأ سمكةُ قرش مخيفةٌ في قضِّ مضاجع بلدةٍ واقعة بالقرب من البحر. ويُغامر رئيس الشرطة برودي، وهو بطلُ الفيلم، منطلقًا إلى البحر لمواجهة سمكة القرش. يبدو النصر غيرَ أكيد، إلى أن يذبح برودي سمكةَ القرش، في عملٍ مغوارٍ شديد البراعة. وتأمَّل أيضًا فيلم «ستار وورز» (حرب النجوم)، الذي يُهدِّد فيه دارث فيدر المجرة بأكملها، إلى أن يُدمر لوك سكاي ووكر نجم الموت الخاص بفيدر مستخدمًا «القوة الميتافيزيقية» لإيجاد نقطةِ ضعفه. أو تأمل أيًّا من أفلام جيمس بوند. تجد أن عدوًّا شريرًا يُهدِّد أمن العالم الغربي. ويُغامر بوند منطلقًا نحو مخبأِ العدو الشرير. ويكاد يقع بوند في قبضته. ثم يُصبح النصر حليف بوند في النهاية.

يسهل أن ينساق المرءُ وراء الاعتقاد بأن الخيال البشري لا حدودَ له. فبدءًا من القصص التي كانت تُروى حول نيران المخيمات وصولًا إلى التدوين الصوتي (بودكاست) الذي يُبَث من السحابة الإلكترونية، ظلَّ البشر يقصُّون بعضُهم على مسامعِ بعضٍ قصصًا على مدار آلاف السنين، مستخدِمين أيَّ وسيلة متاحة. وبوجهٍ عام، استحضرنا عددًا لا يُحصى من الشخصيات الخارقة والمخلوقات الخيالية والأحداث المستحيلة. نظريًّا، هناك أعدادٌ هائلة من القصص بقدرِ ما هناك أعدادٌ هائلة من الرُّواة. ومع ذلك، كما تُوضح هذه النبذات الموجزة، عندما تُختزَل هذه القصص بحيث نصل إلى عناصرها الأساسية، نجد أنه يتعذَّر علينا التمييزُ بينها إلى حدٍّ كبير. وليس هذا بسبب أن رُواة القصص يُعيدون قولبةَ أفكارِهم في تكاسلٍ أو يسرقون عمدًا من بعضِهم البعض. ولكن يبدو أن مخطَّطات قصصٍ معينة قد انطبعت في أذهانهم. كتب كارل يونج عن النماذج الأولية السيكولوجية، واصفًا إياها بـ «قيعان الأنهار القديمة التي يتدفَّق عليها تيَّارنا الروحاني تدفقًا طبيعيًّا.» حتى الأطفال الصِّغار في سنِّ الثالثة يفهمون بِنْية القصة. فنحن مجبولون على أن نجد قصصًا معيَّنة مُشبعةً غريزيًّا، ونبتكرَ قصصًا بعَفْوية ونستمع إليها أو نُطالعها بحماسٍ استنادًا إلى الحبكات الدرامية البدائية منذ فجر الإنسانية.

يتفق الباحثون بوجهٍ عام على أن عددَ النماذجِ الأولية للقصص صغيرٌ إلى حدٍّ يُثير الدهشة، رغم أن التقديرات الدقيقةَ متباينة. فوفقًا للمؤلِّف رونالد بي توبياس، هناك ٢٠ حبكةً درامية أساسية. ويختزل كاتبُ السيناريو بليك سنايدر هذا العدد إلى النصف؛ إذ يعتقد أن كل فيلم سينمائي جرى إنتاجُه ينسجم مع نموذجٍ من النماذج العشرة الأساسية. أما الصحفي كريستوفر بوكر فيختزل هذا العددَ أكثر. فقد قضى بوكر ٣٤ عامًا من حياته يفحص عددًا لا حصر له من القصص حول العالم وعبر التاريخ؛ وأثمرت جهوده عن مجلدٍ يحتوي ٧٠٠ صفحة، بعنوان «الحبكات السبع الأساسية». وكما يوحي العنوان، يرى بوكر أن جميع قصص العالم منشؤها تنويعاتٌ على سبع حبكات درامية أساسية. ويتجاوز عالِمُ الأساطير جوزيف كامبيل الجميعَ بزعمه أنه ليس هناك سِوى أسطورةٍ واحدة كبرى، وهي رحلة البطل التي تعتمد عليها كلُّ قصة تقريبًا.

بطبيعة الحال، ليس هناك إجابةٌ محدَّدة وحاسمة. فتصنيف الحبكات الدرامية وتحديد عددها مسألة ذاتية. يعترف توبياس قائلًا: «يمكنك أن تُغلف الحبكة الدرامية بطرق كثيرةٍ شتَّى، والطريقة التي تُغلِّفها بها تقرِّر العددَ الذي ستنتهي إليه.» الفكرة أن موضوعاتٍ معينةً تَبرز مرارًا وتَكرارًا، مستقلةً بعضُها عن بعض، في قصصٍ تُروى

حول العالم وعبر التاريخ المسجَّل. وهذه الأفكار لا تُشكِّل فحسب القصص التي نبتكرها؛ ولكنها، كما سنرى، تعكس الطريقة التي نُفسر ونفهم بها في الأساس العالم من حولنا.

واحدة من الحبكات الدرامية الأساسية التي أشار إليها كريستوفر بوكر تُهمنا أكثر من غيرها. وقد أطلق عليها «الانتصار على الوحش». ويوضح بوكر أن كل قصة انتصار على الوحش تسير على النحو التالي. تبدأ القصة بأن ينموَ إلى علم مجتمعٍ ينعم بالسلم أن ثَمة تهديدًا ما. ويُستدعى بطلٌ لمحاربة قُوى الشر. ويواجه البطلُ الشرَّ وجهًا لوجه، وحينها يتضح أن الشر أكثرُ قوةً بكثير من البطل. ويوشك البطل أن يقع في براثن الوحش. لكن الوحش لديه نقطة ضعف مميتة. وعندما يُفقد الأمل تمامًا، يتمكَّن البطل من استغلال نقطة الضعف هذه ويسحق الوحش. وتنقشع الغمامة ويعود السلام من جديدٍ إلى هذا المجتمع.

وجدنا هذا النمطَ بالفعل في «ملحمة جلجامش» و«بيوولف» و«جوز» وأفلام جيمس بوند. كما وجَدناها في بداية الفصل، في نظرية المؤامرة الواقعية لديفيد أيك. فنظرية المؤامرة الكبرى لأيك هي قصةٌ كلاسيكية من قصص الانتصار على الوحش؛ فهي تتعقب كلَّ التواءٍ وانعطاف، من العصر الذهبي السِّلمي للبشرية وظلال الشرِّ التي تلوح في الأفق، وصولًا إلى المواجهة النهائية الحاسمة والأمل في عودة السلام. إنها ملحمة درامية مستمرة، ونؤدي فيها جميعًا دورَ البطل. وأيك ليس فريدًا من نوعه. فجميع أنماط الفكر المؤامراتي تستند على النماذج الأوَّلية لانتصار الخير على الشر. سوف نتعمَّق أكثر في سيكولوجية الوحوش بعد قليل، لكن هيا نلقِ نظرةً أولًا على مقومات البطل الخيِّر.

مزايا العيوب

كلنا يحبُّ الفائز. فثمة ظاهرةٌ معروفة لعلماء النفس يُطلق عليها «نشوة المجد المنعكس». وفي دراسةٍ كلاسيكية أُجريت عام ١٩٧٣، لاحظ فريقٌ من الباحثين بقيادة روبرت شالديني أنه عندما فازت إحدى فرقِ كرة القدم الجامعية بمباراة في العطلة الأسبوعية، حضر طلابٌ أكثرُ إلى الجامعة في يوم الإثنين في زي الفريق مقارنةً بعدد مَن حضروا عندما خسر الفريق. والأكثر إثارةً للاهتمام، أنه عندما تحدَّث الطلاب عن المباراة التي خسرها الفريق، كانوا يقولون في أغلب الأحيان أشياءَ من قبيل «لقد خسروا»، في حين كانوا يقولون أشياءَ من قبيل «لقد فزنا» عندما فاز الفريق. وظاهرة «نشوة المجد المنعكس» تُفسِّر الكثير من السلوك الغريب بدءًا من رغبتنا في طفولتنا في مصاحبة الأطفال الرائعين، وصولًا إلى ادِّعاء

معرفة المشاهير ورواج السِّلع التجارية الباهظة التكلفة التي تحمل الأسماء التجارية الشهيرة (والسلع المُقلدة الرخيصة). فنحن نُعرف بالصحبة التي نرافقها، وليس هناك الكثيرون من الناس الذين يُحبون أن يُرافقوا الخاسرين. نحن نريد بكل طريقة أن نُرافق الفائزين في الحياة.

لكن إذا كان هناك شخصٌ نُحبه أكثرَ من الفائز الموهوب، فهو الشخص المستضعَف؛ وهو الشخص الذي تجتمع جميع الظروف ضده. وليس هناك مثالٌ أفضل لتوضيح ذلك من قصة العهد القديم عن داود وجالوت. فجالوت كان رجلًا يبلغ من الطول ١٠ أقدام، يرتدي الدروع ويُتقن فن المبارزة بالسيوف، وكان بطل شعب الفلستيين ولم يكن ممكنًا، فيما يبدو، إلحاقُ الهزيمة به. أما داود فكان مراهقًا لديه مِقلاعٌ وحَفنةٌ من الحجارة. ولم تكن هناك فرصٌ لانتصار داود وكان الجميع يعلم ذلك؛ حتى الملك طالوت — الأطولُ قامةً في إسرائيل — أخبره بأنه لا يمكن أن يُحقِّق نصرًا في هذه المعركة. لكن داود لم يتزعزع. فتقدم بثقةٍ نحو ساحة المعركة وأصاب جالوتَ بين عينَيه بحصاة، فقتله في الحال.

داود هو نموذجٌ للمستضعفين. وليس من قبيل المصادفة أنه قد قيل عنه إنه كان الأصغرَ سنًّا بين ثمانيةٍ من الإخوة. وعندما خرجت علينا جيه كي رولينج ببطلها المُستضعف هاري بوتر، ألبسته نظارةً كتذكرة دائمة بضعفه. أما شخصية فرودو باجنز التي ابتكرها جيه آر آر تولكين، فكان أحد أفراد الهوبيت المحبِّين للسلام، وقد وقع في عالمٍ خطير من وحوش الأورك والتنانين. ومن روكي بالبوا إلى «المحرك الصغير الذي يستطيع»؛ فإن بعضَ أكثر الشخصيات المحبوبة التي تتمتع بشعبيةٍ دائمة لا تنقطع هي شخصيات مُستضعفَة، تُجابِه الظروف المعاكسة لها بجُرأة، وتُواجه التحديات التي لا طائل لها بها من خلال الحماس والإصرار.

ولا تقتصر جاذبية الشخصيات المستضعَفة على الأدب الروائي. فعالِم النفس جوزيف فانديلو متخصصٌ في سيكولوجية المستضعَفين. وقبل شهر من أولمبياد صيف ٢٠٠٤، أعدَّ فانديلو وزملاؤه قائمةً بإجمالي عدد الميداليات التي فاز بها عددٌ من البلدان على مدار تاريخ الألعاب الأولمبية؛ حيث حصدت السويد ٥٠٠ ميدالية تقريبًا، وحصلت بلجيكا على ١٤٠ ميدالية، وحصلَت سلوفينيا على ستِّ ميداليات فقط. بعد ذلك سألوا الطلاب الأمريكيِّين أيُّ بلدٍ يحبون أن يفوز بمسابقة سباحة افتراضية. وعندما خُيِّروا بين بلجيكا والسويد، انحاز أغلب الطلاب إلى البلجيكيِّين الأقلِّ قوة. لكن إغراء المستضعَفين يمكن أن يدفعنا إلى تغيير رأينا. فعندما خُيِّر الطلاب بين بلجيكا وسلوفينيا، أصبح البلجيكيون هم

الأكثرَ قوة وأراد معظم المشاركين أن تخسر أمام سلوفينيا الأقل قوة. تشير نيرو بهاريا وزملاؤها إلى أن التغطية التليفزيونية للألعاب الأولمبية غالبًا ما تُسلط الضوء على جوانب الضعف لدى المتنافسين «من الأم العزباء للسبَّاح مايكل فيليبس إلى أبوَيْ شون جونسون اللذَين رهنا منزلهما لدفع أجر دروس الجمباز التي تتلقَّاها ابنتُهما.» وإجمالًا، فإن فانديلو وزملاءه وجدوا أن ثلاثةَ أرباع المشاركين سوف يُساندون المستضعفين في أي مباراة رياضية (على افتراض أنهم ليس لهم مصلحة في فوز فريقٍ على آخر).

هذه القصة ذاتُها التي جعلَتنا نشجِّع لاعبًا رياضيًّا مستضعفًا يمكن أن تُؤثر في الكيفية التي ننفق بها مالنا. فيعلم المسوقون أن تقديم صورةٍ لشركةٍ ما باعتبارها شركةً مُستضعفة تقاوم بجُرأة يمكن أن يُغري المستهلكين بتفضيل منتجها على منتجات الشركات القوية. تشير جيل أفري، وهي محاضِرة في كلية هارفارد للأعمال، إلى أن «شركة صمويل آدمز لصناعة الخمور تُذكرنا إلى أيِّ مدًى هي صغيرة مقارنةً بالشركة العملاقة في المجال أنهايزر بوش؛ بينما تتجنَّب ذكْر إلى أيِّ مدًى هي كبيرة مقارنةً بأغلب صانعي الخمور اليدويِّين.» وبالتأكيد هذه المعلومة صحيحة؛ فقد اعتادت أفري على العمل كمديرٍ للعلامة التِّجارية لدى شركة صمويل آدمز. وبالمثل، تُسارع شركاتٌ مثل أبل وجوجل وهيوليت باكارد على تسليط الضوء على جذورها المتواضعة ونشأتها في ورشة بسيطة، بلا شيء سوى فكرةٍ كبيرةٍ وحماسٍ لجعل تلك الفكرة واقعًا.

يعرف الساسة أن هناك مزايا لأن يُنظَر إليك باعتبارك مستضعفًا أيضًا. ففي دراسةٍ أُجريت عام ٢٠٠٩، أوضح فانديلو أن المرشحين السياسيين غالبًا ما ينزعون إلى التقليل من شأن مزاياهم والإعلان عن عيبهم الظاهر. فقد قال أوباما في المدَّة التي سبقت انتخابات عام ٢٠٠٨: «عندما يكون اسمك باراك أوباما، فأنت دائمًا مستضعَف في السباقات السياسية.» وقد اعتاد استخدامَ التكتيك ذاتِه في المدة التي سبقَت حملة إعادة انتخابه عام ٢٠١٢؛ فعندما سأله أحد المحاورين عما إذا كان المستضعَف حينذاك، لم يتردَّد في أن يقول بحسم من جديد: «بكل تأكيد ... لقد اعتدتُ أن أكون مستضعفًا.» وكان ميت رومني الخَصم الجمهوري لباراك أوباما، لديه الفكرة ذاتُها. فقد قال، أثناء تعثُّرِه في الاستفتاءات: «شيء جيد دائمًا أن يُنظر إليك باعتبارك مستضعفًا، وأن تُقاتل بكلِّ ما أُوتيتَ من قوة.» وكان رومني محقًّا؛ فقد وجد فانديلو أن المرشحين السياسيين يَحوزون على إعجابنا أكثر — ولا نراهم أقلَّ كفاءة — عندما يُصنفون بأنهم مستضعَفون. (وذلك على الرغم من أن هذا لم يُفِد رومني في الفوز على الرئيس أوباما.)

تصنيفُ طرَفٍ أو آخرَ في صراع أو منافسة على أنه المستضعف يمكن حتى أن يُشكِّل الكيفية التي ننظر بها إلى صراعٍ دوليٍّ دامٍ. ففي دراسة أُجريت عام ٢٠٠٧، سأل فانديلو الطلاب عن مشاعرهم حيال إسرائيل وفلسطين. وإضافةً إلى إعطاء الطلاب فكرةً موجزة عن تاريخ الصراع بين الدولتَين، أُعطي الطلاب خريطةً للمنطقة لمساعدتهم في اتخاذ قرارهم. رأى نصفهم خريطة المنطقة التي تضم إسرائيل وفلسطين فقط؛ استحوذت إسرائيل على الخريطة بأكملها، بينما لم يشغَل الفلسطينيون سوى قطاعِ غزة والضفة الغربية. أما النصف الآخر؛ فقد رأى خريطةً للشرق الأوسط ككلٍّ، بحيث بدَت إسرائيل قَزمة مقارنةً بالدول المحيطة. والفارق في التأطير هنا، كان له تأثيرٌ كبير. فعندما بدَت فلسطين مستضعفة — فقط فيما يتعلَّق بالنطاق الجغرافي — انحاز أكثرُ من نصف الطلاب بقليلٍ إلى الفلسطينيين. وعندما بدَت إسرائيل هي المستضعَفة، قال أكثرُ من ثلاثة أرباع الطلاب إنهم يدعمون الإسرائيليين.

نحن نرى المستضعفين يبذلون جهودًا أكبرَ ويتمتعون بروح المثابرة والعزيمة والإصرار. فوفقًا لدراسةٍ شملَت مرشَّحين لوظائفَ وهمية، رأينا حتى أن المتقدمين المستضعفين للوظيفة كانوا أكثرَ جاذبية من الناحية الجسمانية مقارنة بالمتقدمين الأقوياء. وحبُّنا للمستضعفين عميقُ الجذور على ما يبدو. ففي دراسةٍ أُجرِيَت عام ٢٠٠٨، أوضح عالِم النفس سكوت أليسون وزملاؤه إلى أيِّ مدًى هذا الحب عميق الجذور. فقد ابتكر الباحثون فيديو رسوم متحركة بسيط مدته ١٥ ثانية، يعرض دائرتَين تتحرَّكان على خطٍّ أفقي به حدبة عند المنتصف تتخذ شكلَ تلَّة. الدائرة ذات اللون الرمادي الفاتح — لنُطلق عليها الدائرة الأقوى — تتحرَّك من اليسار إلى اليمين بإيقاعٍ ثابت. أما الدائرة ذات اللون الرمادي الداكن — لنُطلق عليها الدائرة الأضعف — فهي تتباطأ على ما يبدو عندما تُواجه التلة، كما لو كانت تُناضل من أجل اجتيازها. هذا الفارق الصغير الوحيد كان كافيًا لإثارة التعاطف مع المستضعفين لدى المشاهدين؛ فعندما سُئلوا عن مشاعرهم إزاء كلِّ دائرة، قالوا إنهم أحبوا الدائرة الأضعف أكثرَ بكثيرٍ من الدائرة الأقوى.

إجراء تعديلٍ بسيط على الفيديو يحسم الأمر. ففي النسخة المعدَّلة، لا تُناضل الدائرة الأضعف فحسب، لكن الدائرة الأقوى تعوق حركتها كذلك؛ فالدائرة ذات اللون الرمادي الفاتح تتحرَّك بسرعة مرورًا بالدائرةِ ذاتِ اللون الرمادي الداكن، وتصل إلى منتصف التلة، ثم ترتدُّ وتضرب النقطة الأضعف البريئة، دافعةً إياها أسفل التلَّة. هذا الفيديو حصدَ أقوى تفاعلٍ على الإطلاق. فكتب أليسون يقول إن المشاهدين له «غضبوا على ما

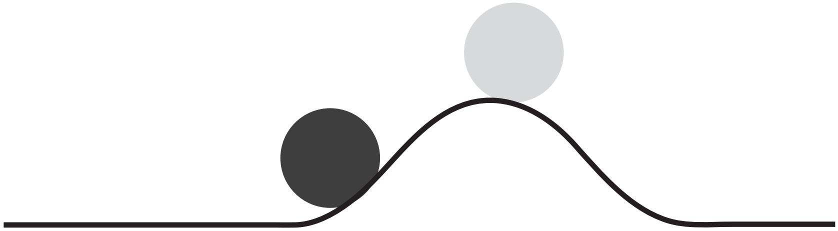

يبدو عندما شاهدوا الدائرة الأضعف وهي تُضار.» وبعد استكمال الدراسة، أبلغونا أن مثل هذا الفعل العدواني الموجَّه للدائرة الأضعف كان غيرَ لائق تمامًا.

دائرتا أليسون كشفتا مفتاح لُغز النزوع إلى دور المستضعف الذي يستجلب التعاطف؛ أنت بحاجةٍ إلى أن تكون في ظرفٍ صعب، وهذا الظرف الصعب يجب أن ينطويَ على شيء من اللاعدالة؛ إما نتيجةً لعدم وجودِ مواردَ أو نتيجةً لأفعالٍ خبيثة من جانب خَصم عدواني. عندما نشعر بأن الظرف الصعب الذي يُجابهُه شخصٌ ما فرضه ذاتيًّا على نفسه — أو بعبارة أخرى: عندما يكون لديه جميعُ الموارد اللازمة للنجاح ومع ذلك يفشل — نكره هذا الشخص أكثرَ من كراهيتنا للخاسر العادي. لكن الظرف الصعب الذي ينطوي على شيء من اللاعدالة يستثير مشاعرنا. فنحن نريد أن نرى الأقوياء وهم يُهزَمون، ونريد أن نرى المستضعفين وهم ينتصرون؛ نحن نريد أن نرى المستضعفين الذين يتعرَّضون لظلمٍ وهم ينتصرون. وفيما يتعلق بنظريات المؤامرة، الظرف المجحِف هو المتوقَّع دومًا.

المعركة معركة استئساد

بالعودة إلى أندرو ويكفيلد في الفصل الثاني، نجد أن النتائج التي توصَّل إليها والتي تربط بين التطعيم الثلاثي والتوحُّد قد فُنِّدت، وأن رخصته الطبية قد سُحبت. لكن لم تكن هذه المرةَ الأخيرة التي سمع فيها العالم بويكفيلد. فقد أصبح الرجل في أعين داعميه بطلًا مستضعفًا، يحارب بشجاعة منظومةً فاسدة قوية أرادت تدميره. كتب مؤلِّفو أحد الكتب المناهضة للتطعيم، وهو كتاب بعنوان «جائحة اللقاحات» يقولون: «إذا لم يكن الأمر واضحًا بالنِّسبة إليك حتى الآن، فدعني أصارحك: تغطية سجال اللقاحات/التوحُّد

التي تشهدها في وسائل الإعلام ليس سجالًا علميًّا أو استقصاءً جادًّا. إنما هو معركة استئساد، وتلعب شركات الأدوية دورًا قذرًا فيها.»

ففي مواجهة صناعة الدواء الضخمة، التي تدعمها الحكومة وتمتلك رأس مال يبلغ مليارات الدولارات، يُقدَّم ويكفيلد باعتباره شعاعًا من الضوء يُنير الظلام أو بطلًا مستضعفًا مغوارًا يقف بنُبل للذَّود عن الآباء القلقين. وقد كتبَت جيني مكارثي، واصفةً أبحاث ويكفيلد، في صحيفة «هافينجتون بوست» تقول: «لقد فعل الدكتور ويكفيلد شيئًا أتمنَّى أن يفعله جميع الأطباء: لقد أنصتَ إلى الآباء ونقل ما قالوه ... منذ متى كان تَكرار كلمات الآباء والتوصيةُ بمزيد من الاستقصاء يُعد جريمةً؟ كما علمت، الإجابة هي أن ذلك يحدث متى شكَّك أيُّ شخص في أمان اللقاحات.» فبالنِّسبة إلى داعميه، نزاهة ويكفيلد هي الظرف المجحِف الذي يُجابهه؛ فهو يُحارب لمجردِ أن لديه شجاعةَ الاهتمام بالأمر. وقد استمر ويكفيلد نفسُه في الدفاع عن موقفه بشأن التوحُّد واللقاحات؛ ليحوز على جائزتين وليس جائزة واحدة من جانب معجَبيه تقديرًا لشجاعته في العلم.

ليس ويكفيلد الوحيد في أن يُصوَّر على أنه مستضعفٌ شجاع يواجه منظومةً فاسدة. فمُنكرو مرض الإيدز يرون بيتر دوزبيرج عالِمًا متمردًا. قدَّم دوزبيرج إسهاماتٍ مهمة في أبحاث السرطان خلال مسيرته المهنية كاختصاصيٍّ في مجال البيولوجيا الجزيئية، بل إنه حتى جرى انتخابه لعضوية الأكاديمية الوطنية للعلوم الرفيعة المستوى. إلا أنه في أواخر ثمانينيَّات القرن العشرين، صرف دوزبيرج اهتمامه إلى مرض الإيدز، مدعيًا أن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب ليس ضارًّا في حد ذاته. وقال إن مرض الإيدز يُسببه استخدام العقاقير الترفيهية (لا سيما تلك التي يستخدمها مثليُّو الجنس)، أو حتى العلاجات المضادة للفيروسات الرجعية. وتُصوِّر سيرةٌ عن هذا الرجل منشورةٌ على موقع دوزبيرج الإلكتروني على أنه جاليليو العصر الحديث: «نتائج البروفسير دوزبيرج أصبحت شوكةً في حلْق المؤسسة الطبِّية وشركات الأدوية منذ عام ١٩٨٧. لكن بدلًا من الانخراط في سجال علمي، كانت الاستجابة الوحيدة هي قطعَ التمويل اللازم لإجراء المزيد من الاستقصاء والتحري لفرضية البروفسير دوزبيرج.»

أما حركة حقيقة هجمات الحادي عشر من سبتمبر فقد اعتبرت ستيفن إي جونز عالِمًا متمردًا. ففي عام ٢٠٠٥، بدأ جونز، الذي كان قد أصبح حينها أستاذًا بجامعة بريجام يونج، يطرح فكرته القائلة بأن انهيار برجَي مركز التجارة العالمي كان ناتجًا عن تدميرٍ مُدبَّر. وعندما نأَت الجامعة بنفسها عن تعليقات جونز، شعر مؤيِّدوه بنوعٍ

من التآمر ضده؛ إذ أشاروا إلى أن «إدارة بوش لعبت دورًا قذرًا في إجبار جامعة بريجام يونج على إخراس البروفيسور.»

أما المهتمون باغتيال كينيدي فقد رأوا جيم جاريسون محاميًا مستضعفًا. ففي أواخر ستينيَّات القرن العشرين، أصبح جاريسون على قناعةٍ بأن كينيدي قُتل بمؤامرةٍ دبَّرَتها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وبالرغم من الحقيقة القائلة بأن مزاعم جاريسون جرى رفضها من قِبَل المحكمة، قدَّم أوليفر ستون، في فيلمه «جون إف كينيدي» عام ١٩٩١، جاريسون باعتباره بطلًا مستضعفًا ضحَّى بكل شيء في سبيل البحث عن الحقيقة. وقد جاء على لسان جاريسون في هذا الفيلم: «قول الحقيقة يمكن أن يكون شيئًا مفزعًا ومخيفًا في بعض الأحيان.» وهو ما يوحي بكونه مستضعفًا.

أفضلُ نظرياتِ المؤامرة تنطوي على جميع الخصائص الظاهرية لقصةِ استضعافٍ كلاسيكية. فالعدو هائلٌ ومروع. فبدءًا من حكماء صِهيون إلى النظام العالمي الجديد، ومن المجمع الصناعي العسكري إلى المؤامرة الكبرى لشركات الدواء، غالبًا ما تؤكد الأسماءُ التي تُعطى للمتآمرين على قوَّتهم الجبارة ونفوذهم الكبير المزعوم. لكن مثل كل شرير، يكون لكل مؤامرة نقطةُ ضعف قاتلة؛ فإذا ما أُميط اللثام عن الخطط المدبَّرة، يُصبح العدو عاجزًا عديمَ الحيلة.

والدافع وراء المواجهة دافعٌ نبيل. فيشير كريستوفر بوكر إلى أن الأبطال النموذجيِّين البدائيين لم يتحركوا من أجل مصالحهم الشخصية، ولكنهم تحرَّكوا دفاعًا عن الآخرين. «فداود تحدَّى جالوت لأن العملاق كان يُهدِّد بلده إسرائيل؛ وأشرار جيمس بوند يُهدِّدون إنجلترا، والغربَ والبشرية جمعاء؛ ودارث فيدر في «حرب النجوم» كان يُهدِّد بفرض طغيانه على الكون بأكمله.» ووَفقًا لنظريات المؤامرة، فإن المؤامرة تهديدٌ لحرية ورفاهية الجنس البشري بأكملِه.

ويبدو غريبًا، من الوهلة الأولى، أن يركنَ شخصٌ ما إلى موقف الضَّعف. لكن كما رأينا، ثَمة إيجابيات لكونك ضعيفًا. فبدون نظريات المؤامرة، أشخاص مثل ويكفيلد ودوزبيرج وجونز وجاريسون كانوا سيُصبحون مخطئين. لكن إذا كانت هناك حملةٌ مستمرة لتشويه سمعتهم والتشكيك في نتائجهم، فإنهم يُصبحون أبطالًا شجعانًا منكِرين لذاتهم، يوسِّعون نطاق العِلم بمحاربةِ عدوٍّ قوي خبيث نيابةً عن عموم الناس الذين لا يعلمون. غير أن نظريات المؤامرة تُقدِّم ما هو أكثرُ من صنع أبطالٍ من عددٍ من

المتمردين، فهي تسعى لأن تصنع منا جميعًا أبطالًا مستضعفين. فنظرية المؤامرة دعوةٌ إلى الانضمام إلى أقليةٍ مثقفة وواعية وإن كانت مُحاصَرة؛ قلة مُصطَفاة تصدع بالحق في شجاعةٍ وإنكارٍ للذات أمام قُوى الباطل.

ويشير جوزيف فانديلو إلى أن فَهْمنا للمستضعفين «يتشكَّل من خلال قصص نموذجية بدائية ملهِمة لتحدي المستحيل.» ففي العالم الواقعي، من المستبعَد أن ينتصر المستضعفون. لكن في القصص التي نرويها دائمًا ما يفوز المستضعفون، فالخير دائمًا ينتصر على الشر. وللحديث عن الشر ...

خرافة الشر المحض

يأتي الأشرار في جميع الأشكال والأحجام. فالبعض منهم يكون هائلًا ومروعًا حرفيًّا، كما الحال في أسماك القرش المذهلة المتعطشة للدماء في فيلم «جوز» وخومبابا غير القابل للتصديق من الناحية التشريحية. والبعض الآخَر منهم يأتون في صورة بشر — أو كانوا بشرًا في وقتٍ ما — مثل الهيكل الغريب لشخصٍ سابقٍ في سلسلة «هاري بوتر» ونورمان بيتس — البريء ظاهريًّا — في فيلم «مضطرب العقل» (سايكو) لألفريد هيتشكوك. إلا أنه بالرغم من الاختلافات الظاهرية، فإن أفضل الشخصيات الشريرة حِيكَت من النسيجِ نفسِه. فوَفقًا لكريستوفر بوكر، تُمثِّل الوحوش النموذجية الأولية كلَّ شيء في الطبيعة البشرية الملتوية والناقصة بدرجةٍ ما أو بأخرى؛ العصارة المصفاة لأسوأ عناصر النفس البشرية. فهذه الوحوش يدفعها الجشع وحده، وهي أنانية وقاسية وماكرة ومتغطرسة ولا تعرف الرحمة. ومع ذلك، برغم كل خبثها وقسوتها، فإن أفضل الشخصيات الشريرة لا تُثير مشاعر الاشمئزاز فحسب، وإنما تثير أيضًا مشاعر الإعجاب والفضول بل وحتى الاستمتاع. فالشر لديه على ما يبدو إغراءاتٌ متناقضة.

أَلَّف اختصاصيٌّ علم نفس الاجتماع روي باومايستر كتابًا عن الشر. وأسماه «الشر: في أعماق عنف البشر وقسوتهم». كما أَلَّف مقالةً عن سيكولوجية بعض أكثر الشخصيات شرًّا التي جرى تخيُّلها: الشخصيات الشريرة الخارقة التي نجدها في الكتب المصوَّرة. فيوضح باومايستر أن الشخصيات الشريرة في الكتب المصورة تقترف في سعادةٍ أفعالًا جائرةً ذاتَ تأثير عالَمي أو حتى كوني بصفة أسبوعية. ومع ذلك، فإن الشخصياتِ الشريرة الخارقةَ تُصنَّف ضمن قائمةِ أكثر الشخصيات شعبيةً في الأدب الروائي. في واقع الأمر، يبدو أن شعبية الشرير تتناسب تناسبًا طرديًّا مع عُمق خسِّته. فقائمة موقع

«آي جي إن دوت كوم» IGN.com التي تُقيِّم أفضل ١٠٠ شخصية شريرة في الكتب المصورة على الإطلاق أعطَت المراتب الأولى لماجنيتو، ألد أعداء الرجال إكس، والجوكر، عدو الرجل الوطواط؛ وهما شريران لا يعرفان الرحمة، ويفخران بأنهما الأعلى حصدًا للأرواح بين جميع عوالمِ الكتب المصورة المختلفة.

يقول باومايستر إن حبَّنا للأشرار الخارقين الوهميِّين شيء محيِّر بعضَ الشيء. فبوجهٍ عام، نحن لسنا مغرَمين بالأشخاص العديمي الأخلاق، كما أننا لا نسعد بالسماع عن أفعالهم الشائنة أخلاقيًّا. ويُمثِّل أدولف هتلر وبول بوت المكافئَ الواقعي للشخصيات الشريرة الخارقة؛ فهما شخصيتان تحظَيان باحتقارٍ وازدراء من جانب عموم الناس تقريبًا. إذن لماذا نسعد بقصص عن المضطرِبين نفسيًّا أو القتَلة العشوائيين؟ يتساءل باومايستر، لماذا ينتهي الحال بالأشرار الخارقين على ملصقاتٍ تُعلَّق على جدران غرف النوم وعلب الغداء الخاصة بالأطفال؟ ويرى أن الإجابة تكمن في شغفنا بإصدارِ أحكامٍ عن شخصية الآخرين، وردَّة فعلنا إزاء المنحرفين أخلاقيًّا.

تخيَّلْ أننا — أنا وأنت — جالسان في مختبر عالِم نفسٍ ونجد أمامنا عشْرَ ورقات دولارية جديدة على المنضدة أمامنا. يُمكننا أخذ النقود، لكن تلك هي المعضلة: لقد أصبحتُ مسئولًا عن اتخاذ قرارٍ بشأن طريقة تقسيم النقود. وكلُّ ما ستفعله أنت أن تُقرِّر ما إذا كنت تريد قَبول عرضي أم لا. فإذا رفضته، سيُغادر كلٌّ منا خاليَ الوفاض. يُطلق علماء النفس على هذا الإجراء لعبة الإنذار. في عالم مثالي عادل، سأعرض عليك خمسة دولارات وأحتفظ لنفسي بخمسة. والأرجح أنك ستقبل عرضي الودي، وسيغادر كلٌّ منا وبحوزته خمسة دولارات. والأمر المشجِّع أن هذه هي النتيجة الأكثر شيوعًا؛ فعند إتاحة الفرصة لهم، أغلب الناس يعرضون قسمةً عادلة. لكن هَبْ أنني عرَضت عليك دولارًا واحدًا فقط. إذا كنت عقلانيًّا، فالأرجح أنك ستقبل العرض؛ فبرغم كل شيء، سوف تُضيف دولارًا إلى ما بحوزتِك من مال. لكنني أراهن أن العرض لن يكون جذابًا. ففكرة احتفاظي لنفسي بتسعة دولارات، تاركًا إياك بدولارٍ واحد فقط، سوف تثير حفيظتك. فربما ترفض العرض، مضحيًا بدولارك الوحيد حتى تمنعَني من خِداعك. إذا كان هذا قرارك، فلستَ وحدك. فنصف المشاركين يرفضون العرض إذا كان بعيدًا للغاية عن القسمة العادلة.

التخلِّي عن دولارٍ لمعاقبة لاعب جشعٍ في لعبة الإنذار قد يُعدُّ انحرافًا عن العقلانية الخالصة، لكنه منطقيٌّ في عالمٍ يكون فيه إطلاق العِنان للمخادعين ليزدهروا قد يُسبب متاعبَ للجميع. فنحن كنوعٍ اجتماعي، يعتمد بقاؤنا على التعاون مع الآخرين دون أن

نكون موضعَ استغلال؛ ومن ثَم فإن الانتقاء الطبيعيَّ ضمِن لنا أن نكون قادرين على التعامل مع خداع الآخرين. فكما تُظهر لعبة الإنذار، نحن نهتمُّ بإدانة ومعاقبة مَن يسيئون معاملتنا، حتى وإن كنا سنبذل تضحيةً بسيطة في سبيل فرض العدالة. فكوننا عُرضة للظلم لا يجعلنا نغضب فحَسْب، بل يؤذينا كذلك. عندما يلعب الناس هذه اللعبة داخل أجهزة تصويرٍ دماغي، تنشط أجزاء من الدِّماغ لها علاقة بالاستمتاع والمكافأة عندما يتلقَّون عرضًا عادلًا، في حين أن مناطقَ مرتبطةً بالألم والاغتمام والاشمئزاز تنشط استجابةً لعروضٍ غير عادلة.

حتى عندما لا تُساء معاملتنا، دائمًا ما نترقَّب أي دلائل أو أمارات على مدى الالتزام الأخلاقي لدى الآخرين، مستخدمين أيَّ معلومات متاحة لدينا. وعندما نكون بين الآخرين، نرصد باستمرار سلوكهم، حتى تعبيرات وجوههم السريعة، بحثًا عن دلائل على شخصيتهم. وعندما يغيب أحدهم، ننخرطُ في القيل والقال عنه. وفقًا لعالم النفس روبين دانبار، فإن إحدى الوظائف الأساسية للقيل والقال هي تحذيرُ كلٍّ منا الآخرَ بشأن خداعات محتملة، وأحيانًا يُخصَّص ثلثا المحادثة أو ما شابه للقيل والقال عن الآخرين. وفي اللحظة التي نلتقي فيها بشخصٍ غريب، نبدأ في الحكم عليه، والسِّمة التي نُقدرها قبل أي سمة أخرى هي مدى موثوقيةِ هذا الشخص.

وإحدى النتائج التي تترتبُ على بِنيتنا الأخلاقية هي أننا نستمتع بممارسة ملَكاتنا الأخلاقية؛ حتى مع الأشرار غير الحقيقيين. وفي واقع الأمر، يكون هذا بالأخص مع الأشرار غيرِ الحقيقيين. فيرى باومايستر أن الرَّواج الدائم لقصص الانتصار على الوحوش، يعود إلى وضوحها الأخلاقي. ففي الأدب الروائي الرائج، لا يمكن أن تُخطئ عينٌ الشخصيةَ الشريرة. وكما لو أن أفعالهم الشائنة ليست واضحةً بما فيه الكفاية، كثيرًا ما يعطي الكُتَّاب وصانعو الأفلام جماهيرَهم وسائلَ مساعدة عن طريق تقديمِ مفاتيحَ حاسمة للطبيعة الشريرة للشخصية. فنجد أن الأشرار في ميلودراما الحقبة الصامتة كان لديهم ولعٌ ببَرْم شواربهم في سعادةٍ متى نجحت خُطتهم الخبيثة، في حين نجد أن أشرار أفلام الويسترن إسباجيتي (التي تدور أحداثها في الغرب الأمريكي) كانوا يرتدون قبَّعات سوداء في مقابل القبعة البيضاء التي يرتديها البطل. ويتخذ أشرار الكتب المصورة هذا المنحى ليصلوا به إلى طرَفِه المنطقي؛ فكثيرًا ما يرتدي الشرير الخارق النمطيُّ قناعًا معدنيًّا، ويُشيع عن نفسه اسمًا من قَبيل «دكتور دوم» أو يكون لديه تشوُّه جسدي كي تكتمل

خسته الأخلاقية. وتعطينا قصصُ الانتصار على الوحوش فرصةً للانخراط في أحكامٍ أخلاقية زائفة سهلة، لنسخرَ من الأشرار الواضحين ونهتف للأبطال الواضحين.

يقول الناقد الأدبي ليونيل تريلينج إن هذه الأنواعَ من الشخصيات المحفوظة التي كانت عنصرًا رئيسًا في الأدب والمسرح وصولًا إلى الحِقبة الفيكتورية، كانت مفصولةً في الأساس عن الأدبِ الرِّوائي «المحترم» في أوائل القرن العشرين. فالمؤلفون الجادُّون بحثوا عن الواقعية، وهذه الشخصيات الشريرة المحفوظة ليس لها سندٌ كبير في الواقع. يوضح تريلينج أن «إظهار الناس في صورةِ خليطٍ من الخير والشر وإمكانية تفسير الكثير من الشر استنادًا إلى تأثير الظروف، أصبح مَذهبًا راسخًا.» غير أنه في حينِ أن الكُتَّاب الذين يسعَون وراء الواقعية يتجنَّبون في أغلب الأحيان الشخصيات الكرتونية الشريرة، لا يزال الجمهور على اتساعه يعشق الشخصياتِ الشريرةَ الجيدة. فكلٌّ من الأفلام العشرة الأكثر شعبية في عام ٢٠١٤ كان به شخصية شريرة من نوعٍ ما أو آخر؛ وخمسٌ من تلك الشخصيات كانت شخصياتٍ مُستقاةً من الكتب المصورة بشيء من التعديل. وفي عام ٢٠٠٨، أشاد النقاد بشخصية الجوكر التي أدَّاها الممثل هيث ليدجر في فيلم «ذا دارك نايت» (فارس الظلام) وعُدَّ الفيلم بسببها واحدًا من أكثر الأفلام شعبيةً على الإطلاق.

وشغَفُنا غيرُ المنقطع على ما يبدو لقصصٍ بها شخصيات شريرة خبيثة على نحوٍ غيرِ معقول يُوحي بأنه حتى على الرغم من أنها تنحرف عن الواقع، تتوافق الشخصيات الشريرة النمطية بطريقةٍ ما مهمة مع الكيفية التي نرى بها العالم. فتفكيرنا خاضعٌ لما يُطلِق عليه باومايستر «خرافة الشر المحض». فعندما نفعل أشياءَ سيئة، فإننا نُجيد إضفاء الطابع العقلاني على سلوكنا معتبِرين إياه مجردَ زلة مؤقتة أو استجابة منطقية ومبررة للظروف. أما عندما يفعل الآخرون أشياءَ سيئة، فإننا نُفسِّر ذلك بأنهم أشخاصٌ سيئون حتى النخاع؛ فنحن نفترض أن الأشخاص الذين يقترفون أفعالًا شريرة مدفوعون في الأساس بالساديَّة والخبث والحقد، ويُلحقون الأذى بغيرهم لمجرد أنهم يستمتعون بفعل ذلك، في حين أن ضحاياهم أبرياءُ تمامًا. والنتيجة هي أننا يُصبح لدينا — مثل سانتا كلوز — ميلٌ قهري لا يُقاوَم إلى تصنيف الناس إلى قائمتَين لا ثالث لهما: الأخيار والأشرار، القديسون والمذنبون، الأشقياء واللطفاء.

ويتتبَّع باومايستر خرافة الشر المحض ليس فقط في الكتب المصورة للأطفال، ولكن أيضًا في القصص التي نحكيها لتبرير حياتنا اليومية. فالأخبار الليلية غالبًا ما تُركز على قصصٍ عن هجمات جائرة على أبرياءَ غافلين. ففي أعقاب حادثِ إطلاق النار في

مدرسة كولومباين الثانوية، نشرَت مجلة «تايم» على غلافها صورتَين باسمتين للشخصين المتورطين في الحادث، ووضعَت عُنوانًا رئيسًا يقول «الوحوش إلى الجوار». وقد لعب الرئيس جورج دبليو بوش دورًا في ترسيخ الخرافة عندما قال إن الإرهابيين الذين ارتكبوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر دفعتهم الكراهية الخالصة «لحريتنا»، مُضيفًا أن «هؤلاء الإرهابيين لا يقتلون من أجل إزهاق أرواحٍ فحسب، بل من أجل زعزعة أسلوب حياة والقضاء عليه.»

الواقع معقَّد. فمرتكبو الشرور نادرًا ما تدفعهم السادية المحضة والضحايا ليسوا دائمًا أبرياء تمامًا. فالعنف كثيرًا ما ينجم عن الاستفزاز المتبادَل والعدائية المتصاعدة. والأفعال الشنيعة كثيرًا ما يرتكبها أشخاصٌ عاديون يعتقدون أنهم على صواب. غير أننا، في خِضم خرافة الشرِّ المحض، نلوي عنق الواقع، بكل ظلاله الرمادية غير المتناهية، ليصير رسمًا كاريكاتوريًّا باللونين الأبيض والأسود للخير الذي لا يمكن التشكُّك فيه، في مقابل الشر الذي لا يُمكن تبريره. يقول باومايستر: «خرافة الشر المحض تُصوِّر القُوى الدخيلة الخبيثة وهي تُريد أن تنال من عالم الأبرياء الفضلاء ذَوي النوايا الحسنة.» ويُتابع قائلًا: «غالبًا ما ينقسم العالم إلى إيَّانا في مواجهتهم، وفي أغلب الأحيان يُثبت أنهم هم الأشرار.»

وكما الحال مع أي نقيصة نفسية، كلٌّ منا ينساق وراء خرافة الشرِّ المحض بدرجةٍ ما أو بأخرى. ففي عام ٢٠١١، أجرى عالِما النفس إريك أوليفر وتوماس وود استبيانًا شمل ١٠٠٠ أمريكي. وكان من بين الأسئلة التي تمحورَت حول نظريات المؤامرة المختلفة، عبارةٌ مختصَرة عن الطبيعة الجوهرية للعمَلية السياسية: «السياسة في نهاية المطاف صراعٌ بين الخير والشر.» وقد وافق أكثرُ من ثلث المشاركين على هذا الرأي. واتضح أنه كلَّما ازدادَت درجة موافقة الشخص، زادت احتمالية اقتناعه بنظريات المؤامرة. فرؤية العالم التي لا تعرف سوى اللونَين الأبيض والأسود تقدِّم نسيجًا مثاليًّا للتفكير المؤامراتي.

يوضح جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت أن نظريات المؤامرة بعيدةٌ عن كونها طريقةً غريبة تمامًا لرؤية العالم. فهما يرَيان أن المؤامراتية ليست مختلفةً كلَّ هذا الاختلاف عن الخطاب السياسي اليومي؛ كلُّ ما هنالك أنها مكثَّفة أكثر ولا تنطوي على أيِّ فوارق دقيقة. «في حين أن الساسة العاديِّين يُبرزون المشكلات ويقترحون الحلول ويَدْعون إلى تضافر الجهود والتحرك سريعًا، يُسلط أصحابُ نظريات المؤامرة الضوءَ على الأوضاع البالغةِ السوء وينادون بسياساتٍ ضخمة ويدعون إلى التحرك الآن.» ثَمة مشكلات حقيقية في هذا

العالم، فحُريتنا تصبح مهددةً أحيانًا، والبيروقراطيون يمكن أن يكونوا ممن يسعَون وراء مصالحهم الشخصية. ومن خلال مصفاة المؤامراتية، تتخذ هذه المشكلاتُ شكلَ صراع ميلودرامي بين الخير والشر، مستقاةً بشكل مباشر من صفحات الكتب المصورة. فبدءًا من زعم جون روبينسون أن المتنوِّرين كانوا يسعَون إلى الإطاحة بجميع الحكومات في أوروبا، وصولًا إلى نظريات المؤامرة الحديثة عن البيروقراطيين المضطربين نفسيًّا الذين لا يُبالون بقتل الآلاف من بني جِلدتهم، فإن أفضل نظريات المؤامرة هي قصصٌ عن أشرارٍ مهاويس، لديهم أكثرُ الدوافع غموضًا، ويقترفون بعشوائية شرورًا مروِّعة ضد أشخاصٍ أبرياء حسَني النوايا.

ما الدنيا إلا مسرح كبير

في مقالةٍ نُشرت عام ١٩٨٧ حول المؤامراتية، قارن عالِمُ النفس سيرج موسكوفيتشي بين العالم في مخيلةِ أصحاب نظريات المؤامرة والعرض المسرحي. وفي المشهد الافتتاحي، نرى المجتمعَ في حالةٍ من البراءة والاستقرار. ثم تدخل مجموعةٌ أخرى من الشخصيات، جالبةً معها الصراع والمكيدة. وكما الحال مع الممثلين في مسرحيةٍ ما، يتبع هؤلاء الأشرار نصًّا كُتب لهم مسبقًا، من قِبَل منتجٍ خبيث شرير يُحرك خيوط الممثِّلين، ولكنه يبقى دائمًا خلف الكواليس. ويستنتج موسكوفيتشي أن «تمثيل هذا المشهد في الواقع سيكون نوعًا من السخف.» لكنه يستدرك قائلًا: «هذا ليس سخيفًا على خشبة المسرح. فهو عرضٌ اختُزل إلى عناصره الأساسية؛ إنه المواجهة بين القُوى الأساسية التي لا يمكن أن تنتهيَ سوى بانتصارٍ حاسم لطرَفٍ على طرف آخر.» فوفقًا لنظريات المؤامرة، «يتم تجسيد الثنائية، ويجري تمثيلها على مسرح المجتمع» في هذا العالم.

يُقابَل مستمعو العرضِ الإذاعيِّ اليومي الموجَّه مؤامراتيًّا الذي يُقدمه ألكس جونز بالمقطوعة الموسيقية «المسيرة الإمبراطورية» (ذا إمبريال مارش) من فيلم «ستار وورز»؛ وهي المقطوعة الموسيقية التي تُصاحب ظهور الشرير دارث فيدر على الشاشة. من آنٍ إلى آخَر، عند العودة من الإعلانات التجارية، يُطمئن مقدم البرنامج المتأنق في عباراته المستمِعين قائلًا: «ما زلنا نُواصل المسيرة، الإمبراطورية ماضية قُدمًا.» عندما كنت أستمع إليه في ظهيرة أحدِ أيام الجمعة حيث كنت أُجري أبحاثي بشأن هذا الفصل، وجدتُ جونز وهو يتفكَّر في أوجُه التشابه بين فهمه للعالم والمؤامرة التي عُرضت في فيلمٍ حديثٍ لبطلٍ خارقٍ. قال جونز: «إذا شاهدتَ فيلمًا على غرار «كابتن أمريكا»، فسيبدو لك الأمر كما لو

أنَّني شاركت في كتابه هذا الفيلم.» وتابع قائلًا: «فالأمر لا يتعلَّق حتى بكونهم يُقلدونني، وإنما السبب أني أفهم آلية عمل المنظومة.»

خلال محاكمة تيموثي مكفاي، مفجِّر مدينة أوكلاهوما، أوضح أحد المتواطئين معه في الجريمة كيف أن مكفاي كان قد برَّر قتل سكرتارية وموظَّفي استقبال وموظفين حكوميِّين لم يكن لهم علاقةٌ بحصار واكو. «لقد شرح لي أنه اعتبر جميع هؤلاء الناسِ كما لو كانوا جنود الإمبراطورية في فيلم «ستار وورز». فربما كان كلٌّ منهم بريئًا على حِدة؛ لكن نظرًا إلى كونهم جزءًا من إمبراطورية الشر؛ فهم مذنبون بالتبعية.»

كتب عالِم النفس دان ماكآدمز يقول: «نحن جميعًا رُواة قصصٍ.» فالقصص هي الآلية التي تعمل بها عقولنا. إنها العدسة التي نفهم من خلالها العالَم ونُدرك مكاننا فيه. وهي تُتيح لنا تنظيمَ الواقع الفوضوي ليصيرَ متماسكًا ذا معنًى. والقصص تتغلغلُ في كل شيء. فحتى المساعي التي تبدو موضوعيةً مثل العلم والتاريخ هما صورتان من صور الأسلوب القصصي. تقول مولي باترسون وكريستن مونرو اختصاصيَّتا علم النفس السياسي: «ليس هناك تاريخٌ دون إحساسٍ ضِمني بأبطال وخصوم، ليس هناك مجموعةُ حقائق دون تفسيرات لما هو مهمٌّ أو ذو صلةٍ وما هو غير مهم أو غير ذي صلة.»

القصص التي نستمع إليها يُمكن أن تُؤثر في معتقداتنا وسلوكنا. فعندما نريد أن تُقنع أحدهم، يمكن أن تُصبح القصةُ أكثرَ تأثيرًا للغاية من مجرد سرد قائمةٍ بالنقاط المهمة. فقد أثبتَت عالمة النفس ميلاني جرين وزملاؤها أن القصص تُغرينا، وتستطيع الالتفاف حول ملَكاتنا النقدية. فعندما نعلم أن شخصًا ما يُحاول إقناعنا، نُدقِّق على الأرجح في الحجج التي يسوقها، لكن القصص يمكن أن تُشكِّل معتقداتنا حتى على المستوى اللاشعوري. وكلما كانت القصة أفضل، زاد استغراقنا فيها، وكلما زاد استغراقنا فيها، زاد انفتاحنا وأصبح إقناعنا أسهل.

وفيما يتعلَّق بالقصص، كلمة «أفضل» هنا تعني التوافق مع النماذج الأولية القديمة المحفورة في أذهاننا والراسخة في عقولنا. وإذا ما أخذنا ذلك بعين الاعتبار، فليس هناك ما يُثير الدهشة من أن القصص عادةً ما تتطوَّر عن إعادة الحكي لتُصبح أكثرَ توافقًا مع توقعاتنا. فعلى سبيل المثال، القصة التي أَلِفَتها أجيال من التلاميذ الأمريكيين، وهي قصة اكتشاف كريستوفر كولومبوس للأمريكيتين قد طُوِّرت وزُخرفت بمرور الوقت لتُصور بطولات كولومبوس (كانت الرحلة شاقة؛ فقد تمرَّد أفراد الطاقم وكادوا يُلقون

بكولومبوس في الماء من على ظهر السفينة، وقد مات بلا مالٍ)، مع حذف بعض التفاصيلِ الأقلِّ جاذبية وإثارة (مثل إسهامه في الإبادة العرقية والعبودية). فأحيانًا قد تغضُّ القصةُ الجيدة الطرْفَ عن الواقع.

ثَمة طريقةٌ أخرى لتحسين القصة وهي تكثيف التوتر والصراع، بإزالة تفاصيل واقعية إلى أن تصير القصة في نهاية المطاف قصةً بسيطة تُعبر عن صراعٍ بين الخير والشر. فمخلوقات الأركون التي أشار إليها ديفيد أيك هي مخلوقات شرِّيرة مثالية، لا يدفعها سوى الجشع والسادية. فهي ذكية ومنظمة تنظيمًا جيدًا، على حدِّ قول أيك، لكنها عاجزة عن التفكير الذاتي. فهي تقتاتُ على البشر وحسب مثل الطفيليات، وتُحافظ على بقائها عن طريق حصد أكثر عواطفنا كآبةً وظلمة. وفي تعقُّبِها لأهدافها، خلقَت جنسًا من المخلوقات الهجينة التي تجمع بين البشر والزواحف، التي حُذف تعاطفها حرفيًّا من جينومها، على حد زعم أيك، وهذا هو السبب في أنها لا تشعر بتأنيبِ ضمير عند نجاحها في إطلاق أحداثٍ قاتلة؛ مثل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، والانخراط في شرب الدماء، والطقوس التي يُقدَّم فيها الأطفال كقرابين. وعن طريق الكشف عن الخطط الخبيثة لدى مخلوقات الأركون، يدعو أيك سامعيه إلى الانضمام إلى القتال، ليُصبحوا أبطالًا مستضعَفين، يحاربون بجسارةٍ مؤامرةً مروعة نيابة عن العوام المنخدعين.

وللأمانة، يبدو أن جاذبية جزء الزواحف متداخلة الأبعاد من أيديولوجية أيك محدودةٌ نسبيًّا. فعندما أعلن أيك للمرة الأولى عن كشوفاته الروحانية في أوائل تسعينيَّات القرن العشرين، أصبح مثارَ سخرية في وطنه. غير أنه على مدار العقدَين ونصف العَقد الماضيَين، صاغ بحِرْفيةٍ نظرياته في قالَبٍ روائي فخم يوضح كل شيء؛ بدءًا من المناورات السياسية العادية، وصولًا إلى طبيعة الواقع. إنها قصة ملحَمية، تتعقَّب بمثاليةٍ أبعاد القصص النموذجية للانتصار على الوحوش. ومن خلال هذا الأسلوب، جذب قاعدة عريضةً من المعجبين. قد لا يُصدِّقون كل شيء يقوله، لكن أيك لديه جحافلُ من الأتباع المخلصين يعتقدون أن لديه شيئًا ما يقدمه.

وقرب نهاية إحدى محاضراته المميزة التي تستمر ١٠ ساعات، أسرَّ أيك إلى المجتمعين قائلًا: «لقد أخبروني منذ ٢٥ عامًا أنني انتهيت، وأنني لا يمكن أن أستمر أكثر من ذلك بعد كل هذه السخرية.» وبعد تطلُّعِه في وجوه المجتمِعين في هدوء، قدم أيك ردًّا موجزًا على نُقاده بقوله: «انظروا ماذا سأفعل.»

الفصل الثامن

تجميع أجزاء متفرقة لاستخلاص النتائج

فيلم «زابرودر» لا تتجاوز مدته ٢٧ ثانيةً — ٤٨٦ إطارًا ميكروفيلميًّا — عبارة عن تسلسل صامت لصور مُحبَّبة مقاس ٨ مليمترات، سجَّله أحد حائكي الملابس في دالاس، لكنه أصبح واحدًا من المشاهد الأيقونية في القرن العشرين.

نكاد نقول إن أبراهام زابرودر لم يصنع الفيلم على الإطلاق. فقد ترك آلة تصويره باهظةَ الثمن «زوماتيك دايركتور سيريز» بالمنزل ذاك الصباح، متوقِّعًا هطول المطر. لكن السماء تلوَّنت باللون الأزرق، وأصرَّ سكرتير زابرودر على أن يعود إلى المنزل الذي لم يكن بعيدًا لإحضار آلة التصوير. وعندما حان وقت الغداء، سار خارج المنزل وصعد على قمةِ قاعدةٍ خرسانية في الطرَف الشمالي من شارع إيلم، كي يستطيع التقاطَ أفضل صورة ممكنة لموكب السيارات. ثم شاهد من خلال عدسة آلة تصويره إطلاقَ الرصاص على رأس رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. بحسب عائلته، لم ينظر زابرودر بعدها في أيِّ عدسة آلةِ تصوير قط.

فيما يلي محتوى فيلم «زابرودر». في البداية، أخذَت ثلاثُ درَّاجات نارية للشرطة تتجول عند إحدى نواصي شارع إيلم. ثم حدث انقطاعٌ مفاجئ — أوقف زابرودر آلة التصوير لحفظ الفيلم — وفجأةً ظهرت سيارة الرئيس كينيدي «لينكولن كونتيننتال» المفتوحة من أعلى وهي تطوف في الشارع أمام الجماهير المبتهجة. كان الرئيس كينيدي وزوجته، جاكي، يُلوِّحان في سعادةٍ للحشود. ثم اختفت السيارة للحظاتٍ وراء لافتة كبيرة بالشارع. وعندما ظهرت، كان ثمَّة شيءٌ لم يكن على ما يُرام. كان كينيدي يقبض على عنقه. كان قد أُصيب بالفعل بطلقة نارية في ظهره. وبعد لحظات، اخترقَت رصاصةٌ رأس كينيدي. وفي صورة سريعة من صور الفيلم، تُرى سحابةٌ زاهية ذات لون أحمرَ برتقالي في

الهواء. كانت الصورة الإطارية، زد ٣١٣، واضحة المعالم حتى إن زابرودر وافق على بيع الفيلم لمجلة «لايف» بشرط ألا تنشر المجلةُ الصورة أبدًا؛ ولم يُشاهد الجمهور الفيلم كاملًا حتى أذاعه جيرالدو ريفيرا على شاشة التليفزيون في وقتٍ متأخِّر من الليل عام ١٩٧٥. سقط كينيدي بلا حَراك باتجاه زوجتِه. نهضت زوجته، التي بلغ بها الرعبُ مبلغه، من مقعدها لتصعد على الجزء الخلفي من السيارة؛ حيث تحركت نحو أحد وكلاء المخابرات الذي صعد من الخلف، بينما أسرع الموكب في المغادرة. الفيلم الصامت القصير مرعب، ولا يمكن نسيانه.

لكن قُم بترجيع الثواني القليلة الأخيرة من الفيلم وراقبْ بانتباهٍ شديد، فربما تلحظُ شيئًا غريبًا. فبينما تخرج سيارة كينيدي من خلف اللافتة الكبيرة، يُمكنك أن تشاهدَ مِظلَّة سوداء كبيرة تبرز من الجانب الأيمن للافتة النصف المخبوءة أمامها. قد لا يُثير هذا أيَّ نوع من الاستغراب، باستثناء حقيقةِ أن الجوَّ كان صافيًا والنسيم عليلًا في ظهيرة ذلك اليوم. فلم يكن هناك شخص آخر في حديقة ديلي بلازا سوى هذا الرجلِ يحمل مظلةً مفتوحة، كما لم يكن أحد بين مئات صور الحشود الذين يقفون على جانبَي طريق الموكب يحمل مظلة مفتوحة. وتصادف أن المظلة الوحيدة المفتوحة كانت بجوار سيارة كينيدي مباشرة لحظة اغتياله. ما الذي يُوحي به ذلك؟

أصبح الأمر أكثرَ غرابة. فالصور التي التقطها أناسٌ آخرون مبعثرون في أنحاء حديقة ديلي بلازا أظهرَت صاحب المظلة، وهو رجل ذو مظهر عاديٍّ يرتدي بِذلة سوداء، يتحرك في ارتباكٍ قبل وصول الموكب وكانت مظلته مغلقة. وعندما اقتربت سيارةُ الرئيس، فتح الرجل مظلته فوق رأسه كما هو واضح، وأخذ يرفعها ويخفضها ويُديرها. وبمجرد أن مرت السيارة بهذا المنظر الغريب، أُطلق الرَّصاص على جسد كينيدي. أظهرت الصور التي التُقطت على ما يبدو لاحقًا الرجل وهو يسير مبتعدًا في هدوء، حاملًا المظلةَ عند إحدى جانبيه، بعد أن طواها بهدوء.

وبالرغم من أن رجل المظلة كان واحدًا من أقرب شهود العيان على مقتل الرئيس، لم تستجوبه شرطة دالاس. كما لم يَرِد ذكره في تقرير لجنة وارين. فقد اختفى ببساطةٍ دون أن يترك وراءه أثرًا. ولم يبدأ طرح الأسئلة بشأنه إلا عندما استرعَت المظلة الغريبةُ انتباهَ المهتمِّين باغتيال الرئيس. فبالنِّسبة إلى بعض المتشككين، لم يكن هناك سِوى تفسيرٍ واحد محتمل: كان الرجل ذو المظلة جزءًا من المؤامرة. فقد رأى البعضُ أن هذا الرجل قد أعطى إشارةً بالتأكيد للقتَلة إما ليُبلغهم بأن اللحظة كانت مواتيةً لإطلاق الرصاص

أو بأنهم قد أصابوا الهدف. وتخيَّل البعضُ الآخر أنه لعب دورًا أكبرَ من ذلك؛ فربما كان هناك سلاحٌ مخبوءٌ داخل المظلة. ففي عام ١٩٧٨، نشر ريتشارد سبراج وروبرت كاتلر رسمًا تخطيطيًّا مفصَّلًا يُلخِّص آلية إطلاق القذيفة القاتلة التي اعتقدا أنها كانت مخبوءةً داخل المظلة.

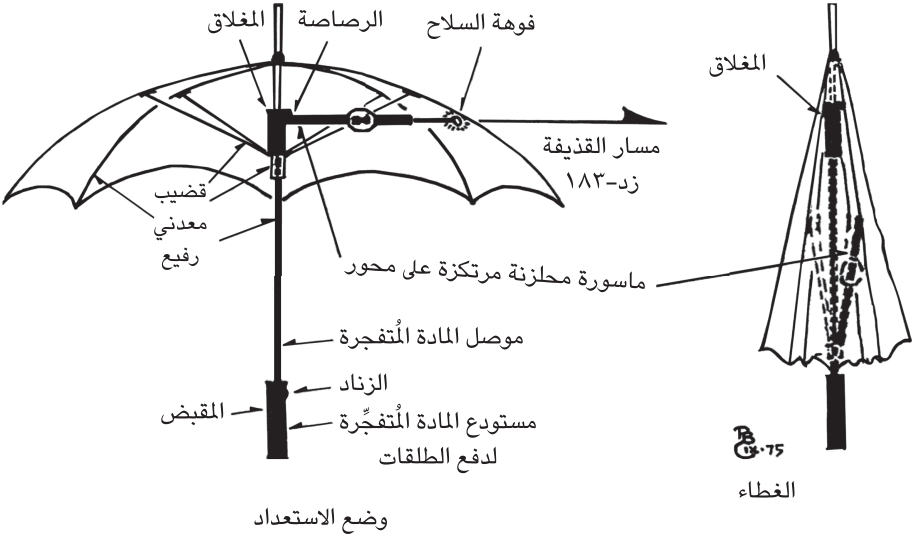

السلاح

وقد حُل لغز رجل المظلة في نهاية الأمر؛ فقد أُحضر هو ومظلته أمام الحكومة الأمريكية، واستُجوِبَ لإعطاء تفسير لموقفه. سوف نعلم حقيقة موقفه بعد قليل. أما الآن، فإن هذه القصة الغريبة تُسلِّط الضوء على سِمةٍ جوهرية من سِمات أي نظريةِ مؤامرةٍ جيدة، وهي القدرة على نسج أشياءَ غريبةٍ تبدو غيرَ مترابطة في قالَبِ قصةٍ متماسكٍ عن متآمرين خبثاء وأجندتهم السرية. نظريات المؤامرة هي تدريب على تجميع أجزاء متفرقة لاستخلاصِ نتيجةٍ معينة. لكن كما سنرى، ليس تجميع الأجزاء المتفرقة هو الوسيلةَ الوحيدة التي يستخدمها أصحابُ نظريات المؤامرة. فقد تحدثنا في الفصل السابق عن الروايات الكبرى التي تتوافقُ مع أعمق رغباتنا وأشدِّ مخاوفنا. أما في هذا الفصل وما

تبقَّى من الكتب، فحديثنا يتمحورُ حول قصصٍ على نطاقٍ أضيقَ قليلًا؛ إذ سنتحدث عن الكيفية التي نفهم بها العالم من لحظةٍ إلى اللحظة التي تليها. فالواقع يعجُّ بالأجزاء المتفرقة. وحتى نفهمَ الواقع، يجب أن تُجيد أدمغتُنا الفهمَ السريعَ للكيفية التي يمكن بها تجميعُ هذه الأجزاء المتفرقة معًا في صورةٍ كلية. غير أنه في سعيِها الحثيث لإضفاءِ معنًى على الفوضى المحيطة بنا، يمكن أن تستحضر أدمغتُنا أوهامًا مغرية. فأعيننا تخدعنا أحيانًا، وعقولنا تُراوغنا.

الخداع البصري

هيا نبدأ بوهمٍ مألوف. الخطان الموجودان على الصفحة التالية يُمثلان واحدًا من أكثر صور الخداع البصري شهرةً في العالم: خداع مولر-لاير. الأرجح أنك شاهدتَه من قبل. الصورة تتكوَّن من خطَّين متوازيين، ينتهي كلٌّ منهما بمجموعةٍ من الزعانف. والخط الذي به زعانف متجِهة للخارج يبدو أطولَ بشكل قاطع من الخط الذي به زعانف متجهة للداخل، حتى بالرغم من أن كِلَيهما متساويان في الطول، في واقع الأمر. وحتى عندما تعرف أن الخطَّين متساويان في الطول، وحتى عندما تقيسهما بنفسك، لا تستطيع أن تمنع نفسك من رؤيتهما مختلفين. فدماغك تحت تأثيرِ نوعٍ من الخداع.

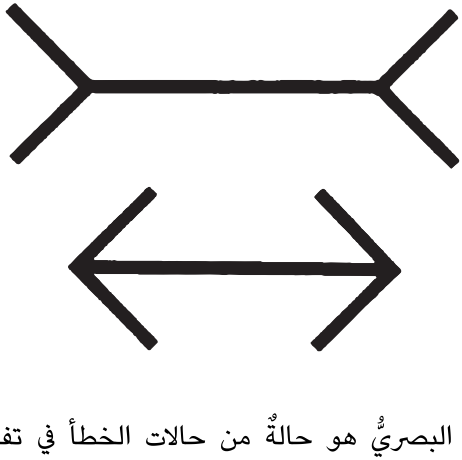

خداع مولر-لاير البصريُّ هو حالةٌ من حالات الخطأ في تفسيرِ شيءٍ ما موجود بالفعل. وأحيانًا نرى أشياءَ ليست موجودةً على الإطلاق. ثمَّة صورةٌ مخادعة أخرى

وكاشفة، وهي مثلَّث كانيزا. سُمي المثلث باسمِ مبتكِره، وهو عالم النفس الإيطالي جايتانو كانيزا، والصورة المخادعة تتكوَّن، على ما يبدو، من مثلَّثَين متداخلَين، موضوعين أعلى ثلاث دوائر سوداء اللون (في شكلٍ ربما يجعلني شخصيًّا أشعر بأنه يُناسب تزيينَ الأدوات المكتبية لجمعيةٍ سرية خبيثة).

لكن لا وجود للمثلَّثات والدوائر إلا في دماغك. فليس هناك على الصفحة سِوى ترتيبٍ من أجزاءَ مفصولة وناقصة؛ ثلاثة رءوسِ أسهمٍ متجهة للخارج وثلاث دوائر ناقصة تُشبه ثلاثةً من باك مان الجائع. ويتولى دماغك ملء الفراغات بحماس، مستحضرًا خداعَ الأشكال الكاملة؛ فالشرائح المفقودة من الدوائر إضافة إلى الفراغات بين رءوس الأسهم تُعطي انطباعًا لا يُقاوم بوجودِ مثلثٍ ثانٍ، مقلوبًا رأسًا على عقب ودون إطار خارجي له، وموضوعًا فوق المثلث الأول، ومغطِّيًا أجزاءَ من إطار المثلث السفلي وشرائح الدوائر. الشيء الأكثر إدهاشًا في هذا الخداعِ البصريِّ هو أنه حتى بالرغم من أنه لا وجود لأيٍّ من المثلثَين في واقع الأمر، وأن الورقةَ كلَّها باللون ذاتِه، تستطيع أن «ترى» بغموضٍ حواف المثلث العلوي؛ فيبدو، بطريقةٍ ما أو بأخرى، كما لو كنت ترى لونًا شديدَ البياض (بالرغم من أن الحواف تتلاشى عندما تُدقِّق النظر في الحيز الفارغ الذي توهمت وجودها فيه).

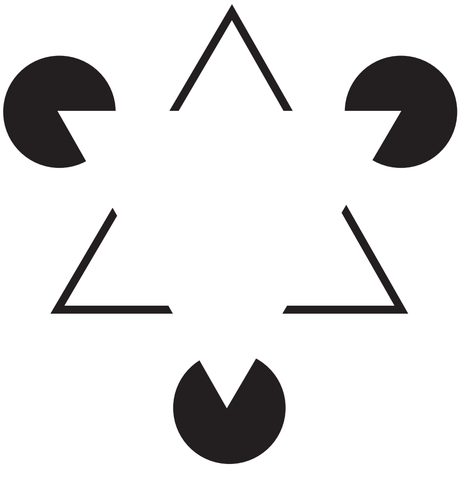

ومن خلف أعيننا، من المغري أن نظنَّ أن شبكيَّتنا هي شاشة سينمائية من نوعٍ ما؛ بحيث يسترخي دماغُنا ويُلاحظ ما يحدث. والدماغ لا يُراقب ما يحدث في سلبية؛ وإنما يؤدي دورًا فاعلًا بِهمة. فالخداعات البصرية البسيطة مثل هذه تُزيح الستار، لتكشفَ لنا حقيقة حاستنا البصرية: التخمين. والتخمين الجيد على نحوٍ مذهل، يكون في أغلبه — بخلاف ما إذا كنا نصطدمُ باستمرارٍ في أشياءَ ونخلط بين تأملاتنا والأفكار الدخيلة — مجرد تخمين فارغ. وفي لحظةٍ ما، لا تستطيع أعيننا سوى أن تُبصر مساحةً ضئيلة من المجال البصري بوضوح فعلي، بما يعدل تقريبًا حجم أظفر الإبهام مقارنة بطولِ ذراعنا. أما باقي الصورة فيكون مشوَّشًا ومفتقرًا إلى اللون بشكل أساسي. ولتعويض ذلك، يؤدي دماغنا قدرًا كبيرًا من العمل خلف الكواليس ليُعطي الانطباع بأننا نرى صورة مُفصَّلة ودقيقة للعالم من حولنا.

هذه المعالجة البعدية المعقدة على قدْرٍ بالغٍ من الأهمية لحاسة البصر، لدرجةِ أن قرابة ثُلث قشرتنا المخِّية مُخصصة للبصر. وحتى مع ذلك، فإن تشكيلَ نموذجٍ دقيق ومتكامل بحقٍّ للعالم الخارجي قد يكون أمرًا مستحيلًا، فضلًا عن كونه مضيعةً كبيرة للطاقة. والدماغ لديه مخزونٌ مبهر من الطرق المختصرة والقواعد الموثوق بها التي يستخدمها لفهم المدخلات البصرية الفوضوية والغامضة والناقصة التي يتلقَّاها؛ الافتراضات المنطقية مثل «الضوء يأتي من أعلى» و«الأصغر معناه الأبعدُ عنا» و«الشيء الذي يكبر حجمًا بسرعةٍ معناه أنه يسير باتجاهنا». بعبارة أخرى: حاسة البصر لا تعتمد فحَسْب على اصطدامِ الضوء بالشبكية في لحظةٍ معيَّنة، ولكنها تعتمد على تفسير دماغنا لهذه المعلومات.

هذه الاستراتيجية تجعل بقية الدماغ في حالةٍ من التفرُّغ للاهتمام بما ستتناولُه على الغداء وغير ذلك من الأشياء المهمة مثل هذه، وعادةً ما تُؤدي هذا الدور بشكل جيد. لكن هذه الاستراتيجية تخذلنا من آنٍ لآخَر. فمن الوارد أن نُخفق في رؤية شيءٍ ما موضوع أمام أعيننا، كما يكون عليه الحال عندما تبحث عن مفاتيحك، ولا تراها موضوعة على المنضدة أمامك. ومن الممكن أن نُخطئ في تفسيرِ ما هو كائنٌ أمام أعيننا، مثل خطوط مولر-لاير المخادعة. ومن وقتٍ لآخَر، كما يوضح مثلث كانيزا الوهمي، يمكن أن نرى أشياءَ لا وجود لها على الإطلاق.

وعندما ننظر إلى خداعاتٍ بصريةٍ مثل خطوط مولر-لاير أو مثلث كانيزا، نعلم أننا نُخدَع. أما على أرض الواقع، فيمكن أن تكون هناك صعوبةٌ أكبرُ في تحديدِ ما هو حقيقيٌّ

وما هو وهمي. ونظرًا إلى عدم وجودِ تفسيرٍ للأشياء الغريبة التي نراها، قد نُضطر إلى اختلاق تفسيرٍ لها.

قنوات على سطح المريخ وقتَلة يختبئون وسط الآجام

على مدارِ بضعة أسابيع في أواخر صيف عام ١٨٧٧، ظهر كوكب المريخ كبيرًا ولامعًا على غير العادة في السماء ليلًا. وكانت تلك وضعية مقابلة كبرى، ويقصد بذلك النقطة التي يجعل فيها مدارُ كوكبِ المريخ الكوكب الأحمر أكثرَ قربًا من كوكب الأرض. وتحدث المقابلةُ الكبرى كل ١٧ سنة أو نحو ذلك. وقد قضى بعضُ روَّاد علم الفلك في العالم سنواتٍ لاتخاذ الترتيبات اللازمة من أجل استغلال فرصةِ رصد الكوكب بشكلٍ جيد، على نحوٍ لا يتأتَّى كثيرًا. وكان من بين هؤلاء، عالم الفلك جيوفاني سكياباريلي، مديرُ مرصد بريرا الفلَكي في ميلانو. وفي عام ١٨٦٢، كان سكياباريلي قد أقنع الحكومة الإيطالية بالاستثمار في تليسكوبٍ متطور. وقد أُنشئت قبَّة جديدة لتكون مقرًّا لتليسكوب ميرز ذي العشرة أقدام. وأخيرًا، عندما غربت شمس ٢٣ أغسطس ١٨٧٧، بدأ سكياباريلي سلسلةً من عمليات الرصد التي من شأنها أن تجعله مشهورًا بين علماء الفلك وعمومِ الناس على حدٍّ سواء.

ما رآه سكياباريلي كان مذهلًا بحقٍّ؛ فقد بدَت شبكةٌ معقَّدة من الخطوط الطويلة الداكنة المتقاطعة على سطح المريخ. وسارع علماءُ الفلك حول العالم إلى تأكيد عمليات الرصد التي أجراها سكياباريلي. البعض منهم شاهدَ الخطوط. والبعض الآخر لم يُشاهدها. عددٌ من علماء الفلك البارزين، مثل عالم الفلك الأمريكي، بيرسيفال لويل، راحوا يؤكدون وجود هذه الخصائص، واقترحوا تفسيرًا مثيرًا للغاية. وقالوا إن الخطوط عبارةٌ عن قنواتِ ري، وحيث إن القنواتِ لا تنشأ من تلقاء نفسها، فلا بد أن مخلوقاتٍ ذكيةً (وربما ظامئة) قد حفرَتها. ومع بداية القرن العشرين، اجتاح الهوسُ بكوكب المريخ أجزاءَ كبيرة من أوروبا وأمريكا.

ومن الغريب أنه قد ثبَت أن هذه القنوات تستعصي على التصوير الفلَكي. والأكثر غرابةً من ذلك، أنه عندما حاول علماءُ فلكٍ مختلفون رسمَ خريطةٍ بهذه الخصائص، كانت رسوماتهم تحتوي على قنواتٍ بترتيبات شديدة التباين. ثم جاء عالِم الفلك الإيطالي، فينشنزو شيرولي، الذي كان أولَ مَن أشار إلى أن الخطوط ربما تكون وهمية. وقد تعيَّن على خبراءِ خرائط المريخ إنعامُ النظر لساعاتٍ عبر تليسكوباتهم، في انتظار اللَّحظات النادرة التي يهدأُ فيها الهواء بحيث لا تتشوَّش الصورة بفعل الغلاف الجوي للأرض. ففي

تلك اللحظات دون سِواها، ربما يُمكنهم التقاطُ صورةٍ خاطفةٍ لشريحةٍ صغيرة واضحة من سطح الكوكب والمسارعة برسمِ ما رأَوه اعتمادًا على ذاكرتِهم، ليستكمِلوا ما نقص من تفاصيلَ في الكثير من مشاهداتهم. وقد أعطَت هذه العملية فرصةً كبيرةً للتصورات القَبْلية لدى علماءِ الفلَك من أجل تحديدِ مدى صحةِ ما رصَدوه. وفي نهاية المطاف، أثبتَت عمليات الرصد المُحسَّنة صحةَ ما ذهب إليه شيرولي: ليست هناك قنواتٌ على سطح كوكب المريخ. فالخطوط المستقيمة الطويلة التي رآها سكياباريلي ولويل وغيرُهم كانت من نَسْخ مخيَّلتهم، فالدماغ لديه القدرةُ على البحث عن معنًى في الصور الغامضة. وقد أشار كارل ساجان إلى أن القنوات منشؤها مخلوقات ذكية دون شك؛ «السؤال الوحيد الذي يبحث عن حلٍّ هو: أيُّ طرَفٍ من التليسكوب كانت تقف عنده تلك المخلوقات الذكية؟»

ولم تكن القنوات هي أثرَ الحياةِ الوحيدَ على سطح المريخ الذي يمكن عزوُه إلى الإفراط في التخيُّل. فمنذ سبعينيَّات القرن العشرين، وضع البشرُ آلات تصويرهم على سطح الكوكب الأحمر وحوله. وبين الصور الكثيرة للصخور وسلاسل الجبال، أرسلَت عربات الاستكشاف الفضائي الجوالة والمركبات المدارية، رصدَ العلماءُ حادُّو البصر والباحثون عمَّا هو غريبٌ أشياءَ تبدو كأنها تابوت صخري ومخلوق ذو قدمٍ كبيرة وكعكات هُلامية، وعدد مذهل من قلوب الحب العملاقة الكرتونية، وتمثال نِصْفي للرئيس باراك أوباما وإجوانا متحجرة (متحجرة بالمعنى الجيولوجي للكلمة؛ فهي تبدو هادئةً إلى حد كبير، نظرًا إلى الظروف المحيطة). لكن العلامة الأكثر إثارةً على وجود مخلوقات ذكية خارج الأرض، كان مصدرها صورةً التقطتها المركبة المدارية فايكينج في عام ١٩٧٦. فالصورة تُظهر وجهًا لا تُخطئه عين، أشبه بوجهِ إنسان مُتجهِّم وغريب، وقد نُحت، كما يبدو، في تلةٍ على سطح الكوكب. كان هذا الوجه على سطح كوكب المريخ مُلغزًا لدرجةِ أنه عندما أُرسلت مركبات مدارية أحدث إلى الكوكب بعد مضيٍّ عقودٍ من الزمان، كانت أولى مهامِّ تلك المركبات التقاطَ صورةٍ فوتوغرافية لهذا الوجه. ولم تُظهر الصورُ العاليةُ الوضوح سوى تلةٍ باهتة. وكما ظن الكثير من الناس، كان الوجه الموجود على سطح المريخ مجردَ خدعة بفعل الضوء والظل.

تشهد تلك الشذوذاتُ المتفرقة على كوكب المريخ على أن بعض الأشياء تكون على قدْرٍ كبير من الأهمية بالنِّسبة إلينا، لدرجة أننا نميلُ بشدة إلى رؤيتها في صورٍ غامضة، بما يشمل

الأنماط الهندسية غيرَ الطبيعية والناس والحيوانات والوجوه. ويمكن أن يكون الوهمُ قويًّا جدًّا في تأثيره لدرجةٍ تقود إلى معتقداتٍ وأفكار خيالية. وعندما تتوفَّر الظروف المناسبة، يمكن أن يدفعَنا نمطٌ عجيب نحو التفكير المؤامراتي. وهذا ما حدث لديفيد ليفتون، وهو صحفي تحوَّل إلى مجال البحث في عمليات الاغتيال، عندما نظر إلى صورةٍ مُستقطبة مشوشة لتلةٍ عشبية غيرِ معروفة في حديقة ديلي بلازا.

التُقطت هذه الصورةُ المستقطبة بواسطة ماري مورمان. ظهرت مورمان في فيلم زابرودر؛ يمكنك أن تراها مباشرة واقفةً في الشارع، بجانب صديقتها جين هيل، التي ترتدي معطفًا لامعًا مميزًا أحمر اللون. كانت مورمان تضع آلة التصوير بالقرب من وجهها. كانت تعلم أن آلة التصوير بطيئةٌ في إعادة التحميل، ولم يكن لديها سوى فرصة واحدة لالتقاطِ صورةٍ تذكارية لزيارة الرئيس. وكانت الصديقتان حريصتَين للغاية على التقاطِ صورةٍ جيدةٍ للحدث لدرجةِ أنهما لم تلحَظا حتى الطلقتَين الأُوليَين. وبينما مرَّت بهما سيارةُ كينيدي على بُعد ١٥ قدمًا منهما، نادت هيل قائلة: «مرحبًا، نريد أن نلتقط لكم صورة!» وضغطت مورمان على مصراع آلة التصوير؛ فقط بعد مرور سُدس ثانية من إصابة الطلقة الثالثة لرأس الرئيس كينيدي. وفي مقدمة الصورة، يتداعى جسدُ كينيدي باتجاه زوجته، وفي الخلفية، نرى التلة العُشبية.

وبعد مرور عامٍ ونصف، حصل ديفيد ليفتون مصادفةً على صورةِ مورمان في كتاب «أربعة أيام سود في التاريخ»، وهو كتاب يضمُّ مجموعةً كبيرة من الصور تُغطي المدَّة من ٢٢ نوفمبر والأيام الثلاثة التي تلَت هذا اليوم. وقد راعه ما رآه في الصورةِ المشوَّشة. فقد كتب ليفتون يقول في كتابه «أفضل الأدلة» عام ١٩٨٠: «هناك، على الصفحة المطبوعة، يوجد ما يُشبه نفثة دُخَان ... وخلفها مباشرةً، يوجد ما يُشبه إنسانًا.» ودرس ليفتون الصفحةَ بعدسةٍ مكبِّرة، بل إنه استطاع الحصولَ على الصورة السالبة الأصلية. ولم تؤكد الجودةُ المُحسَّنة شكوكَه بشأن نفثة الدخان فحسب، لكنه رصد أيضًا شخصًا مسلَّحًا آخرَ محتملًا في مكانٍ آخر على التلة، «يُرى الجزء العُلوي من جسده، ويُمسك بشيءٍ ما في يدَيه في وضعٍ أفقي.» وقد اكتشف مهتمُّون آخرون بحادثة اغتيال كينيدي المزيدَ من القتلة في الصورة المشوشة. فمثلًا، نجد جاري ماك، مديرةَ متحف الطابق السادس في مستودع كتب مدرسة تكساس منذ عام ١٩٩٤، تعرَّفت على ما يبدو كما لو كان إنسانًا في زيٍّ شرطي، يقف وراء أحد الأسوار، وتلمع شارته المميزة في ضوء الشمس في حينٍ يُغطي وجهه الوميض المنطلق من فوهة البندقية.

وبقدْرِ ما يستطيع المحلِّلون الجنائيون إخبارَنا به، لم يكن القتَلَةُ سوى عيوبٍ وظلالٍ في الفيلم، فضلًا عن التفكير الواهم. فإحدى تحليلات رجل الشارة الذي أشارت إليه جاري ماك، توصَّلت إلى أنه إذا كان الرجلُ ذا حجمٍ عادي، فإنه يجب أن يوجَد خلف السور بنحو ٣٠ قدمًا وأربعة أقدام فوق الأرض؛ وأقلُّ ما يُستنتج من ذلك أن هذه الوضعية يستحيل معها إطلاقُ النار؛ لأن الراميَ سيكون غير مدعوم.

وقد أدرك ليفتون في نهاية المطاف أن ما كان يراه ربما يكون مجردَ وهم. فقد اعترف قائلًا: «لقد اتضح أن هؤلاء الذين يختلفون بالفعل مع النتائجِ التي توصَّلت إليها لجنةُ وارين وجدوا أنه من الأيسر بكثيرٍ أن «ترى» أشخاصًا على تلةٍ مقارنةً بأولئك الذين صدَّقوا تقرير اللجنة.» وبتطبيق هذا المنطق على ملاحظاته، تساءل قائلًا: «كيف يتأتَّى لي التأكدُ من أن عمليات إدراكي الحسية الأساسية لم تكن شديدة التحيُّز ... في النهاية، توصَّلت إلى أن عمليات التكبير الفوتوغرافية ليس لها أهميةٌ كبيرة كدليل.»

خداع العقل

الأرجح أنه لا يدهشك أننا نرى أحيانًا أشياءَ غيرَ موجودة، أو أننا لا نرى أشياءَ موجودة بالفعل. فمن السهولة أن نتوهَّم خطأً وبصورةٍ لحظية أن المعطف المعلَّق على الباب هو ظل شخص متسلِّل. والبحث عن أشياءَ نعلم أنها ليست موجودةً بالفعل يمكن أن يكون حتى طريقة ممتعة لقضاء الوقت. فعلى مدار آلاف السنين، كان الناس يُمضون وقتًا كبيرًا في التأمُّل وقتَ الظهيرة، ليستكشِفوا أشياءَ مألوفةً في السُّحُب، ويقضون أوقاتَ المساء في تخيُّل أنماطٍ وأشكالٍ في النجوم على أنها بشرٌ أو حيوانات. ولا يختلف القرن الحادي والعشرون. فيمكن أن نقضيَ الساعات ونحن نتصفَّح المواقعَ الإلكترونية المخصصة للأشياء الغريبة الكثيرة على كوكب المريخ، أو صورًا لأشياءَ يوميةٍ تُشبه الوجوه. ونعرف أن أعيننا تخدعنا من وقتٍ لآخَر.

وما لا نميل كثيرًا إلى الاعتراف به — أو حتى إدراكه — هو أننا عُرضة للأفكار الوهمية بقدْرِ ما نحن عُرضة للأوهام البصرية. فبقدرِ ما نعتقد أن أعيننا نوافذُ صادقة على العالم، نقضي حياتنا ونحن نشعر بالثقة في أن أدمغتنا هي مُعالج بياناتٍ محايد. ومن داخل رءوسنا، تكون أفكارنا ومعتقداتنا على ما يبدو، نتاجَ فهمٍ عادل ودقيق للواقع. غير أننا قد خُدعنا من جديد. فمثلما أن قدرتنا على رؤية العالم تعتمدُ على المعالجة الكثيفة

خلف الكواليس والعمل التخمينيِّ المعقَّد، كذلك تعتمد قدرتنا على فهم العالم. وكما هو الحال بالنِّسبة إلى مثلث كانيزا أو قنوات المريخ، ينشأ بعضُ أكثرِ الأوهام الإدراكية إغراءً من البحث الدائم لدى الدماغ عن الأنماط والأشكال.

اقرأ السؤال التاليَ بصوتٍ عالٍ، ولاحظ الإجابة التي تطرأ على ذهنك:

كم عدد الحيوانات التي أخذها النبيُّ موسى معه على ظهر السفينة من كل نوعٍ؟

وفقًا لمجموعةٍ كبيرةٍ من التجارِب، كانت إجابةُ قرابةِ ثمانية من أصل ١٠ «اثنين». هل هذا ما قلتَه؟ استنادًا إلى الحقيقة القائلة بأنك في خِضم القراءة عن الخداع الإدراكي، ربما شككتَ أن ثمَّة خدعةً ما في الأمر. الإجابة الصحيحة هي «صفر»؛ فالنبي نوحٌ وليس النبيَّ موسى هو مَن أخذ معه اثنَين من كل نوع من الحيوانات على السفينة. وبمجرد تحديد الخطأ، يُصبح الأمر واضحًا وضوحَ الشمس. لماذا يُخفق الكثير جدًّا من الناس في ملاحظة الأمر، حتى بالرغم من معرفتهم بقصةِ النبيِّ نوح، وحتى عندما تُتاح لهم فرصة دراسة السؤال لأي مدةٍ يُريدونها؛ والأكثر إدهاشًا من ذلك، حتى عندما يُخبَرون في البداية أن السؤال قد يحتوي خطأً ما؟

يعتمد إدراكُ العالم على استخلاصِ روابطَ وعلاقاتٍ وإيجاد أنماط وأشكال، ويُجري الدماغُ الكثيرَ من البحث تحت مستوى إدراكنا الشعوري. فعندما تقرأ جملة، فإن كل كلمة وفكرة تُنشِّط تلقائيًّا مجموعةً من الأفكار ذاتِ الصلة كحصواتٍ تصنع تموُّجاتٍ على سطح مياه البحيرة. والخدعة تُفلح هنا لأن النبيَّ موسى والنبيَّ نوحًا يجمع بينهما العديدُ من الخصائص ذاتِ الصلة بالسؤال: فكلٌّ منهما كان نبيًّا وردَ ذكره في الإنجيل وكان عجوزًا، جرى تصويره في قصصٍ لعِبَ الماءُ دورًا فيها. وتسقط الحصوات على مقربةٍ من بعضها البعض، لدرجةِ أن نمط التموجات لم يتشوَّش. وأنت لم تُدرك أن ثمَّة شيئًا ما لم يكن صحيحًا؛ لأن دماغك حاول إضفاءَ معنًى على كلامٍ فارغٍ خلف الكواليس. وكانت النتيجة هي كلَّ ما أدركته. فقد قرأت سؤالًا عن النبي موسى، لكن دماغك فسَّره على أنه سؤال عن النبي نوح.

فكِّر في صيغةٍ أخرى للسؤال المطروح: كم عدد كل نوعٍ من الحيوانات أخذه نيكسون معه على ظهر السفينة؟ عندما جرَّب الباحثون السؤالَ بهذه الصيغة، تنبَّه الجميع تقريبًا للخطأ على الفور. فاسمُ نيكسون يُنشِّط مجموعةً من الأفكار (الرؤساء الأمريكيين، عمليات السطو على الفنادق، التبرُّؤ من الاحتيال) تختلف بشدةٍ عن باقي

الجملة. فالحصاة الشاردة شوَّشت النمطَ بأكمله. فالدماغ لا يُمكنه بسهولة أن يُضفيَ معنًى على هذا الهُراء؛ ومن ثَم ينتبه إلى المشكلة. وحصاة موسى الموضوعةُ في غيرِ مكانها تنسجم مع النمط بشكلٍ جيدٍ لدرجةٍ تكفي لعدم الانتباه إليها، في حين أن حصاة نيكسون الشاردة، التي تتصرَّف بالطريقة المتوقعة، تؤدي إلى فوضى كبيرة بحيث يسهل التنبُّه إليها.

الرؤية الكاشفة التي قدَّمها السؤال المخادع عن النبيِّ موسى يمتدُّ نطاقها لأبعدَ بكثير من الأسئلة العادية التي تُوضع فيها كلماتٌ خاطئة. فحياتنا الذهنية بأكملها هي تمرينٌ للتعرُّف على الأنماط. فالدماغ يُفرز المعلومات باحثًا عن الأنماط والروابط والمعنى. وعادةً ما تُفلح الاستراتيجية بشكل جيد. فمن السهولة أن نفهم جملة بسيطة، حتى وإن لم نصادف من قبلُ قطُّ هذا الترتيب عينَه من الكلمات. وأحيانًا تُفلح الاستراتيجية بشكلٍ جيد للغاية. فالخلطُ بين النبيَّين نوحٍ وموسى يُمكن أن يمرَّ من غير أن يُلتفَت إليه. وأحيانًا نُجيد بشدةٍ استخلاص الروابط لدرجةِ أن أدمغتنا تجد أنماطًا ذاتَ معنًى تفتقر تمامًا إلى أيِّ معنًى في واقع الأمر.

من المصادفة إلى السبب

يُمكن أن تنطليَ المصادفة الجيدة على أيٍّ منا. فمن الصعب ألا تشعرَ على الأقل بشيء من الانبهار عندما ترى حلمًا عن شيء ويتحقَّق في اليوم التالي، أو عندما تتلقَّى اتصالًا هاتفيًّا غيرَ متوقَّع من شخص، بعد لحظات من ورود اسمه على ذهنك. وبرنامج اكتشاف الأنماط في أدمغتنا يمتاز بحساسيةٍ بالغةٍ إلى حدٍّ أنه حتى أكثر المصادفات تفاهةً يمكن أن تبدوَ مذهلة لو حدثَت لك.

في حلقةٍ من البرنامج الإذاعي «هذه الحياة الأمريكية» (ذيس أمريكان لايف) المخصَّص للمصادفات، تروي الصحفية سارة كوينيج قصةً من أيامها الأولى كمراسلة. استضافت كوينيج إستر تاتل، وهي سيدةٌ كانت قد احتفلت لتوِّها بعيدِ ميلادها المائة، واعترفت كوينيج بأنها سألتها سؤالًا عاديًّا للغاية: «ما هو أكثر شيء مذهل حدث في حياتك؟» فكَّرت إستر للحظات، ثم قالت: «أكثر شيء مثيرٍ حدث لي هو أنني عندما كنتُ في اليوم الأول بالمدرسة، قال لي مدير المدرسة، ما اسمك؟ قلت إستر تاتل. قال، لديَّ صديقة في جزيرة شيلتر أيلاند تحمل الاسم نفسه. كنت في الثانية عشرة من العمر ... وكان هذا مثيرًا بالنِّسبة لي.» اعترفَت كوينيج أنها شعرت بالإحباط من الإجابة. تقول كوينيج: «هذه المرأة شاهدت ظهور السيارات والسينما وأجهزة الحاسوب والسفر إلى الفضاء، فكيف

تكون إجابتُها على هذا النحو؟» غير أن كوينيج قالت إنه يتعيَّن عليها إعادةُ النظر في الأمر، وذلك بعد أن استمعت إلى الكثير جدًّا من المصادفات من المستمعين أثناء الحلقة. وقد اعترفَت قائلة إن المصادفات تظل عالقةً بذهنك، «حتى عندما لا تكون المصادفة مصادفةً على الإطلاق.»

عندما يتعلَّق الأمر برصد الأنماط، فإنَّ القصص التي تدور حول أمثلةٍ غريبةٍ للتزامن هي مجردُ قمة جبل الجليد. فنحن نميل إلى التفكير في المصادفات باعتبارها هذه النوعيةَ من القصص التي تتعلَّق بأحلامٍ نبوئيةٍ أو أسماء عائلات مشتركة، لكن المصادفة تدل، من الناحية الفنية، على شيءٍ يتزامنُ ظاهريًّا مع شيء آخر. ومن هذا المنطلق، فإن المصادفات تحيط بنا من كلِّ جانب. فقد تقول مثلًا شيئًا جارحًا، فتغضب زوجتك. والمزارع قد يضع روث البقر في حقله، وينعم بمحصولٍ وفير. وجَدك ربما كان يُدخن في حياته علبتَي سجائر في اليوم الواحد، ومع ذلك ظلَّ على قيد الحياة ١٠٠ عام. وربما تُعيِّن شركةٌ ما مديرًا تنفيذيًّا جديدًا وترتفع إيراداتها الربع السنوية. وربما يُعيِّن فريقُ كرة قدم مدربًا جديدًا ويقضي موسمًا كرويًّا سيئًا للغاية. ففي أي وقتٍ يبدو أن ثمَّة تزامنًا بين شيءٍ ما وآخَر، سواءٌ كان ذاك الشيء حلمًا غيرَ عادي يتحقق أو شِجارًا عاديًّا حول تعليقٍ يفتقر إلى الحكمة، لا يمكن لأدمغتنا أن تمنعَ نفسها من التنبُّه إليه.

لكن المصادفة في حدِّ ذاتها غيرُ مشبعةٍ إلى حدٍّ كبير، فهي مثل حكةٍ تحتاج إلى خدشِها، أو إقرارٍ ضريبيٍّ غيرِ مكتمل. فأدمغتنا تُريد أن تستكمل الأنماط، ورصد المصادفة ليس سوى مقدمةٍ لتعلُّم شيءٍ مفيد عن العالم. وعندما نرصد رابطًا من نوعٍ ما بين حدَثَين، فإننا بهذا قد نكشف عن دليلٍ عن آليةِ عمل الأشياء. فإذا حدث شيءٌ ما، فالأرجح أن الآخرَ سيحدث؛ فقد تكون العلاقة سببية. فالتعرُّف على العلاقات السببية مسألةٌ مهمة. ومعرفة الأسبابِ والنتائجِ تسمح لنا بالتنبُّؤ بالعالم المحيط بنا والتحكم فيه. والمصادفات مثل مصادفة إستر تاتل تظل بالذاكرة؛ لأنه لا يوجد تفسيرٌ واضح لها. فعندما نعجز عن تفسيرِ شيءٍ ما يبدو مهمًّا، تعلق المصادفة بأذهاننا. وأدمغتُنا تجعل تلك المصادفة تُراودنا باستمرار، ما يجعلها تعلقُ في أذهاننا حتى يكتملَ النمط، حين نفهمُ السبب.

المشكلة هي أن بعض المصادفات ذات معنًى حقيقي؛ لكن البعض الآخر منها لا يحمل كثيرًا من المعنى. والتعليقات غير المراعية للمشاعر كثيرًا ما تُغضب الزوجات، والروث يُغذي المحاصيل بالفعل. غير أنه قد يكون من الخطأ افتراضُ أن السجائر مفيدةٌ لصحتك فقط لأنك تعرف شخصًا يبلغ من العمر ١٠٠ عام ويُفرط في التدخين. وربما

كان المدير التنفيذي عبقريًّا وربما كان المدربُ أخرقَ؛ وربما نُسب الفضلُ إليهما أو أُلقي اللوم عليهما لشيءٍ كان سيحدث بصرفِ النظر عن وجودهما. وبرنامج اكتشاف الأنماط الموجودة في أدمغتنا حسَّاس للغاية، لكن ليس بداخله بَرنامَجٌ للتحكُّم في الجودة لإبقائه تحت السيطرة. فمعرفة ما إذا كان شيءٌ ما يُسبِّب شيئًا آخر بالفعل يتطلب إحصائياتٍ وتَجارِب، لكن الطريقة العلمية لا تتيسَّر لنا تلقائيًّا. وقد تطورت أدمغتنا لتفسير الأنماط بسرعة وبحسم، وهو ما يعني التعاملَ مع كل رابطٍ باعتباره ذا معنًى بشكل افتراضي.

تخيَّل أن أحدَ أسلافنا الأوائلِ يسير في الغابة في أحد الأيام عندما يسمع صوتَ خشخشةٍ بين الأشجار، وتتوقَّف كل الطيور في المكان عن الزقزقة. فتفسيرك للأمر بأنه مجرد مصادفة، أو قضاء وقتٍ أطول من اللازم في التفكير في تفسيرات محتملة، يمكن أن يكون خطأً باهظ التكلفة. فربما كان هناك حيوانٌ مفترس بالمكان. وكلما تحسنت قدرة أسلافنا الأوائل على رصدِ الأنماط والاستنباط السريع للأسباب المنطقية، زادت قدرتُهم على البقاء وتمرير جيناتهم التي تميل إلى استنباط الأنماط. وموروثُ أسلافنا الذي انتقل إلينا هو دماغٌ مبرمَج على رؤيةِ المصادفة واستنباط الأسباب.

وفي أغلب الأحيان، يخدمنا فرطُ حساسيتنا للأنماط والأسباب بشكل جيد. فبالاستعانة بشيءٍ يسيرٍ من التمهُّل أو التدبُّر الواعي، نتعلم باستمرارٍ طبيعةَ العالم من حولنا وكيف يعمل، حتى عندما لا نعلم بالضبط سببَ عمله على هذا النحو أو ذاك. تأمَّل العلاقة بين السبب والنتيجة: الضغط على زرٍ والحصول على إجابة. وأنا أسيرُ نحو مكتبة نيويورك العامة من أجلِ استكمال أبحاثي بشأن هذا الكتاب، أمرُّ على زرٍّ عبور المشاة. إنه عند ناصية شارع فورتي فيرست وجادة فيفث أفنيو، المواجهَين للأسدين الحجريَّين الكبيرين اللذَين يرقدان في هدوءٍ خارج المكتبة، في وضعيةٍ تسمح للسائحين بالتقاط الصور معهما أيام الإجازات. أضغط على الزر. وبعد مرور لحظات، تتحوَّل الإشارة المرورية في جادَّة فيفث أفنيو من اللون الأخضر إلى اللون الأحمر. تتوقَّف جميع المركبات، وأواصل طريقي. حتى بالرغم من أن الآلية الفعلية لا أعلم عنها شيئًا — سحرٌ غيرُ مرئي من نوعٍ ما يحدث بين الزرِّ والإشارات — لا أهتم باستنباط الارتباط السببي. فأنا أضغط، والإشارة تتحول إلى اللون الأحمر. علاقة سبب ونتيجة.

وكما أوضح مايكل لوا في مقالةٍ نُشرت عام ٢٠٠٤ بصحيفة «نيويورك تايمز»، فإن المشكلة هي أن «المدينة عطَّلت أغلب أزرارِ عبورِ المشاة منذ وقتٍ طويل». فالتحكُّم في

المرور بكفاءةٍ في أرجاء مدينةٍ كبيرةٍ مهمةٌ شاقة ومعقَّدة. فحتى يستمرَّ كل شيء في المسير، يجب أن تعمل الإشارات المرورية وفقَ جدولٍ زمنيٍّ مصمَّم بدقةٍ وعناية. فإذا مُنح الناس سُلطةَ تحديد التوقيت الذي تُضيء فيه إشارة المشاة، فإن المشاة غيرَ الصَّبورين مثلي ربما يُفسدون كل شيء. وربما تُشل الحركة في المدينة. ولذا ففي ثمانينيَّات القرن العشرين، تحوَّلت وزارة النقل في هدوءٍ إلى نظامٍ أوتوماتيكي بالكامل، وعُطِّلت كلُّ الأزرار تقريبًا.

وقد أُزيل الكثير من الأزرار المعطَّلة خلال التجديدات الإنشائية بمرور السنين. ولكن قرَّر مسئولو المدينة أن التوجُّه إلى كل زرٍّ وإزالته لا يستحق التكلفة. ولذا بقي الكثيرُ منها على حاله، لتُغري كلَّ عابر للطريق غيرَ واعٍ بالضغط عليها، حتى بالرغم من أن إشارة السير تُضيء عند فواصل زمنية ثابتة، سواءٌ ضغط أحدهم على الزر أو لم يضغط.

والأمر نفسُه ينطبق، فيما يبدو، على زر «غلق الأبواب» في المصاعد. كتب نيك باومجارتن في مقالةٍ نُشرت عام ٢٠٠٨ في صحيفة «نيو يوركر»: «في معظم المصاعد، على الأقل في تلك التي بُنيت أو رُكِّبت منذ أوائل التسعينيَّات، لا يعمل زرُّ غلق الأبواب.» واستطرد: «هي موجودة هناك في الأساس لكي تجعلك تعتقد أنها تعمل.» أحد التفسيرات المحتملة يشبه تفسير المشكلة المرورية: حتى تبقى أوقاتُ الانتظار في حدود المعقول، يجب أن تعمل المصاعد في الأبنية المزدحمة كمجموعةٍ متكاملة، بحيث تنقل الناسَ صعودًا ونزولًا في تناغُم. فالناس الذين يُحاولون اختصار زمن رحلتهم بضعَ ثوانٍ يمكن أن يُخِلُّوا بالإيقاع كاملًا؛ ولذا فإن مفتاح غلق الأبواب لا يعمل إلا إذا كنتَ رجلَ إطفاء أو عاملَ صيانة لديه مِفتاحٌ خاص. على الأقل، هذا أحد التفسيرات. وفقًا لتحقيقٍ أجرَته صحيفة «ذا ستريت دوب»، ثمَّة تفسيرٌ آخرُ محتمل وهو أن الزر قد انكسر، أو أنه لم يكن قد رُكِّب من الأساس، ولم يتقدم أحدٌ بشكوى. وعلى أي حال، يعلم المعماريون ومُصمِّمو المصاعد أن حمْل الناس مئاتِ الأقدام صعودًا ونزولًا على عمودٍ مظلِم بداخل صندوق معدِني يتدلَّى من أحد الكبلات يمكن أن يكون أمرًا مقلقًا؛ لا سيما عندما لا يكون لدينا تحكمٌ تقريبًا في العملية. ولذا فهم يتركون زرَّ غلق الأبواب الذي لا يعمل في مكانه كخدعة حسَنة النية؛ زرٌّ تمويهي يوهم الناس بأنهم مسيطرون على الأمر.

وتفلح الحيلة. فنحن نضغط الزر؛ وتنغلق الأبوابُ في نهاية الأمر؛ تُخبرنا أدمغتنا أن الضغط على الزر هو ما يتسبَّب في غلق الأبواب. (وعندما لا تنغلق الأبواب في اللحظة التي نضغط فيها على الزر، نضغط عليها ضغطاتٍ سريعةً متتالية ظنًّا منا عادةً أن ذلك سيُحقق النتيجة المطلوبة.) وإلى أن يخبرنا أحد الأشخاص المتظاهرين بالمعرفة بأن الزرَّ

قد لا يعمل، لا يكون لدينا ما يُبرِّر حتى مجرد التفكير في الاحتمالية. الغرض الوحيد من الزر في الحياة هو إغلاق أبواب المصاعد قبلَ الوقت الذي يُفترَض أن تنغلقَ فيه دون الضغط على الزر، ومَن يمكن أن يشكَّ أن مهندسي المصاعد متورِّطون في هذه الخدعة العامة الكبيرة؟ ومع ذلك، إذا لم تكن أدمغتنا قادرةً على رصد الأنماط بهذه السرعة والقفز إلى استنتاجات سببيَّة، لانكشفَت الحيلة من أول مرة يضغط أحد الناس على زرٍّ لا يعمل.

تلك هي الطريقة التي تُولد بها الخرافاتُ التي لا حصرَ لها، بدءًا من الأشياء التي تجلب الحظَّ وصولًا إلى معالجة الداء بالداء. فقد ترتدي جوربَيك الخصوصيَّين من أجل مقابلةٍ لوظيفة، وتحصل على الوظيفة، وتتناول دواءً وهميًّا فيزول البردُ عنك. في كلتا الحالتين، لا علاقةَ للنتيجة التي حدثَت بما فعلتَ، لكن دماغك لا يستطيع أن يمنع نفسَه من ربط الأشياء بعضها ببعض، وافتراض أن هذا الشيءَ أو ذاك هو ما تسبَّب في النتيجة التي حدثت. ويمكن أن يعجزَ المرء عن مقاومة هذا الوهم.

هذا صحيح، وهذا صحيح، ولا صلة بينهما

كتبت سيتفاني ماسنجر تقول: «كأمٍّ شابة، أردتُ مثلَ كلِّ الأمهات أن أبذل قصارى جهدي في العناية بمولودي الجديد.» كانت تُرضع طفلها رضاعةً طبيعية وتحمله لفحوصات طبية منتظمة. وعندما علمت بأنه قد حان الوقتُ لتلقِّيه بعضَ التطعيمات، حرَصَت على التوجُّه به إلى الطبيب في اليومِ ذاتِه. تقول ماسنجر إنه لم يُبلغها أحدٌ في العيادة الطبية بالآثار الجانبية المحتملة أو الاستجابات السلبية، ولم يخطر ببالها أن تسأل عن ذلك.

لقد التقَينا ماسنجر في الفصل الثاني. هي مؤلفة كتاب «حصبة ميلاني المذهلة». عندما لفت كتابُها الأنظارَ، في أعقاب تفشِّي الحصبة في ديزني لاند في نهاية عام ٢٠١٤، أصبحت ماسنجر هدفًا للسخرية والنقد اللاذع. فعلى موقع أمازون دوت كوم، تلقَّى الكتاب مئات التعليقات الساخرة. فقد أعلن المعلِّقون أنهم لا يُصدِّقون أن ثمَّة شخصًا يتردَّد في تطعيم أطفاله. لكن مثل الكثير من الآباء القلقين من التطعيمات، لم تكن ماسنجر تُعارض دائمًا اللقاحات. فقد شكَّلت المأساةُ مخاوفها.

في عام ١٩٩٨، كتبَت ماسنجر مقالةً تصف فيها مولودها الأول كرضيعٍ سعيد قلَّما يبكي؛ إلى أن جرى تطعيمه. وقالت ماسنجر: «لقد ظل يصرخ ويبكي بقيةَ اليوم وقضى ليلته دون أن يغمض له جَفن.» ثم استطردَت قائلةً إنه أخذ يتعافى فيما يبدو بعد ذلك إلى أن تلقَّى جرعات جديدة بعد مُضيِّ أربعة أشهر. وتوضِّح ماسنجر أن طفلها «كان يصرخ

بصوتٍ أعلى هذه المرة. أخذْته إلى المنزل، ولم أكن قادرةً على تهدئته على الإطلاق. كنت أُرضعه من ثديي وكان يتقيَّأ على الفور (وهو شيء لم يكن يفعله أبدًا)، وقد استمر في الصراخ.» ووصفت ماسنجر حالته بقولها إنه بدأ في تقويس ظهرِه وأخذت عيناه تدوران في مُقلتَيهما وجسده يرتعش. وبعد شهور من الفحوصات، عجز الأطباء عن تحديد السبب، لكنَّ احتمالات مسار مرَضه لم تكن مبشِّرة على الإطلاق. عادت ماسنجر بولدها إلى البيت «وأخذتُ أراقبه وهو يحتضر أمام ناظري إلى أن فارق الحياة بعد ستة أشهر.»

وقد عجزت عن عدم الربط بين الأمرَين على ما يبدو. تقول ماسنجر: «تبدَّلت حياة ولدي جاسون تمامًا من اليوم الذي تلقَّى فيه التطعيم.» وظلت المصادفة عالقةً في ذهن ماسنجر، بانتظار تفسير. ثم بعد انقضاء أربعة أعوام، كانت تُشاهد بَرنامجًا حواريًّا أمريكيًّا ذا شعبية باسم «ذا فيل دوناهيو شو». كانت حَلْقة ذاك اليوم عن التطعيم. وتذكر ماسنجر أن أحد الضيوف، وهو طبيب أطفال، حذَّر من مخاطر التطعيم، وقال إن الأمر لا يستدعي تلقِّيَ اللقاحات. وقال اختصاصيٌّ في طب أعصاب الأطفال إن أغلب أطباء أعصاب الأطفال يرفضون إعطاءَ أطفالهم التطعيمات. كتبت ماسنجر تقول: «لقد صُعِقت.» كان هذا هو التفسيرَ الذي كانت بانتظاره. وبهذه الطريقة يكون النمط قد اكتمل في النهاية. فالمصادفة أمكنَ تفسيرها. فقد علمت أن اللقاحات هي التي تسبَّبَت في مرض ابنها.

باربرا لو فيشر، ناشطةٌ أخرى بارزة في مجال مناهضة اللقاحات وقد التقَينا بها في الفصل الثاني، كانت لها تجرِبةٌ مشابِهة. لقد اعترفَت نادمةً في مقالةٍ نُشرت عام ٢٠٠٤ في مجلة «ماذرينج» إذ قالت: «وثقتُ دون تشكُّك عندما أخذتُ طفلي الرضيع إلى طبيب الأطفال من أجل تلقِّي جرعات التطعيم في أواخر سبعينيَّات القرن العشرين.» وعندما بلغ ابنها كريس عامَين ونصف العام، أخذته فيشر لتلقِّي تطعيمٍ ثلاثيٍّ روتيني. وكتبت تقول إنه في غضون ساعات من تلقِّي الجرعة، أصبح ولدُها «طفلًا مختلفًا تمامًا.» فعند عودتها إلى المنزل ذاك المساء، لاحظَت أن المنزل كان هادئًا على غيرِ العادة؛ لذا صعدت إلى الطابق العلوي للاطمئنان على كريس. «دلفتُ إلى غرفةِ نومه لأجده جالسًا على كرسيٍّ هزاز يُحملق أمامه مباشرة، كما لو كان عاجزًا عن رؤيتي واقفةً عند باب الغرفة. لقد ابيضَّ وجهه وازرقَّت شفتاه بعض الشيء. وعندما ناديتُه باسمه، رفَّ جفناه، وزاغت عيناه، ومال رأسُه على كتفه.» تقول فيشر إن التغييرات استمرت على مدار الأسابيع التالية. فقد أصبح كريس يجدُ صعوبةً في الانتباه إلى الأشياء، كما أصبح عاجزًا عن تذكُّر الحروف الأبجدية أو الأعداد. «ولَدي الصغير، الذي كان سعيدًا للغاية، لم يَعُد يبتسم.» وفي النهاية،

كما تروي فيشر، شُخِّصت حالةُ كريس بأنه «يُعاني تلفًا دماغيًّا طفيفًا، بما يشمل إعاقاتٍ متعددةً في التعلم واضطراب نقص الانتباه.»

بعد مُضي عامٍ ونصف، شاهدَت فيشر «مقامرة اللقاحات»، وهو فيلم وثائقي أشار ضمنيًّا إلى أن مكوِّن السعال الديكي في التطعيم الثلاثي سبَّب تلفًا دماغيًّا لدى مئات الأطفال. وأمكن تفسيرُ المصادفة. فقد كتبَت لاحقًا تقول: «لقد نجا كريس من الاستجابة التي يُصدِرها الجسم عند تلقِّي اللقاح.» وتابعَت: «إنه من بين الجرحى الذين يسيرون على الأرض، والذين يتأثَّر مستقبلهم سلبًا في مرحلة الطفولة عندما يتضح أن مخاطرَ التطعيم نسبتها ١٠٠٪.»

المجتمع الطبي لديه تعبيرٌ يُذكِّر المنتسبين إليه بعدم الخلطِ بين المصادفة والسبب: «هذا صحيح، وهذا صحيح، ولا صلةَ بينهما.» فصحيحٌ أن أعراض اضطرابات النمو مثل التوحُّد كثيرًا ما تصبح واضحةً بين سن عامٍ وعامَين. وصحيح أيضًا أنه إذا كان الآباء يتَّبعون الجدول الزمني الموصى به للتطعيمات، فإنَّ أطفالهم يتلقَّون عددًا كبيرًا من اللقاحات في الوقت ذاتِه. لكن الجزء الأكبر من الأدلة العِلمية يُشير إلى أنه لا يوجد ثَمة ارتباطٌ بين الأمرين. فالرابط ليس سِوى مصادفة في التوقيت. لكن حَدْسنا قلما يتأثر بالإحصائيات، لا سيَّما عندما تُخبرنا بأنه لا معنًى للمصادفة. فحدسنا يُريد الربط بين الأجزاء المتناثرة واستخلاص النتائج.

ووفقًا لدراسةٍ بحثية أُجريت عام ٢٠٠٩، ذكر أكثرُ من نصف الآباء الأمريكيِّين أنهم يخشَون أن تتسبَّب اللقاحات في أعراضٍ سلبية خطيرة. واعتقد ربعُ المشاركين أن بعض اللقاحات يمكن أن يُسبِّب التوحُّد لدى الأطفال الأصحاء. واستنادًا إلى كوننا عُرضةً لأوهام النمط والسبب، ليس من الصعب معرفةُ الأسباب. فالإنترنت مصدرٌ مهم للمعلومات بالنِّسبة إلى الكثير من الآباء، وبضع نقرات بالفأرة يمكن أن تُتيح لنا عددًا لا حصرَ له فيما يبدو من القصص والأخبار، مثل قصة ماسنجر وفيشر، لآباء على قناعةٍ بأنه قد حدث أمام أعيُنهم تحولٌ في الحالة الصحية لطفلهم الذي كان سليمًا في السابق بعد أن تلقَّى اللقاح. وببضعِ نقرات إضافية، يُمكننا أن نُطالع حركةً للآباء والمثقَّفين والخبراء ومجموعة من العلماء الموثوقين على ما يبدو، والذين يقولون جميعًا إن ثَمة ارتباطًا بين تلقِّي الأطفال اللقاح وما أصابهم من ضرر.

ويمكن أن يكون وهمُ السبب قويًّا لدرجةٍ أنه يبدو كما لو أنه ينبغي أن يكون بديهيًّا لكلِّ الآخَرين مثلما هو بديهيٌّ بالنِّسبة إليك. ونتيجةً لذلك، يمكن أن يكون مغريًا الاعتقادُ بأن أي شخص يُنكر وجود رابط بين اللقاحات والتوحُّد قد يكون كاذبًا؛ وأن ثمة مؤامرةً لإخفاء الخطر الأكيد للقاحات. في عام ٢٠٠٩، أجْرَت آنا كاتا اختصاصيةُ علم الأنثروبولوجيا الطبي دراسةً بحثية شاملة عن المعلومات الزائفة بخصوص اللقاحات على شبكة الإنترنت. وكانت النتائجُ لافتة. فكل موقعٍ إلكتروني أجْرَت كاتا تحليلًا له كان يزعم بطريقةٍ ما أو بأخرى أنَّ ثَمة مؤامرةً في الأمر. ولم تكن المواقع التي اختارتها مغمورة؛ فجميعُها جاءت في الصفحة الأولى من نتائج البحث التي جرى التوصُّل إليها بكتابة مصطلحاتٍ محايدة على جوجل مثل «اللقاح» و«التطعيم». وتقوم نظريات المؤامرة مقامَ العامل الحفَّاز في جنون الارتياب. ووَفقًا لدراسةٍ أُجريت عام ٢٠١٤، اعتقد خُمس الأمريكيين البالغين — وليس الآباء وحدهم — أن الأطباء والحكومة يتآمَرون لتطعيم الأطفال حتى بالرغم من أنهم يعلمون أن اللقاحات تُسبِّب التوحُّد وغير ذلك من الاضطرابات النفسية. وقال ٣٦٪ غيرهم إنهم ليسوا متأكِّدين من ذلك. واحتدم السِّجال، الذي أشعلَته نظريات المؤامرة وأطلق شرارته، وهمُ السبب.

ليست الحركة المناهضة للَّقاحات فريدةً من حيث كونُها تخلق مؤامرةً من مصادفة. فحتى المصادفات، التي هي أضعفُ مئات المرات من الرابط الوهميِّ بين اللقاحات والتوحُّد، يُنظَر إليها على أنها تنطوي على القدرِ نفسِه من الشرِّ عندما يُنظر إليها بالمنظور المؤامراتي. فسواءٌ كانت تلك المصادفة هجومًا إرهابيًّا يؤدي إلى حربٍ متخبطة، أو علَمًا يرفرف على سطح قمر ليس به هواء، أو فتْحَ مظلةٍ بجانب رئيسٍ تعرَّض للاغتيال، فإن المصادفات هي شريانُ حياة نظريات المؤامرة.

أفضل أصحاب نظريات المؤامرة يبحثون بهِمة عن أشياءَ غريبةٍ يتعذر تفسيرها على ما يبدو لاعتبارها أدلةً على وجود مؤامرة. في الواقع، ربطُ الأجزاء المتناثرة واستخلاصُ النتائج منها هو شعار أصحابِ نظريات المؤامرة. وكمثالٍ على ذلك، تأمَّلْ كتاب ديفيد أيك لعام ٢٠٠٧ المعنوَن «دليل ديفيد أيك للمؤامرة الدولية (وكيف يُمكن إنهاؤها)». درست إيما جين وكريس فلمينج كتاب أيك، وأحصَيا عدد المرات التي ذكر فيها كلمة «ربط» أو مشتقاتها (مرتبط، رابط، روابط وما إلى ذلك). وقد وجَدا سيلًا من تلك الكلمة ومشتقَّاتها؛ فأكثر من ٢٠٠ من صفحات الكتابة البالغة ٦٢٥ ذُكر فيها ربط الأجزاء المتناثرة، وفي كثيرٍ من هذه الصفحات، ذُكرت العبارة أكثرَ من مرة. فمثلًا في الفقرات

القليلة الأولى، يقول أيك لقرَّائه: «يمكن رؤيةُ الصورة الكلية فقط عندما يتمُّ الربط بين الأجزاء المتناثرة.» وعندما بدأ أيك مجموعةَ مقاطعِ فيديو على يوتيوب في عام ٢٠١٤، التي أخذ يفحص فيها الصحفَ الأسبوعية باحثًا عن إشاراتٍ تدل على المؤامرة، لا بد أن اختيار العنوان كان سهلًا. فقد أسمى مجموعةَ مقاطعِ الفيديو «ديفيد أيك وربط الأجزاء المتناثرة».

«فقاقيع في الملابسات الظاهرة»

هذا ينقلنا إلى حيث بدأنا: المظلَّة المفتوحة واغتيال الرئيس. ثَمة جزآن يُغريانِنا بإيجاد رابط بين الأمرَين. فقد رصد الكاتب جون أبدايك الإغراء الذي لا يُقاوم لرجل المظلة في عمودٍ بصحيفة «نيو يوركر» عام ١٩٦٧، واصفًا إياه بأنه «غريب ومشئوم على حدٍّ سواء، فهو يتدلَّى في عنق التاريخ مثل تميمة».

وبعد مضيِّ ١٥ عامًا من التكهُّن، حُلَّ اللغز. ففي عام ١٩٧٨، كان مجلس النواب الأمريكي في خضمِّ تحقيقٍ متجدِّد عن اغتيال كينيدي، وقد تولَّت هذا التحقيقَ لجنةُ التحقيق في الاغتيالات التابعة للمجلس. سعيًا إلى تعقُّب رجل المظلة، أفرجَت اللجنة عن صورةٍ للصِّحافة، طالبةً من أي شخص يعرف هذا الرجلَ التواصلَ مع اللجنة. وأخيرًا، بعد إبلاغِ أحدِ أصدقائه عنه سرًّا، كُشِفت هُوية رجل المظلة. فهذا الشخص الغامض الذي حمَل المظلَّة الغريبة، هذا الرجل الذي كان يقف وراءَ اللغز الذي ظل يُراود المهتمِّين بعملية الاغتيال لسنوات، اتضَح أنه مندوبُ مبيعات في مجال التأمين ويُدعى لوي ستيفن ويت.

لم تُراوغ اللجنة. فقد طرح أحد أعضائها سؤالًا مباشرًا على الرجل: «هل المظلة التي كانت بحوزتك في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ احتوَت على بندقيةٍ أو سلاحٍ من أي نوع؟» أغمض الرجل عينَيه وأحنى رأسه قليلًا، وهزَّها من جانبٍ إلى جانب نافيًا: «لا.» الشيء المدهش أن ويت كان لا يزال يحتفظ بتلك المظلَّة. فقد كانت موضوعةً على المنضدة بجانبه، واعتُبرت حِرزًا من الأحراز تحت رقم ٤٠٥. وقد طُلب من سيدةٍ شابةٍ في اللجنة أن تفتح المظلة من أجل فحْصها. وبينما بدأت تبسطُها باتجاه أعضاء اللجنة الجالسين، علَّق رئيس اللجنة قائلًا: «ربما يتعين عليك التحولُ في هذا الاتجاه بها.» وأومأ بذلك إلى المكان المخصَّص للصِّحافة. وبينما انفجرت القاعة في الضحك، انبسطت المظلةُ بقوة، كما لو كان قد أصابها ريحٌ فجأة. اختتم رئيس اللجنة قائلًا بنبرة إحباط: «أظن أنه لم يكن يوجد سلاحٌ بداخلها.»

لذا إذا لم يكن ويت قد أطلق الرَّصاص على الرئيس، فماذا كانت قصته؟ عند استجوابه، اعترفَ الرجل بأنه كان بالفعل في حديقة ديلي بلازا. كما اعترف أنه كان يحمل مظلةً بالفعل. واعترف أيضًا أنه تصرَّف في حقيقة الأمر بشكلٍ غريب وهو يحملها. وقال إنها كانت في واقع الأمر إشارة؛ ولكنها لم تكن موجَّهةً لأيِّ متآمر. فتصرفه الغريب كان إشارةً منه أراد أن يوصلها إلى الرئيس كينيدي نفسِه.

أخبر ويت اللجنةَ قائلًا: «في محادثةٍ خلال استراحةِ تناول القهوة، ذكَر أحدهم أن المظلة تُثير غضبَ أسرة كينيدي. وبوصفي شخصًا محافظًا، وضعتُه، بدرجةٍ ما أو بأخرى، في المعسكر الليبرالي وكنتُ عازمًا على مناكفته فحسب.» عمل جوزيف كينيدي، والد جون كينيدي، سفيرًا للولايات المتحدة في إنجلترا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وقد تعرَّض لانتقادٍ لاذع بسببِ دعمه موقفَ رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين المُسترضي لهتلر. وقد لُوحظ أن تشامبرلين اعتاد حمْلَ مظلةٍ سوداء. واتساقًا مع ذلك، أصبحت المظلة رمزًا للاسترضاء، وربما أصبحت شوكةً في حلق أسرة كينيدي. ولم يكن أيٌّ من هذا يعني ويت؛ فقد قال إنه ليس لديه أيُّ مشاعر مناوئة للاسترضاء أو حتى سياسات كينيدي ذاتها. كل ما هنالك أنه تصادفَ أنه كان يحمل مظلةً سوداء، وتصادف مرور كينيدي في المدينة. لم تكن هناك مؤامرة، كلُّ ما في الأمر مناكفة قائمة على نَزْوة.

لو كان هناك درس يُمكننا استفادته من قصةِ رجلِ المظلة، فهو أن الحقيقة تكون أحيانًا أغربَ من أي شيء يمكننا تخيُّله. فرغبتنا الراسخة اليائسة في تفسيرِ ما يتعذر تفسيرُه يمكن أن تجعلَنا نضلُّ الطريق ونتخبطُ في منعطفاتٍ مظلمة. وقد تساءل أبدايك: «ما إذا كان أي تدقيق مشابه لأي جزء ضئيل جدًّا من الزمان والمكان قد يتمخَّض عن شيء غريب مشابِه؛ فجوات، صور من عدم الاتساق، التواءات، وفقاقيعُ في الملابسات الظاهرة.» بالطريقة التي تُفسح بها قوانينُ الفيزياء العادية المجالَ أمام الغرابة الكمِّية تحت مجهرٍ قوي بما فيه الكفاية. وقد كتب يقول: «الحقيقة المتعلقة بتلك الثواني في دالاس مراوِغة بشدَّة.» واستطرد: «البحث عنها يُظهِر، فيما يبدو، إلى أيِّ مدًى أصبح المذهبُ التجريبيُّ على مقربة شديدة وخطيرة من السِّحر.»

إن قدرتنا على رؤيةِ معنًى في شيءٍ فوضوي، هي بحقٍّ نوعٌ من السحر. بدءًا من التوصُّل إلى مضاهاةٍ ملائمة وصولًا إلى ابتكارِ تقنياتٍ جديدة تُغيِّر وجه الحياة، يعتمد التفكير الإبداعي على رصد الروابط. وهذا هو الركيزة الأساسية للعلم أيضًا. فالتعلم عن

الواقع هو تدريبٌ على إيجادِ أنماطٍ في البيانات، وفرزها لمعرفةِ الحقيقيِّ منها والعشوائي. والدماغ الذي يميل إلى رؤيةِ المعنى لا العشوائية أحدُ أهم موجوداتنا. والضريبة التي ندفعها هي الربط في بعض الأحيان بين الأجزاء المتناثرة التي لا صلة بينها في واقع الأمر.

من جانبه، زعم ويت أنه لم يكن لديه أدنى فكرة أن «مناكفته البسيطة» جعلته شخصيةً بارزةً في الكثير من نظريات المؤامرة. ومن الواضح أنه لم يكن يشعر بالارتياح إزاءَ هذا الاهتمام، وأنه نادم بطبيعة الحال على مناكفةِ كينيدي في اللحظة التي تصادف أن قُتل فيها وسطَ الناس. قال ويت منتحبًا: «أعتقد لو أن موسوعةَ جينيس للأرقام القياسية كان لديها قائمةٌ بأسماء الأشخاص الذين يظهرون في المكانِ الخطأ في الوقت الخطأ ويفعلون الشيءَ الخطأ، لكنتُ متصدرًا هذه القائمة، دون أن يقترب حتى من مرتبتي أيُّ منافس آخر.»

الفصل التاسع

المفتشون في النوايا

بينما كانت رحلةُ الخطوط الجوية الماليزية رقم ٣٧٠ تُغادر الأجواء الماليزية في الساعات الأولى من فجر ٨ مارس ٢٠١٤، تمنَّى طيَّاروها بهدوء ليلةً هانئة للعاملين في المراقبة الجوية في كوالالمبور؛ وهو إجراء معتاد لتسجيل الخروج اللاسلكي. كانت الطائرة قد غادرت مطار كوالالمبور الدولي قبل ذلك بـ ٤٠ دقيقة، متوجهةً إلى العاصمة الصينية بكين. لكن الرحلة إم إتش ٣٧٠ لم تصل قط إلى وجهتها. فقد اختفَت الطائرة وعلى متنها ٢٢٧ راكبًا وطاقمها المكوَّن من ١٢ فردًا. وعلى مدار أيامٍ، غطَّت القنوات الإخبارية الخبر على مدار ٢٤ ساعة دون توقُّف. ومع ذلك، أنا أكتب الآن بعد مرورِ عامٍ على اختفاء الطائرة، ولم يُعثر على أثرٍ للطائرة أو مَن كان على متنها من الركاب إلى الآن.

لكن لماذا ندَع قلةَ الحقائق تقف حجرَ عثرةٍ في طريق اختلاق قصة جيدة؟ في غضون ساعات، انتشرت نظرياتُ المؤامرة حول مصير الطائرة انتشار النار في الهشيم. هل يمكن أن يكون الجيش قد أطلق عليها نيرانه، أو اختطفها العملاء الحكوميون؟ هل كانت الطائرة تحمل على متنها شحنةً سريةً ما تستحقُّ بسببها أن يتم إسقاطها؟ هل هبطت الطائرة في موقعٍ سريٍّ ما؟ هل أُخذ الركاب كرهائن، أم كانوا يُشاركون في إعلانٍ ترويجي غريب لبرنامجٍ سيعرضه تليفزيون الواقع؟ هل اختطفتها كائناتٌ فضائية؟ وبدلًا من نقل الحقائق المهمة، أصبح انتشارُ نظريات المؤامرة قصةً في حد ذاته. فأكثر من ٥٠٠ أمريكي أجرت شبكة «سي إن إن» استطلاعًا للرأي معهم بعد انقضاء شهرَين من اختفاء الطائرة، اعتقدوا أن الطائرة قد اختُطفت على الأرجح بواسطةِ عملاءَ سريِّين بأمرٍ من حكومةٍ أجنبية معادية. واعتقد واحدٌ من كل ١٠ مشاركين أنه من المرجَّح أن يكون الجناة «كائنات فضائية أو مسافرين عبر الزمن، أو مخلوقات من بُعد آخر.» وحتى رئيس

الوزراء الماليزي الأسبق، مهاتير محمد، ألمح إلى أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ربما تعرف مكان اختفاء الطائرة المفقودة. فقد كتب يقول: «الطائرات لا تختفي بهذه السهولة.»

لكن إم اتش ٣٧٠ لم تكن الطائرةَ الأولى التي تختفي في ظروفٍ غامضة. ففي ٢ يوليو ١٩٣٧، غادرت أميليا إيرهارت مدينة لاي في غينيا الجديدة؛ وذلك في طائرتها لوكهيد إلكترا ذات المحركين التوءمين. كانت إيرهارت رائدةً في مجال الملاحة الجوية، وواحدة من أكثر النساء استحواذًا على الإعجاب في أمريكا. وقبل هذا التاريخ بخمس سنوات، كانت إيرهارت قد أصبحت أول سيدة تقود طائرة منفردة عبر المحيط الأطلسي. في ذلك الوقت، كانت إيرهارت وملَّاحُها فرِد نونان قد قطعا بالطائرة ثلثي الطريق في رحلةٍ مرهقة حول العالم. وكانت المحطة التالية جزيرة هاولاند، وهي جزيرة صغيرة وسط المحيط الهادئ، يزيد طولها قليلًا على الميل، ويقلُّ عرضها عن نصف ميل، وتبعد بمسافة ٢٥٠٠ ميل. وكان ثمَّة قاربٌ من قوارب خفَر السواحل الأمريكية يقف بالموقع لتوجيه اقتراب إيرهارت بواسطة جهاز اللاسلكي، لكن الاتصال كان مشوشًا. وفي نهاية الأمر، سمِع المشغِّلون اللاسلكيون صوتَ إيرهارت: «لا بد أننا فوقكم، لكننا لا نستطيع رؤيتكم. لكن الوقود كاد ينفَد. لا يُمكننا الوصول إليكم بواسطة اللاسلكي. نحن نطير على ارتفاع ١٠٠٠ قدم.» لقد ضلَّت إيرهارت الطريق، وانخفض مستوى الوقود بالطائرة، ولم يكن هناك سبيلٌ لمساعدتها. وبعد مرتين أو ثلاثٍ من الإرسال العديمِ الجدوى، ساد الصمت. وانطلقت مهمةٌ بحثية ذاتُ نطاق غير مسبوق. وعلى مدار أيام، نقلت الصحف دون توقُّف كلَّ دليل مثير وإحباط ساحق. وبعد مرور ما يقرب من ثمانية عقود، لم يُعثر على أي دليل حاسم على إيرهارت أو نونان أو الطائرة.

غير أنه على مدار السنين، طُرحت مجموعةٌ من نظريات المؤامرة. هل من الوارد أن يكون الطياران الجَسوران عميلين حكوميين سرِّيين، فُتحت النيران على طائرتهما بينما كانا يتجسَّسان على اليابانيِّين في المحيط الهادئ؟ هل اتُّخذت ترتيبات مسبقة لتحطيم الطائرة بما يسمح للجيش الأمريكي بجمع معلومات استخباراتية عن اليابان أثناء مهمة الإنقاذ؟ هل تظاهرت إيرهارت ونونان بأنهما قد قُتلا وعادا إلى الولايات المتحدة سرًّا؟ هل اختطفتهما كائناتٌ فضائية؟ في استطلاعٍ للرأي أُجري عام ٢٠١٢، قال ثلاثة من أصل ١٠ لندنيين إنهم يعتقدون أن تحطُّمًا عرضيًّا في البحر هو التفسير الأرجح وفق تقديرهم؛ لكنَّ دعمَ نظريات المؤامرة كان كبيرًا. فالإجابة الثانية الأكثرُ شيوعًا التي أيَّدها

١٤٪ من المشاركين في الاستطلاع، كانت النظريةَ القائلة بأن إيرهارت ونونان قد أُعدما بواسطة الجيش الياباني؛ وأما الإجابة الثالثة فكانت الفكرة القائلة بأن الطيارَين ادَّعَيا الموت وانتحلا هُويتَين جديدتين.

كثيرًا ما تكون نظريات المؤامرة لصيقةً بكوارث الملاحة الجوية، حتى عندما يكون هناك حُطامٌ موضعَ فحصٍ وتحقيق. ففي ١٠ أبريل ٢٠١٠، تحطَّمت طائرة نفَّاثة تابعة للقوات الجوية البولندية عند محاولتها الهبوطَ وسطَ ضبابٍ كثيف في مطار سمولينسك الشمالي في روسيا. وقد لقي جميعُ الأشخاص الستةِ والتسعين الذين كانوا على متنها مصرَعهم. وكان من بين القتلى الرئيس البولندي ليخ كاتشينسكي وزوجته ماريا ورؤساء أركان الجيش والقوات الجوية والقوات البحرية؛ ورئيس بنك بولندا الوطني؛ ومجموعةٌ أخرى من المسئولين الحكوميين والشخصيات العامة. وكان الوفد متوجهًا إلى سمولينسك لحضورِ مراسمِ إحياءِ ذكرى مجزرة كاتين التي وقعت عام ١٩٤٠، التي أعدَمَت فيها الشرطة السرية السوفييتية ٢٢ ألفَ أسيرٍ بولندي من أسرى الحرب. عزَت التقاريرُ الرسمية الحادثَ إلى سوء الأحوال الجوية وخطأِ الطيار. لكن نظريات المؤامرة حول حادث تحطُّم الطائرة انتشرت في أرجاء بولندا؛ إذ زعم أصحابها أن التحطُّم لم يكن مجردَ صدفة، ولكنه كان عمليةَ اغتيال سياسي دبَّرها الروس.

وفي الولايات المتحدة، تحطَّمت رحلةُ «يونايتد إيرلاينز» رقم ٥٥٣ في ٨ ديسمبر ١٩٧٢، عندما هبط الطيارُ بسرعةٍ بالغة عند اقترابه من مطار شيكاغو ميدواي الدولي. وانطلقت نظرياتُ المؤامرة التي تشير إلى أن الطائرة قد أُسقِطت عمدًا، وذلك عند اكتشافِ حقيقةِ أن دوروثي هانت، زوجة إي هوارد هانت، أحد المتورطين في فضيحة ووترجيت، كانت من بين الركاب الذين قُتلوا على متن الطائرة. وانفجرت رحلة «ترانس وورلد إيرلاينز» رقم ٨٠٠ فوق جزيرة لونج أيلاند بعد ١٢ دقيقة من إقلاعها من مطار كينيدي الدولي في نيويورك في ١٧ يوليو ١٩٩٦. وقد جرى تحقيقٌ استمرَّ أربع سنوات بواسطةِ لجنةِ سلامةِ النقل الوطني، وتمخَّض التحقيقُ عن خللٍ ميكانيكي أدَّى إلى انفجارها، لكن نظريات المؤامرة زعمَت أن الطائرة قد أُسقطت، وقد راجت تلك النظريات. وفي عام ٢٠١٣، تقدَّمت مجموعةٌ بالتماسٍ إلى لجنة سلامة النقل الوطني لإعادة النظر في احتمالية المؤامرة؛ لكن اللجنة فنَّدَت الأدلة ورفضت إعادة فتح التحقيقات.

إلى أن يُكتشَف المزيد من الأدلة، من المستحيل القولُ ما إذا كان اختفاء الطائرة إم اتش ٣٧٠، كان بسبب خطأٍ أو خللٍ أو مؤامرة. وبالنِّسبة إلى الكوارث الأخرى، تُشير

جميع الشواهد إلى أنها كانت حوادثَ مأساوية. ومع ذلك، كلما تحطَّمَت أو انفجرت أو اختفَت طائرة، تبِع ذلك انطلاقُ نظريات المؤامرة. فلماذا عندما نُواجه أحداثًا مزعجة أو يكتنفها الغموض، يكون من المغري للغاية أن نعتقد أن ثَمة شخصًا أو جِهةً ما تقف وراءها؟ لمعرفة الإجابة، نحن بحاجة إلى استكشاف إحدى أكثرِ قدراتِ الدماغ إذهالًا.

قراءة العقول

أنت تملك قوةً خارقة: يمكنك أن تقرأ ما يدور بالعقول. لكن قبل أن تغترَّ بنفسِك كثيرًا، أودُّ أن أُشير إلى أنني أيضًا قارئٌ للعقول، وهكذا الحال بالنِّسبة لكل مَن تعرفهم. لا أقصد أننا نسمع حرفيًّا ما يدور بأذهان الآخرين من أفكارٍ على طريقةِ ميل جيبسون في فيلم «وات ويمين وونت» (ما تريده النساء). فهذا سيكون أمرًا مروعًا. نحن أقربُ ما يكون إلى شيرلوك هولمز؛ نحن محقِّقون بارعون، لدينا دافعٌ فطري قوي لا يهدأ يحثُّنا باستمرار على محاولة استنتاج ما يُفكِّر فيه الآخرون. دعني أوضح لك الأمر:

هل ترى تلك الفتاةَ الصغيرة؟ تعرف ما تفكِّر فيه، أليس كذلك؟ إنها غاضبةٌ من شيءٍ ما. بل يُمكنك أيضًا أن تتنبأ بما ستفعله بعد ذلك؛ فالأرجح أنها ستقول كلماتٍ غاضبة وتخبط بقدمَيها على الأرض في استياء. في كتابه «التفكير السريع والبطيء»، يُقدم دانييل كانيمان هذه الصورةَ كمثال لمدى سعينا الدائم لاستكشاف الأفكار التي تدور في عقول الآخرين. فحتى بالرغم من أنه لا يتوفَّر لديك سوى صورةٍ صغيرةٍ باللونَين الأبيض والأسود لوجهِ شخصٍ غريب، تَعرف بالغريزة تقريبًا ما يدور في عقل هذا الشخص، بل وتتنبَّأ بسلوكه المستقبلي. والأكثر من ذلك، أن الأمر لا يتطلب منك جهدًا على الإطلاق. فدماغك يقرأ تلقائيًّا الحالةَ الذهنية لهذه الفتاة؛ استنادًا إلى تعبيراتها ولغتها الجسدية. يقول كانيمان إن الأمرَ يُشبه شيئًا قد حدث لك أكثرَ من كونه شيئًا يتعيَّن عليك التفكيرُ فيه. فأنت ترى أنها غاضبةٌ دون جهدٍ منك مثلما ترى أن شعرها داكنُ اللون.

لكن بقدْر ما تُعَد ملَكةُ قراءة العقول شيئًا جيدًا، كثيرًا ما نُخطئ في استخدامها. فحَدْسنا قد يخدعنا ويُضللنا. فأحيانًا لا نكون مثلَ شيرلوك هولمز، بل نصبح أكثرَ شبهًا بالمفتش كلوسو الذي يفتقر إلى البراعة. ولكي نفهمَ علاقةَ قراءة العقول بتصديق نظريات المؤامرة، نحن بحاجةٍ إلى أن نفهم آليةَ عمل قوَّتنا الخارقة هذه، والأهم من ذلك، الكيفية التي يمكن أن تُخطئ بها تلك المَلَكة.

رادهاراني/شاترستوك دوت كوم.

فلنبدأ بالأساسيات. تعتمد قدرتُنا على قراءةِ العقول على مجموعةِ أدواتٍ معرفية يُطلق عليها علماء النفس (بطريقةٍ غيرِ منمقة إلى حدٍّ ما) «نظرية العقل». فنظرية عقلك هي التي تُخبرك بأن الرجل الجالس بجوارك في الحافلة ليس مجردَ روبوتٍ خاملِ التفكير. فرأسه مليءٌ بالمعتقدات والأفكار والرغبات والمشاعر والمعرفة والقدرات والميول. باختصار، هو لديه عقل، مثلك تمامًا. كما تُخبرك نظريةُ عقلك بأن ما يشعر به ويُصدِّقه ويريده قد يكون مختلفًا عن الأشياء التي تشعر بها وتُصدِّقها وتريدها، وأنه قد يكون مفيدًا إذا استطعتَ فهْم ما يدور بعقله.

الجزء الخادع في الأمر هو أننا لا نستطيع أن نرى ما يدور برأس شخصٍ آخَر. فمن جانبٍ، هناك شعرٌ كثيفٌ يغطي رأسه. ونحن لا نرى سوى أفعاله ولا نسمع سوى ما يقول. وهنا يأتي دورُ ما نتمتَّع به من قُوًى استدلالية. فلكي نفهمَ ما يدفع شخصًا ما لأن يقولَ أو يفعل شيئًا ما، يجب أن نبحث الأمرَ عكسيًّا بدءًا من الفعل الذي استرعى انتباهنا (أو علمنا به) وصولًا إلى الأفكارِ والرغبات التي قد يتصرَّف هذا الشخص بناءً عليها.

هذا التفكير العكسي تُعالجه أداةٌ حاسمة ضمن مجموعةِ أدوات نظريات عقولنا. ولْنُطلق على هذه الأداة مِكشافَ النوايا. يُخبرنا مِكشاف النوايا ما إذا كان شيءٌ ما متعمَّدًا (هل قصده شخصٌ ما؟) ويُخمِّن ماذا كانت نيتُه بالضبط (لماذا أقدم على هذا الفعل؟). تلك هي الكيفية التي نستطيع بها سَبْر أغوار رءوس الآخرين. فالنوايا قنطرةٌ حاسمة بين الأفعال التي يمكن أن نراها والأفكارِ غيرِ المرئية التي قد تُمثل الدافع وراء تلك الأفعال. فمثلًا ترى سوزي الصغيرة تقطِّب حاجبَيها وتزمُّ شفتَيها، ويُخبرك مكشاف النوايا الخاص بك، كما السحر، بأنها في حالةٍ مزاجيةٍ سيئة.

قد لا يبدو هذا إلى الآن قوةً خارقة. فبطبيعة الحال، لدى الآخرين عقولٌ، وبطبيعة الحال يُمكننا أن نستنتجَ ما يفكِّر فيه شخصٌ ما من خلال الطريقة التي يتصرَّف بها. إنها مهارةٌ طبيعية لدينا، ومن السهل أن نراها شيئًا عاديًّا مسلَّمًا به. لكن تخيَّل ما سيحدث إذا استطعتُ أن أتحكمَ في دماغك وأُطفئ مكشافَ النوايا الخاصَّ بك. سيصير العالَم على نحوٍ مفاجئ مكانًا غريبًا للغاية.

دعني أقُل إنني أطفأتُ مكشافَ النوايا لديك في وقتٍ كنتَ تُشاهد فيه مصادفةً فيلمًا وثائقيًّا عن يومٍ في حياة طبيبة. فأولًا تراها وهي تغرز إبرًا في أذرعِ أطفالٍ رضَّعٍ يبكون. ثم تُمسك بمشرطٍ وتقطع شريحةً من جسدِ شخصٍ ما في مشهد غريب. وبعد ذلك، تُطلق أشعة على جسد شخصٍ آخر. واستكمالًا ليومها، تقضي بضع ساعات في إعطاء نصائحَ وعقاقير للناس. تقول دير بالدوين وجودي بيرد إنه بدون فهمِ النوايا، ربما يصبح مستحيلًا فهمُ الروتين اليومي للطبيبة. فليس لديك أيُّ فكرة عن وجودِ غرضٍ ما من الشيء الذي تفعله. وكل فعل من أفعالها قد يبدو مختلفًا عن فعلها الآخر مثلما يختلف غَسلُ أسنانك بالفرشاة عن قيادتك السيارة. وعلى كل الأحوال، قد يبدو الأمر أشبهَ بيوميات شخصٍ معتلٍّ اجتماعيًّا لديه مدى انتباهٍ قصير. لكن بمجرد أن أعيد تشغيل مِكشاف النوايا لديك، يُصبح لكل شيء معنًى من جديد؛ فتتفهم أن الروتين اليومي للطبيب هو نِتاج نية واحدة هي معالجة المرضى.

لنأخذ مثالًا آخر، وهذه المرة من الأدب (فمكشاف النوايا يُساعدنا على الدخول إلى عقول الشخصيات الخيالية مثل الشخصيات الواقعية). هبْ أنني أوقفتُ تشغيل مكشافك وأعطيتك نسخةً من مسرحية «روميو وجولييت». وفي إحدى اللحظات ينتحب روميو على روزالين، وفي اللحظة التالية، يهمس بكلامٍ غرامي معسول في آذان جولييت عند نافذةِ

غرفةِ نومها. وبعد مضيِّ عدة أيام، يطعن ابن عمِّها ويفر هاربًا. في تلك الأثناء، تتناول جولييت دواءً مهدئًا قويًّا (وربما أضيف أنها حصلت عليه من رجلٍ غيرِ مؤهل لممارسة الطب) وتنام، ثم تُوضع في قَبْو العائلة. ويظهر روميو ويتناول على الفور بعضَ السم، ثم تسترد جولييت وعيها لا لشيءٍ سوى لأن تطعن نفسها في القلب. إنها واحدة من أشهرِ القصصِ وأكثرِها إثارةً على مستوى العالم، لكن دون تشغيل مكشاف النوايا، يبدو الأمر غيرَ مفهوم. فلكي تفهم القصة والمأساة، أنت بحاجةٍ إلى أن تدرك أن الأفعال المختلفة للشخصيات كانت مدفوعةً بالنوايا — النوايا الحسنة (مثل الحب الحقيقي) والنوايا الخبيثة (مثل العداء الدموي بين العائلات) والنوايا التي تُحبَط أو يُساء فهمها (مثل خطة التظاهر بموت جولييت التي أخفقَت على نحوٍ مأساوي).

إن النوايا هي السرُّ الذي يُمكِّننا من فهم الدوافع المحركة لأفعال البشر. وبدون مكشاف النوايا، لا يكون أمامنا طريقةٌ لفهم سلوك الآخرين أو التنبُّؤ به. فحتى أبسط التفاعلات الاجتماعية قد تكون مستحيلة. ولن يكون هناك لغوٌ أو إغراء أو مفارقة أو هجاء، أو محاضرات أو مجموعات دراسة، أو اجتماعاتُ لجان أو أعمال أو سياسة، أو رياضة أو فن أو أدب أو عروض واقعية. فإذا ما عجزنا عن فَهْم نوايا الآخرين، لن يكون هناك مجتمع على الإطلاق.

«الدائرةُ تدخل المستطيل»

بإيجاز، النوايا مهمة للغاية بالنِّسبة إلينا؛ لذا فإن مكشاف النوايا لدينا جيدٌ في اكتشافها. أقصد أنه جيدٌ بحق. في واقع الأمر، يتبيَّن أنه جيدٌ للغاية.

بالعودة إلى عام ١٩٤٣، أعدَّ فريتس هايدر وتلميذته ماريان زيمل تجرِبةً أصبحت واحدةً من أكثرِ التجارِب تأثيرًا في علم النفس. قد اقتاد العالِمان المشاركِين في التجرِبة كلًّا على حدةً إلى غرفة مظلمة، وأجلَساهم أمام شاشة، وعرَضا عليهم فيلمًا صامتًا قصيرًا باللونَين الأبيض والأسود، لا تَزيد مدته كثيرًا عن دقيقة. وعندما تم تشغيل جهاز العرض، رأى بعضُ المشاركين ثلاثةً من الأطفال المشاغبين يَثِبون في أرجاء الملعب، بحيث كان اثنان منهم يَغيظان طفلًا ثالثًا أو طفلٌ متنمرٌ يعتدي على طفلَين أصغرَ منه. ورأى أحد المشاركين أمًّا تعنِّف طفلَيها لعودتهما متأخِّرَين إلى المنزل. ورأى آخرُ قصةً من قصص الحوريات عن ساحرةٍ تُحاول الإيقاعَ بطفلين بريئين في حبائلها الخبيثة. وشاهد مشاركون

آخرون دراما أكثرَ قتامة، يُمارس فيها أبٌ معتدٍ عنفًا ضد زوجته وطفله الصغير، أو يتصرف فيها الزوج المخدوع بعنفٍ ضد زوجته وعشيقها الجديد.

إليك الخدعة: شاهد الجميع الفيلمَ نفسَه بالضبط. في واقع الأمر، الفيلم بأكمله أظهر ثلاثةَ أشكال بسيطة — مستطيل كبير ومثلث صغير ودائرة صغيرة — تتنقل على الشاشة سريعًا، دخولًا أو خروجًا من مستطيلٍ ثابتٍ أكبرَ حجمًا به جزءٌ يُفتح ويُغلق مثل الباب. ومثلما كان الحال مع مثلث كانيزا الوهمي الذي تعرَّضنا له في الفصل السابق، لم يكن للمتنمرين والأمهاتِ والساحرات والعاشقين وجودٌ سِوى في أذهان المشاهدين.

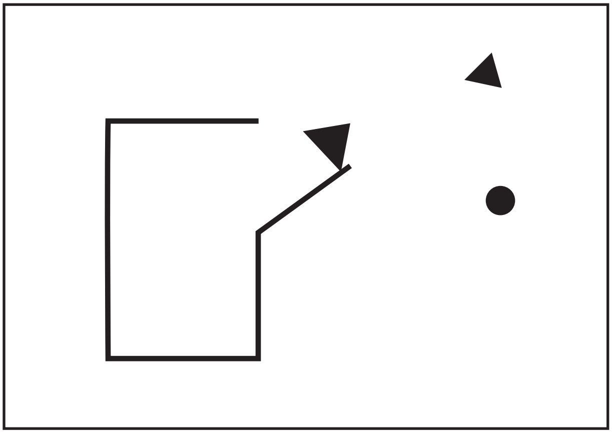

تُبيِّن هذه التجِربة الكلاسيكية إلى أيِّ مدًى يتوقُ مكشاف النوايا إلى ترجمةِ الأفعال إلى نوايا. مُشارِكةٌ واحدة فقط ممن شاركوا في التجرِبة هي مَن استطاعت تفسير الفيلم على أنه مجرد ثلاثة مضلَّعات تتحرك بعشوائية في أرجاء مستوًى ثنائيِّ الأبعاد، ليس أكثر. لقد وصفت الفيلم بعبارات مجردة تمامًا: «يظهر مثلثٌ كبير وهو يدخل مستطيلًا ... ثم يظهر مثلثٌ آخرُ أصغرُ حجمًا وتظهر دائرةٌ في المشهد. تدخل الدائرة المستطيل ... ويتحرك الاثنان حركةً دائرية، ثم تخرج الدائرةُ من الفتحة وتلتحم بالمثلث الأصغرِ حجمًا الذي كان يتحرك خارج المستطيل.» وهكذا. لم يرَ الآخرون غيرها ثلاثة أشكال فحَسب، وإنما رأوا ثلاث شخصيات، تتفاعل بعضها مع بعض، ليُعبِّر كلٌّ منها عن شخصيته ودوافعه وحاجاته ورغباته الفريدة. يُمكنك أن تجد فيديو هايدر–زيمل على شبكة الإنترنت. شاهِدْه بنفسك. الأرجح أنك سترى قصة.

لا أقصد أن أقول إننا نُخطئ حينما نرى الأشكالَ الصغيرة تؤدي أدوارًا في قصة. فبرغم كل شيء، حركات الأشكال ليست عشوائية؛ فقد صُمِّمت بعناية. ويصف هايدر وزيمل المشهدَ بأنه قصةٌ بشرية في بِنْيتها، أكملَتها المطاردات والمشاحنات وذروة النهاية. الفكرة أن مكشاف النوايا يبحث دومًا عن دلائلَ للنوايا في العالمِ المحيط بنا. فهو يحاول أن يستخدم أبسط الإيحاءات لحركةٍ متعمَّدةٍ في استخلاص الدافع وراءها. قلت إن قدرتنا على قراءة العقول قدرةٌ خارقة؛ حسنًا، والقوة الكبيرة تستوجب مسئوليةً كبيرة. لكن هايدر وزيمل يوضِّحان أن مكشاف النوايا لا يتمتع كثيرًا بضبط النفس. فقد ينحرف، مستحضرًا شخصياتٍ ودوافعَ وأبطالًا وأشرارًا حتى عندما نُشاهد فيلمًا متحركًا بسيطًا يشتمل على مثلثَين ودائرة يتحرَّكون حول مستطيل.

ليس هناك من شيء يحدث مصادفة

في واقع الأمر، يبدو أن مكشاف النوايا يتَّبع سياسةَ «صوِّبْ نحو الهدف أولًا، ثم اطرح أسئلةً بعد ذلك.» فهو يفترض أن كلَّ شيء يحدث في العالم يحدث لأن شخصًا ما أراده أن يحدث.

يُطلق علماءُ النفس على هذا السلوكِ تحيُّزَ القصد أو النية. ومن السهل أن ترصده لدى الأطفال. فإذا ما سألت طفلًا يبلغ من العمر أربع سنوات عن سببِ تثاؤبِ شخصٍ ما أو عطسه أو تعثُّره في كلبٍ، فسيُجيبك قائلًا إنه أراد ذلك. فحتى سنِّ الرابعة أو الخامسة يختلق الأطفال أحيانًا نوايا لأفعالهم اللاإرادية، مثل مُنعكَس الرَّضَفة؛ إذ يزعمون أنهم خطَّطوا لتحريك ساقهم بعد طرْق الطبيب على ركبتهم بمطرقةٍ صغيرة. بل إن التحيُّز يمتدُّ ليتجاوزَ الأشياء التي يفعلها الناس. فالأطفال يرَون أن العالم الطبيعي لديه غرضٌ ما كامن يُشبه النوايا التي لدى البشر. فهم ينزَعون إلى الاعتقاد بأن الشمس تُشرق لأنها تحب أن تُمدنا بالدفء وأن القمر يتبعهم أينما ساروا، وأن الصخور المدبَّبة تشكَّلَت على هذا النحو حتى تتمكنَ الحيوانات من حك أجسادها بها. باختصار، يعتاد الأطفال الصغار على الخلطِ بين المصادفات والأفعال اللاإرادية وبين الأفعال المتعمَّدة.

بطبيعة الحال، أنت أفضلُ معرفةً منهم ولا تقول إن أشياءَ من هذا النوع متعمَّدة. فأنت على درايةٍ جيدة بأن الناس لا يتثاءبون أو يعطسون عادةً لأنهم يُريدون ذلك؛ فالتثاؤب والعطس ينتجان عن أفعالٍ منعكسة لا إرادية. وتعلم أن الناس الذين يتعثَّرون ويسقطون لا يفعلون ذلك عادةً من أجل الضحك؛ فنحن لسنا دائمًا بالرشاقة التي نودها،

وتحكمنا قوانينُ الجاذبية. وبالتأكيد أنت لا تعتقد أن الشمس معنيَّةٌ بشدةٍ براحتك، أو أن الصخور موضوعة هناك ليسهل على حيوانات الأبوسوم حكُّ أجسادها؛ فأنت تعلم أنه من غير المنطقي أن تسأل عن سبب وجود الصخور أو أن تقول إن الأشياء غيرَ الحية لديها نوايا.

أم أنك تسأل؟ وفقًا لعالِمة النفس إفيلين روسيت، نحن لا نتجاوز أبدًا تحيُّزَ النيةِ أو القصدِ الذي عايشناه في طفولتنا. فعندما نُقرِّر أن شيئًا ما غيرُ متعمَّد أو غيرُ مقصود، ليس ذلك لأن مكشاف النوايا يلزم الصمت أو أنه يُخبرنا بأن ذاك الشيء ليس متعمَّدًا أو مقصودًا. فحتى مكشاف النوايا لدى الكبار يبدو أنه يرى كلَّ شيء متعمَّدًا. ولا نرى شيئًا ما مجردَ مصادفةٍ إلا عندما نَكبح جماحَ مكشاف النوايا؛ وذلك برفض حُكْمه الافتراضي والاستعاضة عنه بقرارٍ أكثرَ عقلانية.

يجد الأطفالُ صعوبةً في إعادة النظر فيما يُخبرهم به مكشاف النوايا؛ نظرًا إلى أنهم لا يعرفون هذا القدْر الكبيرِ الذي تعرفه أنت عن أشياءَ مثل الفيزياء ودقائقِ السلوك البشري. فهم لا يدرون شيئًا عن الطبيعة البيولوجية للأفعال المنعكسة مثل العطس، وكذلك عن القُوى التي تُشكِّل الصخور وتحكم مدارات الأجرام السماوية. ومع نموِّهم، يجمعون معرفةً وخبراتٍ وتجاربَ عن هذه الأنواع من الأسباب غير المتعمَّدة. فيتعيَّن عليهم تعلُّم هذه الأشياء. وعلى الجانب الآخر، فإن مِكشافَ النوايا شديدَ الحماس مُثبَّتٌ بشكلٍ مسبق. فالأبحاث التي أُجريت على الأطفال تُشير إلى أنه يصبح جاهزًا للعمل خلال الأشهر القليلة الأولى من العمر. فعندما نكون صغارًا، يخبرنا مكشاف النوايا بأن أشياءَ ما مقصودة، وحيث إننا لا نعرف شيئًا أفضل، فإننا نُصدِّقه. ومع تقدُّمِنا في العمر، يظل مكشاف النوايا مفرطًا في نشاطه، كلُّ ما هنالك أننا نُصبح أفضلَ في إعادة النظر فيما يُخبرنا به. فعندما تجد شخصًا يتعثَّر ويسقط على الأرض، تعرف أن هذه مصادفة، لكن جزءًا من دماغك لا يزال يهمس قائلًا: «لقد تعمَّد فعل ذلك.»

لقد اكتشفَت روسيت وزملاؤها أنه ليس من الصعب إماطةُ اللِّثام عن مكشاف النوايا بداخلنا نحن الكبار. ففي إحدى الدراسات، وجدت أن كلَّ ما يتطلَّبه الأمر هو بِضع جرعات من الشراب: فقد احتسى المشاركون في الدراسة شرابًا كحوليًّا يُعادل ستَّ جرعات من الفودكا، على وجه التحديد. هبْ أنك في مشربٍ مزدحِمٍ واصطدم شخصٌ ما بك، لينسكبَ النبيذ على قميصك المفضَّل. وفقًا للنتائج التي توصَّلت إليها روسيت، تتوقَّف ردةُ فعلك على مدى تأخُّر الوقت ليلًا. فإذا كنتَ في أول كأس لك، ولا تزال واعيًا وقادرًا

على الحكم على الأمور، فالأرجح أنك ستعتبر ما حدث مجردَ مصادفة. لكن كلما زاد احتساؤك للشراب المُسكِر، زادت احتمالية أن تظن أن هذا الشخص أراد الشِّجارَ معك. في الأيام الخوالي، ربما كنتَ حتى لتدعوَ هذا المعتدي للمبارَزة عند بزوغ الفجر. وفقًا لإريك ياجر، مؤلف كتاب «المبارزة الأخيرة»، فإن «مئات المبارزات في القرن الثامن عشرَ الذي شاع فيه احتساءُ الكحوليات بكثرة كان سببها مشاجراتٍ داخل المشرب في وقتٍ كان فيه السُّكْر حالةً معتادة بالنِّسبة إلى الكثيرين.» بل إن آداب المبارزة قدَّمت امتيازاتٍ حتى للأشخاص الذين يتناولون الكحوليات المشوِّشة للعقل. فوفقًا لدليل مبارزة في الغرب الأمريكي القديم، «السُّكر لا يُبرِّر الإهانة بشكلٍ تامٍّ، ولكنه يُخفِّف من وطأتها.»

والكحول ليس الشيءَ الوحيد الذي يُبرِّر استنباطنا المُلتبس للنوايا. ففي دراسةٍ أخرى، سألت روسيت أشخاصًا بالِغين متزنين تمامًا أسئلةً حول ما إذا كانت «الشمس تُشع حرارةً كي تنعمَ الكائناتُ الحية بالدفء» وما إذا كان «تنوُّع طيور البرقش يهدف إلى بقائها على قيد الحياة.» وبعد ذلك طلبت من مجموعةٍ مختلفة من المشاركين الإجابةَ عن الأسئلة ذاتها بسرعة، بحيث يُفكرون في الإجابة عن كل سؤال ثلاث ثوانٍ فقط. وتحت الضغط، أصبح المشاركون أكثرَ ميلًا إلى أن يقولوا إن التفسيراتِ العمديةَ للظواهر الطبيعية صحيحة. وقد توصَّلت دراسةٌ أخرى إلى أنه حتى أساتذة العلوم في الجامعات التي تجمعها رابطةُ اللبلاب «آيفي ليج»؛ وهم آخر الأشخاص الذين قد تتوقَّع منهم التفكيرَ في العالم بأنه مُصمَّم لأغراض متعمَّدة؛ يميلون إلى هذه النوعية من التفسيرات عندما يكونون تحت ضغط.

وترى روسيت أن النتائج تُظهِر أن إصدارَ حكمٍ بأن شيئًا ما متعمَّدٌ أمرٌ عَفْوي ولا يحتاج إلى جهد. لكن كبح جماح هذا الحكم، يحتاج إلى جهدٍ ذهني. وعندما يُفسد الكحول قدرتنا على التفكير الواعي، أو عندما لا يُتاح لنا الوقتُ الكافي للتفكير، فالأرجح أننا ننزَعُ إلى الحكم الافتراضي الذي يُمليه علينا مكشاف النوايا وهو أن كل شيء متعمَّد. وحتى عندما نكون متَّزنين وغيرَ مشوَّشي الذهن، لا يكون لدينا دائمًا الميل إلى التشكك في حَدْسنا أو القدرة على ذلك. ونتيجةً لهذا، يمكن أن ننساقَ وراء كل أنواع التفسيرات المُلتبسة والمتمحورة حول القصد أو التعمُّد. تأمَّل هذا العدد الهائل من الأشخاص الذين يؤمنون بالأشباح والآلهة والملائكة والكائنات الفضائية، أو لديهم ميلٌ غامض إلى أن الكون وضع خطَّةً لكل شخص. تقول جيسي بيرينج، عالمة النفس المتخصِّصة في الدين، إنه حتى الأشخاص الذين لا يؤمنون بإلهٍ لا يستطيعون أن يمنَعوا أنفسهم من التساؤل عن معنى الحياة أو المقصَد من الخلق. «ذاك هاجسٌ لا يستطيع العِلم إسكاتَه فيما يبدو.»

وحتى إذا لم تكن من بين أيٍّ من هؤلاء، فإنني أراهنُ أنك في مرحلةٍ ما من حياتك، وجدتَ نفسك تتوسَّل إلى جمادٍ أو تسبُّه كما لو أنه طفلٌ يُسيء التصرفَ وأنه سوف يُحسن التصرف إذا أخبرته إلى أيِّ مدًى كم أنت مستاء. فقط فكِّر في مرةٍ لم تبدأ سيارتُك في العمل، أو توقَّف حاسوبك عن العمل لسببٍ غيرِ واضح، أو رفض هاتفك الذكي الاستجابة. صحيحٌ أنك تعلم أنه مجرد آلة، لكنك تعجز عن منع نفسك من التعامل معه كما لو كان له عقلٌ مستقل خاص به — «لماذا تفعل هذا؟!» — حتى وإن كان ذلك في نوبةِ غضبٍ لحظية.

عندما يحدث شيء نعجز عن تفسيره على الفور، فإننا نركنُ في كثيرٍ من الأحيان إلى مكشاف النوايا مفرِط النشاط. فنحن لا نستطيع أن نمنعَ أنفسنا من التفكير في أن شخصًا ما (أو شيئًا ما) تعمَّد حدوثه. وهذا يجرُّنا إلى نظريات المؤامرة.

شخصٌ ما يتحكم في الأمر

حسنًا، كِدْنا نعود إلى نظريات المؤامرة. لكن أولًا، أريد منك أن تقرأ جملتَين. كل جملةٍ منهما تصف شيئًا يحدث، لكنها لا تخوض في الكثير من التفاصيل. أريدُ منك أن تتخيَّل المشهدَ بأكبرِ قدرٍ ممكنٍ من التفاصيل؛ ماذا يحدث، ومَن المتورط، وما الذي ربما يكون قد أدَّى إلى ذلك، وما النتيجة؟

هي رَكلَت الكلب.
فجَّر الصبيُّ البالون.

ما الذي ورَد على ذهنك عندما قرأت «هي رَكلَت الكلب»؟ هل تخيلتَ شيئًا من قبيلِ امرأةٍ مشوَّشة تعثرَت في الكلب «روفر» لأنها لم ترَه راقدًا أسفل السلم؟ أم فكَّرت في أنها كانت تجري لتأخرِها وركَلَته متعمِّدة بعيدًا عن طريقها؟ وماذا عن البالون المُتفجر؛ ربما تخيلتَ طفلًا مثارًا يحمل البالون قريبًا جدًّا من شمعة عيد ميلادٍ وينخرط في البكاء عند انفجارها، أو ربما تخيلتَ صبيًّا أكبرَ سنًّا يدسُّ دبوسًا في البالون وفي عينيه نظرةٌ شريرة. التفاصيل لا تهم. الشيء المهمُّ أن هناك طريقتَين يمكن أن تُفسَّر بهما كل جملة: فقد تقول إن شيئًا ما حدث عمدًا، أو إن شيئًا ما حدث مصادفةً.

وهذا يقودنا إلى نظريات المؤامرة. فهاتان الجملتان في حد ذاتهما لا علاقة لهما بالمؤامرات (ما لم تظن مصادفةً أن الصبي لم يكن يعمل منفردًا عندما فجَّر البالون؛ ربما

كان هناك صبيٌّ ثانٍ على التلة المعشَوشِبة). غير أنه وفقًا للأبحاث التي أجريتها بالتعاون مع عالم النفس كريس فرنش، فإن الطريقة التي تُفسر بها جملًا حسَنة النية عن كلابٍ سيئة الحظ أو بالونات تفجَّرت تتنبَّأ إلى أي مدًى أنت على استعداد للاقتناع بنظريات المؤامرة.

طلبنا من أشخاصٍ قراءة ١٢ جملةً غامضة، على غِرار الجملتَين اللتين قرأتَهما للتو، وسألناهم عما ورَد بأذهانهم. لكنَّ كلَّ ما كان يشغَل اهتمامنا في واقع الأمر هو ما إذا كانوا يرون أن كل جملة من تلك الجمل تُعبِّر عن تعمُّد أو مصادفة. بعد ذلك سألنا كلَّ واحدٍ منهم عما إذا كان العالَم يُديره مجموعةٌ شريرة من المتآمرين. وعندما حسَبنا عدد الجمل التي فسَّرها كلُّ شخص على أنها تُعبِّر عن تعمُّدٍ أو مصادفة وقارنَّا ذلك العدد بالكيفية التي قيَّموا بها نظريات المؤامرة، اتضح أن ثَمة علاقةً بين العددين. فكلما زاد عدد الجمل التي فسَّرها الشخص على أنها تُعبر عن تعمُّد، زاد ميله إلى الاقتناع بنظريات المؤامرة.

وقد كشفَت دراسة أخرى علاقةً مثيرة للدهشةِ على نحوٍ مشابه. هل تذكر فيديو الرسوم المتحركة لهايدر وزيمل الذي عرض مثلثَين ودائرة؟ أعاده فريقٌ من علماء النفس تحت قيادة كارين دوجلاس إلى الواجهة من جديد، ونشَروه على شبكة الإنترنت، وطلبوا من أكثرَ من ٥٠٠ شخص أن يُراقبوا الأشكالَ الصغيرة وهي ترقص في أنحاء شاشة الكمبيوتر. وبدلًا من أن تطلب دوجلاس وفريقها من جميع المشاركين أن يحْكُوا بالتفصيل ما الذي تخيَّلوه عن تلك الأشكال، طلبوا منهم أن يُقيِّموا إلى أي مدًى يعتقدون أن الأشكال شخصياتٌ واعية وذات هدفٍ وذلك على مقياسٍ بسيط. ثم بعد ذلك سألت دوجلاس المشاهدين إلى أيِّ مدًى هم يؤمنون بنظريات المؤامرة. وقد وجدت من جديدٍ علاقةً بين العددين؛ فكلما زاد اعتقاد الشخص بأن الأشكال شخصياتٌ تُفكر وتشعر وتُدرك، زاد اعتقادهم بأن الأميرة ديانا قُتلت عمدًا، وأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر تمَّت بتدبيرٍ داخلي.

وتوحي هذه النتائجُ بأن نظريات المؤامرة تدين بجزءٍ من جاذبيتها إلى الطريقة التي تنسجم بها مع مكشاف النوايا مفرِط النشاط لدينا. تذكَّر أننا، وفقًا لأبحاث إفيلين روسيت، نرى افتراضيًّا كلَّ شيء متعمَّدًا. لكن بعض الناس أفضلُ من البعض الآخر في كبح جماح ردة فعلهم الداخلية. هذا الاستعداد المسبق — التحيُّز إما إلى الوثوق بمكشاف النوايا أو عدم الوثوق به — يصبغ رؤيتَك للعالم بأكمله. ويبدو أن مكشاف النوايا لا

يرصد كثيرَ اختلافٍ بين بالون ينفجر ومثلثٍ يرقص ومزاعمَ حول مجموعة من المتآمرين السريِّين. فالأشخاص الذين يعتادون على التشكك في حدسهم يميلون إلى استنتاج تفسيراتٍ أكثرَ تمركزًا حول المصادفة للجمل الغامضة، وتقييم أشكال هايدر-زيمل على أنها ليست منطويةً على هدف خفي، والنظر إلى مزاعمِ المؤامرة على أنها أقلُّ معقوليةً نسبيًّا. أما الأشخاصُ الذين يُصغون إلى مكشاف النوايا، فإنهم يسيرون في الاتجاه المعاكس. فبالنِّسبة إليهم، الأشكال حيةٌ والبالون جرى تفجيره والمتآمرون السريون حقيقيون.

ولِفَهم أسباب هذه الجاذبية الكبيرة لنظريات المؤامرة، نحن بحاجةٍ إلى مقارنتها بالتفسيرات البديلة من منظور مكشاف النوايا. تخيَّل أنك تستخدم ميزانًا عتيقًا ذا كِفتَين للمقارنة بين نظريةٍ مؤامرة من جهة، وروايةٍ رسمية من جهة أخرى. أحيانًا، تَشغل النوايا حيزًا كبيرًا من كفَّة نظرية المؤامرة. فحادث تحطُّم سيارة الأميرة ديانا الذي لقيت حتفَها فيه دُبِّر بأمرٍ من النظام الملكي الوضيع؛ وألفيس تظاهر بموته للهروب من ضغوط الشهرة؛ وأُسقطت طائرة أميليا إيرهارت عمدًا؛ لأنها كانت جاسوسة. ومن جهة أخرى، وفقًا للروايات الرسمية، كلُّ هذه الأحداث لم تكن مقصودة في الأساس. وبالمقارنة بين البدائل، من السهل أن ندرك لماذا يخبرنا حَدسُنا بأن نظرية المؤامرة أكثرُ معقولية. فنظرية المؤامرة تنسجم مع ما قد أخبرنا به مكشاف النوايا بالفعل، في حينِ أن تصديق الرواية الرسمية يتطلب إلغاء الحكم الذي أصدره مكشاف النوايا.

غير أن الرواية الرسمية تنطوي أحيانًا على نوايا ودوافعَ في آنٍ واحد. لنأخذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر كمثالٍ. في إحدى كفتَي الميزان الروايةُ الرسمية: مختطفون منتمون إلى تنظيم القاعدة نفَّذوا نواياهم بنجاحٍ وحطَّموا بالطائرات العديدَ من معالم الولايات المتحدة. وفي الكفة الأخرى من الميزان نظرية المؤامرة: متآمرون سريُّون داخل الحكومة الأمريكية سمَحوا بالهجمات أو ارتكبوها بأنفسهم. هنا، كلتا كفتَي الميزان تحتوي على بعض النوايا؛ لكن ليس لمجرد أن كِلا التفسيرَين يُقدِّم نوايا، فإن ذلك يعني بالضرورة أن كفتَي الميزان متوازنتان. فنحن بحاجةٍ إلى التفكيرِ لتحديدِ أيُّ قصة تنطوي على نوايا أكثر.

عندما تقول الرواية الرسمية إن أعضاء ينتمون إلى تنظيم القاعدة دبَّروا الهجمات، فإن ذلك يعني ضمنيًّا أن الوكالات الحكومية العملاقة، التي تُمول بمبالغَ طائلة، والمعنية باكتشاف التهديدات الإرهابية ومنعها أُخذت على حينِ غِرة؛ فمن الواضح أنه لم يكن في نيتهم بشكل صريح أن تحدث الهجمات. وعلى النقيض، تُقدِّم نظرية المؤامرة عددًا

لا حصر له من النوايا. فالهجوم على المباني لم يكن متعمَّدًا فحسب، بل إن الحكومة كانت ضالعةً في المكيدة بأكملها، جنبًا إلى جنبٍ مع عددٍ لا متناهٍ من الأتباع ووكلاء نشر المعلومات المغلوطة الذين يُشكلون جزءًا من عملية التستر. وبمجردِ أن نضيف هذه النِّية الإضافية لكفة المؤامرة، لا يكون هناك مجال للمقارنة. فمن منظور مكشاف النوايا، ترجح كفة نظرية المؤامرة على كفة الرواية الرسمية في كل مرة.

هل تفكِّر فيما أفكِّر فيه؟

قد يُفسِّر مكشاف النوايا مفرط النشاطِ جانبًا من جاذبية نظريات المؤامرة، لكنه لا يَحكي القصة كاملةً. فبرغم كل شيء، مجردُ افتراضِ أن شيئًا ما كان مقصودًا لا يعني أنك ستقتنع بالضرورة بنظريةِ مؤامرة. فعندما تختفي طائرةٌ أو تنتهي حياةُ أميرةٍ عشقها الناسُ نهايةً مأساوية، ربما تُفكر في أنه كان مدبرًا بطرقٍ شتَّى. فربما تُفكر حتى أن شبحًا أو إلهًا ساخطًا يقف وراءه. وربما تُفكِّر في أن شخصًا مخبولًا منعزلًا أو كائناتٍ فضائيةً متداخلةَ الأبعاد هي مَن دبَّرت المكيدة. ويظل السؤال قائمًا: ما الذي يجعل بعض الناس لا يَقبلون فحَسْب فكرةَ أن شيئًا ما كان متعمَّدًا، ولكن يُصدِّقون بوجود مؤامرة وراءه أيضًا؟ للإجابة عن هذا السؤال، نحن بحاجةٍ إلى أن ننظر إلى أداةٍ أخرى في مجموعة أدوات نظرية العقل: الإسقاط.

الآن، عندما تسمع عالِم نفسٍ يتحدث عن الإسقاط، ربما يَرِد إلى ذهنك صورةٌ لسيجموند فرويد، وهو يتَّكئ بحسمٍ على رف المدفأة، مُمسكًا السيجارَ بين إصبَعَيه، ومخبرًا إياك بأن عقلك الباطن يُئوي تلك الدوافع المخجلة بحيث لا يدعك حتى تَسبُرَ أغوارها؛ وعوضًا عن ذلك، يَعْزوها إلى شخصٍ آخر، كما لو كان ذاك الشخص هو المخطئ. اعتبر فرويد الإسقاطَ آليةً دفاعية، تحميك من إدراكِ حقيقةِ ما أنت عليه من دناءة. لكن مثل الكثير من جوانب نظرية التحليل النفسي لفرويد، يتضحُ أن فكرةَ الإسقاط هذه ليست دقيقة. فعلماء النفس يفهمون الآن أن الإسقاط لا يتعلق بمحاولةِ إنكارِ دافعٍ ما غيرِ مقبول اجتماعيًّا. وإنما يتعلق بمحاولةِ فهمِ عالمٍ غامض، ونحن نفعل ذلك طيلةَ الوقت.

فنحن نستخدم الإسقاط لأن فَهْم ما يُفكر فيه الناس بناءً على أفعالهم وحدها قد يكون أمرًا خادعًا. ففي كثيرٍ من الأحيان، لا يتوفَّر لدينا الكثيرُ من الدلائل التي يُمكننا الاعتمادُ عليها. وحتى عندما نعرف بالضبط ما فعله شخصٌ ما، يبقى الأمر غامضًا إلى

حدٍّ محبط. تخيَّل أنك ترى رجلَين يسيران في الشارع، وأحدهما يدفع الآخر. إنك تعرف على الفور أن هذا الدفعَ مقصود، لكن قد يكون من المستحيل أن تُخمِّن ما إذا كان ذلك مجردَ مزاح أم اعتداءً. وبقدْر ما يتمتَّع به مكشاف النوايا من حماس، فإننا لا نستطيع دومًا، اعتمادًا على ذلك وحده، أن نطَّلع على ما يدور برأسِ شخصٍ آخر. لذا فإن أدمغتنا تتخذ نهجًا عَمليًّا أكثر. فبدلًا من الانشغالِ بتفسيراتٍ ممكنةٍ لأفعالِ شخصٍ ما، نضع أنفسنا — ذهنيًّا — مكان هذا الشخص ونُجيب عن سؤال أسهل: فيما كنتُ سأفكر لو كنتُ مكانه؟

ليست هذه مجردَ حيلةٍ كسولة؛ فالإسقاط هو حجَر الزاوية في نظرية العقل. ففي كل مرة ترى فيها شخصًا ما يفعل شيئًا، يُجري دماغك محاكاةً سريعةً بشكلٍ أو بآخر؛ بحيث تلعب في تلك المحاكاة دورَ البطولة. فرؤيتك مثلًا لشخصٍ يرفع كوبًا من الماء إلى فمه، تعمل على تنشيط الخلايا العصبية ذاتها في دماغك التي كانت ستنشط إذا أخذت أنت كوبًا من الماء ورفعته إلى فمك. هذه المحاكاة الخفية تُساعدك في فهم ما قد تكون عليه نواياك ورغباتُك في خضمِّ ذلك الموقف، وهو ما يمكن أن تستخدمه في تخمينِ ما قد يدور في عقل الشخص الذي تُراقبه. وفي هذه الحالة، قد تخمِّن أن هذا الشخص يشعر بالعطش ويُخطِّط للحصول على رشفةِ ماء (في مقابل قضمِ الكوب، أو تحطيمه على رأسه)؛ لأن ذلك هو عينُ ما كنت ستُخطط له على الأرجح.

الإسقاط أداةٌ لا يُمكن الاستغناء عنها بين مجموعةِ أدوات نظرية العقل. فمثلما أن مكشاف النوايا مفرِطَ الحماس لدينا يمكن أن يقودنا إلى أحكامٍ مُلتبِسة، فإن الإسقاط يمكن أن يُشوِّش رؤيتنا للعالم من حولنا. فنحن نميل إلى التغاضي عن اختلافاتٍ محتملة لا حصر لها بين أنفسنا والأشخاص الذين نُحاول قراءة ما يدور بعقولهم. ونتيجةً لذلك، تستحضر أدمغتنا شيئًا يُطلِق عليه علماء النفس «الإجماع الكاذب»؛ وهو توهُّم أن أغلب الناس المحيطين بنا يُفكِّرون فيما نفكِّر فيه على الأرجح.

قدَّم عالِما النفس دانييل كاتس وفلويد ألبورت واحدةً من أُولى العروض التوضيحية لتأثير الإجماع الكاذب في عام ١٩٣١. فقد لاحظا أن الطلاب الذين اعترَفوا بأنهم قد غشُّوا في الامتحانات، مالوا إلى افتراض أن قاعات الدرس بالكلية تعجُّ بالأوغاد الغشاشين، في حين أن الطلاب الذين لم يغشوا في الامتحانات خمَّنوا أن أغلب زملائهم ملتزمون أخلاقيًّا مثلهم. ومنذ ذلك الحين، كشفت الدراسات أننا نتخيَّل إجماعًا كاذبًا لكل شيء تقريبًا. فإذا اعتبرت نفسَك شخصًا انبساطيًّا، فالأرجحُ أنك ستظن أن هناك انبساطيِّين

في هذا العالم أكثرَ مما يعتقد شخصٌ يعتبر نفسه انطوائيًّا. والشيء نفسه ينطبق إذا ما كنت تدعم تمويلًا فيدراليًّا لارتياد الفضاء، أو تفضِّل الخبز الأسمر على الخبز الأبيض، أو تتبرع بالدم بشكل روتيني، أو تُجري الكثير من المكالمات الهاتفية مع أشخاصٍ في أماكنَ بعيدة. وعندما تشعر بالبرد، تعتقد أن الآخرين متضايقون من البرد كذلك، وعندما تشعر بالعطش، تعتقد أن العطش أصاب الآخرين أيضًا. وفي دراسة مبدعة للغاية، حاول الباحثون إقناعَ الطلاب بأن يسيروا في أرجاء الحرم الجامعي وهم يحملون لوحةً إعلانية ضخمة مكتوبًا عليها شعارٌ يقول: «تناول طعامك في مطعم جو» (وفي دراسة أخرى، كان الشعار نصيحةً تقول: «تُبْ»). وقد خمَّن الأشخاص الذين على استعدادٍ لحمل اللوحة الإعلانية أن أغلب الآخرين سيكونون على استعدادٍ لحملها مثلهم؛ وأما الذين رفضوا فقد تنبَّئوا بأن أغلب الآخرين سيرفضون مثلهم. وأيًّا كان الموضوع، فإننا جميعًا نميل إلى أن نرى تفضيلاتنا وزلاتنا الشخصية مألوفةً نسبيًّا.

وهذا يقودنا من جديدٍ إلى نظريات المؤامرة.

متآمرٌ بالمثل

دعونا نفترضْ أننا في ستينيَّات القرن العشرين. وهب أنك تعمل لصالح وكالة الفضاء الأمريكية ناسا. والحرب الباردة في أوْجِها، وسباق الفضاء وصل إلى ذروته، وقد كُلِّفتَ بمهمة إيصال البشر إلى سطح القمر قبل السوفييت. في كلمةٍ مثيرةٍ ألقاها الرئيس كينيدي عام ١٩٦٢، أدلى بتصريح شهير قال فيه إن الولايات المتحدة ستُرسل إنسانًا إلى سطح القمر قبل انتهاء عقدٍ من الزمان، ليس لأن هذا أمرٌ سهل، ولكن لأنه أمرٌ صعب. لكن لنفرض أنه تبيَّنَ أن إيصالَ البشر إلى سطح القمر وإعادتهم سالمين أمرٌ صعبٌ بحقٍّ. فالأمر سيستغرق سنواتٍ. فالسوفييت قد أطلَقوا بالفعل أول قمر صناعي في الفضاء، وأعقب ذلك وصولُ أول رائد فضاء منهم إلى سطح القمر. وهكذا، هم بالتأكيد سيَسبقوننا إلى القمر. وفي الوقت الذي تُفقَد فيه كل الآمال، تأتي أوامرُ جديدة. هم يقولون إننا سنختلق هبوطًا زائفًا على سطح القمر. فقد حجزنا بالفعل غرفةً عازلة للصوت ودفعنا ثمنَ صخورٍ قمرية زائفة. ووافق كوبريك على الإخراج. ولا أحد سيعلم بالحقيقة أبدًا.

هل كنتَ ستشارك في المؤامرة؟

هذا هو السؤال الذي طرحه عالِما النفس كارين دوجلاس وروبي ساتون على طلابٍ جامعيين لا يعلمون بأن تلك كانت تجرِبةً بحثية: هل رأيت نفسك في موضعِ المتآمرين

المزعومين، هل زيَّفتَ الهبوط على سطح القمر؟ وإضافة إلى ذلك، سأل الباحثان الطلابَ عما إذا كانوا قد قتَلوا الأميرة ديانا أو شنوا هجماتِ الحادي عشر من سبتمبر أو تستَّروا على وجود كائنات فضائية، أو صنعوا فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب المسبِّبَ للإيدز، أو زيفوا بيانات عن تغيُّر المناخ. الشيء المطمئنُ أن أغلبهم قال إن ذلك لن يُراودهم حتى في منامهم. وعلى مقياسٍ يتراوح من واحد إلى سبعة (الرقم واحد يعني «أبدًا تحت أي ظروف»، والرقم سبعة يعني «نعم على الأرجح»)، كان الردُّ الأكثرُ شيوعًا هو اثنين. (بطبيعة الحال، بعض الأشخاص قد يقولون إنهم لن يفعَلوا ذلك لمجرد أنهم لا يُريدون أن يظهروا أشرارًا، لكن الاستبيانات لم تتطلب أسماءً للمشاركين؛ ومِن ثم لم يكن هناك ما يدعو أيًّا منهم إلى الكذب.) لكن كان هناك شيءٌ يثير الاهتمامَ بشأن الأشخاص الذين اعترَفوا بأنهم منفتحون على فكرة التآمر. فكلما زاد زعمُ أحدهم بأنه تآمريٌّ، زادت احتماليةُ تصديقه أن نظريات المؤامرة صحيحة.

وفقًا لدوجلاس وساتون، تكشف نتائجهم الإسقاطَ بشكل عملي. فإيجادُ دليل حاسم على صحة نظريةٍ ما، مثل اعتراف المتآمرين المزعومين أنفسِهم، أمرٌ صعب. فنحن مجبرون على البحث عن أدلةٍ أخرى، وأحد الأشياء التي يُمكن أن نفعلها بسهولةٍ هو أن تُحاكي عقولُنا عقولَ الجناة المزعومين عن طريق الإسقاط. وللحكم على الذنبِ المرجَّح الذي اقترفه متآمرٌ مشتبَه به، نبحث بداخل أنفسنا. ومِثل الغشاشين الذين اعتقَدوا أن أغلب الناس يغشُّون، يبدو أن الأشخاص الذين يتخيَّلون أنفسهم على استعدادٍ للتآمر يرَون المتآمرين في كلِّ ما يُحيط بهم. فإذا كنتَ تعتقد أن العالَم مليءٌ بمتآمرين لا يزالون في مرحلةِ التَّشكُّل، فالأرجح أن المتهَمين بالتآمر قد أتمُّوا تلك المرحلة بنجاح في واقع الأمر.

لكن تجدر الإشارة إلى أننا نتعامل مع استعدادٍ معترَف به ذاتيًّا للتآمر. لكن نتائج دوجلاس وساتون لا تعني أنه إذا كان الأمر برُمَّته مرهونًا بذلك، فكل صاحب نظرية مؤامرة شخصٌ سيكوباتيٌّ متآمر. لعلك تتذكَّر ما أشرنا إليه في الفصل الثاني عندما قلنا إن أكثر المؤامراتيِّين إخلاصًا لتوجههم يقولون في أغلب الأحيان إن العنف ضدَّ الحكومة شكلٌ مقبولٌ من أشكال الاحتجاج، لكن القلةَ القليلة جدًّا هم الذين يسلكون هذا النهجَ على أرضِ الواقع. وبالرغم من ذلك، هناك بعضُ الأمثلة التاريخية اللافتة لأصحاب نظريات مؤامرة سلَكوا نهج متآمريهم الوهميِّين وقلدوا من آنٍ لآخرَ أفعالَهم.

فقد تأسَّست مثلًا جماعة «كو كلوكس كلان» على اشتباهٍ في خططٍ سرية بين أعدائها. وبحلول عشرينيَّات القرن العشرين، أصبحت «كو كلوكس كلان» جماعةً مناهضة

للكاثوليكية بقدرِ ما كانت عنصريةً. فقد كان المنتمون إليها يخشَون أن يكون لدى البابا خططٌ لإعلان الحرب على البروتستانتيين، والاستحواذِ على الحكومة الفيدرالية ونقلِ الفاتيكان إلى ولاية إنديانا. وقيل إن الكاثوليك كانوا يجمعون الأسلحةَ في كنائسهم التي بُنيت أبراجُها عاليةً كي تمنحَ رؤيةً أفضلَ للقناصة. بل إنه انطلقت شائعةٌ تقول إن ترسانة المدفعية الثقيلة والمتفجرات كانت مخبوءةً في منظومةِ الصرف الصحي أسفلَ جامعة نوتر دام. ولكن، كما أوضح ريتشارد هوفستاتر، أصبحَت جماعة «كو كلوكس كلان» على نحوٍ متزايدٍ مسخًا لعدوِّها، «إلى حد ارتداء أثواب كهنوتية، وابتكارِ طقوس منمقة، وتدرُّج هرمي منمَّق بالمثل.» ويوضح دانييل بايبس أنه نظرًا إلى مخاوف جماعة «كو كلوكس كلان» بشأن المكائد السرِّية للكاثوليك، من المفارقة أن «الجماعة لم تُعارض فحسب قرارًا يُدين الجمعيات السِّرية في المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي [عام ١٩٢٤] بل استخدمت طرقًا مؤامراتية لإفشال القرار.»

وقد أشار الفيلسوف كارل بوبر إلى أنه عندما يجدُ أصحاب نظريات المؤامرة أنفسَهم في مواقعِ سلطة، فإن أفعالهم غالبًا ما تكون مؤامراتية. وكمثالٍ على ذلك، اشتُهر عن ريتشارد نيكسون بأنه كان يُعاني جنونَ الارتياب. فخلال وجوده في السلطة، حسبما يُشير جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت، كان نيكسون مشغولًا «باليهود والنخبة المثقفة ووسائل الإعلام والحركة المناهضة للحرب التي كان يراها تتآمرُ ضدَّه وضد الدولة.» فماذا كانت استجابته؟ لقد تآمر ضدهم. ففي خضمِّ تدبير إحدى الخطط، حذَّر نيكسون مساعديه قائلًا: «نحن في مواجهةِ عدوٍّ، في مواجهةِ مؤامرة. هم يستخدمون أيَّ وسيلة. ونحن سنستخدم أي وسيلة. هل هذا واضح؟» فقد أدَّت مناقبُ وكذبات نيكسون إلى عزله من السلطة، لكن خططه كانت متواضعةً إلى حدٍّ كبير مقارنةً بخطط بعض زعماء العالم. فيوضح دانييل بايبس أن العديد من رؤساء الدول الشرق أوسطية يُعانون جنونَ ارتيابٍ مزمنًا، ويلجَئون من وقتٍ إلى آخرَ إلى التآمر ضد أعدائهم. فعلى سبيل المثال، يشير بايبس إلى العدد اللافت من حوادث تَصادم السيارات وغيرِها من الحوادث التي ألَّمت بالخصوم السياسيين للرئيس الراحل صدام حسين.

بل إن هذا يبدو شيئًا بسيطًا مقارنةً بأدولف هتلر، الذي جعل من رُؤى لمؤامرة يهودية كارثيةٍ جزءًا من برنامجه السياسي، واستخدم ذلك لتبريرِ مكائده المؤامراتية ضد يهود أوروبا. فبالنِّسبة إلى هتلر، كانت «بروتوكولات حكماء صِهيون» أكثرَ من مجرد لمحةٍ عن تكتيكات العدو؛ فقد قدَّمت نموذجًا لسعيهِ الشخصيِّ وراء السلطة. نُقل عن هتلر

قوله: «لقد قرأت «بروتوكولات حكماء صهيون»؛ وقد أفزعتني. تسلُّل العدو وتغلغله! أدركتُ في الحال أننا يجب أن نسير على خُطاه؛ بطريقتنا الخاصة بالطبع … يجب أن نهزم اليهوديَّ بسلاحه نفسِه.»

متأملًا معدَّل الحدوث المرتفع للمؤامرة بين أصحاب نظريات المؤامرة، أشار دانييل بايبس إلى أن «ما يبدأ كبحثٍ عن أشخاصٍ مخرِّبين ينتهي بالتخريب؛ فكارِهو اليدِ الخفية يكتسبون الخصائصَ نفسَها التي يمقتونها.» غير أنه عن طريق الإسقاط، فلعلنا بدلًا من أن نُقلِّد العدو، يكون الأعداء المتوهمون انعكاسًا لأنفسنا. فالمؤامراتيون يرون العالم يعجُّ بالمتآمرين، وهو ما يقود إلى مؤامرةٍ مضادة. وكما تقول دوجلاس وساتون — معبرةً عن حكمة أطفال لا حصر لهم في مشاجرات اللعب — «لا يَعرف المخطئ سوى المخطئِ مثله.»

اختلاق الدافع

بعدما رأينا الطرقَ التي يمكن أن يُخطئ بها مكشاف النوايا في إصابة الهدف، وكيف يمكن أن يقودنا الإسقاط إلى توهُّم أن العالم مليءٌ بالمتآمرين، يمكننا أن نبدأ في إدراك جاذبية نظريات المؤامرة في أعقاب اختفاء طائرة في ظروف غامضة. تأمَّل دراسةً أخيرة. عندما عرض عالِما النفس بريستون بوست وستيفن برونير على المشاركين في دراستهما عام ٢٠١٣ نظرية مؤامرة مألوفة، مال المشاركون إلى تقييمها باستخدامِ أدلةٍ واقعية تَصادف علمُهم بها. لكن عندما صادف المشاركون نظريةً جديدةً تمامًا عليهم، لم يستطيعوا استحضارَ أيِّ حقائقَ يمكن أن تُساعدهم في إصدار حكمهم. وعوضًا عن ذلك، اعتمدوا على دافعٍ محتمَل: ما السبب الذي ربما يكون قد دفع المتآمرين المتهمين إلى فِعل ذلك؟ إن غياب الحقائق يفتح الباب على مِصراعَيه أمام عقولنا لتتكهَّن. فالشعور بوجاهةِ دافعٍ ما أدَّى إلى تصديق الأشخاص نظريةً ما بالقدْرِ نفسِه من الثقة التي يُصدِّقون بها أدلةً واقعية. فاختفاء الطائرة إم اتش ٣٧٠ أطلق العِنان لمكشاف النوايا وأفسح المجال للتفكير في أكثرِ دوافعنا قتامةً.

ليس من المستغرَب الآن أننا نتأثَّر كثيرًا بدوافعنا. يوضح عالِم النفس جوناثان هايت في كتابه «فرضية السعادة»، أن العالَم الذي نعيش فيه، من منظورٍ عملي، «ليس عالمًا مصنوعًا في واقع الأمر من صخورٍ وأشجارٍ وأشياءَ مادية؛ إنه عالَم الإهانات والفرص

وإظهار المكانة الاجتماعية والخيانات والقدِّيسين والمذنبين.» وفهم نوايا الآخرين أحدُ أكبرِ التحديات التي نُواجهها. فمسألة ما إذا كان الناس أعداءً أو حلفاءَ تتوقَّف على قدراتهم ورغباتهم ودوافعهم. فالحدث يتخذ أهميةً مختلفة تمامًا بناءً على ما إذا كان قد حدث مصادفةً أو عمدًا. يقول عالِم النفس آدم وايتس: «فرع الشجرة الذي أسقطه شخصٌ ما عليك أكثرُ لفتًا للانتباه من فرع شجرةٍ أسقطته الريحُ عليك.» فثمة فارقٌ كبير بين طائرة تعطَّلت وطائرة دُمِّرت.

من المفهوم أن أدمغتنا تطوَّرت بحيث أصبحت أكثرَ تكيفًا مع عالَم النوايا الخفي، حتى إذا خلطَت أحيانًا بين الضَّرر المتعمَّد وغير المتعمَّد، أو رأت نيةً مُبيَّتةً وراء أحداثٍ تقع مصادفة. وفي تاريخ تطورنا، فاقَت تكلفةُ الخطأ في الاتجاه المضاد تكلفةَ هذه الأخطاءِ في أغلب الأحيان. فاحتمالات أن يكون الإنسانُ الأول الذي كان يميل إلى الخلط بين الكتلة الخشبية الطافية والتمساحِ قد مرَّر جيناته، أكبرُ من احتمالات تمرير ذلك الذي غامرَ واقترب بشدة من تمساحٍ جائع ظنًّا منه أنه كتلةٌ خشبية غير مؤذية. فنحن يُمكننا احتمالُ الخطأ على جانب النوايا. وعجزنا عن مشاهدة المثلث الراقص لهايدر وزيمل، دون رؤيته كعاشقٍ وضيعٍ أو طفلٍ متنمِّر، هِبةٌ أخرى من هِبات أسلافنا.

وفي إشارتي إلى أن نظريات المؤامرة جذابةٌ في جانبٍ منها نظرًا إلى أنها تنسجمُ مع حدسنا بشأن نوايانا، لا تعني أني أقول إنها خطأٌ بالضرورة. فأحيانًا يكون هناك تمساح بالفعل. ومن الواضح أن الطائرة إم إتش ٣٧٠ غيَّرت مسارها واستمرت في الطيران لساعاتٍ بعد تعطيل نظام الاتصال بها، ما يوحي بأن ثَمة عملًا متعمَّدًا، بالرغم من أننا تُركنا لنُخمِّن الدافع وراء ذلك العمل. وربما تتبيَّن صحةُ ما يعتقده الذين يشعرون بأن ثمة مؤامرةً في الأمر. وربما يوجد تفسيرٌ أكثرُ براءةً، وإن لم يكن أقلَّ مأساويةً. أو ربما يتضح، مثلما حدث مع رجل المظلة الغامض، أن الحقيقة أغربُ من أي شيء يمكن أن يتخيله أحد.

الفصل العاشر

اختلال المناسيب

بمرور السنين، اتُّهم ٨٢ شخصًا — وهم أشخاص حقيقيون لهم أسماء وحياة وسمعة ومشاعر — من قِبل أصحاب نظريات المؤامرة بأنهم أطلقوا الرصاصَ على الرئيس جون كينيدي. وبأخذ كل شيء بعين الاعتبار، فإنه وفقًا لباحث الاغتيالات فينسنت باجليوسي، وُصمت ٤٢ جماعةً أو منظمة و٢١٤ فردًا بالتآمر.

بطبيعة الحال، كانت الرواية الرسمية تقول إن رجلًا مضطربًا يُدعى لي هارفي أوزوالد هو المسئولُ الوحيد عن عملية الاغتيال. كان أوزوالد في السابق أحدَ أفراد البحرية الأمريكية وقد سافر إلى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٩ وقضى هناك مدَّةً قصيرة ليعودَ من جديد إلى أمريكا في عام ١٩٦٢. وبعد انقضاءِ عامٍ ونصف من ذلك الوقت، وتحديدًا في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣، أطلق ثلاثَ رصاصات على الرئيس كينيدي من نافذةٍ بالطابق السادس في ديلي بلازا في دالاس بولاية تكساس. ولم تُصِب الرصاصة الأولى الهدف. أما الرصاصة الثانية فقد أصابت كينيدي في الظهر (وواصلت طريقها لتُصيب حاكم ولاية تكساس جون كونالي الذي كان جالسًا أمام الرئيس كينيدي). أما الرصاصة الثالثة فقد أصابت الرئيسَ في الرأس، ليتأكد بذلك مقتله ولتتلطَّخ سمعة أوزوالد.

هناك الكثيرُ من الأدلة التي تربط بين أوزوالد وعملية الاغتيال. فقد عمل في مستودعِ كتبِ مدرسة تكساس؛ حيث عُثر على بندقيةٍ وثلاثة خراطيش مستهلكة ووكرٍ هيَّأه بنفسه لإصابة هدفه منه. لقد كان الموظف الوحيد الذي لم يرَ بعدُ الحادث، وقد أُلقي القبض عليه بعد مضيٍّ ساعات قلائل من عملية الاغتيال لإطلاقه النارَ على أحد ضباط الشرطة، ويُدعى جيه دي تيبيت، الذي كان يبحث عن رجلٍ تنطبق أوصافُه على أوصاف أوزوالد. كذلك هناك الحقيقة القائلة بأن أوزوالد كان قد حاول قبل ذلك بسبعة أشهر اغتيالَ

شخصيةٍ بارزة أخرى في السياسة الأمريكية، وهو الجنرال إدوين ووكر، اليمينيُّ المناهض للشيوعية.

لكن الاستبيانات التي أُجريت على مدارِ سنواتٍ تُشير إلى أن هذه الرواية للأحداث لم تُقنع كثيرًا عمومَ الناس في واقع الأمر. فسرعان ما أُثيرت الشكوك. فقد أظهَر استطلاعُ رأي أُجري خلال الأسبوع الذي أعقب حادثة الاغتيال أن ثلث الأمريكيين فقط هم مَن يعتقدون أن لي هارفي أوزوالد هو مَن ارتكب الجريمة وحده؛ فأكثرُ من نصف المشاركين في الاستطلاع أكدوا بحسمٍ أن ثمَّة مؤامرةً في الأمر، في حين أن الباقين قالوا إنهم غيرُ متأكدين. وهذه الرأي السائد لم يتأثر كثيرًا بخروج تقرير لجنة وارين إلى النور وقد نُشر في عام ١٩٦٤، وتوصَّل إلى أن أوزوالد قد ارتكب جريمته بمفرده؛ ففي عام ١٩٦٦ عبَّر ثلثا المشاركين عن تشككهم في الرواية القائلة بتورطِ هذا الشخص وحده في الجريمة. وبحلول عام ١٩٧٦، ازدهرت نظرياتُ المؤامرة التي حيكت حول اغتيال كينيدي، وأصبحت الرواية المؤامراتية هي الرواية الافتراضية؛ فقد وجدَت استطلاعاتُ الرأي في المدة من منتصف السبعينيَّات إلى بداية القرن الحادي والعشرين أن قرابة ثمانية من ١٠ أمريكيِّين يعتقدون أن ثمَّة مؤامرةً وراء حادثة الاغتيال. والآن، بعد مرور ٥٠ عامًا من حادثة الاغتيال، لا يزال الأشخاصُ الذين يعتقدون أن ثمَّة مؤامرةً تقف وراء مقتل كينيدي يُمثِّلون أغلبيةً واضحة في الولايات المتحدة، وأقليةً لا بأس بها في الأماكن الأخرى من العالم.

واستنادًا إلى مستوياتِ الشك هذه، فليس من المستغرَب أن الكثير من نظريات المؤامرة طُرِح على مرِّ السنين لتفسير عملية الاغتيال. فبالرغم من كلِّ الأدلة التي تضع أوزوالد في مشهد الجريمة، لم يُصوِّره سوى عددٍ قليل على نحوٍ لافتٍ من نظريات المؤامرة على أنه تواطأَ بهمَّة مع مجرمين أو مخطِّطين آخرين. فقد اعتبرته هذه النظريات في أغلب الأحيان أنه كان مغفلًا؛ مجرد كبشِ فداء يمكن إلصاقُ التهمة به بسهولة. إذن مَن قتل كينيدي في حقيقة الأمر؟

متَّهَمون غير مألوفين

عملاء الحكومات السريُّون، سواءٌ أكانوا أجانبَ أم محليِّين، يلعبون دور الشرير في الكثير من النظريات. إحدى الروايات تقول إن ثمَّة خُطةً وضعها السوفييت الذين أغضبَهم الإذعان إلى مطالب كينيدي في أزمةِ الصواريخ الكوبية. وتتمحور هذه النظريةُ حول تجنيد أوزوالد من جانب وكالة الاستخبارات السوفييتية (كيه جي بي). غير أنه في

عام ١٩٦٤، انشقَّ عميل الاستخبارات السوفييتية نفسه، وغادر إلى الولايات المتحدة بعد أن كان قد تولَّى مسألةَ انشقاق أوزوالد ومغادرته إلى الاتحاد السوفييتي. أخبر هذا العميلُ ويُدعى يوري نوسينكو وكالةَ الاستخبارات الأمريكية عن رأي وكالة الاستخبارات السوفييتية في أوزوالد: لا يُعوِّلون عليه كثيرًا؛ حسب وصفه. وإدراكًا منهم أن أوزوالد شخص «عاديٌّ، لا يُثير الاهتمام، ولا نفع منه.» والأرجح أنه شابٌّ غيرُ متَّزِن عقليًّا، لم يُحاول السوفييت تجنيدَه خلال إقامته التي استمرت عامين ونصفًا. (ومكافأةً له على ذلك، حُكم على نوسينكو بالسجنِ غيرِ القانوني من جانب وكالة الاستخبارات الأمريكية، وكان حبسُه انفراديًّا لمدة ثلاثة أعوام ونصف.) في حقيقة الأمر، عندما وصل أوزوالد للمرة الأولى إلى موسكو وأعلن عن رغبته في التخلي عن جنسيَّتِه الأمريكية، حاولت الحكومة السوفييتية طرده إلى بلاده. ولم تُصدِر له تأشيرةَ إقامة إلا عندما حاول الانتحارَ بقطعِ شرايين يده في غرفةٍ بالفندق، وذلك قبل ساعاتٍ من اصطحابه إلى المطار لمغادرة البلاد. فقد اعتقد مَن تولَّوا شأنه أن السماح له بالإقامة أسهلُ من المخاطرة بدعاية سيئة حول موت سائحٍ أمريكي على مرأًى ومسمَعٍ منهم.

على أي حال، يُشير المزيد من النظريات بأصابع الاتهام إلى الداخل أكثر. وتلعب وكالة الاستخبارات الأمريكية دورًا بارزًا في بعض أكثر النظريات انتشارًا. وبإضافة عنصر المعقولية إلى الفكرة القائلة بتورطِ وكالة الاستخبارات الأمريكية، نعلم الآن أن الوكالة كانت قد وضعت، في واقع الأمر، خططًا لاغتيال زعماء أجانبَ بارزين في بدايات ستينيَّات القرن العشرين، وكان أهم هؤلاء الزعماء فيدل كاسترو. لكن هل كانت الوكالة لِتستخدمَ التكتيكات المشبوهة ذاتَها ضد رئيسِها؟ تزعم نظريات المؤامرة أن قادة وكالة الاستخبارات الأمريكية استاءوا من كينيدي بسبب الطريقةِ التي تعامل بها مع الفشل الذريع لعملية «غزو خليج الخنازير»، وأن كينيدي نفسَه استاء بشدةٍ من ذلك الفشلِ لدرجةِ أنه كان يُخطِّط لإعادة هيكلة وكالة الاستخبارات الأمريكية، على نحوٍ يجعلها غيرَ قادرة على أداء مهامها. وفي محاولةٍ منهم لئلا يدَعوا الحقائق تقف في طريق اختلاقهم قصةً جيدة، يتجاهل أصحابُ نظريات المؤامرة الحقيقةَ المزعجة القائلة بأنه بمجرد انتهاء عملية «غزو خليج الخنازير»، كان كينيدي قد أصبح على علاقةٍ وثيقةٍ على نحوٍ استثنائي مع وكالة الاستخبارات الأمريكية؛ حيث زاد من ميزانيتها، بل وحتى عمل على حمايتها من الخضوع للتحقيق في مواجهةِ مزاعم سوءِ التصرف من جانبها.

كما تُشير أصابعُ الاتهام إلى العُقدة العسكرية الصناعية المزعومة. فلعل القادة العسكريِّين وشركات تصنيع الأسلحة كانت مستاءةً من فقدان عوائدهم نتيجةً لرغبة

كينيدي في سحب جميع القوات الأمريكية من فيتنام، ودبَّروا مكيدة للتخلص منه. وإذا كان الأمر كذلك فقد حققت الخطةُ الغرضَ منها على ما يبدو؛ فقد زاد ليندون بينز جونسون نائب الرئيس كينيدي وخليفته، من عدد القوات الأمريكية في حرب فيتنام بشكل كبير. ولا يهمُّ الحقيقة القائلة بأنه وقت الاغتيال، لم يكن كينيدي قد عبَّر عن رغبته في سحب القوات الأمريكية من هناك، ولم يكن جونسون قد صرَّح بأي رغبةٍ في زيادة عدد تلك القوات. وفي ٢ سبتمبر ١٩٦٣، كان كينيدي قد قال في مقابلة: «في نهاية المطاف، تلك حربهم [يقصد الفيتناميين]. هم مَن يتعيَّن عليهم الفوز أو الخسارة. لكنني لا أتفق مع مَن يقولون إننا يجب أن ننسحب من هناك. هذا سيكون خطأً كبيرًا.» (يوضح باجليوسي أن أوليفر ستون أدرج الجملتَين الأُوليَين من هذا الاقتباس في فيلمه «جون إف كينيدي»، لكنه حذف الجملة الثانية؛ إذ من الممكن أن تُضعِف بدرجةٍ ما أو بأخرى، من نظرية المؤامرة المتمحورة حول العقدة العسكرية الصناعية التي طرحها الفيلم.)

وتُلقي نظرياتٌ أخرى باللَّوم على عصابات المافيا، التي لم تهتمَّ — وهو أمرٌ مفهوم بالقدْر الكافي — بتضييق الخناق على الجريمة المنظَّمة من جانب إدارة كينيدي. وبينما كان يُنقل أوزوالد من مقرِّ الشرطة إلى سجن المقاطعة في ٢٤ نوفمبر، برز رجلٌ مُسلَّح من وسط حشود المتفرجين وأطلق على أوزوالد رَصاصة في الصدر. هذا الرجل كان يُدعى جاك روبي، وهو صاحبُ ملهًى محليٍّ عُرف عنه تقلبُه المزاجي وبحثه الدائم عن الاهتمام والاحترام. ويزعم أصحاب نظريات المؤامرة أنه كان أيضًا أحدَ أفراد العصابة وقد حان دوره عندما كلَّفه رؤساؤه المجرمون بإسكات ذلك الأبلهِ الذي جنَّدوه لقتل كينيدي. بل إن شخصيةً مثل جيه روبرت بلاكي، كبير مستشاري لجنة التحقيق في الاغتيالات، خرج من التحقيق وهو على يقينٍ من أن عصابات المافيا أداروا عمليةَ اغتيال كينيدي، وأن قتل جاك روبي لأوزوالد قدَّم دليلَ الإدانةِ القاطعَ.

هذه النظريات لديها على الأقل قدرٌ من المعقولية. وهناك نظريات أخرى أبعدُ ما يكون من أن تُصدَّق. فبعد عملية الاغتيال بوقتٍ قصير، عُثر على ثلاثة رجال مشردين داخل إحدى عربات قطار على بُعد عدة بنايات من حديقة ديلي بلازا. وقد التُقطت صورٌ لهم وألقت الشرطة القبض عليهم، لكنهم اختفَوا تمامًا بعد ذلك على ما يبدو. وقال بعض أصحاب نظريات المؤامرة إنه من الواضح أن السلطاتِ أخفَت هُوياتهم عمدًا من أجل إخفاءِ دَورهم في عملية الاغتيال. ولم يسَعْ أصحابَ نظريات المؤامرة هؤلاء سوى أن يُقدِّموا ما تتطلبه الرواياتُ من تفصيلات؛ إذ زعموا أن أحد هؤلاء الأشخاص قاتلٌ مأجور

والاثنين الآخرَين هما فرانك ستيرجيس وإي هوارد هانت من لصوصِ ووترجيت. لكنه اتضح لاحقًا أن إدارة شرطة دالاس، كانت قد سجَّلت أسماءَ هؤلاء الأشخاص عندما أُلقي القبض عليهم. هؤلاء كانوا هارولد دويل وجاس أبرامز وجون جيدني، وعندما أجرى مكتبُ التحقيقات الفيدرالي تحقيقًا بشأنهم في بدايات التسعينيَّات، اتضح أنهم لم يكونوا سوى ثلاثة مشردين يركبون القطار.

ووفقًا لأكثر النظريات بُعدًا عن المعقولية، لا تحتاج إلا إلى أن تبحث في موكب كينيدي نفسِه لتعثرَ على القاتل. فربما كان العقل المدبِّرُ للمؤامرة يستقلُّ سيارةً خلف كينيدي، ويُلوِّح بلطفٍ للحشود: ولا أحد سوى جونسون، نائب الرئيس الذي، دبَّر، وفقًا لأصحاب نظرية المؤامرة، خطةً لقتله كي يحلَّ محله في البيت الأبيض. وتُصر رواية أخرى على أن مَن أطلق الرصاصة القاتلة المروعة على رأس كينيدي هو عميل المخابرات السرية جورج هيكي، الذي كان يستقلُّ السيارة التي كانت تسير خلفَ سيارة كينيدي مباشرة، وتزعم أنه أطلقها بالخطأ. وبطبيعة الحال، تآمرَت لجنة وارين للتستُّر على الخطأ القاتل لهيكي.

بل إن البعض يرى أن قاتل كينيدي كان معه في السيارةِ نفسِها. فالرجل الذي كان يقود سيارةَ الليموزين التي يستقلُّها الرئيس، وهو عميل المخابرات السرية ويليام جرير، يمكن أن يُرى في فيلم زابرودر وهو يلتفتُ التفاتةً سريعة إلى الرئيس في اللحظة ذاتِها التي أُطلقت فيها الرصاصتان الأُولَيان. ثم، إذا كان يصعب عليك الاقتناع، وبشيء من التخيل، يبدو الأمر كما لو أن الرجل أخرج مسدسه وأطلق الرصاص مباشرةً على رأس كينيدي. أو ربما، وفقًا لإحدى النظريات، كان القاتل هو آخِرَ شخص يخطر على بال أحدٍ، وهو الشخص الجالس عن يمين كينيدي: زوجته على مدار ١٠ سنوات، جاكلين بوفير كينيدي. وهذه النظرية تزعم أن جاكي، كانت قاتلةً مدرَّبة بشكلٍ جيد، دون علم زوجها، وابتُزَّت لقتل الرئيس باستخدام بندقية من نوعٍ خاص أخفَتها في حقيبةِ يدها كُحليَّةِ اللون.

المتَّهم المألوف

أعتقد أن هذا كافٍ. فهدفي هنا ليس إثباتَ أو دحضَ هذه النظريات أو أيٍّ من النظريات الأخرى الكثيرة. وسبب ذكري لهم، ولاستطلاعات الرأي التي تُبيِّن أن أغلبية الناس يُصدِّقون نسخةً مؤامراتية من نوعٍ ما لعملية الاغتيال، أن أُوضِّح إلى أيِّ مدًى نظريات المؤامرة المتعلقة باغتيال كينيدي رائجةٌ وكثيرة ومنمَّقة. فالتكهن المؤامراتي لم يتوقَّف

ولم يتراجع. يُفصِّل تيموثي ميلاي الباحثُ في نظريات المؤامرة هذا الأمرَ بإسهاب؛ إذ يقول إن الاغتيالَ كان موضوع «تحقيقَين فيدراليَّين ذوَي نطاقٍ واسع للغاية؛ وتحقيقاتٍ أضيقَ نطاقًا أجْرَتها وكالاتُ الولاية والوكالات الخاصة والفيدرالية، وعدة آلافٍ من المقالات والكتب، وعشرات الروايات والأفلام والمسرحيات، وعددٍ لا حصر له من الأخبار، وعددٍ لا حصر له من المناظرات والسِّجالات والبرامج الإخبارية التليفزيونية الخاصة.»

وعلى سبيل المقارنة، تأمَّل إطلاق الرصاص على رئيسٍ آخر. ففي ٣٠ مارس ١٩٨١، أطلَق جون هينكلي الابن ستَّ رصاصات على الرئيس رونالد ريجان من مسافة ١٠ أقدام فقط. ولم تُصِب الرصاصاتُ جميعُها الرئيسَ، لكن رصاصة منها ارتدَّت عن السيارة الليموزين المانعة للرصاص وأصابته في الصدر، محدِثة ثَقبًا في رئته، ولم يفصل بينها وبين قلبِه سوى بوصةٍ واحدة. كادت حياة ريجان أن تنتهي لكن الأطباء نجَحوا في إزالة الرصاصة ووقفِ النزيف الداخلي، منقذين بذلك حياةَ الرئيس بأعجوبة. قالت الرواية الرسمية إن هينكلي كان مختلًّا عقليًّا، وإن إطلاق الرصاص كان محاولةً لإبهار الممثِّلة الشابة جودي فوستر. فقد ظل يتعقَّبها لسنوات، ويتَّبع خُطاها ويتصَّل بها ويُرسل لها الخطابات. وفي نهاية المطاف، وفي ظلِّ تأثُّرِه بفيلم «تاكسي درايفر» (سائق التاكسي)، الذي كانت بطلتُه فوستر وظهرَت فيه شخصية ترافيس بيكل (دورٌ لعبه روبرت دي نيرو) الذي كان يُخطِّط لاغتيال سيناتور أمريكي، قرَّر هينكلي أنَّ أفضلَ طريقةٍ لإبهار فوستر أن يقتل الرئيس. فقد كتب لها رسالتَه متوسلًا، صبيحةَ يوم إطلاق النار على ريجان: «جودي، كنتُ لأتخلى عن فكرةِ قتلِ ريجان على الفور لو أنني فزتُ بقلبك وعِشتُ بقيةَ حياتي معك.» قضية محسومة.

لكن أصحاب نظريات المؤامرة يُمكن أن يجعلونا نُصدِّق أن ... حسنًا، في واقع الأمر لا تكاد تكون هناك نظريات مؤامرة حول محاولةِ اغتيال ريجان. فلم يكن هناك سِوى مزاعمَ مؤامراتيةٍ واهيةٍ ظهرت بين الحين والآخر على مرِّ السنين؛ يمكنك أن تجد مواقعَ إلكترونية غامضةً تزعم أن هينكلي كان عميلًا لإحدى الجهات الأجنبية الشريرة التي تلاعبت به وتحكَّمت في عقله. ليس هناك وجهٌ للمقارنة بين اغتيال كينيدي ومحاولة اغتيال ريجان. فنظريات المؤامرة عن كينيدي، أصبحت اتجاهًا سائدًا، في حينِ أن نظريات المؤامرة حول ريجان لم تُحقِّق رَواجًا يُذكر.

ما سبب تلك الحالةِ من عدم التوازن بين رواج نظرياتِ كينيدي ونظرياتِ ريجان؟ ثَمة اختلافاتٌ كبيرة بين الحدَثين. فكينيدي كان من الديمقراطيين، في حين أن ريجان

كان من الجمهوريِّين. وكان كينيدي يبلغ من العمر ٤٦ عامًا، في حين كان ريجان يبلغ من العمر ٧٠ عامًا. وكان أوزوالد مفتونًا بالماركسية في حينِ كان هينكلي مهووسًا بإحدى نجمات السينما. لكن الاختلاف الأبرز هو الحقيقة البسيطة القائلة بأن أحد القاتلين نجح والآخَر فشل. ونتيجةً لذلك، كان اغتيالُ كينيدي حدثًا جَللًا يفوق بكثيرٍ محاولةَ اغتيال ريجان. فالرئيس كينيدي كان يتمتَّع بشعبيةٍ كما كانت له كاريزما، ومقتلُه غيَّر مَجْرى التاريخ إلى الأبد. أما محاولة اغتيال ريجان، فيُمكن أن تُوصف، بدرجةٍ ما أو بأخرى، بأنها لم تكن ترقى لأن يُطلَق عليها حدثٌ من الأساس. فقد عاش رئيسًا ذا شعبيةٍ ويتمتَّع بكاريزما ليُواصل حكمه للبلاد. وربما كان رَواجُ نظرياتِ المؤامرةِ المتعلقة بمحاولةِ اغتيال ريجان ليصبح بلا شكٍّ مختلِفًا تمامًا، لو كان هينكلي بارعًا في إصابة هدفه؛ وكذلك الحال لو أن الرَّصاصة الأخيرة التي أطلقها أوزوالد لم تُصب كينيدي ولم يتعرَّض إلا لجروح.

قد يبدو هذا بديهيًّا، لكن السبب وراءه يكمن في سمةٍ غريبة مهمة تتَّسم بها آليةُ عملِ أدمغتنا. فهناك طريق عقلي مختصر يُوجهنا يُطلَق عليه التحيُّزُ النِّسبي. فنحن نريد أن يكون هناك توافقٌ بين عِظمِ الحدثِ وعِظمِ السببِ الذي يقف وراءه، أيًّا كان ذلك السبب. وعندما تكون النتيجة المترتِّبة على حدثٍ هائلةً وعميقةً ومهمةً بطريقةٍ ما أو بأخرى، نميل إلى الاعتقاد بأن شيئًا ما هائلًا وعميقًا ومهمًّا يقف وراءها. وعندما تكون النتائج أقلَّ وقعًا، تبدو الأسباب المتواضعة أكثرَ وجاهةً ومعقولية. ببساطة، نحن نعتقد أن الأشياء الكبيرة تُسبِّبها أشياءُ كبيرةٌ مثلُها.

هذه ليست دائمًا قاعدةً خاطئة. ففي كثيرٍ من الأحيان، نجد أن أسبابًا جسامًا تقف في واقع الأمر وراء أحداث جسام. فإذا التقطتَ صخرة ورميتها برِفق، فلن تندهشَ كثيرًا عندما تجدها لا تبعُد عنك كثيرًا. لكنك إذا استجمعت كلَّ قوَّتك وألقيتَ بها، فستصل إلى مسافةٍ أبعدَ بكثير. وربما إن فعلت ذلك، تكسِر شيئًا أو تُصيب شخصًا ما. فنحن نعلم أن الجهد الأكبر يُولِّد تأثيرًا أكبر. وبالمثل، في عالم الأحداث العالمية المعقَّدة، الأشياء المهمة غالبًا ما تتطلَّب الكثيرَ من الجهد. فعلى سبيل المثال، جاء تطوير القنبلة الذرِّية — وهو حدثٌ جَلل استنادًا إلى النتيجةِ الماديةِ للانفجار والتبعات الجيوسياسية — كنتيجةٍ لمشروع منهاتن، وهو جهدٌ ضخمٌ شارك فيه ١٣٠ ألفَ شخصٍ على مدار سبع سنوات، بتكلفةٍ تُعادل ٢٦ مليار دولار أمريكي، بحساباتنا اليوم.

لكن ليس صحيحًا دائمًا أن حجمَ السبب يتوافقُ مع حجم النتيجة. فأحيانًا يمكن أن يُغيِّر التواءٌ بسيط في الظروفِ مسارَ حياتنا. فمثلًا يمكن أن يُحدِث شخصٌ يبدو تافهًا

تأثيرًا ضخمًا في مسار التاريخ. ويقودنا التحيُّزُ النِّسبي نحو التغاضي أو التخلي عن فكرةِ أن الأسبابَ البسيطة يُمكن أن تولِّد آثارًا ضخمة في بعض الأحيان، ومَن يدفعنا نحو الاعتقاد بوجود مؤامرات شريرة ضخمة بالرغم من الأدلة الكثيرة التي تدعمُ النقيض. لكن هذا النوع من التفكير اللاعقلاني لا ينطبِق على نظرياتِ المؤامرة وحدَها. فالتحيُّز النِّسبي يؤثِّر بخفاءٍ في الطريقةِ التي نرى بها أنواعَ الأشياء كافةً طَوال الوقت.

التَّوافق في الجسامة

تخيَّل أنك ترمي حجرَ النَّرْد. أولًا، أريد منك أن تحاول الحصولَ على رقمٍ منخفض؛ لنقل واحدًا أو اثنَين. تخيَّل أنك تفعل ذلك دون اكتراث. ربما تهزُّ حجَر النَّرد قليلًا وتنفخ فيه طلبًا للحظ. والآن ألقِه. حسنًا، الآن تخيَّل أنك تُلقي حجر النرد من جديد، لكن هذه المرة تُحاول أن تحصلَ بحقٍّ على رقمٍ كبير، لنقل خمسة أو ستة. هل كان هناك فارقٌ في طريقة رميِك له؟ ضعْ هذا في حسبانك؛ فسوف نعود إليه بعد قليل.

الآن دَعْنا نفترضْ أن حجر النرد يميل إلى الإذعان لقوانين الطبيعة والاحتمال، وليس الاستجابة لآمال الرامي ورغباته. نتيجةُ أيِّ رمية شيءٌ من قبيل الصدفة وليس المهارة. لكننا أحيانًا لا نستطيع أن نمنعَ أنفسَنا من التظاهر بأننا مسيطرون على الأمور؛ أو بعبارةٍ أخرى، الشعور بأن الطريقة التي نُلقي بها حجرَ النرد قد تُؤثِّر في الرقم الذي سيظهر.

في عام ١٩٦٧، أثبتَ جيمس هنسلين هذا بأكثرِ طريقةٍ واضحةٍ ومنطقية ومباشرة؛ إذ كان يتظاهرُ بأنه سائقُ سيارةِ أجرةٍ ويتسلل بين مجموعةٍ من سائقي سيارات الأجرة في سانت لويس عندما كانوا يجتمعون في باحاتِ وقوفِ السيارات في الساعات الأولى من الصباح بين نَوبات العمل، للانخراط في مقامرةٍ محظورةٍ قانونًا. (يستمتع علماء الاجتماع أيَّما استمتاع.) كانت اللعبة التي اختاروها هي لعبة «كرابس» التي يُلقي فيها اللاعبُ زوجًا من أحجار النرد، ويُراهن على النتيجة. كان هنسلين مهتمًّا بالطقوس الخرافية التي استخدمها المقامرون في محاولةٍ للتحكُّم في حظوظهم في لعبةٍ تعتمد على الصدفة، وقد وجد مجموعةً معقَّدة من الطقوس. المثال الأول كان الاعتقادَ بأن اللاعبَ يُمكن أن يؤثِّر على نتيجة الرمية عن طريقِ ضبطِ درجة الشدة التي يُلقي بها حجرَ النرد. فسائقو سياراتِ الأجرة كانوا يُلقون برفقٍ عندما يرغبون في الحصول على رقمٍ منخفض، وبقوةٍ

أكبر عندما يريدون الحصولَ على رقمٍ مرتفع. وكان اللاعبون يوبِّخون أنفسهم من وقتٍ لآخر لعدم الالتزام بالقاعدة؛ يذكر هنسلين ما قاله لاعبٌ يُدعى ليتل جو لنفسه، وهو ينتحب: «لقد ألقيتُ بها بقوةٍ أكثرَ من اللازم هذه المرة.»

هل فعلتَ شيئًا مشابهًا عندما تخيَّلتَ نفسك وأنت ترمي حجر النرد منذ قليل؟ لقد فعلتُ بالتأكيد ذلك عندما كنتُ ألعب لعبة «السُّلَّم والثعبان» وأنا طفل. فإذا أردتُ رمْيَ حجر النرد بحيث يظهر لي رقمٌ منخفض للسير بحذرٍ على مربعٍ أو مربعَين والوصول إلى سُلَّم، كنت أهزُّ حجر النرد برفقٍ وأضعه برفقٍ على المنضدة. وإذا أردت أن أرميَ حجر النرد بحيث يُظهر لي رقمًا مرتفعًا وأجتاز مجموعةً من الثعابين الشريرة، كنتُ أرمي الحجرَ بقوة على المنضدة. لم يُعلمني أحدٌ هذه الاستراتيجية؛ فقد جاءتني الفكرةُ تلقائيًّا، كما كان الحال بالنِّسبة إلى سائقي سانت لويس؛ وبالنِّسبة إلى المقامرين ولاعبي الطاولةِ في أنحاء العالم. الرمية الأكثرُ قوةً يُتوقَّع أن تؤدِّيَ، بطريقةٍ ما أو بأخرى، إلى رقمٍ أعلى. فالرقم الكبير يحتاج إلى حركةٍ أقوى. والفكرة القائلة بأن سرعةَ حجر النرد تؤثِّر بدرجةٍ ما أو بأخرى على الرقم الذي يظهر تُبيِّن التحيُّز النِّسبي في الأفعال، الأمر الذي يُوجِّه أفكارَنا وسلوكياتنا بشأنِ نتيجةٍ ما، هي في واقع الأمر عشوائيةٌ تمامًا.

هذا مجردُ مثالٍ واحد نبدأ به. فالتحيُّز النِّسبي له تأثير أعمق بكثيرٍ من مجرد توجيهنا بشأن الكيفية التي نرمي بها حجر النَّرد. إنه يُشكل الطريقة التي نُفكر بها في الحياة والكون، بل وكل شيء تقريبًا. فعندما تحدثُ أشياءُ كبيرةٌ لنا، نبحث عن أسبابٍ كبيرة. لعلك وجدتَ نفسك تُفكِّر على هذا النحو في أحداثٍ تقع في حياتك. فإذا حدث شيء مهم، مثل فوزك بمبلغ ٥٠ ألف دولار بورقة يانصيب، أو التقيتَ بمعشوقك الأبديِّ مصادفةً، لا يُمكنك أن تمنع نفسك من التفكير في أن هناك سببًا كبيرًا وراء ما حدث. فربما كان الفوزُ مكافأةً إلهيةً لك على فعلٍ من أفعال الخير أديتَه. وربما جلَب القدَرُ لك معشوقَك. وبالمثل، عندما نُواجه مأساةً شخصية، يكون من المغري أن نعتقدَ أن ما حدث تدبيرٌ سماوي أو عمل شيطاني.

حتى إذا كنا لا نؤمن بالأقدار أو بالآلهة أو بالشياطين، لا يستطيع أغلبنا أن يمنع نفسَه من أفكارٍ كتلك التي تطرأ على عقولنا من وقتٍ لآخر. وهذا ينطبِق بوجهٍ خاص عندما تخرج الأحداثُ عن نطاق سيطرتنا ويكون لها تَبعاتٌ تُغيِّر مجرى الحياة، حسبما

توصَّل مايكل لوبفر وإليزابيث لايمان. فلا يُرضينا مطلقًا أن نركنَ إلى الاعتقاد بأن حظَّنا الجيد أو العاثر ليس أكثرَ من مجردِ صدفةٍ عمياء، أو أننا التقينا بمحبوبنا الأبدي ليس بسبب خطةٍ كونية، ولكن لمجرد أننا أفرَطْنا في الشراب وتقيَّأنا مصادفةً على حذاء شخصٍ غريب جذَّاب.

حتى الباحثون الذين يجب أن يتحلَّوْا بالعقلانية والموضوعية يكونون عرضةً للتحيز النِّسبي. فيزعم الكثيرُ من المؤرخين أن الأحداث التاريخية الكبرى مثل الحرب العالمية الأولى لم يكن هناك مفرٌّ منها. هم يقولون إن أوروبا كانت على استعدادٍ للنزاع، وحتى إذا لم تقع الأحداث بالطريقةِ نفسِها التي وقعَت بها، ربما كان شيءٌ ما ليبدأ هذا النزاعَ الدولي. لكن هل هذه فكرةٌ لها أسانيدها التي تُبرِّرها؟

الحدث الأبرز الذي أشعل فتيلَ الحرب العالمية الأولى كان اغتيالَ الدوق النمساوي فرانس فرديناند خلال زياراته الرسمية إلى سارايفو. فتنظيم راديكالي أطلقَ على نفسه «اليد السوداء» تآمرَ للتخلُّص من الدوق. وقد اختبأ ستةُ قتَلة على جانب الطريق وكانوا يحملون القنابلَ لإلقائها على موكبِ فرديناند عند مروره. ارتبك اثنان من القَتَلة ولم يستطيعا تنفيذ المهمة. أما الثالث فقد ألقى القنبلةَ على سيارة فرديناند، لكنه شاهدها ترتدُّ لتنفجر أسفل سيارة أخرى. وابتلع القاتل المُفترض حبةَ سيانيد كان قد زُوِّد بها وألقى بنفسه في نهرٍ قريب. ولسوء حظِّه، لم تكن الجرعةُ كافية؛ إذ لم تُصبه إلا بنوبات حادةٍ من التقيُّؤ، ولم يكن النهرُ أعمقَ من نصف قدم. وهجم عليه فورًا حشدٌ من المصطفِّين على جانبَي الطريق وألقَوا القبض عليه، في حين أن القتَلة الآخرين اختفَوا بهدوء وهم يجرُّون أذيالَ الهزيمة. غير أن فرديناند لم ينزعج كثيرًا بما حدث وقرَّر الاستمرار في زيارته. وفي وقتٍ لاحقٍ من اليوم، سلك جزءٌ من موكبه منعطَفًا خاطئًا وتوقَّف للحظاتٍ للَّحاقِ ببقية الموكب. وبالصدفة كانت سيارة فرديناند قد توقَّفت أمام المقهى الذي كان قد دخله أحدُ القَتلة المحبَطين ويُدعى جافريلو برينسيب، ليتحسرَ على فشله. كان برينسيب خارجًا من المقهى ليجد نفسَه على بُعد خطواتٍ قليلة من الدوق، ولم يُضِع الفرصة. فأخرج بندقيته وأطلق رصاصتَين على السيارة، ما أدَّى إلى مقتل فرديناند وزوجتِه.

من السهل أن تتخيَّلَ كيف أن تغييرًا بسيطًا في تتابُع الأحداث كان من الممكن أن يُنجِّي فرانز فرديناند من الموت. فلو أن فرديناند كان قطعَ زيارته، ولو أن قائدَ سيارته لم يسلك الطريقَ الخطأ، ولو أن برنيسيب لم يختَرْ ذاك المقهى أو لم يخرج في اللحظةِ ذاتها التي توقَّف فيها الموكب، لم تكن عمليةُ الاغتيال لتتمَّ أبدًا. من الأصعب أن تتخيَّل إلى

أي مدًى كان هذا التغييرُ البسيط في التاريخ ستكون له انعكاساتٌ أوسعُ نطاقًا. فهل لم تكن لتندلع الحربُ بأكملها؟ وفقًا لدراساتٍ أجراها اختصاصيُّ العلوم السياسية ريتشارد ليبو، كثيرًا ما يرفض باحثو التاريخِ أو العلوم السياسية فكرةَ أن شيئًا تافهًا على ما يبدو — كسلوك قائد سيارة مهمل الطريق الخطأ — يمكن أن يُؤدِّيَ إلى تغييرٍ جذري في الطريقة التي تتكشَّف بها أحداث العالم. لكن منطقهم يشوبُه التحيُّز النِّسبي. فسعيًا منهم إلى المواءمة بين حجم السبب وحجم النتيجة، يجدون صعوبةً بالغة في الإقرار بأنَّ حدثًا بسيطًا يمكن أن يُؤدِّيَ إلى تغيير مسار التاريخ تمامًا. صحيحٌ أن أوروبا كانت على استعدادٍ للنزاع، لكن دون شرارةِ الاغتيال التي أدَّت إلى اندلاع النزاع، كان من الممكن أن تنحسرَ العداوات وتُتَجنَّب الحرب.

ليس مستغربًا أن الأكاديميين قد يتأثَّرون بالتحيُّز النِّسبي. فنحن جميعًا نتأثرُ به طَوال الوقت. بل إن تأثيره الخفيَّ ربما يكون حتى قد شكَّل الطريقةَ التي نتواصل بها. يوضح اللغويُّون أن نطق كلماتٍ من قبيل little (وتعني قليل) وpetite (وتعني صغير)، وdiminutive (وتعني ضئيل)، وitsy-bitsy (هذا شيء بسيط) يؤدي إلى تضييق الحلق والشفتَين، في حين أن كلماتٍ مثل large (كبير)، وhuge (ضخم)، وvast (هائل)، وrotund (جسيم)، وenormous (فادح) وhumongous (بالغ) تؤدي إلى اتساع جهازنا الصوتي. (هذا ينطبق أيضًا في لغاتٍ أخرى.) فمثلًا قارِن الكلمتين gordo (هائل) وchico (تافه) الإسبانيتين أو الكلمتين الفرنسيتين petit (صغير) وgrand (كبير). فإذا أردنا أن ننقل فكرةَ الضخامة، نصنع صوتًا ضخمًا. وإذا أردنا أن نُعبِّر عن الصِّغَر، نصنع صوتًا صغيرًا. ويبدو، أن الطريقة التي صُمِّمت بها أدمغتُنا تدفعنا إلى البحثِ عن الاتساق بين الكيفية التي نُفكِّر فيها بشأن حجمِ شيءٍ ما والكيفية التي نُعبِّر بها عن ذلك.

أزمةٌ (أُحبطت)

رأينا كيف أن التحيُّز النِّسبي يُمكن أن يؤثِّر على سلوكنا كما يؤثِّر على تفسيراتنا للأحداث التي تقعُ في حياتنا أو الأشياء التي حدثَت بالفعل في العالم. لكن هل يُؤثِّر على الطريقة التي نُفسِّر بها الأحداثَ التي تقع في العالم من حولنا؟ بما أن لِجانَ الأخلاقيات لا تستحسنُ عمومًا ما يفعله علماء النفس من صياغةٍ خفيةٍ للأحداث العالمية الكبرى فقط لمعرفة الكيفية التي يستجيبُ بها الناس؛ فقد استقرَّ الأكاديميون الذين يدرسون التحيُّز النِّسبي على اختلاقِ رواياتٍ وحسب. فالتمسُّك بالخيال يسمح للباحثين بالتلاعب منهجيًّا

بالتفاصيل، جاعلين كلَّ شيء على حاله فيما عدا النتيجة. في أغلب الدِّراسات، قرأَت مجموعتان منفصلتان من الأشخاص القصةَ ذاتها، لكن أُعطيت نهايةُ قصةٍ مختلفة لكلِّ مجموعة. فكانت قصة المجموعة الأولى تنتهي بانفجار، والنتيجة كانت كارثيةً. أما قصة المجموعة الثانية فكانت تنتهي بتذمُّرٍ ضعيف لم يترتَّب عليه نتائجُ جسيمة.

فمثلًا شملت دراسةٌ أُجريت عام ٢٠١٠ تحت إشراف عالِمة النفس آنا إيبل-لام رواياتٍ عن انفجارٍ في مخزن الشحن بإحدى الطائرات. في إحدى تلك الروايات، ناضلَ الطيارُ من أجل الاحتفاظ بزِمام السيطرة والهبوط الطارئ، لكن الطائرة تحطَّمَت في نهاية الأمر، ما أدَّى إلى مصرعِ جميعِ مَن كانوا على متنِها. وفي روايةٍ أخرى، كان الفارق الوحيد هو أن الطيار، هذه المرةَ، كان قادرًا على جعلِ الطائرة تهبِطُ بنجاحٍ. وعندما أُعطي الجميعُ قائمةً بالأسبابِ الممكنة كي يختار من بينها، نزَع الأشخاص الذين قرَءوا الرواية التي تنتهي بالموت والدمار إلى افتراضِ أن الانفجار لا بد أن يكون قد حدث نتيجةَ مَكيدةٍ إرهابية أو سوءِ تصرفٍ متأصل من جانب فنيِّي شركة الطيران. أما الأشخاص الذين قرَءوا الرواية التي تنتهي نهايةً أخفَّ وطأة، فكانوا أكثرَ ميلًا إلى عزو الانفجار إلى سببٍ عادي أكثر مثل الماس الكهربي. ومن الأهمية أن نُشير إلى أن نتيجة القصة — سواءٌ كانت تحطُّمَ الطائرة أو هبوطَها — كان مآلُها إلى أفعالِ الطيار وليس الانفجار نفسه. فليس هناك سببٌ في أن تكون النتيجةُ قد أثَّرت على أحكامهم بشأن ما أدَّى إلى وقوع الانفجار. ومع ذلك، كلما كانت النتيجةُ أكبر، كان السبب وراءها أكبرَ، حسَب تفسيرهم.

في دراسةٍ أخرى، اختلقَت إيبل-لام وزملاؤها روايتَين اكتسحت فيهما نوبةُ تفشٍّ لأحد الأمراض مكتبًا للمحاسبة. ووفقًا لكلتا الروايتَين، أُصيب عشراتُ الموظفين بالعدوى وتطلَّب الأمرُ نقلَهم إلى المستشفى. بالنِّسبة إلى مجموعةٍ من القرَّاء، انتهت الرواية بأن كلَّ موظف تَماثل للشفاء تمامًا وعاد إلى عمله؛ ولم يحدث أيُّ مكروه. لكن بالنِّسبة إلى المجموعة الأخرى، انتهت الرواية بإشارةٍ أكثرَ قتامة، إلى أن المرض فتَك بالكثيرين من الأشخاص الذين أُصيبوا بالعدوى. ومن جديدٍ، قيَّم القراءُ مدى أرجحية الأسباب المحتملة. بعض هذه الأسباب كانت كبيرة؛ لعل التفشِّيَ كان بسبب الحرب البيولوجية، أو نتيجة عامل مُمرِض فائقٍ شديدِ العدوى على نحوٍ غيرِ مألوف. أما الآخرون فكانوا أكثرَ اعتدالًا في تقييمهم؛ ربما كان سببُ التفشي هو عدوى بكتيريةً عادية، أو نتيجةَ التقاطِ أحد الموظفين فيروسًا عندما كان مسافرًا بالخارج. وكما كان متوقَّعًا، اعتبر الأشخاص الذين

أُخبروا بأن نوبة التفشِّي كان لها تداعياتٌ خطيرة أن أسبابًا كبيرة كانت أكثرَ أرجَحيةً، في حينِ أن الذين أُخبروا بأن النتائج كانت أخفَّ وطأةً اعتبروا الأسباب العادية نسبيًّا أكثرَ وجاهة.

بل إن مبدأ المواءمة بين حجم الأسباب وحجم النتائج يمتدُّ ليشملَ تفضيلًا للأسباب الأكبرِ ماديًّا بالنِّسبة إلى الأحداث الجسيمة. ففي الدراسة المفضَّلة لديَّ شخصيًّا عن التحيُّز النِّسبي، اختلقَت روبين ليبوف ومايكل نورتون قصةً عن تفشِّي مرضٍ غيرِ مألوف بين الحيوانات في إحدى حدائق الحيوان. وفي إحدى الرِّوايتين، انتشرت العدوى في الحديقة، مما أدَّى إلى نُفوق معظم الحيوانات قبل أن تتمَّ السيطرةُ على العدوى. وفي الرواية الأخرى، تمكَّن القائمون على حديقة الحيوان من السيطرة على المرض بسرعة، بحيث لم يَمُت سوى عددٍ قليل من الحيوانات التعيسة الحظ. وعُزي مصدر الوباء إلى عامِلَين؛ إما أرنب صغير انضمَّ مؤخرًا إلى الحديقة، أو دبٍّ ضخم وُضع فيها مؤخرًا. وعندما أُخبر القراء بأن أغلبَ الحيوانات قد نفقَت، كان السبب الأكبر حرفيًّا — الدُّب الضخم — أكثرَ أرجحية وراءَ تفشي المرض. لكن عندما لم يَمُت سوى عددٍ قليل من الحيوانات، اتهَم أشخاصٌ أكثرُ الأرنبَ.

تُشير دراساتٌ أخرى إلى أن الأشخاصَ يُفضِّلون الأسباب الجسيمة لتفسيرِ الجرائم الجسيمة، مثل عمليات القتل الوحشية والكوارث الطبيعية المدمِّرة للغاية، مثل الأعاصير والحوادث المدمِّرة مثل تحطُّمِ طائرةٍ أدَّى إلى مصرعِ عددٍ كبير من الأشخاص. أما الجرائم الأقلُّ وطأةً والكوارثُ الأقلُّ حدَّة والحوادث التي لا يُقتَل فيها أحد فتُعزى إلى أسبابٍ عاديةٍ أكثر. ومن المثير للاهتمام أن نُشير إلى أن أنواع القصص التي استخدمها الباحثون تتعلَّق على نحوٍ دقيق بنوعيات الأحداث — الكوارث والأمراض والجرائم — التي تُؤدي إلى إطلاقِ بعضِ أكثرِ نظريات المؤامرة رَواجًا. فيزعم أصحابُ نظريات المؤامرة أن فيروس نقص المناعة البشرية المكتسب/الإيدز سلاحٌ بيولوجي، وأن تقنية التلاعب بالطقس هي السبب في إعصار كاترينا، وأن حوادثَ إطلاقِ النارِ الجماعيِّ مثل مدرسة ساندي هوك كانت من تدبير الحكومة، وأن الرحلة رقم تي دبليو إيه ٨٠٠ أُسقِطَت بسبب خللٍ بسيط في أنبوبِ إمداد الوقود ولكن بتدبيرٍ من الجيش الأمريكي. والدراسات التي ذكَرناها إلى الآن لم تسألِ الناس مباشرةً عما إذا كانوا يعتقدون أن ثمَّة مؤامرةً تقف وراء ما حدث؛ لكنَّ دراساتٍ أخرى سألتهم عن ذلك سؤالًا مباشرًا.

إصابةُ الهدف وعدم إصابته

هبْ أنك في المرة القادمة التي تُقلِّب فيها في هاتفك المحمول، قرأتَ عنوانًا رئيسًا لخبرٍ مهم يقول: «رجلٌ يُطلق الرصاصَ على الرئيس ويُرديه قتيلًا.» استنادًا إلى هذا العنوان وحدَه ودون أيِّ شيء آخر، ما احتمالاتُ اعتقادك أن الرجل المسلَّح لم يكن يعمل بمفرده؟ الآن هبْ أنك قرأتَ عنوانًا رئيسًا مختلفًا بدرجةٍ طفيفة يقول: «رجلٌ يُطلق الرَّصاصَ على الرئيس، لكن لم يُصبه.» هل ستصبح أكثرَ ميلًا إلى الشعور بوجودِ مؤامرة أو أقلَّ ميلًا؟ إذا كنت على شاكلةِ عيِّنات الاختبار الذي أُجري ضمن دراسة عالِمَي النفس كلارك مكاولي وسوزان جاك عام ١٩٧٩ — وهي واحدة من أولى الدراسات السيكولوجية التي بحثَت مسألة الاعتقاد في نظريات المؤامرة — فثَمة احتماليةٌ أكبر لأن تعتقد أن عملية الاغتيال الناجحةَ كان سببُها مؤامرةً، وأن المحاولةَ غيرَ الناجحة كانت عملًا فرديًّا من جانب الرجل المسلَّح.

ثم، بعد مرور ثلاثةِ عقود، كرَّر عالِما النفس باتريك ليمان وماركو سينيريلا بجامعة لندن التجرِبةَ ورصَدا النمط نفسَه. لكنهما أقرَّا تفسيرًا بديلًا للنتائج. فلعل الناس كانوا يُفكرون ببساطةٍ في أن الشخص الذي حاول قتْل الرئيس لكنه فشل كان يعمل على الأرجح بشكلٍ منفرد، وكان أخرقَ يتَّسم بالحماقة؛ فبالتأكيد المؤامرات الشريرة لديها ممارساتٌ أكثرُ صرامةً عند تجنيد أشخاص. إذا كان هذا صحيحًا، فإن نمطَ النتائج قد يكون أقلَّ ارتباطًا بالتحيُّز النِّسبي اللاشعوري من الاستدلال المنطقي العقلاني. في واقع الأمر، كان مكاولي وجاك قد وجَدا أدلةً تُشير إلى أن الوضع ربما يكون على ذلك النحو. فعندما سألا ببساطةٍ المشاركين في الدراسةِ إلى أيِّ مدًى هم يتوقَّعون من الشخص الذي يعمل لصالحِ مؤامرةٍ ما أن يكون فعَّالًا في أداء المهمة، قالوا إنه لا بد أن يكون على قدْرٍ كبيرٍ من الفعالية. ومن ناحيةٍ أخرى، توقَّعوا أن يكون المُسلحُ الذي يعمل منفردًا أقلَّ كفاءة. هذا الفارق وحدَه يُمكن أن يُفسِّر الحقيقةَ القائلة بأن الاغتيال الناجح كان سببُه على الأرجح مؤامرة.

بوضعِ هذا في الحسبان، أضاف ليمان وسينيريلا سيناريوهَين جديدَين. في أحدهما، كان قد ذُكر أن الرئيس أُصيب برصاصةٍ من جانبِ أحدِ القَتَلة، لكنَّه نجا بمعجزة؛ فبالصدفة البحتة، على حدِّ قول إحدى المقالات الإخبارية إن الرصاصة كادت أن تُصيب قلبَ الرئيس، لكن هذا لم يحدث ولم يُصَب إلا بجرحٍ بسيط في جسده. وفي مقالةٍ أخرى،

لم تُصِب الرصاصةُ التي أطلقها القاتلُ هدفها، لكن بعد وقتٍ قصيرٍ من محاولة الاغتيال، تُوفِّي الرئيس بسببِ أزمةٍ قلبية. في هذه السيناريوهات الجديدة، ليس هناك صلةٌ بين المصير النهائي للرئيس وكفاءة القاتل. لكن بالرغم من كسر العلاقة السببية بين القاتل والنتيجة، لا تزال تبدو أفكارُ الناس حول القاتل متأثرةً بالتحيُّز النِّسبي. فعندما مات الرئيس، حُكِم على القاتل المزعوم بأنه طرفٌ في مؤامرةٍ على الأرجح، حتى بالرغم من أن رصاصته لم تُصِب الهدف (وذكر التقرير الإخباري تحديدًا أن الأزمة القلبية كان سببها ازدحامَ أجندة الرئيس وليس محاولةَ الاغتيال). وعندما نجا الرئيس، اعتُبر القاتل على الأرجح بأنه مسلَّح يعمل منفردًا، حتى بالرغم من أنه صوَّب طلقته بدقةٍ ولم يجعله يُخفق في أداء مهمته سوى الصدفةِ البحتة.

وفي دراسةٍ أخرى، وضعت روبين ليبوف ومايكل نورتون (وهما الباحثان نفسُهما اللذان أجرَيا دراسةَ تفشي مرضٍ في إحدى حدائق الحيوان) سيناريوهَين من سيناريوهات الاغتيال استُبعِدت فيها أكثرَ الحلْقةُ السببيةُ بين القاتل والنتيجة. فقد اختلقا مزيدًا من التقارير الإخبارية الوهمية، التي تزعم هذه المرةَ أن صحيفةً بريطانية كانت قد انتقدت رئيس دولة أجنبية غيرِ محددةٍ اغتِيل مؤخرًا؛ ومن ثَم أثارت هجماتٍ إرهابيةً ضد بريطانيا. وكان لإحدى الروايات تداعياتٌ رهيبة؛ إذ أشارت إلى أن بريطانيا كانت قد أعلنت الحربَ ضد هذه الدولة نتيجةَ الهجمات. وفي الرواية الثانية، كانت النتائجُ بسيطة: استجاب رئيسُ الوزراء البريطانيُّ بسلمية؛ ومن ثَم تجنَّبت البلادُ الهجمات. وهكذا حددَت استجابةُ رئيس الوزراء العواقبَ المترتبة على الاغتيال. وبالرغم من عدم وجود ارتباطٍ مباشرٍ بين الاغتيال المبدئي وحجم العواقب النهائية المترتبةِ عليه، اعتقد المشاركون أن الاغتيالَ كان مؤامرةً على الأرجح عندما كان حجمُ العواقب كبيرًا. وعندما كانت العواقبُ محدودة نسبيًّا، مال المشاركون إلى الاعتقاد بأن الاغتيالَ كان عملًا فرديًّا.

تجربةٌ أخرى أجْرَتها ليبوف ونورتون، اعتمَدا فيها على سيناريوهاتٍ تخيُّليةٍ لرؤساءَ تعرَّضوا للاغتيال، ولكنهما ذكرا صراحةً جون كينيدي. فقد أخبَرا القراءَ بأحد سيناريوهين؛ إما أن مقتل كينيدي قد أدَّى إلى إطالةِ أمدِ حرب فيتنام، ما أدَّى إلى مقتل ٤٠ ألف جندي أمريكي إضافي، وإما أن عملية الاغتيال لم يكن لها تأثيرٌ مطلقًا على الحرب أو عدد الضحايا. حتى دون ذِكر شيء عن عدد الضحايا الإضافيين، أيد ٦٤٪ من المشاركين في التجربة الرأيَ القائلَ بوجودِ نظرية مؤامرة وراء الاغتيال. غير أنه عندما صُعِّدت العواقب، ارتفع عدد أصحاب نظريات المؤامرة ليُمثل ٧٥٪ من المشاركين. توضح ليبوف ونورتون

أن النتائج التي توصَّلا إليها تُبيِّن أن الأمرَ لا يقتصرُ على مسألةِ ما إذا كان نجاحُ أو فشل عملية اغتيال يُحدِّد مدى جسامة العواقب، ولكنه يشمل أيضًا التداعياتِ الأوسعَ نطاقًا بالنِّسبة إلى المجتمع.

أما الاستقصاء الأكثرُ استفاضةً للمؤامراتية والتحيُّز النِّسبي إلى الآن؛ فقد أجراه الباحثان الهولنديان جون-فيلم فون بروين وإريك فون دايك. فقد ابتكَرا تقاريرَ إخباريةً تُعطي تفاصيلَ عن مجموعةٍ من الأحداثِ البائسة التي يُفترض أنها ألَمَّت برجلٍ يُدعى يايِي جودو. أوضحت التقارير الإخبارية أن جودو كان زعيمًا قويًّا من زعماء المعارضة السياسية في دولةِ بنين الأفريقية، وكان سيفوز بالانتخابات على الأرجح التي كان من المفترَض أن تُجرى الشهر القادم. (بنين دولةٌ حقيقية، لكن جودو والأحداث التي وقعَت كانت بالكامل من مخيلةِ الباحثَين، وقد أوضحا ذلك للمشاركين بعد انتهاء الدراسة.) في الدراسة الأولى، زعم التقريرُ المختلَق أن جودو تعرَّض لحادثِ سيارة. وبالنِّسبة إلى المجموعة الأولى من المشاركين في الدراسة، زعم التقريرُ أن جودو فارق الحياة، وأن الانتخاباتِ الوشيكةَ كانت ستُؤجَّل إلى حينِ إشعارٍ آخر. وبالنِّسبة إلى المجموعة الأخرى، نجا جودو من الحادث بأعجوبةٍ ولم يُصَب إلا بإصابات طفيفة، كما أن الانتخابات ستُجرى في موعدها المخطَّط له. وفي الدراسة الثانية، زعم التقرير أن قائد دراجة بخارية اقترب بدراجته بموازاة سيارة جودو عند توقُّفها في إحدى إشارات المرور وأطلق عليه النار. وكالعادة، كانت هناك نهايتان متوازيتان؛ إمَّا أن جودو أُصيب بالطلقة النارية في رأسه ومات، وإما أنه أُصيب في ذراعه ونجا. وكما قد تتوقَّع الآن، عندما مات جودو، إما في حادثِ سيارة أو نتيجةَ إطلاق النار عليه من قِبَل قائد الدراجة البخارية، كان القراءُ، على وجه العموم، أكثرَ ميلًا إلى تأييدِ تفسيرٍ مؤامراتي.

لكن فون بروين وفون دايك أضافا متغيرًا آخرَ إلى المزيج. فقد اكتشفا أن هناك عاملًا أساسيًّا يتعلَّق بما إذا كان التحيُّز النِّسبي يُؤثِّر على تفكيرنا وهو درجةُ تعاطفنا مع الأشخاصِ الذين تأثَّروا بالحدثِ موضعِ البحث. فعندما طُلب من المشاركين في التجرِبة إعطاءُ حكمٍ موضوعي عن مدى أرجحيَّة المؤامرة، لم يكن لحجمِ العواقب (سواءٌ موت أو نجاة جودو) أيُّ تأثير على مسألةِ ما إذا كانوا على قناعةٍ بنظرية مؤامرة أو لا. لكن عندما طُلب منهم تخيُّلُ أنفسهم مكانَ مُواطن من دولة بنين، أصبحوا أكثرَ ميلًا إلى تفسير الحدث الأكبر بأنه ناتجٌ عن مؤامرة. وفي دراسةٍ أخرى، بدلًا من التلاعُب مباشرة بما إذا كان المشاركون تبنَّوا منظورَ الأشخاصِ الذين تأثَّروا بالحدث، قاس الباحثون القدرة

الطبيعية لدى كلِّ مشاركٍ في التعاطف مع الآخرين. وقبلَ قراءةِ المقال الإخباري الوهمي، تلقَّى المشاركون اختبارًا حول القدرةِ على تبنِّي المنظور؛ حيث طُلب منهم تخمينُ العاطفة التي يشعر بها شخصٌ ما عند نظرهم إلى صورةٍ لعينَي هذا الشخص مع إخفاء بقية الوجه. وكلما كانت الدرجةُ التي يُحرزها المشاركون أعلى في هذا الاختبار، كانت أحكامُهم أكثرَ ميلًا إلى الاتساق مع التحيُّز النِّسبي.

قبل ذلك، رأينا كيف يُمكن أن يُؤثِّر التحيُّز النِّسبي على الطريقةِ التي نُفسِّر بها الأحداثَ التي تقع في حياتنا. نُحيل الأشياءَ البسيطة إلى الصدفة، لكن عندما يُلمُّ بنا شيءٌ يُغيِّر مسار الحياة، نُحيله إلى القدَر. وما تشير إليه نتائجُ فون بروين وفون دايك هو أنه عندما ننساق وراءَ نظريات المؤامرة بشأن أحداثٍ كبيرة — حتى تلك التي حدثَت في مكانٍ ما يبعُد عنا بكثير وليس لها تأثيرٌ كبيرٌ مباشرٌ على حياتنا — ربما يكون السبب في ذلك هو أننا لا نستطيعُ أن نُحجِم عن تخيُّلِ أنفسنا في مكان الضحايا الحقيقيِّين. وعندما يُطلب منا أن نكون موضوعيِّين، نعتبر المحنةَ التي ألَّمت بشخصٍ ما مجردَ صدفة. وعندما نرى ما حدث هجومًا شخصيًّا، يُلقي التحيُّز النِّسبي بظلالِه على أحكامنا.

الرئيس فارق الحياة

إجمالًا نقول إن هذه النتائجَ تُساعد في تفسير السبب وراء إحاطةِ أكثرِ نظريات المؤامرة رواجًا لبعضِ أكثرِ الأحداثِ جسامةً في التاريخ. فعندما تحدُث أشياءُ كبيرة في العالم — الموت قبل الأوان لشخصية عامة، ثورة غير مسبوقة، كارثة طيران مأساوية، عمل إرهابي صادم، جائحة مرض قاتل جديد — كثيرًا ما لا تُؤثِّر فينا الرواياتُ الرسمية. فعندما يُقال لنا إن موت الأميرة ديانا حدث نتيجةً لحادثِ سيارةٍ عادي، وإن جائحة الإيدز سببها عاملٌ مُمرِض بسيط، وإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وقعَت نتيجةً لعدم كفاءة ١٩ مختطفًا للطائرات، وإن الثورة الفرنسية نجَمَت عن حالاتِ استياءٍ وتطلُّعاتٍ بسيطةٍ كثيرةٍ تجمَّعَت مصادفةً في وقتٍ واحد — لا تَرْقى هذه الأسبابُ إلى حجم العواقب. ونظريات المؤامرة تُتيح لنا إشباعَ رغباتنا اللاشعورية.

وفي مقالةٍ نُشرت عام ١٩٧٥ في مجلة «واشنطن مانثلي»، رصد الصحفيُّ توم بيثيل التناقضاتِ المرتبطةَ بموت الرئيس كينيدي. فقد كتب يقول إن الرواية الرسمية للأحداث تتطلَّب منا تصديقَ أن الاغتيال وجميع عواقبه — بما يشمل، لربما، حرب فيتنام الكارثية — كان عملًا فرديًّا نفَّذَه رجلٌ «نهض، على ما يبدو، من فراشه، وهو متعكِّر

المزاج ذاك الصباح، ووجدَ بندقيةً في غرفته. السبب لا ينسجم مع النتيجة.» ويُعبِّر كينيث ران أحدُ المهتمِّين بقضايا الاغتيالات عن المعنى ذاتِه. فقد كتب يقول: «يستحيل تمامًا أن تُصدِّق أن شخصًا بسيطًا جبانًا لديه بندقية قيمتها ١٢٫٩٥ دولارًا أمريكيًّا يُمكنه أن يقتل زعيمَ العالم الحر.» الحقيقة التي تبعث على الارتياح هي أن الأشياء الصغيرة يمكن أن تكون لها عواقبُ كبيرة. فأحيانًا الملوك يُطيح بهم الفلَّاحون البسطاء. وعندما يحدث هذا، لا يُمكننا أن نمنع أنفسنا من التَّوق إلى تفسيرٍ بديلٍ يتناسبُ أكثرَ مع النتيجة. واختتم بيثيل كلامه بالقول: «في حالة اغتيال كينيدي، هذا يعني البحثَ عن مؤامرة؛ ويُفضَّل أن تكون المؤامرة كبيرة.»

الفصل الحادي عشر

كنتُ أعلم ذلك

يصف ستيف ريجان المشهدَ: ضبابٌ كثيف كان يُغطي الأراضيَ الإنجليزية الجَرْداء. كان ذلك في منتصف تسعينيَّات القرن العشرين، وكان حينها ستيف يعمل رقيبًا في الطيران لدى سلاح الجوِّ الملكي. كان متمركزًا في معسكر بارنهام، وهو منطقةُ تدريبٍ في أرضٍ جدباء على حافة إحدى الغابات التي تبعُد بضعةَ أميال من بلدة ثيتفورد الصغيرة. في تلك الليلة كانت مُناوبة ستيف في الحراسة؛ وهي نوبةٌ مدَّتها ١٢ ساعةً يقضيها جالسًا في غرفةِ حراسة صغيرة، ولا يكون برفقته شيءٌ سِوى تلفازٍ صغير وغلاية.

كان معسكر بارنهام ذا سمعةٍ تبعث على الرهبة. فقد صُنِعَت فيه قنابلُ غاز الخردل خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أُعيد استخدامه لتخزينِ القنابل النووية خلال الحرب الباردة. كانت مكبَّات القنابل قد أُوقف تشغيلها منذ وقتٍ طويل؛ وسُوِّرت المباني القديمة المتهالكة ثم تداعَت في نهاية الأمر. يقول ستيف إن المشهد كان أشبهَ بموقعِ تصويرِ فيلم من أفلام الرعب. ثم كانت الحقيقة القائلة بأن المعسكر يقع مباشرةً وسطَ مثلثِ ثيتفورد المزعوم؛ ردَّ إيست أنجليا على مثلث برمودا. كان المثلثُ مَرتعًا لمشاهدات الأجسام الطائرة المجهولة حينَذاك. وكثيرًا ما أشار الشهود إلى معسكر بارنهام باعتباره مصدرَ نشاطٍ غريب.

حدَّق ستيف من نافذةِ غرفةِ الحراسة في جدارٍ ضبابي بلا معالم، ولم يستطِع تمييزَ بوابةِ أمن المعسكر إلا بصعوبةٍ بالِغة. لقد أخبرني أنه بالرغم من الساعات الطويلة والظروف القاسية، كان هناك تنافسٌ بين ضباط المعسكر على نوبة الحراسة الليلية؛ لأنها تكون بلا أحداث. فالمعسكر كان مكانًا صغيرًا هادئًا ولا يُحيط به شيء. لا شيءَ يحدُث

على الإطلاق. لكن في هذه الليلة، حدث شيءٌ ما. كان ستيف على وشكِ أن يُصبح الشريرَ في نظرية مؤامرة شخصٍ آخر.

بدأ الأمر بأضواءٍ زرقاءَ وامضةٍ ظهرَت خارجةً من الضباب. وأصدر جهازُ الاتصال الداخلي ضوضاءَ، وأعلن الحارس الذي يقف عند البوابة قائلًا: «حضرت مجموعةٌ من ضباط الشرطة.» دخل ضابطٌ وضابطةٌ شرطة إلى غرفة الحراسة في حين انتظر الباقون في سياراتهم. لا يستطيع ستيف أن يتذكَّر اسمَيهما الآن؛ لذا لِنُطلقْ عليهما مولدر وسكالي، تكريمًا لعميلِ مكتبِ التحقيقات الفيدرالي الذي يتعقَّب المؤامرات وشريكتِه الأكثرِ تشككًا من مسلسل «إكس فايلز».

أوضح مولدر قائلًا: «لدينا حادثة.» وتابع: «تلقينا عددًا من التقارير من مصادرَ مختلفةٍ الليلةَ أن جسمًا طائرًا مجهولًا انطلق من معسكر بارنهام، وحلَّق فوق ثيتفورد، ثم عاود الهبوط في معسكر بارنهام. نريد أن نُحقِّق في الأمر.» وكان ردُّ ستيف ردًّا إنجليزيًّا نمَطيًّا: «هل ترغب في تناول فنجان من الشاي؟»

كان الأمر سيستغرقُ بعضَ الوقت كي يَصدُرَ تصريحٌ بدخول منطقة التدريب — حتى بالنِّسبة لرجال الشرطة — لذا احتسى الثلاثة الشاي وانتظروا، وتبادَلوا أطراف الحديث. كان ستيف لديه انطباعٌ بأن سكالي لم تكن مقتنعةً كثيرًا بقصة الجسم الطائر المجهول، لكن نظرًا إلى كونها مُستجِدَّة؛ تعيَّن عليها أن تُساير الأمر. يتذكَّر ستيف أنه عندما سأل الضابطَين عن ماهية الأجسام الطائرة المجهولة من وجهةِ نظرهما، بدا عليها الارتباكُ. قالت وعيناها تدوران في محجرَيهما: «كائنات فضائية، كما تعلم.» ومن جانبه، بدا أن مولدر يعتقد أن ثمَّة مؤامرةً في الأمر منذ البداية. (هل فهمت لماذا اخترتُ هذَين الاسمَين تحديدًا؟) قال متأملًا: «كلُّ ما أقوله هو أنه هناك الكثيرُ جدًّا من الحوادث التي تقع في هذا المكان والتي لا يمكن أن نعتبرها مجرد مصادفة. نحن نريد أن نعرف إذا ما كنتم تختبرون شيئًا سرِّيًّا.» قال ستيف مازحًا: «إذا كنا نفعل، فلن أُخبرك بالتأكيد؛ فهذا هو تعريف الشيء السرِّي.» وسرعان ما أدركَ خطأه: أصبح مولدر أكثرَ قناعةً بأن ستيف كان يتستَّر على أسرارِ بارنهام الشريرة.

وفي نهاية المطاف، مُنح الضابطان التصريحَ بالدخول إلى منطقة التدريب. واستقلَّ الثلاثة سيارةَ «لاند روفر» تخصُّ ستيف الذي قادها عبر التضاريس الوَعْرة ببطء في حين كان مولدر وسكالي يُحملقان بيأسٍ في الضباب. كان ستيف يعلم أنَّ ما يفعلانه لا طائلَ من ورائه: «حتى وإن كنا نُخفي مركبةً هوائية هنا في اللحظة الراهنة، فلن تعثرا

عليها، أليس كذلك؟» لكنَّ الضابطَين أصرَّا على الاستمرار. كانت عينا مولدر مثبتتَين على مكبَّات القنابل القديمة، لكن لم يكن ممكنًا أن يذهب بهما ستيف إلى هناك. فالضباب جعل اجتيازَ المسارات البدائية أمرًا خطيرًا، كما كان يتعذَّر دخولُ المباني لما تبقى بها من تلوث، علاوةً على أنهم لن يستطيعوا رؤيةَ أيِّ شيء بسبب الضباب في جميع الأحوال. وأصبح ستيف على قناعةٍ تامة أنه في كل مرة يقول فيها لمولدر إنه لا يُخفي شيئًا، كان الأخيرُ يزداد قناعةً بأن ستيف يُخفي شيئًا. عرض ستيف عليهما بأن يستخرجَ لهما تصريحًا بزيارة المكان في اليوم التالي عندما يكون الضبابُ قد زال؛ فبمقدورهما حينها تفتيشُ المكان بأكمله باصطحاب الكلاب إن أرادا؛ على حدِّ قوله. لكن مولدر أحسَّ بشيء من الخديعة. فقد اعتقد على ما يبدو أن ستيف كان يُحاول تأجيل التفتيش عن عمد، وأن الأدلة ربما تكون قد أُخرِجت من المكان ونُقلت إلى مكانٍ آخر بحلول اليوم التالي، وأن الضباب نفسه ربما يكون مصطنعًا بطريقةٍ ما أو بأخرى لإخفاء الحقيقة.

وفي نهاية المطاف، التقَوا مصادفةً بمجموعةٍ من المجندين الذين كانوا يتدرَّبون في الموقع. سأل ستيف المدربَ عما كانوا يفعلونه. قال المدربُ إن الضباب عطَّل كل شيء رغم أنهم كانوا قد جرَّبوا تقنيةً نارية في وقتٍ سابق؛ حيث أشعلوا شعلاتٍ ضوئية وأشياءَ من هذا القبيل. واستنادًا إلى حدسه، سأل ستيف ما إذا كان بإمكانهم إشعالُ واحدة أخرى، مثلما فعَلوا من قبل. فأحضر المدرب مشعلًا مظليًّا وأطلقه في الهواء. واختفى في الضباب. وفي غضون لحظات، سُمعت فرقعةٌ من بعيد، وظهرت كُرة كبيرةٌ من ضوء برتقالي اللون، متدلِّيةٌ من السماء، ومتموجة بصورةٍ غريبةٍ عبرَ طبقات الضباب. ثم بدأ الضوء يتحرَّك. يقول ستيف إنه لا بد أن يكون قد اصطدم بتيار هوائي في مكانٍ مرتفع عن الأرض. فأولًا، انجرف بعيدًا جدًّا عن المعسكر نحو بلدة ثيتفورد. ثم أخذ تيارٌ هوائي آخرُ يُقلِّبه لِيَجلبه في النهاية نحو المعسكر. وهبط على مهلٍ ليستقرَّ من جديد داخل حدود المعسكر. لقد فعل المشعلُ الشيءَ نفسَه تمامًا الذي أشارت التقاريرُ إلى أن أجسامًا طائرةً مجهولة قد فعلَته. يقول ستيف، نظر كلٌّ منهما إلى الآخر في صمتٍ تام.

وفقًا لستيف، اقتنعت سكالي بأن مصدرَ مشاهدات الأجسام الطائرة المجهولة قد تحدَّد، لكن مولدر لم يقتنع مطلقًا. فقد اعتقد على ما يبدو أن تَجرِبةَ المشعل، كانت سهلةً أكثرَ من اللازم. وربما لم تكن هي الشيءَ ذاته الذي رآه الأشخاصُ شهودُ الأجسام الطائرة المجهولة. وربما تكون قد أُعدَّت سلفًا. وربما ستيف كان لا يزال يُخفي شيئًا ما.

وربما كان يتعذَّر الوصولُ إلى الإجابات المخبوءة بعيدًا في مكبِّ القنابل القديم الذي كان يتعذَّر دخوله وكان يحجبه الضباب.

اللقاء الذي حدث بين ستيف ريجان واثنين من أفراد إدارة شرطة ثيتفورد يُسلِّط الضوء على حقيقةٍ حياتيَّة مألوفة، لكنها جديرةٌ بالملاحظة. يمكن أن ينظر شخصان إلى مجموعة الحقائق ذاتِها ويتوصَّلا إلى نتيجتَين مختلفتين تمامَ الاختلاف. فبمجرد أن يكون لدينا تخمينٌ بشأنِ شيءٍ ما — سواءٌ كان نظريةَ مؤامرةٍ عن أجسام طائرة مجهولة غامضة، أو شعورًا إزاءَ نوعِ صندوقِ الفضلات الذي تُفضِّله قطتُنا — يصبح لدينا ميلٌ عميقُ الجذور إلى إثباتِ صحةِ تخميننا. صحيحٌ أنه يروقُ لنا الاعتقاد أن أفكارنا تستند إلى دراسةٍ جيدةٍ لأفضل الأدلة المتاحة؛ فأولًا نكتشف الحقائق، ثم نتوصَّل إلى نتيجةٍ منطقية. لكن الواقع أن أدمغتنا تعمل على نحوٍ معاكسٍ لذلك في كثيرٍ من الأحيان. فالنتيجة تأتي أولًا، ثم تبحث أدمغتُنا عن الأدلة وتُشكِّلها بحيث تنسجم مع ما تُصدِّقه بالفعل. وكل هذا يحدث خلف الكواليس، تاركًا إيانا في غِمار اعتقادٍ واهمٍ أننا راجعنا الأدلة بجدِّية ووصلنا إلى النتيجة الوحيدة المعقولة. هذا الميل يُطلق عليه التحيُّز التأكيدي، وهو يُؤثِّر في تفكيرنا بثلاث طرق متمايزة.

ابحث وسوف تجد

التحيُّز التأكيدي ينشط بمجردِ أن تطرأَ فكرةٌ ما على أذهاننا. فعندما نبدأ في البحث عن أدلةٍ لاختبارِ مدى صحةِ تخمينٍ ما، لا تتعامل أدمغتُنا مع جميعِ الأدلة المحتملة على نحوٍ متكافئ. ونستخدم بدلًا من ذلك ما يُطلِق عليه علماءُ النفس استراتيجيةَ الاختبار الإيجابي: نحن نبحث عن الشيء الذي نتوقَّع العثورَ عليه.

في ستينيَّات القرن العشرين، ابتكر بيتر واسون لعبةً تُوضِّح هذه الاستراتيجيةَ البحثية المختلَّة بشكلٍ عملي. تخيَّل أنك ضمن العينةِ المشاركةِ في دراسةٍ كهذه. وأخبرك واسون قائلًا: «لقد ابتكرتُ قاعدةً بسيطة لبناء متسلسلات من ثلاثة أرقام. سوف أعطيك المفتاح: «٢–٤–٦» تتوافق مع القاعدة. مهمَّتك أن تستنتجَ القاعدةَ عن طريق التوصُّل إلى متتابعاتٍ أخرى من ثلاثة أرقام. ومقابل كلِّ متسلسلةٍ تتوصَّل إليها، سوف أخبرك بما

إذا كانت تلك المتسلسلةُ تتوافقُ مع القاعدة أم لا. وعندما تتأكد أن لديك الحلَّ، يُمكنك أن تتوقَّف عن التجريب وتُخبِرَني ما القاعدة في اعتقادك.»

أيُّ متسلسلةٍ ستُجرِّبها أولًا؟ إذا كنتَ مثل أغلبِ المشاركين في دراسة واسون، فإن أولَ تخميناتك قد يكون شيئًا من قبيل «القاعدة هي أرقامٌ زوجية تزداد بمقدار اثنين كل مرة.» ومِن ثم يُمكنك أن تقول مثلًا: «٦–٨–١٠».

يُخبرك واسون قائلًا: «نعم، هذه المتسلسلة تتوافقُ مع القاعدة.»

تقول في نفسك قائلًا: «حسنًا!» ثم تُجرِّب «١٤–١٦–١٨».

يقول واسون: «نعم.»

فتقول في نفسك: «أها!» ثم تُكوِّن مزيدًا من المتسلسلات: «١٠–١٢–١٤؛ ٤٦–٤٨–٥٠؛ ١٨٤–١٨٦–١٨٨».

يُجيبك واسون قائلًا: «نعم، نعم، ونعم.»

عند هذه المرحلة، تكون قد تأكدتَ تمامًا من أنك توصلتَ إلى القاعدة. فتُعلن على طريقة شيرلوك هولمز: «الأمرُ بسيطٌ عزيزي واسون. القاعدة هي أرقام زوجية تزداد بمقدار اثنَين كلَّ مرة.»

ثم تأتي المفاجأة. يردُّ عليك واسون قائلًا: «كلا، هذه ليست القاعدةَ.»

تُتمتم قائلًا: «كيف ذلك؟» ثم تُتابع: «لديَّ ما يكفي من الأدلة!»

في حقيقة الأمر، القاعدة ببساطةٍ هي أيُّ ثلاثةِ أرقامٍ متزايدة. قلَّة قليلة من الأشخاص هم مَن يُخمِّنون القاعدةَ مباشرةً، لكن ليس هذا هو المثيرَ في اللعبة. الشيء المثير هو ما تكشفه عن استراتيجيتنا الحَدْسية في اختبار تخميناتنا. فنحن نشرَع في جمعِ الأدلةِ عن طريقِ تجريبِ متسلسلات الأرقام التي تنسجمُ مع قاعدتنا المتوهَّمة. وحيث إن القاعدة الحقيقية في هذه الحالة شديدةُ التعميم (فربما تكون أيَّ أرقام تصاعدية)، فإن تخميناتنا تَلقى جميعها تقييمًا إيجابيًّا، مثلما توقعنا؛ وهذا هو السبب في تسمية الاستراتيجيةِ استراتيجيةَ الاختبار الإيجابي. فمع كل تقييم ﺑ «نعم»، تتعزَّز ثقتنا، ونشعر كما لو أننا نقترب أكثرَ من الحقيقة. لكن ثقتنا في غير محلِّها. ففكرةُ محاولة أن نُبرهن على خطأِ القاعدة عن طريقِ اختبارِ متسلسلةٍ لا نتوقَّع أن تتوافقَ معها (شيء من قبيل «٢–٣–٥» أو «٨–١٣–٢١») لا تطرأ على أذهاننا بشكلٍ تلقائي. فاستراتيجية الاختبار السلبي هذه يُمكن أن تكون أكثرَ إفادةً لنا؛ فالتقييم ﺑ «لا» قد يكون دليلًا قويًّا على أننا اكتشفنا شيئًا ما، أما التقييم ﺑ «نعم» فسوف يُعيدنا إلى التجريب من جديد. لكن عندما تُترَك لنا حرية

التصرُّف، سيجمع أغلبنا تقييمات بـ «نعم» واحدًا تِلو الآخر بدلًا من أن يبحث عن تقييم واحد بـ «لا». ونتيجةً لذلك، يمكن أن يُصبح التخمينُ التكهنيُّ اعتقادًا راسخًا وواثقًا، بصرفِ النظر عما إذا كان هذا التخمينُ مبرَّرًا أوْ لا.

تلك هي الطريقةُ التي ينشط بها التحيُّزُ التأكيدي. مجردُ إيجاد الأدلة التي تبدو أنها تنسجمُ مع مفاهيمنا المسبقة لا يعني دائمًا أننا على صواب، لكن إذا لم نبحث عن صحةِ الأدلة التي تُفيد بخطئنا، فلن يكون لدينا ما يُبرِّر تشكُّكنا في أفكارنا.

فنحن لا نعتمدُ فحَسْب على استراتيجيةِ الاختبار الإيجابي في ألعاب التخمين النفسيَّة. وإنما تحكم تلك الاستراتيجيةُ حياتنا. وليس من سبيلِ المصادفة أن المغرَمين بالقطط يقرَءون مجلةَ «كات فانسي»، وعشاق الكلاب يقرءون مجلة «مودرن دوج». (وبالنِّسبة إلى مَن يلتمسون الخبرةَ الشديدةَ التخصص في تربية الكلاب، فثَمة دورياتٌ تُلبي أدقَّ اهتمامات عشاق الكلاب، مثل دورية «ذا ريتريفر» ودورية «جاست لابز».) ومصادر الأخبار التي نقرؤها والروابط التي ننقرُها على شبكة الإنترنت والأشخاص الذين نحيط بهم أنفسَنا على شبكة الإنترنت وعلى أرض الواقع، كلُّ هذا ينسجمُ في أغلب الأحيان مع ما نعتقده بالفعل. فنحن نبني حصنًا من المعلومات الإيجابية حول معتقداتنا وأفكارنا، ونادرًا ما نخرج من هذا الحصن أو حتى نُطلُّ من إحدى نوافذِه.

في إحدى الدراسات التي تُسلِّط الضوءَ على ذلك، أعطى اختصاصيًّا العلوم السياسية تشارلز تابر وميلتون لودج المشاركين مجموعةً مختارةً من المقالات كي يقرَءوها، وهذه المقالات إما تؤيِّد وإما تُعارض فرضَ قوانينَ أكثرَ صرامةً لتنظيمِ تداول الأسلحة النارية. فكانت هناك مقالاتٌ من تأليف الاتحاد القومي للأسلحة (إن آر إيه) والحزب الجمهوري ومقالات من الحزب الديمقراطي ومنظمة «مواطنون ضد البنادق» (التي وُصِفت للمشاركين في الدراسة بأنها جماعةٌ مقيمةٌ في ماريلاند مكرَّسة للتصدي لمبيعات البنادق في الولايات المتحدة. في واقع الأمر، اختلق الباحثون هذه المنظمةَ، على غِرار الجماعات المتنوعة التي تُنادي بالرقابة الصارمة على السلاح). وكان لدى المشاركين الحريةُ في قراءة المقالات التي يرغبون فيها، لكنَّ الباحثين طلبوا منهم أن ينظروا إلى طرَفَي الجدلِ كِلَيهما، مع «تنحية مشاعركم جانبًا»، و«تأمُّل الجدل بإنصاف» و«التزامِ الموضوعية بقدْر الإمكان.» لكن هذا لم يكن ذا جدوى إلى حدٍّ كبير. فالأشخاص الذين يُؤيدون تداول السلاح مالوا في الأغلب إلى قراءة المقالات المؤيِّدة لتداول السلاح. أما الأشخاص الذين عارضوا تداول السلاح فقد اختاروا قراءة المقالات التي تُناهض تداول السلاح.

وفيما يتعلَّق بنظريات المؤامرة، فإن الموقفَ لا يختلفُ عن ذلك. صحيحٌ أن العالم مكانٌ مكتظٌّ. فلا حصرَ لكمٍّ المعلومات الموجودة فيه. لكن كما رأينا، تنتقي أدمغتنا بعنايةٍ المعلوماتِ التي نبحث عنها؛ إذ تُفضِّل استراتيجية الاختبار الإيجابي. وإذا ما بدأت في البحثِ عن أدلةٍ حتى على أكثرِ نظريات المؤامرة استبعادًا، فلن تجد صعوبةً في العثور عليها.

وقد سلَّط المؤرخُ روب ماكدوجال الضوءَ على هذه النقطة بصورةٍ طريفة. فقد توصَّل ماكدوجال إلى لعبةٍ أطلَق عليها «الأسلوب البارانوي» (وجاءت هذه التسميةُ تكريمًا لمقالة ريتشارد هوفستاتر الشهيرة، التي تحدَّثنا عنها في فصلٍ سابقٍ من هذا الكتاب). ويُمكنك أن تلعب هذه اللعبةَ بالمنزل. أولًا: اجمع عددًا من الأصدقاء، واطلب من كلٍّ منهم أن يختارَ شخصيةً تاريخية شهيرة؛ لهم حريةُ اختيارِ أيِّ شخصيةٍ يريدون. فالهدف من اللعبة هو العثورُ على أدلةٍ تُفيد بأن الشخصية التي يختارها كلٌّ منهم كانت جزءًا سريًّا من «مؤامرة مصَّاصي الدماء التي ظلت تتحكَّم في العالم من خلف الكواليس لمئات السنين.» وعلى حد علمي، ليست هناك مؤامرةٌ كهذه، إنما هي من تأليف ماكدوجال. لكن هذا لم يمنع الناسَ من البحثِ عن أدلةٍ بأيِّ طريقةٍ كانت. ففي المرة الأولى التي لعبها مع زملائه من المؤرِّخين، يقول إنهم سارعوا بادِّعاء أن هنري فورد حرَّض على الثورة الصناعية على أملِ أن يُغطيَ دخانُ المصانع قرصَ الشمس، وأن توماس إديسون اخترع المصباحَ الكهربائيَّ كي يجعل الناسَ يعتادون على العيش في الظلام. (يشير ماكدوجال إلى أن الناس أصبح لديهم هوَس بـ «قواعد» مصَّاصي الدماء، مثل تجنُّب ضوء الشمس. واليوم هو يلعب هذه اللعبة بمتآمرين من خارجِ الأرض بدلًا من مصاصي الدماء؛ حيث إنه «لدينا عددٌ أقلُّ من التصورات المسبقة عن ماهية الكائنات الفضائية وما ترمي مؤامرةُ الكائنات الفضائية إلى تحقيقه».)

يُطلِق ماكدوجال على مسألةِ العثور على أدلةٍ لمؤامرةٍ لا وجودَ لها في السجلات التاريخية الواقعية «الاستسقاط التاريخي»؛ «فالناس مبتكِرون، وهم يُجيدون البحثَ عن الأنماط، والتاريخ مليءٌ بالمعلومات التي يمكن أن يجعلوها ذات معنًى وأهمية.» ويمكن أن يكون وهمُ وجودِ مؤامرة مقنعًا إلى حدٍّ غريب. يقول ماكدوجال: «هذا الوهم يكون بمثابةِ شعورٍ قوي، بل وحتى خارق عندما تبدو الحقائق المتنافرة منسجمة معًا.» ويُتابع: «تبدأ الأدلة في الاصطفاف بمحاذاة الفكرة الوهمية التي توصَّلت إليها لتوِّك، وتنساق مباشرةً نحو التصديق.»

أفضل أصحاب نظريات المؤامرة يلعبون لعبة «الأسلوب البارانوي» لا شعوريًّا. هل تذكُرُ ديفيد أيك الذي أورَدنا اسمه في فصلٍ سابق؟ يقول أيك: «إن المتآمرين يتركون رموزًا خفيَّة لمكيدتهم، وعندما تعرف الشيءَ الذي تبحث عنه، تبدأ في ملاحظتها على الفور.» بطبيعة الحال، هذه ليست أدلةً على تحيُّزٍ معرفي لا إرادي، وإنما هي أدلةٌ على أن المؤامرة حقيقية. إليك فقط بعض الأشياء التي يبحث عنها أيك باعتبارها أدلةً على وجود مؤامرة: تغطيةُ الناس إحدى عينيهم (جمعَ مجموعةً من الصور لموسيقيِّين مشهورين يُغطون إحدى عينَيهم)، والرقم ١٣، والأهرامات (لا سيما الأهرامات التي تشتمل على ١٣ مستوًى، مثل الهرم الموجود على كل ورقة نقدية فئة دولار أمريكي)، والمثلثات (جمع مزيدًا من الصور لمشاهيرَ يُومِئون بطريقةٍ مثلثة الشكل)، والدوائر، والأهلَّة، والمربعات، والمكعبات، والمسدسات، والعدد ستة، والنجوم سداسية الرءوس، والصلبان، والأركان، والأعمدة، والتيجان، والقرون، والنار، وإخراج المرء لسانَه (جمع مزيدًا من صور المشاهير التي تُظهِر ذلك)، والحرفين E وL، وكوكب عطارد، والعناكب، والماعز، والرجال الملتحون (بما يشمل سانتا كلوز على سبيل المثال وليس الحصر). فبالنِّسبة إلى ديفيد أيك، يكاد يكون مستحيلًا أن تسير في الشارع دون أن ترى أدلةً على وجود مؤامرة.

وليس أصحابُ نظريات المؤامرة المحترفون هم مَن يميلون وحدَهم إلى رؤيةِ ما يبحثون عنه. فكما تُظهِر لعبةُ الأرقام التي ابتكرها واسون — فضلًا عن اشتراكاتنا بالمجلات، وتاريخ تصفُّحنا للمواقع، ومُتابعينا على «تويتر» — لا يستطيع أغلب الناس منعَ أنفسهم من البحث لا شعوريًّا عن معلوماتٍ تنسجم مع تخميناتهم. فعندما تطرأ على ذهننا فكرةٌ ما، كأنَّ مصباحًا يُضيء فوق رءوسنا، فنبدأ في البحث عن أدلةٍ في المكان الذي يسطع فيه الضوءُ بشدة أكثرَ من غيره، مثل الثَّمِل الذي يبحث عن مفاتيحه أسفلَ أحدِ أعمدة الإنارة: «هل فقدت مفاتيحك هنا؟ لا، لكن الضوء أفضلُ بكثيرٍ هنا!»

لكن هذه ليست سوى خطوةٍ واحدة. فبرغم كل شيء، عندما يتعلَّق الأمر بقضايا من أيِّ نوع، عادةً ما تكون الأدلةُ أشياءَ من مختلِف الأشكال. ويمكن أن تبذل أدمغتنا قصارى جهدها لعزلِ أفكارنا في فقاعةٍ واقية من الأدلة الإيجابية، لكن العالَم اعتاد على إشهار وجهات النظر الأخرى في وجوهنا. قد تُفكِّر في نفسك قائلًا إن هذا قد يُؤدي إلى انفجار فقاعة أفكارنا. فمصادفةُ معلوماتٍ تتحدَّى أفكارنا قد يجبرنا على تغيير رأينا، أو على الأقل يُقلِّل من ثقتنا. لكنَّ عنصرًا آخرَ من عناصر التحيُّز التأكيديِّ يأتي لنجدتنا.

هذا يعتمد على الطريقة التي تنظر بها إلى الأمر

ما هو رأيك في الأسلحة النووية؟ أو بعبارةٍ أدقَّ، هل أنت مؤيِّد للرَّدع النووي؛ احتفاظ الحكومة بمخزونٍ من الأسلحة النووية لاستخدامه ضدَّ أعدائنا إذا ما حاولوا مهاجمتنا بالأسلحة النووية؟ يقول المؤيدون إن هذا يجعل العالمَ أكثرَ أمنًا بالنِّسبةِ إلى الجميع؛ فلن يُطلِق أحدٌ القذيفة النووية الأولى؛ لأن هذا ببساطة سيُدمره هو الآخر بلا ريب. ويقول المعارضون إننا يجب أن نُخلِّص العالمَ من الأسلحة النووية، وإن الردع النووي لا يَزيد المشكلةَ إلا تفاقمًا واستمرارًا. فما هو موقفك؟

الآن تأمَّلْ هذا. في الساعة الثالثة من فجر اليوم التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٩، بدا أن الحربَ الباردة على وشك الاحتدام. فقد أيقظَت مكالمةٌ هاتفية مريعةٌ مستشارَ الأمن القومي الأمريكي زبجنيو بريجينسكي من نومه. أُبلغ الرجل بأن الاتحاد السوفييتي شنَّ هجومًا نوويًّا شاملًا ضد الولايات المتحدة. وقد أظهرَت أنظمة الإنذار المبكر ٢٥٠٠ قنبلةً نووية في طريقها إلى الأراضي الأمريكية. وهُرِعت مراكزُ القيادة والتحكُّم النووي عبر البلاد لاتخاذ الإجراءات المناسبة. كان الثأر سيُصبح خاطفًا وسريعًا. فقد حُمِّلت الطائرات بالقنابل النووية وأقلعَت في السماء. وجهَّز مسئولو القذائفِ في المستودعات الأرضية مفاتيحَ الإطلاق. ثم، عندما كان بريجينسكي على وشك تحذير الرئيس من هجومٍ نوويٍّ وشيك، تلقَّى اتصالًا آخرَ: لقد كان الإنذارُ كاذبًا. فبرنامجٌ تجريبي كان يُحاكي هجومَ الاتحاد السوفييتي كان قد أرسلَ بطريقةٍ ما بياناتِ هجوم زائفٍ إلى شاشات الإنذار المنتظم كما لو كان ذاك الهجوم حقيقيًّا. إذن كان المتسبب في الذعر هو خللًا حاسوبيًّا. وهكذا نُزع فتيل الأزمة.

ما رأيك في الردع النووي بعد أن قرأت هذا؟ هل أصبحت أكثرَ قلَقًا بشأن أمنِنا أو أقلَّ قلقًا؟ فمن جهة، حدث خللٌ في النظام وجعلنا على شفا كارثةٍ مروِّعة؛ فربما الأسلحة النووية مسئوليةٌ أكثرُ من كونها أصلًا من الأصول. ومن ناحية أخرى، تم اتخاذ التدابير الاحترازية ورُصِد الخطأ قبل حدوث أيِّ ضرر؛ فربما كانت مخاطر الخلل في عمل النظام ضئيلة مقارنةً بترك أنفسنا عُزْلًا بلا أسلحة. ما يمكن أن نستنتجه بناءً على حدثٍ كهذا ليس مسألةً موضوعيةً بسيطة. لكن برغم التفسيرات الممكِنة المختلفة، ليس من الصعب التنبؤُ بالكيفية التي ستكون عليها ردَّة فعلِ أيِّ شخص. أوضح عالمُ النفس سكوت بلوس أن كلَّ ما تحتاج إلى معرفته هو الكيفية التي شعر بها شخصٌ ما حيالَ الأسلحة النووية بدايةً.

صمَّم بلوس مجموعةً ذكية من الدراسات لمعرفةِ الكيفية التي يُجري بها الناسُ تحديثًا لأفكارهم بعد معرفتهم بكوارثَ نوويةٍ وشيكة. وقد وجد أن الأشخاص الذين بدءوا على طرَفَي النقيض أيديولوجيًّا رأَوا الحدث نفسه بطريقةٍ مختلفةٍ للغاية. فالأشخاص الذين عارَضوا الأسلحة النووية مالوا إلى رؤيةِ الخللِ دليلًا على «ضعف النظام»، في حين أن الأشخاص الذين يُؤيدون الأسلحة النووية «مالوا إلى رؤية الأعطال اختباراتٍ ناجحةً لتدابيرِ النظام الاحترازية.» ونتيجةً لذلك، يشعر المؤيدون للأسلحة النووية بأمانٍ أكثرَ عند معرفتهم بكارثةٍ وشيكة، في حين أن منتقدي الأسلحة النووية شعروا بأنهم أكثرُ ضَعفًا. وكلما زادت قوة الاعتقاد المسبق لدى الشخص، أصبح تفسيرُه أكثرَ انحرافًا. وعندما اختبر بلوس الطلابَ الجامعيِّين الذين لم يكن لديهم سوى تفضيلٍ ضعيف بطريقةٍ ما أو بأخرى، كانوا أكثرَ تردُّدًا بشأن الأعطال. وعندما قارنَ مجموعةٌ من طلاب القوات الجوية (الذين كانوا يُؤيِّدون بقوة الردع النووي) ومجموعة من المؤيِّدين للسِّلم (الذين كانوا يُعارضون بشدة الأسلحةَ النووية)، كان التحيُّزُ أقوى بكثير.

وهذا الاتجاه أو الميل ليس حَكْرًا على الأشخاص العاديِّين الذين يجلسون في مختبرات علماء النفس. كان مصدرُ إلهام دراسة بلوس تحقيقًا حكوميًّا حقيقيًّا جرى في عام ١٩٨١ بشأنِ أعطالِ أجهزة الإنذار النووي (كان الكثير منها متوفِّرًا خلال الحرب الباردة). وقد رأى أحد أعضاء اللجنة، وهو فرانك هورتون عضوُ الكونجرس عن ولاية نيويورك، سببًا يدعو إلى القلق الشديد؛ إذ قال: «إنذارات القذائف الكاذبة الأخيرة تُمثِّل تهديدًا شديدًا من وجهة نظري لأمننا القومي.» أما الجنرال جيمس في هارتينجر فقد زعم أنه يشعر بالاطمئنان؛ حيث قال: «لقد أصبح لديَّ ثقةٌ أكبرُ بالنظام الآن؛ لأنه ثبَت أننا قادرون على التعامل مع مثل هذا الخلل.» جديرٌ بالذكر أن هورتون كان قد عارض الأسلحة النووية خلال حياته المهنية كسياسي. أما هارتينجر فقد كان القائدَ الأعلى لقيادةِ دفاع الفضاء الجوي الأمريكي الشمالي (نوراد)، وهو الوكالة المسئولة عن مراقبة السماء لرصدِ أيِّ هجوم وشيك.

هذا ما يُطلِق عليه علماءُ النفس الاستيعاب المتحيِّز: نحن نفسِّر الأحداث الغامضة في ضوءِ ما نُصدِّقه بالفعل. فكِّر في استجابة وسائل الإعلام الحتمية لإطلاق نارٍ جماعي. بالنِّسبة إلى المثقفين الذين أيَّدوا بالفعل فرضَ قوانينَ أكثرَ صرامةً على السلاح، تُعد حوادث إطلاق النار الجماعي أدلةً واضحة على أنه يجب أن يكون حصول الناس على السلاح أكثرَ صعوبة. وبالنِّسبة إلى المثقفين الذين أيَّدوا بالفعل الحق في حمل السلاح،

تُثبت حوادثُ إطلاق النار الجماعي أنه يجب أن يحصل المزيدُ من الناس على السلاح. (يقول وين لابيير، أحدُ قادة الاتحاد القومي للأسلحة: «الشيء الوحيد الذي يمكن أن يمنع شخصًا سيئًا يحمل سلاحًا هو شخص جيد يحمل سلاحًا.») حتى الأحداث العادية نسبيًّا يمكن أن تُحفِّز الاستيعابَ المتحيز. فيمكن أن يُشاهِد طرَفان سياسيان متعارضان السجالَ نفسَه ويخرج كلٌّ منهما على قناعةٍ بأن حجَّته هي الأقوى. وبالنِّسبة إلى محبِّي كرة القدم، مسألةُ ما إذا كان الحكم شخصًا محترفًا ثاقبَ النظر أو شخصًا أخرقَ يفتقر إلى الكفاءة، تتوقَّف على أي فريقٍ حُكم له بضربة جزاء. ويمكن أن يُشاهِد مشجعو فريق «شيكاغو بيرز» وفريق «جرين باي باكرز» المباراةَ نفسَها، لكن عندما يُصدر الحَكم قرارًا مثارَ شكٍّ، تجد كلَّ طرَف من المشجعين في عالم مختلفٍ.

الاستيعاب المتحيز ينشط كذلك عندما نُواجَه بأدلةٍ معقَّدةٍ ومتناقضةٍ عن موضوعٍ ما، لدينا وجهةُ نظرٍ بشأنه. ففي عام ١٩٧٩، بحثَ فريق من علماء النفس بجامعة ستانفورد آراءَ الطلاب حول ما إذا كان الحُكم بالإعدام يردعُ القتَلة المحتملين ويمنعهم من ارتكاب جرائهم. فقد قرأ الطلاب دراستَين علميتين، إحداهما تُشير إلى أنه يوجد تأثيرٌ رادع، والأخرى تُشير إلى عدم وجود تأثيرٍ رادع. في الواقع، كانت كلتا الدراستين مختلَقتَين؛ فالباحثون ببساطة اختلقوا التفاصيلَ بحيث يُمكنهم التحكمُ بعنايةٍ في جودة الأدلة التي رآها الناس لكلِّ طرفٍ. وقد نزع الطلابُ إلى التدقيق في الدراسة التي كانت تُناقض تصوراتهم المسبقة واستبعادها، في الوقتِ نفسِه الذي قبلوا فيه دون نقدٍ الدراسةَ التي كانت تتوافق مع تصوراتهم المسبقة؛ حتى بالرغم من أن كلتا الدراستَين كانت عُرضةً للنقد على نحوٍ متكافئ.

وقد ركَّزَت دراساتٌ أحدثُ على تحيزات الناس بشأن المثليَّة الجنسية، والآراء المتعلِّقة بالتمييز الإيجابي، والسياسات الضريبية، والإجهاض، وقوانين التحكُّم في السلاح، والتدخين السلبي، بل وحتى الإيمان بالقُوى الروحانية. وفي كلِّ حالةٍ، تشير النتائجُ إلى شيءٍ لا شك أنك لاحظتَه في الحياة العادية: فيما يتعلَّق بالقضايا الجدلية، يميل الناسُ إلى اعتبارِ الأدلةِ أو الحججِ التي تنسجمُ مع تصوراتهم المسبقة أكثرَ قوة وإقناعًا من الأدلة التي تتعارض مع أفكارهم ومعتقداتهم. ونتيجةً لذلك، فإن كِلا طرَفَي الخلاف الأيديولوجي يعتقد أن أفكاره قائمةٌ على أفضلِ الأدلة المتاحة، ومن النادر أن يشعر شخصٌ ما بالحاجة إلى تغييرِ وجهة نظره.

في عام ١٩٩٥، أجرى عالمُ النفس جون مكهوسكي دراسةً أخرى عن الاستيعاب المتحيز، لكنَّ الموضوع الذي أثار اهتمامه لم يكن الأسلحةَ النووية أو عقوبة الإعدام. فقد أراد مكهوسكي أن يعرف رأيَ الناس في اغتيال جون كينيدي. فقد سأل في البداية ٢٥٠ طالبًا جامعيًّا عن الشخص أو الجهة التي يعتقدون أنها متورطة في مقتل كينيدي: هل كان لي هارفي أوزوالد وحدَه، أم كانت عملية الاغتيال مؤامرة؟ بعد ذلك، عرض على الطلاب مجموعةً من الحجج التي تدعم كلَّ طرَف. فمثلًا، كانت هناك الحقيقة القائلة بأن الكثير من شهود العيان اعتقدوا أنهم سَمِعوا طلقاتٍ ناريةً صادرةً من التلَّة المعشوشبة؛ قال بعض الخبراء إن أوزوالد لم يكن لديه الوقتُ لإطلاق كل هذه الطلقات، وأن «نظرية الرصاصة الواحدة» لا يمكن أن تُفسر كلَّ هذه الجروح التي أصابت كينيدي وحاكم ولاية تكساس كونالي؛ فقد ارتدَّ رأسُ كينيدي إلى الوراء وإلى اليسار عندما أصابته الرَّصاصة، ما يُشير إلى أن طلقاتٍ أصابته من الأمام؛ وقد توصَّلت لجنةُ التحقيق في الاغتيالات في عام ١٩٧٩ إلى أن هناك أدلةً على وجود مؤامرة. ويبدو أن حُججَ وجود مؤامرة قوية. لكن الحجج القائلة بأن أوزوالد هو المتورِّط وحدَه في عملية الاغتيال قوية أيضًا: كان أوزوالد لديه الحافزُ القويُّ لقتل كينيدي؛ فقد رآه شهودٌ في مستودَعِ كتبِ مدرسةِ تكساس وقتَ إطلاق النار، وهو مالكُ البندقية التي استُخدمت في قتل كينيدي، وبصماتُ أصابعه كانت على البندقية، والوكرُ الذي هيَّأه لنفسه في مستودع الكتب، وتُظهِر إعاداتُ تمثيل الجريمة أن «نظرية الرصاصة الواحدة» قادرةٌ على تفسير جميع الجروح، وأن أوزوالد كان قادرًا على إطلاق جميع الطلقات في الوقت المحدَّد.

فأيَّ طرَفٍ تُصدِّق؟ اختيار الأدلة كان مصمَّمًا بعناية ليكون مزيجًا متنوعًا، بحيث لا يوصلُ إلى نتائجَ حاسمة. لكن هذا لم يؤثِّر في ثقة الناس بأفكارهم وتصوراتهم المسبقة. ومن ثَم فمن غير المستغرَب أن كِلا الفريقين شعر بأنه كان على صوابٍ طَوال الوقت. فالأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنه كانت هناك مؤامرةٌ وجدوا الأدلةَ التي تؤيد المؤامرةَ أكثرَ إقناعًا من الأدلة التي تُؤيد وجود قاتل واحد، والعكس صحيح. وفي النهاية، غادر الكثيرُ من الطلاب مختبرَ مكهوسكي وهم يشعرون بثقةٍ في أنهم كانوا يعرفون قاتلَ كينيدي أكبرَ من ثقتهم المبدئية وقتَ دخولهم المختبر.

عندما نُواجَه بأدلةٍ كثيرةٍ متنوِّعة ومتضاربة، يعمل الاستيعابُ المتحيز على استبعاد أيِّ شيء لا ينسجم مع أفكارنا وتصوراتنا المسبقة، مخلفًا وراءه الاعتقادَ الواهم بأن الحقيقةَ واضحةٌ وضوحَ الشمس (وأن هذا ينسجم تمامًا مع ما عرَفناه طوال الوقت).

لكنَّ أسئلةً عما إذا كانت القيود التي تُفرض على حيازة السلاح والردع النووي وعقوبة الإعدام صحيحة أو خاطئة ليس لها إجاباتٌ واضحة؛ فهي قضايا أخلاقية مرَدُّها إلى اختلاف القيم. ثم هناك أسئلة، على غِرار «مَن قتل كينيدي؟» لها إجابةٌ بالفعل، لكن الأدلة تبقى مَثار جدلٍ (على الأقل بدرجةٍ ما).

ماذا يحدث عندما تكون هناك إجابةٌ واضحة؟ ماذا لو علمنا علمَ اليقين أن شخصًا ما وصَلَته معلوماتٌ خاطئة ببساطة، وأننا نستطيع أن نُقدِّم معلوماتٍ حاسمةً يمكن أن تُعيده إلى صوابه؟ هل من المؤكَّد أن الناس سيغيِّرون وجهة نظرهم حينها؟

التشكُّك في الأمور المحسومة

نال باراك أوباما، الرئيسُ الرابع والأربعون للولايات المتحدة نصيبَه من الشائعات المضلِّلة. وقد شكَّكَت بعضُ الشائعات الأولى في هُويته الحقيقية، واستمرت تلك الشائعات مدَّةً طويلة: هل وُلد في هاواي، كما يُزعم، أم كان ميلاده الحقيقيُّ في كينيا؟ بالنِّسبة إلى الأشخاص الذين شكَّكوا في أصول أوباما، ليست هذه مسألةً هيِّنة. فهم زعَموا أنه إذا لم يكن أوباما مواطنًا أمريكيًّا وُلد على التراب الأمريكي، فربما لا يكون مؤهلًا لأن يشغَل منصب الرئيس، وإنما يكون محتالًا.

الآن، دعنا نتخذْ وجهةَ نظر هؤلاء الذين شكَّكوا في أصول أوباما ونفترض أن شواغلهم قائمةٌ على فكرةٍ مغلوطةٍ بريئة. لا بد أن تكون، حينَذاك، مجرد خطأ يسهل تصحيحه. خلال حملته الانتخابية عام ٢٠٠٨، أطلق فريقُ أوباما، موقعًا إلكترونيًّا أسماه «واجِه الافتراءات» (فايت ذا سِميرز) ورُفع على الموقع صورةٌ مختصرة لشهادة ميلاده، تؤكد أنه مواطن أمريكي. ومع ذلك استمرَّت الشائعات. وفي يوليو ٢٠٠٩، أكَّد مدير وزارة الصحة بولاية هاواي في بيان صحفي أن ميلاد أوباما مسجلٌ بالفعل لديهم. لكن الشائعات لم تنحسر. وأخيرًا، نشَر أوباما في أبريل عام ٢٠١١، شهادة ميلاده الكاملة على الموقع الإلكتروني للبيت الأبيض؛ وهو ما يُعَد دليلًا دامغًا وحاسمًا على أن الشائعات كانت كاذبة. ما الذي يمكن أن يطلبَه المشككون بعد ذلك؟

بعد انقضاءِ عامٍ، تتبَّع آدم برينسكي، أستاذُ العلوم السياسية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عددَ الأشخاص الذين صدَّقوا الشائعات القائلة بأن أوباما لم يُولَد في الولايات المتحدة. في أبريل عام ٢٠١١، وقبل أن ينشر أوباما شهادةَ ميلاده الكاملة بوقت قصير، قال ٤٥٪ من الأمريكيِّين إنه كان لديهم بعضُ الشكوك حول وثائق اعتماده (وذلك بالرغم

من الجهود التي كان قد بذلها بالفعل لدحض الشائعات). وبعد أن نشر شهادتَه الكاملة بوقتٍ قصير، تراجع هذا العدد إلى ٣٣٪. في الواقع، فإن عدد الأشخاص الذين يُشكِّكون في حق الرئيس أن يكون رئيسًا لا يزال كبيرًا، استنادًا إلى هذه النِّسبة، لكنَّ الأدلةَ أحدَثَت تأثيرًا على ما يبدو، أليس كذلك؟ للأسف، لم يَدُم هذا التأثير طويلًا. ففي غضونِ شهورٍ قلائل، عاد المشكِّكون من جديد. فبحلول يناير ٢٠١٢، أعرب ٤١٪ من المواطنين عن شكِّهم في كون أوباما مواطنًا أمريكيًّا؛ وهذه النِّسبة أقلُّ بهامش ضئيل عن النِّسبة التي رُصدت قبل أن يُقدِم أوباما على نشر شهادة ميلاده. (وتجدر الإشارة إلى أنه أصبح هناك المزيدُ — ولو بدرجةٍ طفيفة — من المشككين في أصول أوباما بين الجمهوريِّين؛ فقد أعرب ٧٢٪ عن شكوكهم في وثائق أوباما، بعد أن كانت النِّسبة ٧٠٪ قبل أن ينشر شهادته؛ لكننا سنتحدثُ بعد قليل بمزيد من الاستفاضة عن أي طرف من طرَفَي الخلاف السياسي أكثر توجهًا بنظريات المؤامرة.)

وقد تعقَّبتِ المعلوماتُ المضلِّلة أوباما حتى بعد دخوله البيتَ الأبيض. ومن بين القضايا الجدلية المحورية خلال مدة رئاسته الأولى قانونُ الرعاية الصحية الأمريكي الذي عُرف — إعزازًا — أو استخفافًا حسبما تراه — بقانون «أوباما كير». أحد المعارضين الأقوياء لقانون «أوباما كير» كانت سارا بالين، حاكمة ولاية ألاسكا سابقًا. ففي أغسطس عام ٢٠٠٩، أعربت بالين عن مخاوفها من أن يكون قانون «أوباما كير» خطةً سريةً لقتلِ كبار السن. فقد زعمَت في منشورٍ لها على موقع «فيسبوك» أن المرضى سيتعيَّن عليهم «المثول أمام لجنةِ الموتِ التابعةِ لأوباما حتى يُقرِّر البيروقراطيون التابعون له ما إذا كانوا يستحقُّون الحصولَ على الرعاية الطبية أو لا.» وأشارت بالين ضمنيًّا إلى أن الأطباءَ سيقتلون الجدودَ قتلًا رحيمًا، بدلًا من إعطائهم الدواءَ الغاليَ الثمن الذي يُمكن أن يُنقذ حياتهم.

كانت فكرةً مزعجة، وثبَت أن لها جاذبيتَها. فبعد منشور بالين على «فيسبوك» بأسبوع واحد فقط، كان قد سمِع تسعةٌ تقريبًا من أصل ١٠ أمريكيِّين بزعم «لجان الموت»، وقال ثلاثةٌ من أصل ١٠ أمريكيين إنهم صدَّقوا ذلك الزعم. لكن هذا الزعم كان خطأً. فقانون «أوباما كير» لم يذكر أيَّ لجانِ موت بيروقراطية (كما أن بالين لم تستشهد بأي صيغة كهذه لدعم زعمها). ومن جديدٍ، لا بد أن يكون من السهل تصحيحُ المعلومة المغلوطة. وقد بذلت إدارة أوباما جهودًا متواصلةً من أجل تفنيد الشائعة، وقد دُحِضت على نطاقٍ واسع في وسائلِ الإعلام بوجه عام. ومع ذلك ظل التصوُّر الخاطئ عصيًّا على

التصحيح بشكلٍ محبِط. فبحلول أغسطس عام ٢٠١٢، زاد عددُ الأشخاص القلقين من لجانِ الموت إلى أربعة تقريبًا من أصل ١٠.

كيف لم يحدث تغييرٌ تقريبًا في عدد الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أن أوباما محتالٌ بعد أن نشر الرجلُ شهادة ميلاده للعالم (بل وزاد هذا العدد في بعض الأوساط)؟ كيف صدَّق المزيدُ من الناس أن اللجان قد تكون موجودةً بالفعل، بعد ثلاث سنوات من الجهود الرامية إلى تفنيد خرافة لجان الموت (فضلًا عن عدم ظهور تلك اللِّجان على أرض الواقع)؟ برندن ناين، أستاذ العلوم السياسية المساعد بكلية دارتموث، متخصصٌ في دراسة هذه النوعية من التصورات السياسية الخاطئة. تُشير دراسته البحثية إلى أن تصحيح المعتقداتِ والأفكارِ الخاطئة يمكن أن يكون مهمةً صعبةً على نحوٍ يدعو إلى الدهشة. فأحيانًا، عندما تُوضح لشخصٍ ما الحقائقَ اللازمة لتصحيح مفهومه، يمكن أن يزدادَ هذا الشخص ثقةً في مفهومه الخاطئ. وقد أطلق ناين على هذا مصطلح «التأثير العكسي».

ومن خلال دراساتٍ عديدة، اكتشف ناين وزملاؤه أنه عندما يعرف الناس السببَ وراء كونِ قانون «أوباما كير» لا يستلزم تشكيلَ لجان موتٍ تنوب عن الحكومة، من الممكن أن يُصبحوا أكثرَ يقينًا من أن لجان الموت واقعٌ قادم؛ فعند عرضِ مقطعِ فيديو على الناس يُظهر أوباما وهو يقول إنه مسيحيُّ الديانة يمكن أن يجعلَهم أكثرَ تشككًا في أنه مُسلم يُخفي إسلامه (وتلك شائعة أخرى ظهرَت خلال حملته الرئاسية واستمرَّت وقتًا طويلًا)، وإخبار الناس أن اللقاحات لا تُسبِّب التوحدَ يُمكن أن يجعلهم أقلَّ رغبةً في تطعيم أطفالهم، وتحذير الناس من العواقب الوخيمة المحتمَلة للاحترار العالمي يُمكن أن يجعلَهم أكثرَ مقاومةً للسياسات الرامية إلى الحدِّ من التغيُّر المناخي.

لعل التأثيرَ العكسيَّ هو الإثبات النهائي لقوةِ وتأثيرِ التحيُّز التأكيدي. فحتى عندما لا تكون الحقائقُ قابلةً للدحض، سيجد الناس طريقةً لدحضها.

وإذا كنتَ تسعى لتبريرِ عدمِ صحةِ حقيقةٍ مزعجة، فلا شيء يفوق نظريةَ المؤامرة. فعندما تزعم أنه لا يمكن الوثوقُ بأحد، يُمكن أن تُنكر الحقائقَ الدامغة ببساطة معتبرًا إياها جزءًا من التستُّر. ومن ثَم، عندما نشر الرئيس أوباما شهادةَ ميلاده على شبكة الإنترنت، سارع المشكِّكون المؤامراتيون إلى الزعم بأنها خِدعةٌ من خِدَع برنامج الصور «فوتوشوب». وقد حلَّل المدوِّنون كلَّ بكسلٍ بدقةٍ بالغة، موضحين أن هناك شذوذاتٍ في التصميم والألوان، على حد زعمهم، كما ادعَوا عدم وجود آثارِ طيٍّ في الشهادة بسبب ثَنْيها

وإرسالها بالبريد. بل إن أحدهم أشار إلى ما يمكن أن يكون وجهًا باسمًا خفيًّا في توقيع المسئول الذي وقَّع الشهادة؛ زاعمًا أن هذا قد يكون دليلًا تركه المزوِّرُ وراءه دون قصد. (والسبب في كون مزورٍ محترفٍ يترك وراءه أدلةً كهذه يبقى غامضًا.) وبدلًا من إقناع المشككين بخطئهم، أعطتهم شهادةُ أوباما مزيدًا من الذرائع.

وبالمثل، ظلَّت شائعة «لجان الموت» رائجة بشدة، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى المزاعم المؤامراتية بأن إدارة أوباما كانت تُنفذ لجان الموت عبر وسائلَ أكثر تكتُّمًا. وبالنِّسبة إلى المناهضين للقاحات، فعدم وجود أدلة هو دليلٌ في حد ذاته على تسترٍ من جانب شركات الأدوية. وبالنِّسبة إلى منكري التغيُّر المناخي، فإن الإجماع الكاسحَ بين العلماء على أن الأرض تزيد احترارًا يُدحَض بسهولة باعتباره مؤامرةً من جانب العلماء لتضليل الناس.

هناك لازمةٌ شائعة بين أصحاب نظريات المؤامرة وهي أن دليلًا حاسمًا واحدًا فقط على أن نظريةَ المؤامرة خاطئة سيُريح عقولَهم. وفي حين أن هذا قد يكون صحيحًا بالنِّسبة إلى البعض، يضمنُ التأثيرُ العكسيُّ أنه بمجرد أن يترسَّخ الاعتقادُ في عقولنا، فإن هذا الدليلَ الحاسم الوحيد يمكن أن يَزيد، على النقيض، هذا الاعتقاد ترسُّخًا. فالتحيُّز التأكيدي إضافةً إلى النُّزوع إلى التفكير المؤامراتي يُشكِّلان درعًا منيعةً، يمكن أن تحميَ اعتقادًا ما من كل تحدٍّ تقريبًا.

جنون الارتياب الحزبي

يجدر بنا الآن أن نبحث لبعض الوقت سؤالًا كثيرًا ما يطرأ عند الحديث عن نظريات المؤامرة. هل نظرياتُ المؤامرة أكثرُ رَواجًا بين اليسار أو اليمين السياسي، بين الليبراليين أو المحافظين، بين الديمقراطيين أو الجمهوريين؟

إن تخصيصي جانبًا من الحديث لنظريات المؤامرة التي دارت حول الرئيس أوباما قد يُعطي انطباعًا بأن نظرياتِ المؤامرة أكثرُ شيوعًا بين الجمهوريِّين. بالنِّسبة إلى الكثيرين من المثقَّفين المنتمين إلى اليسار، ليس هناك شكٌّ في ذلك. فقد قال جوناثان تشيت، وهو محرِّرٌ بارزٌ سابق لدى مجلة «نيو ريبليك» التي تَميل إلى اليسار، إن الحقَّ السياسي «يُسفر عن نوعٍ من التفكير البارانوي الذي لا يُمكن أن تجده لدى اليساريِّين بوجهٍ عام.» وقد أشار آرثر جولدواج، الذي يكتب لموقع «صالون دوت كوم» الإلكتروني التقدمي أنه من الطبيعي أن نظريات المؤامرة «تجد أصداءها بين الجمهوريِّين بوجه عام.»

لكن لا تتعجَّل في الحكم. فإذا استمعت إلى المثقفين اليمينيِّين، فإن المحافظين يتعرَّضون لانتقادٍ جائر لإعرابهم عن حقائقَ بسيطة؛ اليساريون هم مَن تستولي عليهم نظريات المؤامرة الواهمة. فمثلًا، عبَّرت مقالةٌ نُشرت عام ٢٠٠٨ في صحيفة «واشنطن تايمز» ذاتِ الاتجاه المحافظ، عن حزنها الشديد وقالت إنه «في هوليوود الليبرالية، تعبيرك عن التشكُّك بشأن الاحترار العالمي الذي هو مِن صُنع الإنسان يؤدي إلى وصفك بأنك «منكر» بكلِّ ما تحمله الكلمةُ من معانٍ وإيحاءات.» في حين أن «التلميح بأن الحكومة الأمريكية متورِّطة في تدمير برجَي مركز التجارة العالمي وقتل ٣٠٠٠ شخص لا يُثير أيَّ قدْر من الإدانة.»

باختصار، معرفةُ أيُّ طرف من الطرفَين أكثرُ انخراطًا في نظريات المؤامرة أمرٌ يتوقَّف على هُوية الشخص الذي تسأله. يقول جو أوسينسكي وجوزيف بيرانت إن كل طرفٍ يبدو على قناعةٍ بأن الطرَف الآخَر «ينسج نظرياتِ المؤامرة بشكلٍ روتيني وبهذَيانٍ أشبهَ بهذيانِ مَن أصابته الحمى في حينِ أن نظريات المؤامرة التي ينسجها هو نفسُه منطقية وواقعية، إن لم تكن صحيحةً لا تحتاج إلى دليل. ويُتابع الباحثان قائلَين إن الطرف الآخر يُرحِّب بنظريات المؤامرة لتَرُوج بين عموم الناس، وهو ما يُمثل خطورة، في حين أن الطرف المدَّعي يُقصي نظريات المؤامرة حاميًا المجتمعَ من عواقبها.» هل يبدو هذا وضعًا طبيعيًّا ومألوفًا؟ الحقيقة القائلة بأن كلَّ طرَفٍ يرى الطرفَ الآخر أكثرَ نزوعًا إلى التفكير المؤامراتي مثال عمليٌّ آخر على التحيُّز التأكيدي.

فأيًّا كان الطرَفُ الذي تدعمه، قد تندهش عندما تعلم أن الناس عمومًا، سواءٌ على اليسار أو اليمين من الطيفِ السياسيِّ، منخرطون في التفكير المؤامراتي، ولا يختلفون في ذلك بعضُهم عن بعض. فلا يمكنك أن تقول إن المؤامراتية تزداد قوةً كلما ابتعد الشخصُ عن منتصف مقياس التوجُّه السياسي. فالفارق بين الليبراليين والمحافظين ليس له علاقةٌ بمدى نزوعِهم إلى نظريات المؤامرة عمومًا، بل بماهية نظريات المؤامرة المحدَّدة التي يَروق لهم التشبُّثُ بها على الأرجح. جمَع أوسينسكي وبيرانت كمًّا كبيرًا من البيانات عن التفضيلات السياسية لدى الناس، وعن نوعية نظريات المؤامرة التي يقتنعون بها. وقد وجَدوا شيئًا لا يُثير الكثيرَ من الاستغراب على ما يبدو، وهو أن الأشخاص الذين ينتمون إلى اليمين السياسي أكثرُ ميلًا إلى التشكُّك في أن الليبراليين والاشتراكيين يتآمَرون ضدَّهم؛ فمَزاعمُهم المؤامراتية عادةً ما تكون موجَّهة ضد إدارة أوباما، ووسائل الإعلام الليبرالية والنُّخَب التي تعيش في برجٍ عاجي. وأما الأشخاص المنتمون إلى اليسار فهم أكثرُ ميلًا

إلى رؤيةِ مؤامرات تُحاك ضدهم من جانب المحافظين والشركات؛ فهم يوجِّهون مزاعمهم المؤامراتية ضدَّ كياناتٍ مثل إدارة بوش وشركة مونسانتو. فالتفكير المؤامراتي نتاجُ شذوذات سيكولوجية راسخة في أدمغتنا جميعًا، ولا علاقة لها بالأيديولوجية السياسية. وفي حينِ أنهم يُلقون بالاتهامات في جميعِ الاتجاهات، ليس هناك ما يُبرِّر الاعتقاد بأن الليبراليين والمحافظين قد يكونون مختلفين من حيث الاستعدادُ للانخراط في التفكير المؤامراتي بوجه عام؛ وتؤكد البيانات أنهم ليسوا كذلك. فعددُ المشكِّكين في هُوية أوباما من اليمين السياسي (أربعة من كل ١٠ تقريبًا) هو نفسُ عدد أنصار حركة حقيقة هجمات الحادي عشر من سبتمبر من اليسار السياسي (أربعة من كل ١٠ تقريبًا).

يمكن أن يُحدِّد الانتماء السياسي لدى المرء ما إذا كان يتشبَّث بفكرةٍ ما في مواجهة أدلةٍ متناقضة أيضًا. فعندما درَس برندن ناين التأثيرَ العكسي في سِياق لجان الموت التي أشارت إليها سارا بالين، وجد أن الأشخاص الذين يؤيِّدون بالين بشدةٍ كانوا أكثرَ مقاومةً للمعلومات التي تدحض الشائعة. والأشخاصُ الأكثرُ إيمانًا بالتيار اليساري كانوا أكثرَ ميلًا بكثيرٍ إلى الاعتراف بخطئهم وتحديثِ أفكارهم ومعتقداتهم. وفي دراسةٍ أخرى، عرض عالمُ النفس جون بولوك على المشاركين قصةَ خبرٍ عن إساءة معاملة السجناء في معسكر جوانتانامو. وفي النهاية، كان هناك تصحيحٌ يفيد بأن إساءة المعاملة لم تحدث في واقع الأمر. راقَ للقراء الجمهوريِّين جعل هذا التصحيح جزءًا من أفكارهم ومعتقداتهم؛ فقد أصبحَت انتقاداتهم للمعاملة الأمريكية للمعتقلين أقلَّ إذا ما قُورنت بانتقاداتهم المبدئية. لكن الديمقراطيين تبنَّوا على ما يبدو الزعم الكاذب الذي يُفيد بتعرض المعتقلين للمعاملة السيئة وتجاهَلوا تمامًا التصحيح الذي يفيد بأن ذلك الزعم ليس صحيحًا؛ إذ زادت حِدَّة انتقادهم للحكومة على إساءة معاملة المعتقلين.

من المثير للاهتمام أن نُشير إلى أن أول الأشخاص الذين شكَّكوا في مكان ميلاد أوباما لم يكونوا جمهوريِّين، على عكس ما قد يكون قد خطر ببالك. فشائعة التشكيك في الميلاد أطلقَها للمرة الأولى في ربيع عام ٢٠٠٨ الديمقراطيون الداعمون لحملةِ هيلاري كلينتون للفوز بمنصب الرئيس. غير أنه بعد أن فاز أوباما بالمنصبِ الرئاسيِّ وانتهت المنافسة مع كلينتون، تخلَّى الديمقراطيون على نحوٍ شبهِ تامٍّ عن الشائعة. ولم تُثَر الشائعة بعد ذلك إلا على ألسنةِ الجمهوريين. ففي كتابه عام ٢٠٠٦ الذي حمل اسم «جُرأة الأمل»، كتب أوباما يقول: «بشكلٍ واضح، لم يَعُد هناك فارقٌ بين تفسيراتِ كلٍّ من اليمين واليسار. فجميعها قصصٌ عن المؤامرة، عن أمريكا التي اختطفَتها عصابة شريرة.» ولم يكن يعلم أوباما كثيرًا إلى أيِّ مدًى ستُثبت السنوات التالية صحةَ ما قاله.

مخلوقاتٌ منطقية

في الفصول القليلة السابقة، تحدَّثنا إلى أيِّ مدًى يمكن أن تُعطينا مجموعةٌ ضئيلة من الشذوذات العقلية والطرق المختصرة الذهنية شعورًا داخليًّا بأن ثمةَ مؤامرة. هذه العمليات تنثر بذورَ التفكير المؤامراتي. ويساعد التحيُّز التأكيديُّ في استنبات هذه البذور. فتفتش أدمغتنا في تلالِ المعلومات المتاحة، بحثًا عن فتاتٍ ينسجم على ما يبدو مع مؤامرةٍ ما، متجاهلًا أو رافضًا بقيةَ المعلومات. ويغلِّف التحيُّزُ التأكيدي تشككًا غامضًا في شرنقةٍ من أدلةٍ تبدو إيجابيةً؛ حيث يمكن أن تزدهر لتصبح نظريةَ مؤامرةٍ يتشبث بها المرء بثقة.

ويجدر بنا أن نُكرِّر أن نظريات المؤامرة ليست وحدَها الخاضعةَ للتحيز التأكيدي. فجميعنا ننخرط في التحيُّز التأكيدي. تذكر أنه في دراسة جون مكهوسكي عن الأفكار المؤامراتية المتعلقة باغتيال كينيدي، جعلت مجموعةٌ غيرُ حاسمةٍ من الأدلة أصحابَ نظريات المؤامرة أكثرَ قناعة بوجود مؤامرة، لكنها جعلت أيضًا أصحاب النظريات القائلة بتورُّط شخص واحد في العملية أكثر قناعةً أن أوزوالد ارتكب الجريمة بمفرده. أو تذكر مأزق ستيف ريجان في بداية هذا الفصل. فبالنِّسبة إلى ضابطِ الشرطة الذي جاء من أجل التقصِّي، متوقعًا وجودَ تستُّر، كانت احتجاجات ستيف، وعدم وجود أدلةٍ وتجربة المشعل الأسهل من اللازم جميعها دلائل على أنه كان مُحقًّا. وبالنِّسبة إلى الضابط التي تشكَّكت في أخبارِ وجود جسمٍ طائر مجهول، أشارت الدلائل نفسُها إلى تفسيرٍ مألوف أكثر. فليس مجرد كونك على صوابٍ يعني أنك لست متحيزًا.

ولكي نكونَ صادقين، نقول إن استراتيجية الاختبار الإيجابي ليست بالضرورة طريقةً سيئة للتحقُّق من مدى صحةِ تخمينٍ ما؛ فبرغم كل شيء، مجرد البحث عن شيء تتوقَّع العثورَ عليه لا يعني أنك ستجده. وبالمثل، غالبًا ما تكون بعضُ المقاومةِ لمعلوماتٍ غيرِ مرحَّب بها فكرةً جيدة. فدائمًا ما نكون عُرضة لمزاعمَ وقائعيةٍ متعارضة، ويمكن أن يكون من الصعب معرفةُ أيٍّ من تلك المزاعم يجدر بنا أن نسمعَه. وإذا ما قيَّمنا بإنصافٍ — أو قبِلنا دون نقد، وهو الأسوأ — كلَّ حقيقة جديدة نُصادفها، فربما يستحوذُ علينا الترددُ وتشلُّ الحيرة حركتنا بسبب حاجتنا الدائمة إلى التشكك في رؤيتنا للعالم بأكمله.

المشكلة هي أن التحيُّز التأكيدي في أسوأِ صوره يمكن أن يُساعد المعتقداتِ والأفكارَ المغلوطة على المكوث في عقولنا لوقتٍ أطولَ بعد انتهاء صلاحيتها. ففي مراجعةٍ للأدبيات

أجراها عالمُ النفس ريموند نيكرسون، انتقد التحيُّزَ انتقادًا لاذعًا. فقد أشار إلى أن التحيُّز التأكيدي من بين جميع الشذوذات والنواقص والتحيُّزات يُعد أكثرَ الأشياء خبثًا وضررًا. فبرغم كل شيء، فإن تحيزاتنا الأخرى — التي من بينها على سبيل المثال ربطُ الأجزاء المتناثرة لاستخلاص نتيجة، والتفتيش في النوايا، والبحث عن أسبابٍ لتفسير الأحداث الكبيرة — قد لا تُمثِّل مشكلة كبيرة إذا كنا قد اعتَدْنا على التشكُّك في حدسنا. أما التحيُّز التأكيدي فيعمل على ترسيخ استجابتنا الحدسية دون إعادة النظر فيها. اختتم نيكرسون كلامَه بالقول: «يُضطَرُّ المرء إلى التساؤل عما إذا كان التحيُّزُ في حدِّ ذاته قد يُفسِّر نسبةً لا بأس بها من المنازعات والمناوشات وسوءِ التفاهم الذي يحدث بين الأفراد والجماعات والدول.» فكِّر في آخر مرة اختلفتَ فيها مع شخصٍ ما في الرأي. هل استطعتَ تغيير وجهةَ نظره؟ هل تغيرَت وجهةُ نظرك؟ هل فكرتَ في احتمالية أن يكون التحيُّزُ التأكيدي هو الذي يحثُّ كِلَيكما على التشبث بوجهة نظره؟

لماذا نجد صعوبةً كبيرة في تغيير وجهة نظرنا؟ ليس ذلك بسبب أننا أغبياء. فقد توصَّلَت الدراساتُ إلى أنه لا علاقةَ بين الذكاء وكون المرء عرضةً للتحيز التأكيدي. كما أن ذلك ليس مردُّه إلى أننا نفتقر ببساطةٍ إلى المعلومات الكافية. قد تتوقَّع أن أكبر الاختلافات في وجهات النظر تكون بين الأشخاص الذين لا يعرفون سوى النَّزْر اليسير عن الموضوعِ محلِّ النقاش، لكن الحقيقة أن الأشخاصَ الأكثرَ معرفةً على المستويَين العِلمي والسياسي هم مَن يكونون في أغلب الأحيان أكثرَ تحيزًا عند الخوض في موضوعاتٍ مثلِ حقيقة التغيُّر المُناخي ولجانِ الموت. فمعتقداتنا تأتي في المقدمة: فنحن نختلقُ أسبابًا لها على نحوٍ متواصل. وكونك أكثرَ ذكاءً أو لديك معلوماتٌ أكثر لا يجعلك بالضرورة أقلَّ عرضةً للمعتقدات والأفكار الخاطئة. فأحيانًا يجعلك ذلك أكثرَ قدرةً على تبريرِ حقائقَ غيرِ مستساغة.

وقد أشار بنجامين فرانكلين بتهكُّم إلى أنه «من السهل جدًّا أن نكون مخلوقاتٍ منطقية، حيث إن ذلك يُمكِّننا من إيجادِ سببٍ أو اختلاقه من أجل تفسير كلِّ شيء نميل إلى اعتقاده.»

الخاتمة: إنسانٌ فحسب

في مهرجان بيلدربيرج، تحدثتُ مع شخص كان قد اعتنق المسيحية. كان يقف برَصانةٍ في أحد أركان الساحة، بجانبِ لافتةٍ تحثُّ الناس على قَبول المسيح في حياتهم. وعندما اقتبس آياتٍ من الإنجيل، أصبحت نبرةُ صوته متقدةً بالحماس وحازمة. وخلافًا لذلك، كان الرجل هادئًا متأملًا ينزَع قليلًا إلى الكآبة. لقد أدهشَني كونُه منعزلًا وسطَ ساحة مليئة بالمنعزلين.

لقد أخبرني أن مهمته المسيحية هي تحميلُ القادةِ المسئوليةَ، ونشر كلمة الرب التي يؤمن بها ويلتزم بها. لكن فيما يتعلَّق بتصديقِ أن المجتمِعين في مؤتمر بيلدربيرج يتحكمون سرًّا في شئون العالم، كان مِن أكثر الأشخاص الذين تحدثتُ إليهم تحفُّظًا. فعندما سألتُه عن السبب الذي دعا هذه الوفودَ إلى الاجتماع، قال: «في واقع الأمر، لا أودُّ التعليق. ليس لديَّ معرفةٌ كافية بالأمر. سوف أتكهَّن. ولكنني لست هنا لكي أتكهنَ في حقيقة الأمر، فأنا هنا كي أعِظَ الناس بشأن الحقيقة المطْلقة التي مصدرُها كلمة الرب؛ ولذا سأترك هذه المسألة للآخرين.» وقال إن المزاعم التي يُطلِقها الناس ضد مؤتمر بيلدربيرج جِدُّ خطيرةٍ لكنني أريد أن أوصل الحقيقةَ المطلقة بطريقةٍ ما أو بأخرى.

سألتُه كيف اعتنق المسيحية. فقال: «نشأتُ نشأةً دينية في الكنيسة الأنجلو كاثوليكية في إنجلترا.» وتابع قائلًا: «ثم خرجتُ إلى العالم، لاهثًا وراء الملذات على مدار ٣٠ عامًا. كنت أُبلي بلاءً حسنًا في عملي كمصمِّم جرافيك وانتهى بي الحال إلى العمل في الولايات المتحدة مدةً قصيرة، واعتقد جميعُ أصدقائي أن كل شيء يسير على ما يُرام معي.» ثم استدركَ قائلًا إن العمل لم يكن يُحقِّق له إشباعًا. وانغمس في تناول الشراب الذي أصبح يُمثِّل مشكلةً له. «لم أكن بائسًا إلى هذا الحدِّ مطلقًا في حياتي. هذا بالرغم من أنني كنتُ

أكسِب كلَّ هذا المال في هذا المنصب المتميز في تلك الوكالة المرموقة في ولاية كاليفورنيا. ولم أكن بائسًا إلى هذا الحد مطلقًا طيلةَ حياتي.»

وقال إنه قد حدث شيءٌ أعتقد أنه يحدث لنا جميعًا. «لم يكن للعالم معنًى. فقدتُ السيطرة، ولم يكن لدي أيُّ تفسير لذلك؛ من أين أتيت، وما الذي أفعله، وما هو مصيري؟ هذه أسئلة جوهريَّة نحن بحاجةٍ جميعًا إلى الإجابة عنها. فإذا لم يكن لديك إجابةٌ عن هذه الأسئلة، أو كنتَ تفتقر إلى الحقيقة المؤكَّدة بشأن هذه الأسئلة، فإن حياتك ستكون بلا أساس. صحيحٌ أنه يُمكنك أن تُشوِّش على ذلك مدةً بالحفلاتِ وانغماسِك في الملذات وإطلاق العِنان لنفسك. حتى مع هذه الحركة.» وألقى نظرةً على الساحةِ المليئة بالحشود التي حضرتْ إلى مهرجان بيلدربيرج، بلافتاتهم التي تحمل عباراتٍ قويةً ودوائر التأمل وقمصانهم التهكمية. «هم يشغَلون أنفسهم بأي شيء، هم يشغلون أنفسهم بهدفِ إخفاء هذا الشعور. لكنه شعور يظل موجودًا في أعماقهم، إنه شعور الخَواء الكئيب.»

في أغلب الوقت لا يكون هذا دراماتيكيًّا إلى هذا الحد. فالأمر لا يصل إلى أزمةٍ وجوديةٍ بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنًى، إلى الحد الذي يدفعنا إلى البحث عن المعنى والإجابات واليقين. لكن حتى في أيامنا العادية جدًّا، نبحث جميعًا عن إجاباتٍ بطريقةٍ ما أو بأخرى. بعض الناس يجدون سَلْواهم في الإنجيل. والبعض يُحاولون إقناعَ أصدقائهم الذين يستخدمون الكمبيوتر العادي بالتحوُّل إلى أجهزة «ماك». والبعض يحتشدون في ساحةٍ لتوجيه انتقاداتهم لفندقٍ يعتقدون أنه يستضيف الحكامَ السريين للعالم. والبعض يقرَءون كتبًا عن أسباب احتمالية أن يكون الآخرون على خطأ.

نظريات المؤامرة تنسجمُ مع نقائصِ أدمغتنا. لكن هذا لا يجعل نظرياتِ المؤامرة منحرفةً أو فريدةً من الناحية السيكولوجية. بل على العكس تمامًا. فقد رأينا أن التحيُّزات والشذوذات نفسَها التي يُمكن أن تجعلنا نقتنعُ بإحدى نظريات المؤامرة تُشكِّلان تفكيرنا بطرقٍ شتَّى؛ بدءًا من الطريقةِ التي نرمي بها حجر النرد، ومرورًا بالطريقة التي نُفسِّر بها شِجارًا في حانة، ووصولًا إلى اختيارِ الطرفِ الذي نؤيِّده في صراعٍ محتدم بين دولتين.

ومن وقتٍ لآخر، تكون هناك حتى أصداء غريبة للمؤامراتية في تفكيرِ الداحضين للمؤامرة. ففي الفصل السابع، رأينا أن نظريات المؤامرة تستدعي نماذجَ أوليةً من رواياتٍ نمطية عن الخير مقابلَ الشر. لكن أصحاب نظريات المؤامرة ليس لديهم احتكارٌ للتهويل المروع. وفي أعين بعض الداحضين المتحمسين، حسبما أوضح بيتر نايت، تُصبح المؤامراتية ذاتُها «كِيانًا ماديًّا شيطانيًّا يمكن عزو أغلب علل التاريخ إليه.» فمثلًا يُحذِّر

ديفيد آرونوفيتش قراءَ كتابه «تاريخ الهراء» من أن تكون «شبكة الإنترنت قد شكَّلت جيوش ظلٍّ» من أصحاب نظريات المؤامرة «الذين يتعذرُ معرفة حجمهم وأعدادهم.» ويُصوِّر دانييل بايبس المؤامراتية على أنها مرضٌ معدٍ، «يستطيع أن يتسلل إلى أكثرِ العقول انتباهًا وذكاءً؛ لذا فإن استبعاده يعني صراعًا أبديًّا.» ويُساور جوناثان كاي القلقُ من أن يكون عصرُ المنطق على شَفا الاستسلامِ أمام لا عقلانية حركةِ حقيقةِ أحداثِ الحادي عشر من سبتمبر. أما فرانسيس وين فينتحب بسبب أنَّ ما أسماه «الأفكار الفارغة» قد «غزت العالم بالفعل.» وحتى بين الأشخاص الذين يسعَون إلى تخليص العالم من الأفكار والمعتقدات الخاطئة، يبدو أنه يصعب عليهم مقاومةُ الإغراء بتصوير العالم باللونين الأبيض والأسود، مختزِلين إياه في كونه مواجَهة «بيننا وبينهم».

كان هدفي من هذا الكتاب هو تحليلَ هذا التقسيم الخاطئ. فليس هناك مواجهةٌ «بيننا وبينهم». هم نحن. ونحن هم. فعن طريقِ تصويرِ المؤامراتية على أنها خللٌ نفسي غريب ابتُلِيَت به عقولُ مجموعةٍ من المهاويس المصابين بجنون الارتياب، نُعفي أنفسَنا بتعجرفٍ من التفكير المختل الذي نراه في الآخرين. لكنا نفعلُ الشيءَ ذاتَه الذي يفعله المؤامراتيُّون الذين يُلقون باللوم على مجموعةٍ سرية صغيرة، محمِّلين إياهم المسئوليةَ عن جميعِ عللِ المجتمع. ونحن مخطئون. فالتفكيرُ المؤامراتي واسعُ الانتشار؛ لأنه جزئيًّا نِتاجُ الطريقةِ التي تعمل بها عقولُنا طيلةَ الوقت. فإذا عَلِق ثلاثةُ أشخاص في جزيرةٍ وسط الصحراء، فقد لا يمضي وقتٌ طويل حتى يجد كلُّ واحد منهم نفسه يتساءل ما إذا كان الاثنان الآخران يُخطِّطان لشيءٍ من ورائه.

ولا أقصد أن نظريات المؤامرة يجب تجاهلُها أو تبنِّيها دائمًا. فكما رأينا في الفصل الثاني، يمكن أن تقودَ بعض نظريات المؤامرة إلى نتائجَ مدمِّرة. والبعض منها يمكن أن يكونَ له تأثيراتٌ خفية وخبيثة. يجب علينا الحذرُ من نظريات المؤامرة التي تجعل من الأشخاص الضعفاءِ كِباشَ فداء، وتُحرِّض على العنف، وتُعزِّز الأفكارَ المغلوطةَ عن قضايا يمكن أن يترتبَ عليها نتائجُ خطيرة بالنِّسبة إلينا جميعًا، مثل اللقاحات والتغيُّر المناخي. لكنني لا أعتقد كذلك أن التفكيرَ المؤامراتيَّ بوجهٍ عام آفةٌ بحاجةٍ إلى استئصال. فأغلب الناس لا يبنون قراراتِهم الحياتيةَ المهمة بِناءً على نظريات المؤامرة. وقد يتضح أحيانًا أن المؤامراتيين على درايةٍ بشيءٍ ما ولديهم ما يُبرِّر موقفهم. فأحيانًا يتم التخطيط بالفعل لأشياء شريرة وخبيثة خلف الأبواب المغلقة. هنا تدعو الحاجةُ إلى محاسبة القادة. فأحيانًا يُصبح جنونُ الارتياب حَصافةً وحكمة.

ومن خلالِ تسليطِ الضوءِ على الكيفية التي يُمكن أن تُشكِّل بها تحيزاتُنا معتقداتِنا وأفكارَنا، لا أطمح إلى دحضِ نظريةٍ بعينها، كما لا أهدف إلى انتقاد التفكير المؤامراتي بالكلية. إنما هدفي أن نتأمَّل حَدْسَنا بشيءٍ من التدقيق وأن نسأل أنفسنا لماذا نُفكِّر فيما نفكِّر فيه. هل نحن لدينا جنونُ ارتياب حصيف؟ أم أن تحيزاتنا تستحوذُ علينا تمامًا؟

بطبيعة الحال، ليست جميعُ تحيزات أدمغتنا ولازِماتِها وطرقِها المختصرة سيئةً دائمًا. فبدونها، قد لا نبرح أَسِرَّتنا، في حيرةٍ شديدة، غيرَ متأكدين من أي شيء، وعاجزين عن اتخاذ أبسطِ القرارات؛ إذ سنكون بحاجةٍ مستمرةٍ إلى إعادة تقييم عالمنا بأكمله. أدمغتنا تعمل بهذه الطريقةِ لسببٍ معيَّن: مساعدتنا على خوض غمارِ الحياة في عالمٍ غيرِ يقيني وغادرٍ في بعض الأحيان. فتحيزاتنا تجعلنا بشريِّين. نحن بشريون على نحوٍ مدهش ومذهل ومبهر وغيرِ مثالي في الوقت ذاتِه.

وهذا باستثناء مَنْ هم منا كائناتٌ فضائية بين مجرية، قادرة على تغيير شكلها.

المراجع والملاحظات

مُقدمة: السقوط في هوَّة سحيقة

women are just as conspiracy-minded as men: Numerous studies have analyzed gender differences in conspiracism and found none, e.g. Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. pp. 82–83.

slightly more high school dropouts than college graduates: Some studies have found no reliable relationship between education and conspiracism. Some, however, have found a slight negative correlation, e.g., Ibid. pp. 86–87.

Senior citizens … **Millennials**: Most studies have found no reliable association between endorsement of conspiracy theories and age. Ibid.

Louis Tomlinson and Harry Styles … **are secretly an item**: At the time of writing, this YouTube video, titled "Top 30 Iconic Larry Stylinson Moments," has more than a million and a half views: https://www.youtube.com/watch?v=EGQZk9F6Dxs.

around half of Americans … **the 9/11 attacks**: According to various polls conducted in 2004, 2006, and 2007 by Zogby, Scripps Howard/Ohio University, and CBS/*New York Times*. See http://www.aei

.org/files/2013/11/06/-public-opinion-on-conspiracy-theories_181649218739.pdf.

Almost four in ten … climate change is a scientific fraud: http://www.publicpolicypolling.com/pdf/2011/PPP_Release_National_ConspiracyTheories_040213.pdf.

Something like a third … hiding evidence of aliens: according to 2006 and 2007 polls by Scripps Howard/Ohio University. See http://www.aei.org/files/2013/11/06/-public-opinion-on-conspiracy-theories_181649218739.pdf.

More than a quarter … the New World Order: http://www.publicpolicypolling.com/pdf/2011/PPP_release_national_ConspiracyTheories_040213.pdf

In a 2013 survey: Ibid.

According to a 2011 Pew Research Center survey … people in various Middle Eastern countries: http://www.pewglobal.org/2011/07/21/muslim-western-tensions-persist/.

Four out of ten Russians: http://translate.google.com/translate?hl=en&sl=ru&tl=en&u=http%3A%2F%2Fwww.rbcdaily.ru%2Fpolitics%2F562949980129006&sandbox=1.

"the assassination of Indira Gandhi is the doing of a vast conspiracy": Moscovici, S. (1987). The conspiracy mentality. In Graumann, C. F., & Moscovici, S. (Eds.). *Changing Conceptions of Conspiracy*. Springer. p. 151.

in Brazil, a popular conspiracy theory … invade the Amazon rain forest: Mitchell, S. T. (2010). Paranoid styles of nationalism after the Cold War. In Kelly, J. D., Jauregui, B., Mitchell, S. T., & Walton, J. (Eds.). *Anthropology and Global Counterinsurgency*. University of Chicago Press. pp. 89–104.

In a recent experiment … something that they felt ambivalent about: Van Harreveld, F., Rutjens, B. T., Schneider, I. K., Nohlen, H. U., & Keskinis, K. (2014). In doubt and disorderly: Ambivalence promotes compensatory perceptions of order. *Journal of Experimental Psychology: General, 143*(4), 1666–1676.

In another experiment … students were asked to imagine they had been passed over for a promotion: Ibid.

In another recent study … rate how plausible they found a handful of popular conspiracy theories: Swami, V., Voracek, M., Stieger, S., Tran, U.S., & Furnham, A. (2014). Analytic thinking reduces belief in conspiracy theories. *Cognition, 133*(3), 572–585.

As David Eagleman points out … there is a complicated network of machinery hidden just beneath your skin: Eagleman, D. (2011). *Incognito*. Pantheon. p. 1.

made up of billions of specialized cells: Ibid.

"your consciousness is like a tiny stowaway on a transatlantic steamship": Ibid. p. 4.

Jonathan Haidt likened consciousness to a rider on the back of an elephant: Haidt, J. (2006). *The Happiness Hypothesis*. Basic Books. p. 4.

consciousness "would be a supporting character who believes herself to be the hero": Kahneman, D. (2011). *Thinking, Fast and Slow*. Farrar, Straus and Giroux. p. 31.

Michael Billig …; warned that, when it comes to conspiracism, "it is easy to overemphasise its eccentricities": Billig, M. (1978). *Fascists*. Academic Press. p. 314.

الفصل الأول: عصر المؤامرة

"This is the age of conspiracy … the age of connections, links, secret relationships": Delillo, D. (1989). *Running Dog*. vintage. p. 111.

"other centuries have only dabbled in conspiracy": Moscovici, S. (1987). The conspiracy mentality. in Graumann, C. F., & Moscovici, S. (Eds.). *Changing Conceptions of Conspiracy*. Springer. p. 153.

Political scientist Jodi Dean began … by asserting: http://muse.jhu.edu/journals/theory_and_event/v004/4.3r_dean.html.

a 2015 study … dubbed this the "Age of Misinformation": Bessi, A., Coletto, M., Davidescu, G. A., scala, A., Caldarelli, G., & Quattrociocchi, W. (2015). science vs conspiracy: Collective narratives in the age of misinformation. *PLOS ONE*, 10(2). e0II8093.

For journalist Jonathan Kay … "a wide range of political paranoiacs": Kay, J. (2011). *Among the Truthers*. HarperCollins. p. xix.

letters to the editor are a good barometer of public opinion: sigelman, L., & Walkosz, B. J. (1992). Letters to the editor as a public opinion thermometer: The Martin Luther King holiday vote in Arizona. *Social Science Quarterly*, 73(4), 938–946.

Uscinski and Parent set about analyzing … letters to the editor: Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. pp. 110–129.

July 19, C.E. 64 … reduced to rubble and ash: Dando-Collins, S. (2010). *The Great Fire of Rome.* Da Capo Press. pp. 86–98.

According to the Roman historian Tacitus … "nobody dared fight the flames": http://www.eyewitnesstohistory.com/rome.html.

"Pretending to be disgusted": quoted in Dando-Collins, S. (2010). *The Great Fire of Rome.* Press. pp. 3-4.

"Nero set his heart … the Capture of Rome": http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/Texts/Cassius_Dio/62*.html.

According to Tacitus, "Nero fastened the guilt": quoted in Dando-Collins, S. (2010). *The Great Fire of Rome.* Da Capo Press. p. 8.

Cassius Dio described the deed … "rent him limb from limb": http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/Texts/Cassius_Dio/1*.html.

Joseph Roisman points out … ancient Athens was riddled with "tales of plotting": Roisman, J. (2006). *The Rhetoric of Conspiracy in Ancient Athens*. University of California Press. p. 1.

Famine-struck peasants often saw their plight … "the politics of their own day": Coward, B., & Swann, J. (2004). *Conspiracies and Conspiracy Theory in Early Modern Europe*. Ashgate. p. 2.

Samuel Pepys noted … "that there is a plot in it": http://www.pepys.info/1666/1666sep.html.

some even drew "an odious parallel between his Majesty and Nero": quoted in Hanson, N. (2001). *The Dreadful Judgement*. Doubleday. p. 257.

A Frenchman, Robert Hubert, was soon arrested … delighted spectators: Ibid. pp. 271–302.

Illuminati panic: Except where otherwise noted, historical details and quotes about Adam Weishaupt, the Illuminati, the French Revolution, and Augustin de Barruel are from Roberts, J. M. (1972). *The Mythology of the Secret Societies*. Secker & Warburg. pp. 118–202.

"Even the most horrid deeds … were the offspring of deep-thought villainy": quoted in Byford, J. (2011). *Conspiracy Theories*. Palgrave Macmillan. p. 1.

According to Robison, the Illuminati leaders "disbelieved *every word* **that they uttered":** Robison, J. (1798). *Proofs of a Conspiracy* (3rd Edition). Dobson & Corbett. p. 13.

"Illuminati puppets … traumatic mind-control performances": http://www.pakalertpress.com/2013/10/28/top-10-illuminati-puppets-and-masters-of-entertainment/.

"I know who the real Illuminati are": http://www.theguardian.com/music/2014/dec/21/madonna-album-hack-living-state-terror.

Seymour Lipset and Earl Raab speculated … two elements: Lipset, S. M., & Raab, E. (1973). *The Politics of Unreason*. Harper & Row. p. 221.

The *Protocols of the Learned Elders of Zion*: https://archive.org/details/TheProtocolsOfTheLearnedEldersOfZion.

As Richard Levy put it … "veritable Rosetta stone of history": Segel, B. W. (1995). *A Lie and a Libel*. University of Nebraska press. p. 7.

Observant readers needed only to fill in the blanks: Segel, B. W. (1995). *A Lie and a Libel*. University of Nebraska Press. p. 12.

"the abandoned sensuousness of sliding notes" and … "indecent dancing": https://archive.org/details/TheInternationalJew_655.

distributing chewing gum: Ben-Itto, H. (2005). *The Lie that Wouldn't Die*. Vallentine Mitchell. p. 371.

encouraging prostitution … dog exhibitions: Wistrich, R. (1985). *Hitler's Apocalypse*. Weidenfeld & Nicolson. p. 181.

One scholar estimated in 1939 that … the ***Protocols*** **was second only the Bible**: cited in Partridge, C., & Geaves, R. (2007). Antisemitism, conspiracy culture, christianity, and Islam. In lewis, J. R., & Hammer, O. (Eds.). *The Invention of Sacred Tradition*. Cambridge University Press. p. 75.

"atrociously written piece of reactionary balderdash": Cohn, N. (2005). *Warrant for Genocide*. Serif. p. 81.

Saint John Chrysostom … denounced Jews as baby-killing devil worshipers: http://legacy.fordham.edu/halsall/source/chrysostom-jews6.asp.

In 1215, Pope Innocent III … mass burnings of their holy books: Rader, J. (1999). *The Jew in the Medieval World*. Hebrew Union College Press. pp. 153–158.

the Jewish Talmud was … a testament to the truth of Christian teaching: Woolf, J. (2011). The Devil's hoofs. in Landes, R., & Katz, S. (Eds.). *The Paranoid Apocalypse*. NYU Press. p. 52.

The worst of the pogroms was in Strasbourg: Rader, J. (1999). *The Jew in the Medieval World*. Hebrew Union College Press. pp. 149–158.

the "blood libel": Ibid. pp. 135–141.

Jews were no longer enemies of God, but enemies of man: Heil, J. (2011). Thomas of Monmouth and the Protocols of the Sages of Narbonne. in Landes, R., & Katz, S. (Eds.). *The Paranoid Apocalypse*. NYU Press. p. 69.

a new word, antisemitism, was coined: Segel, B. W. (1995). *A Lie and a Libel*. University of Nebraska Press. p. 7. Note: Except when quoting the writing of others, I refer to "antisemitism," rather than the more common formulation, "anti-Semitism." In his preface to *A Lie and a Libel* (p. x), Richard S. Levy explains that *anti-Semitism* is a pernicious misnomer. For one thing, "it does not apply to the majority of Semites, that is, the Arab peoples." Moreover, the hyphen, upper-case "S," and exclusive application to Jewish people give rise to a myth. "'Semitism,' a collection of exclusively negative traits comprising a monolithic Jewish essence, existed only in the minds of the enemies of Jews. Jews and their allies who opposed the antisemites were defending not this imaginary 'semitism' but their human rights."

It was first published … in the Russian newspaper *Znamia*: Cohn, N. (2005). *Warrant for Genocide*. serif. p. 118.

"I cannot get the public to treat the *Protocols* **seriously"**: Ibid. p. 124.

The London *Times* **prevaricated, "Are they a forgery?"**: Ibid. p. 168.

a German scholar, Joseph Stanjek, had pointed out: cited in Aaronovitch, D. (2009). *Voodoo Histories*. Jonathan Cape. p. 31.

a “scandal-mongering writer of trashy novels”: Segel, B. W. (1995). *A Lie and a Libel*. University of Nebraska Press. p. 66.

“a clumsy piece of blood-curdling fiction of the dime-novel variety”: Bernstein, H. (1921). *The History of a Lie*. Ogilvie Publishing Company. p. 18.

“Every substantive statement contained in the ***Protocols*****”**: Ibid. p. 17.

Philip Graves, correspondent for the London ***Times*** **in Istanbul, began his exposé**: http://emperors-clothes.com/antisem/graves-text.html.

Princess Katerina Radziwill … provided more pieces of the puzzle: Ben-Itto, H. (2005). *The Lie that Wouldn’t Die*.Vallentine Mitchell. pp. 74–83.

An editorial … might “be allowed to pass into oblivion”: http://gfisher.org/protocols.html.

الفصل الثاني: ما الضرر؟

Shortly before eleven o’clock on a sunny Saturday morning in June 1922: Evans, R. J. (2012). Prophet in a Tuxedo. *London Review of Books, 34*(22), 20–22.

on the witness stand … Rathenau was an Elder of Zion: Cohn, N. (2005). *Warrant for Genocide*. Serif. pp. 160–161.

Adolf Hitler … had a monument to Rathenau’s killers erected: http://www.spiegel.de/international/germany/memorial-to-far-right-killers-of-jewish-minister-walter-rathenau-a-846604.html.

leading Nazis offered heartfelt eulogies: Loewenberg, P. (1995). *Fantasy and Reality in History*. Oxford University Press. p. 114.

mass book burnings … “the era of extreme Jewish intellectualism”: http://www.historyplace.com/worldwar2/triumph/tr-bookburn.html.

“though I came from a fairly cosmopolitan family”: Master, W. (1974). *Hitler’s Letters and Notes*. Harper & Row. p. 107.

"Hitler heard the call of a kindred spirit": Cohn, N. (2005). *Warrant for Genocide*. Serif. p. 213.

He began citing the *Protocols* in speeches as early as 1921: Kellogg, M. (2005). *The Russian Roots of Nazism*. Cambridge University Press. p. 75.

Hitler kept a large photograph of Henry Ford … "heroic American, Heinrich Ford": Segel, B. W. (1995). *A Lie and a Libel*. University of Nebraska Press. p. 27.

Hitler's 1924 manifesto, *Mein Kampf* … lavishes praise on the *Protocols*: Cohn, N. (2005). *Warrant for Genocide*. Serif. pp. 200–201.

they soon added the *Protocols* to the national school curriculum: Ibid. p. 45.

"it is the duty of every German": Ibid. p. 221.

"to restore Germany to freedom and power": Frymier, J. R., & Roaden, A. L. (2003). *Cultures of States*. Scarecrow Press. p. 88.

"reduced to the status of outlaws": Wistrich, R. (1985). *Hitler's Apocalypse*. Weidenfeld & Nicolson. p. 87.

"Has it not struck you how the Jew is the exact opposite of the German": Rauschning, H. (1940). *The Voice of Destruction*. Pelican. p. 238.

"There are two possibilities": quoted in Redles, D. (2011). The turning point. In Landes, R., & Katz, S. (Eds.). *The Paranoid Apocalypse*. NYU Press. p. 125.

"In the course of my life I have very often been a prophet": https://archive.org/details/SpeechOfJan.301939.

"It is untrue that I or anyone else in Germany wanted the war in 1939": http://www.historylearningsite.co.uk/adolf_hitler_political_testament.html.

"a preposterous fabrication": Cohn, N. (2005). *Warrant for Genocide*. Serif. p. 213.

"appeal to all the paranoid and destructive potentialities in human beings": Ibid. p. xiv.

Anders Breivik … conspiracy to destroy Western civilization: http://www.irr.org.uk/pdf2/ERA_BriefingPaper5.pdf.

Tamerlan Tsarnaev … "this is a good book": http://www.bostonglobe.com/metro/2013/08/07/unlikely-friendship/xQao9NHjkUvtvhTcKIuwCL/story.html.

"the government is implying mind control": http://www.newyorker.com/books/page-turner/the-language-and-literature-of-jared-loughner.

James Wenneker von Brunn … "the Holocaust is a lie": http://www.cbsnews.com/news/von-brunn-obama-was-created-by-jews/.

On the morning of April 19, 1995, McVeigh: Michel, L., & Herbeck, D. (2001). *American Terrorist*. ReganBooks. pp. 223–246.

McVeigh was wearing a T-shirt with a picture of Abraham Lincoln: Ibid. p. 3.

"planning a massive raid on gun owners": Ibid. p. 161.

"declared war on a government that he felt had declared war on its own people": http://www.vanityfair.com/news/2001/09/mcveigh200109.

imagining that a religious sect called the Branch Davidians was stockpiling illegal weapons: As Malcolm Gladwell notes in an article for the *New Yorker*, the Bureau of Alcohol, Tobacco, and Firearms sent an undercover agent into the compound to look for evidence that the Branch Davidians were illegally converting firearms from semiautomatic to automatic. He found no evidence. Gladwell, M. "Sacred and Profane," *The New Yorker*, 31 March 2014.

and abusing children: According to a Department of Justice investigation after the events at Waco, "historical evidence suggested that Koresh had engaged in child physical and sexual abuse over a long

period of time prior to the ATF shootout on February 28. This evidence was insufficient to establish probable cause to indict or proof beyond a reasonable doubt to convict, but it was sufficient to be relevant to the decision making process involving the proposed tear gas plan … There was no direct evidence indicating that Koresh engaged in any physical or sexual abuse of children during the standoff." http://www.justice.gov/publications/waco/report-deputy-attorney-general-events-waco-texas-child-abuse.

Jamie Bartlett and Carl Miller … **more than fifty extremist groups**: http://www.demos.co.uk/publications/thepowerofunreason.

a survey designed to reveal … **potentially violent tendencies**: Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. pp. 97–100.

as journalist Chip Berlet pointed out: http://www.publiceye.org/conspire/toxic2democracy/.

"if only I percent of the population agreed with the statement": Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. p. 99.

"takes children on a journey": http://www.barnesandnoble.com/w/melanies-marvelous-measles-stephanie-messenger/1113910333?ean=9781466938892&itm=1&usri=melanie%27s+marvelous+measles.

"vested interests" in selling "some potion or vaccine": http://www.theguardian.com/books/2015/feb/10/melanies-marvelous-measles-anti-vaccination-bad-amazon-reviews-us-outbreak.

Dahl's own feelings about measles vaccination, which he wrote about in 1986: http://www.roalddahl.com/roald-dahl/timeline/1960s/november-1962.

In 1962 … practically everyone caught the measles: orenstein, W. A., Papania, M. J., & Wharton, M. E. (2004). Measles elimination in the United States. *Journal of Infectious Diseases, 189*(Supplement 1), S1–S3.

When a vaccine was … plummeted by 98 percent: http://www.cdc.gov/vaccines/pubs/pinkbook/meas.html.

The World Health Organization estimates … saved more than fifteen million lives around the world: http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs286/en/.

In the first year, a million children were vaccinated: Boyce, T. (2007). *Health, Risk and News: The MMR Vaccine and the Media*. Peter Lang Publishing. p. 2.

Andrew Wakefield, along with a team of colleagues, published a study: Wakefield, A. J., Murch, S. H., Anthony, A., Linnell, J., Casson, D. M., Malik, M., … Walker-Smith, J. A. (1998). Ileal-lymphoid-nodular hyperplasia, non-specific colitis, and pervasive developmental disorder in children. *The Lancet, 351*(9103), 637–41.

the panic that followed Wakefield's alarming announcement … drastically lower vaccination rates: Boyce,T. (2007). *Health, Risk and News: The MMR Vaccine and the Media*. peter lang publishing. pp. 3–6.

in Dublin … three died: McBrien, J., Murphy, J., Gill, D., Cronin, M., o'Donovan, C., & Cafferkey, M. T. (2003). Measles outbreak in Dublin, 2000. *Pediatric Infectious Disease Journal, 22*(7), 580–584.

A thirteen-year-old boy died in England in 2006: http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/england/4871728.stm.

In 2008, measles was declared endemic in the United Kingdom: http://www.eurosurveillance.org/viewarticle.aspx?articleid=18919.

In 2012 there were more than two thousand cases: http://www.theguardian.com/society/2013/feb/08/measles-outbreak-hits-18-year-high.

In 2013, another outbreak in Wales infected more than a thousand people: http://www.wales.nhs.uk/sitesplus/888/news/29688.

Investigative journalist Brian Deer uncovered evidence: http://briandeer.com/mmr/lancet-summary.html.

studies … **found no association whatsoever between the MMR vaccine and autism**: Gerber, J. S., & Offit, P. A. (2009). Vaccines and autism: A tale of shifting hypotheses. *Clinical Infectious Diseases, 48*(4), 456–461.

thimerosal … **Studies have shown this claim to be mistaken**: Ibid.

According to a 2009 survey, more than one in ten American parents: cited in largent, M. A. (2012). *Vaccine: The Debate in America*. Johns Hopkins University Press. p. 32.

"father of the anti-vaccine movement": http://www.newsweek.com/2015/02/20/andrew-wakefield-father-anti-vaccine-movement-sticks-his-story-305836.html.

The World Health Organization estimates … **die each year from whooping cough**: http://www.who.int/immunization/topics/pertussis/en/.

In 1973, a British doctor called John Wilson … **six hundred children died in the outbreak**: Offit, p. (2011). *Deadly Choices.* Basic Books. pp. 13–17.

a "pre-emptive strike": http://www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140-6736%2805%2979088-7/fulltext.

Common symptoms of smallpox: Tucker, J. B. (2002). *Scourge*. Grove Press.

The vaccine was discovered by Edward Jenner: Riedel, S. (2005). Edward Jenner and the history of smallpox and vaccination. *Baylor University Medical Center Proceedings, 18*(1), 21–25.

He dabbled in things like fossil collecting, hot air ballooning, and growing oversized vegetables: Allen, A. (2007). *Vaccine.* W. W. Norton & Company. pp. 47–48.

sporadic opposition to the vaccine: Ibid. pp. 56–57.

Compulsory Vaccination Acts: Wolfe, R. M., & Sharp, L. K. (2002). Anti-vaccinationists past and present. *British Medical Journal, 325* (7361), 430–432.

how little the arguments have changed over the centuries: Offit, p. (2011). *Deadly Choices.* Basic Books. pp. 111–125.

"Doctors want power to kill disabled babies": http://vaccineawakening.blogspot.com/2006/11/colleges-royal-college-of-obstetricians.html.

"poison of adders, the blood, entrails, and excretion of bats, toads and suckling whelps": quoted in Offit, p. (2011). *Deadly Choices.* Basic Books. p. 182.

"green our vaccines" … **"toxins"**: https://www.sciencebasedmedicine.org/toxic-myths-about-vaccines/.

as Paul Offit has pointed out, the current concerns about MMR … **are about as plausible**: Offit, P. (2011). *Deadly Choices.* Basic Books. p. 115.

"this infection scare is a sham": Ibid. p. 118.

"one of the biggest money making schemes": http://vaccineawakening.blogspot.com/2006_08_01_archive.html.

In parts of Pakistan … **ploy to sterilize Muslims**: http://wwwnc.cdc.gov/eid/article/15/6/09-0087_article.

more than sixty polio workers … **since 2012**: http://www.bbc.com/news/world-asia-30200222.

The CIA … **fake vaccination program**: www.theguardian.com/world/2011/jul/11/cia-fake-vaccinations-osama-bin-ladens-dna.

reading anti-vaccine conspiracy theories can reduce parents' willingness to have their children vaccinated: Jolley, D., & Douglas, K. M. (2014). The effects of anti-vaccine conspiracy theories on vaccination intentions. *PLOS ONE, 9*(2), e89177.

people walking out of the showing said they were less likely to vote: Butler, L. D., Koopman, C., & Zimbardo, P. G. (1995). The psychological impact of viewing the film J.F.K.: Emotions, beliefs, and political behavioral intentions. *Political Psychology, 16*(2), 237–257.

surveyed Americans shortly after the 2012 presidential election: Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. pp. 94–97.

an agent … repeatedly emailed his superiors: Wright, L. (2006). *The Looming Tower*. Knopf Doubleday. p. 311.

"Conspiracy theorists are correct about one thing": http://www.publiceye.org/conspire/toxic2democracy/.

الفصل الثالث: ما معنى نظرية المؤامرة؟

defining the term *conspiracy theory* **has been likened to attempting to define pornography**: Byford. J. (2011). *Conspiracy Theories*. Palgrave Macmillan. p. 31.

Richard Hofstadter … talked about conspiracy theories as a "style" of explanation: Hofstadter, R. (1964). The paranoid style in American politics. *Harper's Magazine, 229*(1374), 77–86.

"If you're down at a bar in the slums": http://www.chomsky.info/interviews/20040217.html.

George W. Bush … urged his fellow Americans never to "tolerate outrageous conspiracy theories": http://www.un.org/webcast/ga/56/statements/011110usaE.html.

"To be sure, wacko conspiracy theories do exist": Parenti, M. (1996). *Dirty Truths*. City Lights Books. p. 172.

"I am not a conspiracy theorist. Spare me the ravers. Spare me the plots": http://www.independent.co.uk/voices/commentators/fisk/robert-fisk-even-i-question-the-truth-about-911-462904.html.

As Jovan Byford points out: Byford. J. (2011). *Conspiracy Theories*. Palgrave Macmillan. pp. 26–29.

According to historian Daniel Pipes's definition: Pipes, D. (1997). *Conspiracy*. The Free Press. pp. 21-22.

Cass Sunstein and Adrian Vermeule made the same point: Sunstein, C. R., & Vermeule, A. (2009). Conspiracy theories: Causes and cures. *The Journal of Political Philosophy, 17*(2), 202–227.

an "intuitive understanding of how things do not happen": Aaronovitch, D. (2010). *Voodoo Histories*. Jonathan Cape. p. 7.

"a conspiracy theory is a proposal about a conspiracy that may or may not be true": Olmsted, K. S. (2011). *Real Enemies*. Oxford University Press. p. 3.

According to another account … Nixon wasn't behind the Watergate conspiracy at all: http://www.reformation.org/rockefeller-file.html.

conspiracy theories … purport to *reveal* **hitherto undiscovered plots**: Fenster, M. (2008). *Conspiracy Theories*. University of Minnesota Press. pp. 93–117.

The term originally referred to ships literally hoisting a flag: deHaven-smith, L. (2013). *Conspiracy Theory in America*. University of Texas Press. pp. 225-226.

"We could blow up a U.S. ship in Guantanamo Bay": Bamford, J. (2001). *Body of Secrets*. Doubleday. p. 84.

As Jesse Walker points out: Walker, J. (2013). *United States of Paranoia*. Harper. p. 111.

"there are two worlds": Wood, M. J., & Douglas, K. M. (2013). "What about building 7?" A social psychological study of online discussion of 9/11 conspiracy theories. *Frontiers in Personality Science and Individual Differences, 4*(409).

"A virtuoso conspiracy theorist turns black into white and white into black": Pipes, D. (1996). *The Hidden Hand*. St. Martin's Press. p. 279.

"Just look at us": quoted in Icke, D. (2007). *The David Icke Guide to the Global Conspiracy (and How to End It)*. David icke Books.

"Ladies and Gentlemen: Here the captain": National Commission on Terrorist Attacks. (2011). *The 9/11 Commission Report.* W. W. Norton & Company. p. 12.

"don't worry, we're going to do something": http://www.tomburnettfoundation.org/transcript.html.

In fact, United 93 didn't crash at all: http://911research.wtc7.net/reviews/loose_change/flight93.html.

failures "in imagination, policy, capabilities, and management": National Commission on Terrorist attacks. (2011). *The 9/11 Commission Report.* W. W. Norton & Company. p. 339.

conspiracy theorists seem to have "startling faith in the capabilities of their enemies": Pipes, D. (1997). *Conspiracy*. The Free Press. p. 44.

Richard Hofstadter captured this element of the conspiracist style: Hofstadter, R. (1964).The paranoid style in American politics. *Harper's Magazine, 229*(1374), 77–86.

the conspiracy always seems to be "exactly as competent and powerful": Collins, L. (2012). *Bullspotting*. Prometheus Books. p. 76.

"It is already possible to know" … **David Ray Griffin told audiences**: powell, M. "The Disbelievers," *The Washington Post*, 8 September 2006.

Jones told passersby, "the government is carrying out terrorist attacks": https://www.youtube.com/watch?v=YzC0IEn5n-Q.

"AN ASSOCIATION HAS BEEN FORMED for the express purpose": Robison, J. (1798). *Proofs of a Conspiracy* (3rd Edition). Dobson & Corbett. p. 12.

"As far as we are aware … hardly worth theorizing them": Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. pp. 104–105.

They "have a prize worth cheating for": Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. p. 45.

"all-encompassing expressions of organized evil": Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 130.

"One could ironically say that [conspiracy theories] brought the Devil back": Zawadzki, p. (2011). "Jewish World Conspiracy" and the Question of Secular Religions: An Interpretative Perspective. In Landes, R., & Katz, S. (Eds.). *The Paranoid Apocalypse*. NYU Press. p. 107.

"We have become entranced by demonic power": Powell, M. "The Disbelievers," *The Washington Post*, 8 September 2006.

Richard Hofstadter noted the "heroic strivings": Hofstadter, R. (1964). The paranoid style in American politics. *Harper's Magazine, 229* (1374), 77–86.

"Conspiracy theorists do not see themselves as raconteurs of alluring stories": Byford, J. (2011). *Conspiracy Theories*. Palgrave Macmillan. p. 88.

At 4:54 Eastern Time: http://whatreallyhappened.com/WRHARTICLES/bbc_wtc7_videos.html.

Conspiracy theories "always explain more than competing theories": Keeley, B. L. (1999). Of conspiracy theories. *Journal of Philosophy, 96*(3), p. 119.

only five percent of witnesses reported hearing four or more shots: http://www.skeptic.com/reading_room/jfk-conspiracy-theories-at-50-how-the-skeptics-got-it-wrong-and-why-it-matters/.

“military areas” from which “any or all persons may be excluded”: http://www.ourdocuments.gov/doc.php?flash=true&doc=74&page=transcript.

“Unfortunately … many of our people and some of our authorities”: https://archive.org/stream/nationaldefensem29unit/nationaldefensem29unit_djvu.txt.

illustrated by radio host Charles Goyette: http://forums.sherdog.com/forums/f54/popular-mechanics-9-11-author-grilled-talk-radio-422492.

A 1967 CIA memo on the topic of Kennedy conspiracy theories: de-Haven-Smith, L. (2013). *Conspiracy Theory in America*. University of Texas Press. pp. 197–203.

The assassination “actually had the hallmarks of true expertise”: Ibid. p. 113.

what Peter Knight refers to as the “How-to-tell-if-your-neighbor-is-a-Communist” approach: Knight, p. (2013). *Conspiracy Culture*. Routledge. p. 7.

as Emma Jane and Chris Fleming point out, “conspiracies and conspiracy theories vary so dramatically”: Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. pp. 20–21.

This tactic, according to psychologist Mike Wood, seems to have gained in popularity with the rise of the Internet: Wood, M. J. (2013). Has the internet been good for conspiracy theorising? *PsyPAG Quarterly, 88*(3), 31–34.

16 Questions on the Assassination: http://22november1963.org.uk/bertrand-russell-16-questions-on-the-assassination.

“Imagine if neutrinos were not simply hard to detect, but actively sought to avoid detection!”: Keeley, B. L. (1999). Of conspiracy theories. *Journal of Philosophy, 96*(3). p. 120.

الفصل الرابع: العقلية المؤامراتية

On the Internet message board … suspicion was mounting: Unfortunately the forum was taken offline when the Tv channel went defunct in 2013. The two unattributed quotes are preserved on the conference organizer’s blog: http://stephenlaw.blogspot.com/2011/09/just-to-remind-you-of-this-upcoming.html. I included the quote from Angryhead in the talk I gave at the conference, which is available on YouTube: https://www.youtube.com/watch?v=V6s_Jw3RU9g.

Ian R. Crane, according to his website: http://www. ianrcrane.com/.

you can’t stop a speeding train just by standing in its way: Vallée, J. (1991). *Revelations*. Ballantine Books. p. 81.

“was planned and orchestrated by the government itself ”: deHaven-Smith, L. (2013). *Conspiracy Theory in America*. University of Texas Press. p. 21.

According to Bob Blaskiewicz … idea has been around since the late 1990s: Also counting against deHaven-Smith’s theory that the CIA pushed the term “conspiracy theory” as a smear, Blaskiewicz points to examples of the phrase being used to dismiss claims as outlandish dating back as far as 1870—long before the CIA came into being. http://www.csicop.org/specialarticles/show/nope_it_was_always_already_wrong.

passing around unconfirmed rumors: http://www.businessinsider.com/sandy-hook-shooting-media-inaccuracies-2012-12.

the distraught parents of murdered children were “crisis actors”: http://www.snopes.com/politics/guns/newtown.asp.

President Obama faked tears during a press conference: http://www.infowars.com/obama-wipes-away-fake-tears/.

One theorist eventually sent a letter to Adam Lanza's father: Solomon, A. "The Reckoning," *The New Yorker*, 17 March 2014.

Alex Jones tweeted, "Our hearts go out": http://www.thewire.com/national/2013/04/what-is-false-flag-attack-boston-bombing/64260/.

Online, thousands of people … looking for anomalies: http://www.snopes.com/politics/conspiracy/boston.asp.

Writing for *The Wire,* **Philip Bump reported**: http://www.thewire.com/national/2013/04/what-is-false-flag-attack-boston-bombing/64260/.

what they considered to be an insufficient amount of blood: http://www.huffingtonpost.co.uk/2013/05/23/woolwich-attack-bizarre-conspiracy-theories-claim-incident-hoax-video_n_3324962.html.

"Official narratives are inherently suspect": http://www.globalresearch.ca/what-the-charlie-hebdo-execution-video-really-shows/5424505.

the hurricane was conjured up out of thin air: http://montalk.net/conspiracy/142/haarp-earthquakes-and-hurricanes.

"by sheer weight of numbers, there are bound to be some apparent inconsistencies": Wood, M. J. (2013). Has the internet been good for conspiracy theorising? *PsyPAG Quarterly, 88*(3), 31–34.

"these are conclusions lying in wait for friendly 'facts'": Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 96.

"several YouTube videos purport to point out": Wood, M. J. (2013). Has the internet been good for conspiracy theorising? *PsyPAG Quarterly, 88*(3), 31–34.

"Scratch the surface of a middle-aged 9/11 Truther": Kay, J. (2011). *Among the Truthers*. Harper. p. 51.

"People say I see conspiracies everywhere," Icke said: http://www.newstatesman.com/lifestyle/2014/11/psycho-lizards-saturn-godlike-genius-david-icke.

Americans … **more likely to think vaccines are unsafe**: Lewandowsky, S., Oberauer, K., & Gignac, G. E. (2013). NASA faked the moon landing—therefore, (climate) science is a hoax: An anatomy of the motivated rejection of science. *Psychological Science, 24*(5), 622–633.

Londoners … **assassination of Martin Luther King Jr. was the result of conspiracy**: Swami, V., Coles, R., Stieger, S., Pietschnig, J., Furnham, A., Rehim, S., & Voracek, M. (2011). Conspiracist ideation in Britain and Austria: Evidence of a monological belief system and associations between individual psychological differences and real-world and fictitious conspiracy theories. *British Journal of Psychology, 102*, 443–463.

Austrians … **more likely to believe that AIDS was manufactured**: Stieger, S., Gumhalter, N., Tran, U. S., voracek, M., & Swami, V. (2013). Girl in the cellar: A repeated cross-sectional investigation of belief in conspiracy theories about the kidnapping of Natascha Kampusch. *Frontiers in Personality Science and Individual Differences, 4*(297).

Germans … **more likely to believe that the New World Order is planning to take over**: Swami, V., Pietschnig, J., Tran, U.S., Nader, I. W., Stieger, S., & Voracek, M. (2013). Lunar lies: The impact of informational framing and individual differences in shaping conspiracist beliefs about the moon landings. *Applied Cognitive Psychology, 27*(1), 71–80.

visitors of climate science blogs … **Princess Diana got whacked by the British royal family**: Lewandowsky, S., Oberauer, K., & Gignac, G. E. (2013). NASA faked the moon landing—therefore, (climate) science is

a hoax: An Anatomy of the motivated rejection of science. *Psychological Science, 24*(5), 622–633.

concocted a theory about the popular energy drink Red Bull: swami, V., Coles, R., Stieger, S., Pietschnig, J., Furnham, A., Rehim, S., & Voracek, M. (2011). Conspiracist ideation in Britain and Austria: Evidence of a monological belief system and associations between individual psychological differences and real-world and fictitious conspiracy theories. *British Journal of Psychology, 102*, 443–463.

One possible answer, suggested by sociologist Ted Goertzel: Goertzel, T. (1994). Belief in conspiracy theories. *Political Psychology, 15*(4), 731–742.

presenting the Diana conspiracy theory as plausible … opened the door: Jolley, D., & Douglas, K. M. (2014). The social consequences of conspiracism: Exposure to conspiracy theories decreases intentions to engage in politics and to reduce one's carbon footprint. *British Journal of Psychology, 105*(I), 35–56.

take al-Qaeda mastermind Osama Bin Laden "dead or alive": http://abcnews.go.com/Us/story?id=92483.

"After a firefight," the President later announced: http://www.whitehouse.gov/blog/2011/05/02/osama-bin-laden-dead.

some people think Bin Laden may have had Marfan syndrome: http://www.infowars.com/top-doctor-confirms-bin-laden-had-marfan-syndrome/.

Glenn Beck … suggested that Bin Laden may have actually been captured alive: http://archives.politicususa.com/2011/05/03/glenn-beck-bin-laden.html.

Mahmoud Ahmadinejad … Bin Laden was living safe and sound in Washington, D.C.: http://www.theguardian.com/world/richard-adams-

blog/2010/may/05/osama-bin-laden-mahmoud-ahmadinejad-washington.

a paper by psychologists Mike Wood and Karen Douglas: Wood, M. J., Douglas, K. M., & Sutton, R. M. (2012). Dead and alive: Beliefs in contradictory conspiracy theories. *Social Psychological and Personality Science, 3*(6), 767–773.

Wood and Douglas ran another study looking at belief in … theories about Princess Diana: Ibid.

the U.S. government had advanced knowledge … actively planned the whole thing: swami, V., Chamorro-Premuzic, T., & Furnham, A. (2010). Unanswered questions: A preliminary investigation of personality and individual difference predictors of 9/11 conspiracist beliefs. *Applied Cognitive Psychology, 24*, 749–761.

Thabo Mbeki … or that it doesn't even exist: Nattrass, N. (2012). *The AIDS Conspiracy*. Columbia University Press. p. 105.

"when Washington and Baghdad get along, Tehran sees a conspiracy": Pipes, D. (1996). *The Hidden Hand*. St. Martin's Press. p. 228.

Joe Uscinski and Joseph Parent point to the restaurant chain Godfather's Pizza: Uscinski, J. E., & parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. oxford University press. p. 75.

الفصل الخامس: جنون الارتياب

a 1927 short story by the lesser-known Huxley: Huxley, J. (1927). *The Tissue-Culture King.* http://www.revolutionsf.com/fiction/tissue/.

Missouri taxpayers became unwitting accomplices in a foil-based jibe: http://www.columbiatribune.com/blogs/between_party_lines/state-to-buy-tinfoil-hats-to-combat-common-core/article_3ad6e6c8-998e-11e3-b353-001a4bcf6878.html.

The Common Core opponents … got payback: http://www.missourinet.com/2014/02/20/tin-foil-hats-line-item-leads-to-tin-foil-covered-desk-for-representative/.

“almost nondescript” … “the odd, the warped, the zanies”: Wakeman, J. (1975). *World Authors: 1950-1970*. Wilson. p. 659.

Hofstadter published an essay in ***Harper’s Magazine***: Hofstadter, R. (1964). The paranoid style in American politics. *Harper’s Magazine, 229*(1374), 77–86.

Goertzel and a team of researchers telephoned hundreds of Jerseyites: Goertzel, T. (1994). Belief in conspiracy theories. *Political Psychology, 15*(4), 731–742.

Other scientists have … found the same trend: Darwin, H., Neave, N., & Holmes, J. (2011). Belief in conspiracy theories. The role of paranormal belief, paranoid ideation and schizotypy. *Personality and Individual Differences, 50*(8), 1289–1293.

hostile: Abalakina-Paap, M., Stephan, W. G., Craig, T., & Gregory, W. l. (1999). Beliefs in conspiracies. *Political Psychology, 20*(3), 637–647.

cynical: Parsons, S., Simmons, W., Shinhoster, F., & Kilburn, J. (1999). A test of the grapevine: An empirical examination of conspiracy theories among African Americans. *Sociological Spectrum, 19*(2), 201–222.

defiant of authority: Swami, V., Chamorro-Premuzic, T., & Furnham, A. (2010). Unanswered questions: A preliminary investigation of personality and individual difference predictors of 9/11 conspiracist beliefs. *Applied Cognitive Psychology, 24,*749–761.

anxious: Swami, V., Pietschnig, J., Tran, U. S., Nader, I. W., Stieger, S., & Voracek, M. (2013). Lunar lies: The impact of informational framing and individual differences in shaping conspiracist beliefs about the moon landings. *Applied Cognitive Psychology, 27*(1), 71–80.

disagreeable: Bruder, M., Haffke, P., Neave, N., Nouripanah, N., & Imhoff, R. (2013). Measuring individual differences in generic beliefs in conspiracy theories across cultures: Conspiracy Mentality Questionnaire. *Frontiers in Personality Science and Individual Differences, 4,*225.

people … debunking conspiracy theories were sometimes more hostile: Wood, M. J., & Douglas, K. M. (2013). "What about building 7?" A social psychological study of online discussion of 9/11 conspiracy theories. *Frontiers in Personality Science and Individual Differences, 4*(409).

a team of researchers at New Mexico State University found the same trend: Abalakina-paap, M., stephan, W. G., Craig, T., & Gregory, W. L. (1999). Beliefs in conspiracies. *Political Psychology, 20*(3), 637–647.

In 2006, another team of researchers: Stempel, C., Hargrove, T., & Stempel, G. H. (2007). Media use, social structure, and belief in 9/11 conspiracy theories. *Journalism & Mass Communication Quarterly, 84*(2), 353–372.

recent opinion polls show similar demographic differences: http://www.aei.org/files/2013/11/06/-public-opinion-on-conspiracy-theories_181649218739.pdf.

The establishment … "has conspiracy theories of its own": http://www.slate.com/articles/technology/future_tense/2014/05/conspiracy_theory_research_can_t_be_believed.html.

"on the contrary, no one is more truly satisfied of this fact than I am": quoted in Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 98.

presidents Theodore Roosevelt and Woodrow Wilson both felt there was a hidden hand behind government: Ibid. pp. 98-99.

"U.S. officials asserted": deHaven-Smith, L. (2013). *Conspiracy Theory in America*. University of Texas Press. p. 8.

President Obama … accused "secretive oil billionaires" of distorting his record: http://www.politico.com/politico44/2012/04/obama-campaign-secretive-oil-billionaires-funding-121757.html.

While slaves in antebellum America … manipulated into violent revolt by Northern abolitionists: Walker, J. (2013). *The United States of Paranoia*. Harper. p. 8.

"cunningly devised and powerfully organized cabal": Ibid. p. 12.

a vast, insidious conspiracy to kidnap innocent young white women: http://reason.com/archives/2008/03/13/the-white-slavery-panic.

a wave of "satanic panic" swept Britain and the United States: Walker, J. (2013). *The United States of Paranoia*. Harper. pp. 213–216.

he later upgraded his estimate to a "considerable" minority: Hofstadter, R. (2008). *The Paranoid Style in American Politics and Other Essays*. Vintage. p. 39.

"any one conspiracy theory is an accurate bellwether": Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. p. 56.

63 percent of the American public believed at least one political conspiracy theory: http://www.scribd.com/doc/120815791/Fairleigh-Dickinson-poll-on-conspiracy-theories.

half of Americans believed at least one medical conspiracy theory: Oliver, J. E., & Wood, T. (2014). Medical conspiracy theories and health behaviors in the United States. *JAMA Internal Medicine, 174*(5), 817.

debilitating paranoia is only ever experienced by a tiny fraction of the population: Freeman, D. (2007). Suspicious minds: The psychology of persecutory delusions. *Clinical Psychology Review, 27*(4), 425–457.

Freeman and a team of colleagues asked more than a thousand perfectly ordinary college students: Freeman, D., Garety, P. A., Bebbington,

P. E., Smith, B., Rollinson, R., Fowler, D., … Dunn, G. (2005). psychological investigation of the structure of paranoia in a non-clinical population. *The British Journal of Psychiatry, 186*(5), 427–435.

Psychologists call this ***compensatory control***: Kay, A. C., Whitson, J. A., Gaucher, D., & Galinsky, A. D. (2009). Compensatory control: Achieving order through the mind, our institutions, and the heavens. *Current Directions in Psychological Science, 18*(5), 264–268.

threats to our sense of control spur our brain into action: Kramer, R. M. (1998). Paranoid cognition in Social systems: Thinking and acting in the shadow of doubt. *Personality and Social Psychology Review, 2*(4), 251–75.

Daniel Sullivan and colleagues … **designed a series of experiments**: Sullivan, D., Landau, M. J., & Rothschild, Z. K. (2010). An existential function of enemyship: Evidence that people attribute influence to personal and political enemies to compensate for threats to control. *Journal of Personality and Social Psychology, 98*(3), 434–449.

Jennifer Whitson and Adam Galinsky came up with another approach: Whitson, J. A., & Galinsky, A. D. (2008). Lacking control increases illusory pattern perception. *Science, 322* (5898), 115–117.

Monika Grzesiak-Feldman had students answer questions … fifteen minutes before an important exam: Grzesiak-Feldman, M. (2013). The effect of high-anxiety situations on conspiracy thinking. *Current Psychology, 32*(1), 100–118.

people who are new somewhere, are under intense scrutiny, or are in a relatively lowly position: Kramer, R. M. (1998). Paranoid cognition in social systems: Thinking and acting in the shadow of doubt. *Personality and Social Psychology Review, 2*(4), 251–75.

“walking down certain streets can feel threatening”: Freeman, D. (2007). Suspicious minds: The psychology of persecutory delusions. *Clinical Psychology Review, 27*(4), 425–457.

Roderick Kramer calls this “prudent paranoia”: Kramer, R. M. (2002). When paranoia makes sense. *Harvard Business Review, 80*(7), 62–69.

psychologist Kelley Main and her colleagues put shoppers in this situation: Main, K. J., Dahl, D. W., & Darke, P. R. (2007). Deliberative and Automatic Bases of suspicion: Empirical Evidence of the Sinister Attribution Error. *Journal of Consumer Psychology, 17*(1), 59–69.

a study carried out in the Deep South state of Louisiana: Parsons, S., Simmons, W., Shinhoster, F., & Kilburn, J. (1999). A test of the grapevine: An empirical examination of conspiracy theories among african americans. *Sociological Spectrum, 19*(2), 201–222.

“the life blood of the African-American community”: quoted in Pipes, D. (1997). *Conspiracy*. The Free Press. p. 2.

“bizarre as it may seem to most people”: http://www.nytimes.com/1992/05/12/opinion/the-aids-plot-against-blacks.html.

white slave owners controlled their slaves’ reproductive rights: http://nationalhumanitiescenter.org/pds/maai/enslavement/text6/masterslavesexualabuse.pdf.

slaves and “free persons of color” were disproportionately used for medical experiments: Savitt, T. L. (1982). The Use of Blacks for Medical Experimentation and Demonstration in the Old South. *The Journal of Southern History, 48*(3), 331–348.

Lynchings were a form of public entertainment: lightweis-Goff, J. (2011). *Blood at the Root.* SUNY Press. p. 164.

“expose, disrupt, misdirect, discredit, or otherwise neutralize”: Cunningham, D. (2003). The patterning of repression: FBi counterintelligence and the new left. *Social Forces, 82*(1), 209–240.

a Department of Justice investigation found evidence of deliberate racial discrimination: http://www.justice.gov/opa/pr/justice-department-announces-findings-two-civil-rights-investigations-ferguson-missouri.

the Tuskegee Study of Untreated Syphilis in the Negro Male: Thomas, S. B., & Quinn, S. C. (1991). The Tuskegee syphilis study, 1932 to 1972. *American Journal of Public Health, 81*(11), 1498–1505.

Black people who know about the Tuskegee study are more likely to believe AIDS conspiracy theories: Mays, V. M., Coles, C. N., & Cochran, S. D. (2012). Is there a legacy of the U.S. public health syphilis study at Tuskegee in HIV/AIDs-related beliefs among heterosexual African Americans and Latinos? *Ethics & Behavior, 22*(6), 461–471.

African Americans are more likely … to feel that they could be used as guinea pigs: Ibid.

"Labeling a view paranoid has now become an empty circular description": Knight, P. (2013). *Conspiracy Culture*. Routledge. p. 15.

scientists at the Massachusetts Institute of Technology finally put the idea to the test: http://web.archive.org/web/20100708230258/http://people.csail.mit.edu/rahimi/helmet.

الفصل السادس: أريد أن أصدق

The group, it has been pointed out, always meets in a five-star hotel: Ronson, J. (2001). *Them*. Simon & Schuster. p. 112.

"a forum for informal discussions about … major issues facing the world": http://www.bilderberg-meetings.org/index.php.

"Conspiracy theories are easy ways of telling complicated stories": Olmsted, K. S. (2011). *Real Enemies*. Oxford University Press. p. 6.

“the most serious problems of a nation’s existence could be definitively solved”: Segel, B. W. (1995) *A Lie and a Libel*. University of Nebraska Press. pp. 52–53.

“in essence … [conspiracy theories] are simple”: Billig, M. (1978). *Fascists*. Academic Press. p. 315.

“myriad troublemakers become a single hostile force”: Pipes, D. (1996). *The Hidden Hand*. St. Martin’s Press. p. 229.

“to causes extremely complicated”: Mounier, J. (1801). *On the Influence Attributed to Philosophers, Freemasons, and to the Illuminati*. W. & C. spilsbury. p. v.

“This ridiculously simplistic philosophy of history”: Segel, B. W. (1995) *A Lie and a Libel*. University of Nebraska Press. p. 52.

psychologists … gave students a stack of questionnaires designed to assess their thinking style: Abalakina-Paap, M., Stephan, W. G., Craig, T., & Gregory, W. L. (1999). Beliefs in conspiracies. *Political Psychology, 20*(3), 637–647.

“at the same time, conspiracy theorists find solace in complexity”: Pipes, D. (1996). *The Hidden Hand*. St. Martin’s Press. p. 229.

the higher someone scores in openness: e.g. Swami, V., Pietschnig, J., Tran, U. S., Nader, I. W., Stieger, S., & Voracek, M. (2013). Lunar lies: The impact of informational framing and individual differences in shaping conspiracist beliefs about the moon landings. *Applied Cognitive Psychology, 27*(1), 71–80.

a few other studies have failed to reproduce it: e.g. Imhoff, R., & Bruder, M. (2014). Speaking (un-)truth to power. *European Journal of Personality, 28*(1), 25–43.

Lobato and colleagues barraged college students with claims representing three varieties of weirdness: Lobato, E., Mendoza, J., Sims, V., & Chin, M.(2014). Examining the relationship between conspiracy

theories, paranormal beliefs, and pseudoscience acceptance among a university population. *Applied Cognitive Psychology, 28*(5), 617–625.

conspiracy theorists tend to be a relatively superstitious bunch: e.g. Stieger, S., Gumhalter, N., Tran, U. S., Voracek, M., & Swami, V. (2013). Girl in the cellar: A repeated cross-sectional investigation of belief in conspiracy theories about the kidnapping of Natascha Kampusch. *Frontiers in Personality Science and Individual Differences, 4*(297).

more likely to suspect that there's a grain of truth to urban legends: Drinkwater, K., Dagnall, N., & Parker, A. (2012). Reality testing, conspiracy theories and paranormal beliefs. *Journal of Parapsychology, 76*(1), 57–77.

they're more likely to reject mainstream science and its products: Lewandowsky, S., Gignac, G. E., & Oberauer, K. (2013). The role of Conspiracist Ideation and Worldviews in Predicting Rejection of Science. *PLOS ONE, 8*(10), e75637.

Someone who believes conspiracy theories is more likely to be into New Age spiritualism: e.g. Swami, V., Pietschnig, J., Tran, U. S., Nader, I. W., Stieger, S., & Voracek, M. (2013). Lunar lies: The impact of informational framing and individual differences in shaping conspiracist beliefs about the moon landings. *Applied Cognitive Psychology, 27*(1), 71–80.

sociologist Colin Campbell wrote about … the *cultic milieu*: Campbell, C. (2002). The cult, the cultic milieu and secularization. In Kaplan, J., & Lööw, H. (Eds.). *The Cultic Milieu*. Rowman & Littlefield. pp. 12–25.

As Nicoli Nattrass notes, a brief foray into the world of conspiracy theories: Nattrass, N. (2012). *The AIDS Conspiracy*. Columbia University Press. p. 108.

conspiracist logic … *requires* **the believer to dive ever deeper into the cultic milieu**: Barkun, M. (1997). *Religion and the Racist Right*. UNC Press. p. 258.

"the values of the Enlightenment have been abandoned": Wheen, F. (2005). *How Mumbo-Jumbo Conquered the World*. PublicAffairs. p. 8.

"irrationalists": Ibid. p. 118.

Jonathan Kay declares 9/11 Truthers "enemies" of the Enlightenment: Kay, J. (2011). *Among the Truthers*. HarperCollins. p. xxiii.

"portrays conspiracists and their mumbo-jumbo-ing ilk": Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 60.

British philosopher John Locke wrote, "we should make greater progress": http://metaphors.iath.virginia.edu/metaphors/24309.

Immanuel Kant … **suggested as a motto, "*Sapere aude!*"**: http://www.columbia.edu/acis/ets/CCREAD/etscc/kant.html.

"Far from representing a rupture from rationalism," Jane and Fleming write: Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 132.

Jane and Fleming point out that the great Enlightenment thinkers … **relatively slim encyclopedia**: Ibid. pp. 53–70.

There is fun to be had cracking codes … **Susan Harding and Kathleen Stewart point out**: quoted in Nattrass, N. (2012). *The AIDS Conspiracy*. Columbia University Press. p. 107.

"a member of the avant-garde": Hofstadter, R. (1964). The paranoid style in American politics. *Harper's Magazine, 229*(1374), 77–86.

"a passport to a thrilling alternative universe": Thompson, D. (2008). *Counterknowledge*. Atlantic Books. p. 10.

When psychologist Rebecca Lawson set people this challenge: Lawson, R. (2006). The science of cycology: Failures to understand how everyday objects work. *Memory & Cognition, 34*(8), 1667–1675.

Leon Rozenblit and his adviser Frank Keil asked people how well they thought they understood devices: Rozenblit, L., & Keil, F. (2002). The misunderstood limits of folk science: an illusion of explanatory depth. *Cognitive Science, 26*(5), 521–562.

People overrate their understanding of simple physics problems: http://www.psmag.com/health-and-behavior/confident-idiots-92793.

and more complex natural phenomena: Rozenblit, L., & Keil, F. (2002). The misunderstood limits of folk science: an illusion of explanatory depth. *Cognitive Science, 26*(5), 521–562.

People think they understand the law: Kim, P. T. (1997). Bargaining with imperfect information: A study of worker perceptions of legal protection in an at-will world. *Cornell Law Review, 83*, 105–160.

and political policies better than they really do: Fernbach, P. M., Rogers, T., Fox, C. R., & Sloman, S. A. (2013). Political extremism is supported by an illusion of understanding. *Psychological Science, 24*(6), 939–946.

As Dan Simons and Chris Chabris note: Chabris, C., & Simons, D. (2011). *The Invisible Gorilla*. Broadway Paperbacks. pp. 123–127.

Offering people cold hard cash … forcing them to justify their assessment: Ehrlinger, J., Johnson, K., Banner, M., Dunning, D., & Kruger, J. (2008). Why the unskilled are unaware. *Organizational Behavior and Human Decision Processes, 105*, 98–121.

"As we know, there are known knowns": http://www.defense.gov/transcripts/transcript.aspx?transcriptid=2636.

"An ignorant mind is precisely not a spotless, empty vessel": http://www.psmag.com/navigation/health-and-behavior/confident-idiots-92793/.

"vivid, blueprint-like" sense of how things work: Rozenblit, L., & Keil, F. (2002). The misunderstood limits of folk science: an illusion of explanatory depth. *Cognitive Science, 26*(5), 522.

to paraphrase Chris Chabris and Dan Simons: Chabris, C., & Simons, D. (2011). *The Invisible Gorilla*. Broadway Paperbacks. p. 122.

"One might think that opinions about an esoteric technology": http://www.psmag.com/navigation/health-and-behavior/confident-idiots-92793/.

the majority of people … little or nothing about nanotech: http://www.nanotechproject.org/file_download/files/hartReport.pdf.

In another study … entirely nonjudgmental description of the technology: Kahan, D. M., Braman, D., Slovic, P., Gastil, J., & Cohen, G. L. (2008). The future of nanotechnology risk perceptions. Harvard law School Program on Risk Regulation Research Paper, (08–24). http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=1089230.

On September 18, 2007, Jenny McCarthy appeared on the *Oprah Winfrey Show*: http://blogs.plos.org/thepanicvirus/2013/07/15/a-jenny-mccarthy-reader-pt-2-jenny-brings-her-anti-vaccine-views-to-oprah/.

Christine Maggiore was a businesswoman from Chicago: Nattrass, N. (2012). *The AIDS Conspiracy*. Columbia University Press. pp. 118–127.

In the words of one festival-goer, "Well it's basically exposing the truth": This interview was conducted by my colleague Mike Wood. Full recordings of all the interviews Mike and I recorded at the Bilderberg Fringe

Festival are available at http://conspiracypsychology.com/2013/06/14/a-trip-to-the-bilderberg-fringe-festival/.

"To admit that we know less than we think we do": Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 138.

الفصل السابع: الروايات الرسمية

"Well, I like daydreaming more than listening to you": Icke, D. "remember Who you are," live at Wembley Arena, 28 October 2012.

he felt increasingly dissatisfied with life: Icke, D. (1993). *In the Light of Experience*. Warner. p. 106.

Here's the story of reality as David Icke tells it: My understanding was gleaned mainly from attending a day-long lecture of icke's; Icke, D. "Remember Who You Are," live at Wembley Arena, 28 October 2012.

"have become the poster child for the fringiest of fringe thought": Collins, L. (2012). *Bullspotting*. Prometheus Books. p. 38.

Once Upon a Time …: This section, and the synopses of *The Epic of Gilgamesh, Beowulf, and Jaws*, were informed primarily by Booker, C. (2004). *The Seven Basic Plots*. Continuum. pp. 1–2, 21–50.

"the ancient river beds along which our psychic current naturally flows": Ibid. p. 12.

Even children as young as three understand story structure: Mancuso, J. C. (1986). The acquisition and use of narrative grammar structure. in sarbin, T. R. (Ed.). *Narrative psychology*. Praeger. pp. 91–110.

According to author Ronald B. Tobias, there are twenty: Tobias, R. B. (2012). *20 Master Plots*. Writer's Digest Books.

Screenwriter Blake Snyder … **ten essential genres**: Snyder, B. (2005). *Save the Cat*. Michael Wiese Productions.

Joseph Campbell … **there is but a single grand "monomyth"**: Campbell, J. (1968). *The Hero with A Thousand Faces*. Princeton University Press.

“you can package plot any number of ways”: Tobias, R. B. (2012). *20 Master Plots*. Writer’s Digest Books. p. 11.

In a classic 1973 study, a team of researchers led by Robert Cialdini: Cialdini, R. B., Borden, R. J., Thorne, A., Walker, M. R., Freeman, S., & Sloan, L. R. (1976). Basking in reflected glory: Three (football) field studies. *Journal of Personality and Social Psychology, 34*(3), 366–375.

J. K. Rowling … gave him glasses as a constant reminder of his vulnerability: http://www.accio-quote.org/articles/2000/1200-readersdigest-boquet.html.

A month before the 2004 Summer Olympics, Vandello and colleagues: Vandello, J. A., Goldschmied, N. P., & Richards, D. A. R. (2007). The Appeal of the Underdog. *Personality and Social Psychology Bulletin, 33*(12), 1603–1616.

“from swimmer Michael Phelps’s single mother”: Paharia, N., Keinan, A., Avery, J., & Schor, J. B. (2011). The Underdog Effect. *Journal of Consumer Research, 37*(5), 775–790.

“brewery Samuel Adams reminds us how small it is”: Keinan, A., Avery, J., & Paharia, N. (2010). Capitalizing on the Underdog Effect. *Harvard Business Review, 88*(11), 32.

political candidates often clamor to play down their credentials: Paharia, N., Keinan, A., Avery, J., & Schor, J. B. (2011). The Underdog Effect. *Journal of Consumer Research, 37*(5), 775–790.

“When your name is Barack Obama”: quoted in Goldschmied, N., & Vandello, J. A. (2009). The advantage of disadvantage: Underdogs in the political arena. *Basic and Applied Social Psychology, 31*(1), 24–31.

“Absolutely … I’m used to being an underdog.”: http://abcnews.go.com/Politics/president-obama-calls-underdog-2012-race-white-house/story?id=14656286.

"It's always a good thing to be seen as the underdog": http://abcnews.go.com/blogs/politics/2012/02/romney-says-hes-fine-being-the-underdog/.

we see a political candidate as more likable: Goldschmied, N., & Vandello, J. A. (2009). The advantage of disadvantage: Underdogs in the political arena. *Basic and Applied Social Psychology, 31*(1), 24–31.

Vandello asked students how they felt about Israel and Palestine: Vandello, J. A., Goldschmied, N. P., & Richards, D. A. R. (2007). The appeal of the underdog. *Personality and Social Psychology Bulletin, 33*(12), 1603–1616.

we even see an underdog applicant as more physically attractive: Michniewicz, K. S., & vandello, J. A. (2013). The attractive underdog. *Journal of Social and Personal Relationships, 30*(7), 942–952.

Scott Allison and colleagues demonstrated just how deeply ingrained it is: Kim, J., Allison, S. T., Eylon, D., Goethals, G. R., Markus, M. J., Hindle, S. M., & McGuire, H. A. (2008). Rooting for (and then abandoning) the underdog. *Journal of Applied Social Psychology, 38*(10), 2550–2573.

Viewers were "visibly agitated": Allison, S. T., & Goethals, G. R. (2011). *Heroes*. Oxford University Press. p. 130.

"If it is not clear to you this far, let me be frank about it": http://adventuresinautism.blogspot.com/2011/01/our-book-vaccine-epidemic-how-corporate.html.

"Dr. Wakefield did something I wish all doctors would do": http://www.huffingtonpost.com/jenny-mccarthy/vaccine-autism-debate_b_806857.html.

two awards for "Courage in Science": One was from Barbara Loe Fisher's National Vaccine Information Center, presented in 2000. The other was from the group AutismOne, presented in 2009.

AIDS denialists have a renegade scientist in Peter Duesberg: Nattrass, N. (2012). *The AIDS Conspiracy*. Columbia University Press. pp. 110–115.

"mainly the ones that are used by the gays": http://www.duesberg.com/articles/bginterview.html.

A biography on Duesberg's website: http://www.duesberg.com/index.html.

"Bush administration had its dirty hand in forcing BYU to 'shut up' its professor": http://www.rense.com/general69/discred.html.

"Telling the truth can be a scary thing sometimes": Extract from *JFK* movie screenplay, by Oliver Stone and Zachary Sklar; directed by Oliver Stone screenplay © 1991 Warner Bros. Inc., Regency Enterprises V.O.F. & Le Studio Canal+.

Christopher Booker notes that archetypal heroes act not to further their own interests: Booker, C. (2004). *The Seven Basic Plots*. Continuum. p. 245.

"shaped by inspirational archetypal stories of odds overcome": Goldschmied, N. P., & Vandello, J. A. (2012). The future is bright. *Basic and Applied Social Psychology, 34*(1), 34–43.

archetypal monsters represent … the very worst elements of the human psyche: Booker, C. (2004). *The Seven Basic Plots*. Continuum. pp. 555-556.

Comic book villains, Baumeister points out: Pizarro, D. A., & Baumeister, R. (2013). Superhero comics as moral pornography. In Rosenberg, R. (Ed.). *Our Superheroes, Ourselves*. Oxford University Press. pp. 19–36.

Around half of players reject an offer that strays too far from an even split: Sanfey, A. G., Rilling, J. K., Aronson, J. A., Nystrom, L. E., &

Cohen, J. D. (2003). The neural basis of economic decision-making in the ultimatum game. *Science, 300* (5626), 1755–1758.

When people play the game inside brain imaging scanners: Ibid.

constantly monitoring their behavior, even their fleeting facial expressions: Ames, D. R., & Johar, G. V. (2009). I'll know what you're like when I see how you feel. *Psychological Science, 20*(5), 586–593.

According to psychologist Robin Dunbar, a primary function of gossip: Dunbar, R. I. M. (2004). Gossip in evolutionary perspective. *Review of General Psychology, 8*(2), 100–110.

the quality we value above all else is a person's trustworthiness: Fiske, S. T., Cuddy, A. J. C., & Glick, P. (2007). Universal dimensions of social cognition: Warmth and competence. *Trends in Cognitive Sciences, 11*(2), 77–83.

"It became established doctrine," Trilling explains: Trilling, L. (1972). *Sincerity and Authenticity.* Harvard University Press. p. 14.

Every one of the ten top-grossing films of 2014 had a villain of some form; five were comic book adaptations: http://www.boxofficemojo.com/yearly/chart/?view2=worldwide&yr=2014&p=.html.

what Baumeister calls "the myth of pure evil": Baumeister, R. F. (1996). *Evil.* W. H. Freeman and Company. pp. 60–96.

the monsters next door: http://newsfeed.time.com/2013/01/16/a-history-of-violence-gun-control-in-the-pages-of-time/slide/may-3-1999-the-monsters-next-door/.

hatred of "our freedoms": http://www.washingtonpost.com/wp-srv/nation/specials/attacked/transcripts/bushaddress_092001.html.

"The myth of pure evil depicts malicious, alien forces": Baumeister, R. F. (1996). *Evil.* W. H. Freeman and Company. p. 89.

"The world often breaks down in us against them": Ibid. p. 62.

psychologists Eric Oliver and Thomas Wood surveyed one thousand Americans: Oliver, J. E., & Wood, T. J. (2014). Conspiracy Theories and the Paranoid Style(s) of Mass Opinion. *American Journal of Political Science, 58*(4), 952–966.

"Where regular politicians highlight problems": Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. p. 146.

compared the world as portrayed in conspiracy theories to a theatrical performance: Moscovici, S. (1987). The conspiracy mentality. In Graumann, C. F., & Moscovici, S. (Eds.). *Changing Conceptions of Conspiracy*. Springer. pp. 154–155.

"If you go see something like *Captain America,* **it's almost like I co-wrote the thing"**: *The Alex Jones Show*, 13 February 2015. http://www.infowars.com/listen-to-the-radio-show-archive/.

"He explained to me that he considered all those people … guilty by association": http://law2.umkc.edu/faculty/projects/ftrials/mcveigh/mcveighaccount.html.

"We are all tellers of tales": McAdams, D. (1993). *The Stories We Live By*. Guilford Press. p. 11.

"No history is without an implicit sense of protagonists and antagonists": Patterson, M., & Monroe, K. R. (1998). Narrative in political science. *Annual Review of Political Science, 1*(1), 315.

stories lure us in, bypassing our critical faculties: Green, M. C., & Brock, T. C. (2000). The role of transportation in the persuasiveness of public narratives. *Journal of Personality and Social Psychology, 79*(5), 701–721.

the story … of Christopher Columbus's discovery of the Americas: Brock, T. C., strange, J. J., & Green, M. C. (2002). Power beyond reckoning. In Green, M. C., Strange, J. J., & Brock, T. C. (Eds.). *Narrative Impact*. Lawrence Erlbaum Associates. pp. 1–16.

"They told me twenty-five years ago": http://www.newstatesman.com/lifestyle/2014/11/psycho-lizards-saturn-godlike-genius-david-icke.

الفصل الثامن: تجميع أجزاء متفرقة لاستخلاص النتائج

Abraham Zapruder almost didn't make the film at all: Bugliosi, V. (2007). *Reclaiming History*. W. W. Norton & Company. pp. 452–454.

Zapruder never looked through the lens of a camera again: http://www.theguardian.com/film/2013/nov/14/abraham-zapruder-film-kennedy-killing-parkland.

Richard Sprague and Robert Cutler published a detailed diagram: http://www.ratical.org/ratville/JFK/TUM.html.

the Kanizsa triangle: Kanizsa, G. (1976). Subjective contours. *Scientific American, 234*(4), 48–52.

roughly the size of our thumbnail at arm's length: Storr, W. (2014). *The Unpersuadables*. The Overlook Press. p. 79.

around a third of our cortex is devoted to vision: Eagleman, D. (2011). *Incognito*. Pantheon. pp. 22–23.

Schiaparelli persuaded the Italian government to invest in a cutting-edge telescope: Bernagozzi, A., Testa, A., & Tucci, P. (2004). Observing Mars with Schiaparelli's telescope. *Third European Workshop on Exo-Astrobiology, 545*, 157–158.

an intricate network of long, dark, straight lines crisscrossing the Martian surface: Maria Lane, K. D. (2006). Mapping the Mars canal mania. *Imago Mundi, 58*(2), 198–211.

Vincenzo Cerulli … first suggested the lines might be an illusion: http://www.mbennardo.com/blog/2012/01/setting-the-record-straight-on-the-canals-of-mars/.

As Carl Sagan noted, the canals were undoubtedly of intelligent origin: Sagan, C. (1985). *Cosmos*. Ballantine Books. p. 90.

eagle-eyed anomaly hunters have spotted … and a petrified iguana: http://www.huffingtonpost.com/2013/11/19/aliens-on-mars-photos_n_4303447. html.

Hill called out "Hey, we want to take your picture!": Bugliosi, v. (2007). *Reclaiming History*. W. W. Norton & Company. p. 41.

"There, visible on the printed page": Lifton, D. S. (1980). *Best Evidence*. Macmillan. p. 9.

As far as forensic analysts can tell: http://www.skeptic.com/reading_room/jfk-conspiracy-theories-at-50-how-the-skeptics-got-it-wrong-and-why-it-matters/.

"It became evident that those who were already in disagreement": lifton, D. S. (1980). *Best Evidence*. Macmillan. p. 11.

around eight out of ten people confidently answer "two": Park, H., & Reder, L. M. (2004). Moses illusion. In Pohl, R. F. (Ed.). *Cognitive Illusions*. Psychology Press. pp. 275–292.

journalist Sarah Koenig tells a story from her early days as a reporter: http://www.thisamericanlife.org/radio-archives/episode/489/transcript.

A coincidence by itself … an unfinished tax return: Beitman, B. D. (2009). Brains seek patterns in coincidences. *Psychiatric Annals, 39*(5), 255–264.

as Michael Luo explained: Luo, M. (2004). "For Exercise in New York Futility, Push Button," *The New York Times*, 27 February 2004.

"In most elevators": Paumgarten, N., "Up and then Down," *The New Yorker*, 21 april 2008.

throw the whole rhythm off kilter: This explanation was offered by a guest on an episode of the podcast *Radiolab*. http://www.radiolab.org/story/buttons-not-buttons/.

the button simply broke or was never wired up in the first place: http://www.straightdope.com/columns/read/595/do-close-door-buttons-on-elevators-ever-actually-work.

"As a young mother": Messenger, S. (2008). Jason's journey. In Dorey, M., Lindberg, S., & Messenger, S. (Eds.). *Vaccination Roulette*. Australian Vaccination Network. pp. 85–88.

Messenger wrote an essay describing her first-born son: Ibid.

"I trusted without questioning … no longer smiled": Fisher, B. (2004). "In the wake of vaccines," *Mothering*, september/october 2004.

Chris "was diagnosed with minimal brain damage": http://www.nvic.org/nvic-vaccine-news/november-2014/vaccination--defending-your-right-to-know-and-free.aspx.

more than half of American parents: Freed, G. L., Clark, S. J., Butchart, A. T., Singer, D. C., & Davis, M. M. (2010). Parental vaccine safety concerns in 2009. *Pediatrics, 125* (4), 654–659.

The Internet is an important source of information for many parents: Jones, A. M., Omer, S. B., Bednarczyk, R. A., Halsey, N. A., Moulton, L. H., & Salmon, D. A. (2012). Parents' source of vaccine information and impact on vaccine attitudes, beliefs, and nonmedical exemptions. *Advances in Preventive Medicine, 2012,* e932741.

Anna Kata undertook a comprehensive survey: Kata, A. (2010). A postmodern Pandora's box. *Vaccine, 28*(7), 1709–1716.

one fifth of American adults: Oliver, J. E., & Wood, T. (2014). Medical Conspiracy Theories and Health Behaviors in the United States. *JAMA Internal Medicine, 174*(5), 817.

Emma Jane and Chris Fleming trawled through Icke's opus: Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. p. 116.

"anomalous and ominous. He dangles around history's neck like a fetish": Updike, J., "Notes and Comments," *The New Yorker*, 9 December 1967.

"Did the umbrella … contain a gun or a weapon of any sort?": http://history-matters.com/archive/jfk/hsca/reportvols/vol4/pdf/HSCA_Vol4_0925_7_Witt.pdf.

الفصل التاسع: المفتشون في النوايا

More than half of a thousand Americans: http://www.cnn.com/2014/05/06/world/asia/malaysia-airlines-plane-poll/.

"Airplanes don't just disappear": http://chedet.cc/?p=1361.

On July 2, 1937, Amelia Earhart departed Lae, New Guinea: Gillespie, R. (2011). *Finding Amelia*. Naval Institute Press.

In a 2012 survey: swami, V., & Furnham, A. (2012). Examining conspiracist beliefs about the disappearance of Amelia Earhart. *The Journal of General Psychology, 139*(4), 244–259.

On April 10, 2010, a Polish Air Force jet crashed: http://www.thedailybeast.com/articles/2014/04/11/did-putin-blow-up-the-whole-polish-government-in-2010-a-second-look.html.

Dorothy Hunt … was among the passengers killed onboard: http://listverse.com/2014/07/23/10-controversial-air-crash-conspiracy-theories/.

the NTSB rebutted the evidence and declined to reopen the investigation: http://www.forbes.com/sites/johngoglia/2014/07/02/ntsb-denies-twa-800-conspiracy-theory-petition/.

Daniel Kahneman offers this as an example: Kahneman, D. (2011). *Thinking, Fast and Slow*. Farrar, straus and Giroux. pp. 19–20.

imagine if I could … turn your intention detector off: Baldwin, D. A., & Baird, J. A. (2001). Discerning intentions in dynamic human action. *Trends in Cognitive Sciences, 5*(4), 171—178.

there might be no society at all: Bering, J. M. (2002). The existential theory of mind. *Review of General Psychology, 6*(1), 3—24.

Fritz Heider and … Marianne Simmel: Heider, F., & Simmel, M. (1944). An experimental study of apparent behavior. *American Journal of Psychology, 57*, 243—259.

If you ask a four-year-old why somebody yawned or sneezed: smith, M. C. (1978). Cognizing the Behavior stream. *Child Development, 49*(3), 736—743.

children even sometimes make up intentions for their own involuntary actions: Montgomery, D. E., & Lightner, M. (2004). Children's developing understanding of differences between their own intentional action and passive movement. *British Journal of Developmental Psychology, 22*(3), 417—438.

Children see the natural world as having some underlying purpose: Kelemen, D. (1999). Why are rocks pointy? Children's preference for teleological explanations of the natural world. *Developmental Psychology, 35*(6), 1440—1452.

According to psychologist Evelyn Rosset: Rosset, E. (2008). it's no accident: Our bias for intentional explanations. *Cognition, 108*(3), 771—780.

it's up and running within the first few months of life: Luo, Y. (2011). Three-month-old infants attribute goals to a non-human agent. *Developmental Science, 14* (2), 453–460.

In one study, she found that all it takes is a few drinks: Bègue, L., Bushman, B. J., Giancola, P. R., Subra, B., & Rosset, E. (2010). "There is no such thing as an accident," especially when people are drunk. *Personality and Social Psychology Bulletin, 36*(10), 1301–1304.

"hundreds of duels in the hard-drinking eighteenth century": Landale, J. (2005). *The Last Duel.* Canongate. p. 250.

"intoxication is not a full excuse for insult, but it will greatly palliate": Holland, B. (2004). *Gentlemen's Blood.* Bloomsbury. p. 151.

questions like whether "the sun radiates heat because warmth nurtures life": Kelemen, D., & Rosset, E. (2009). The human function compunction: Teleological explanation in adults. *Cognition, 111*(1), 138–143.

even science professors at Ivy League universities: Kelemen, D., Rottman, J., & Seston, R. (2013). Professional physical scientists display tenacious teleological tendencies: Purpose-based reasoning as a cognitive default. *Journal of Experimental Psychology: General, 142*(4), 1074–1083.

The findings demonstrate, Rosset argues: Rosset, E., & Rottman, J. (2014). The big "whoops!" in the study of intentional behavior: An appeal for a new framework in understanding human actions. *Journal of Cognition and Culture, 14*, 27–39.

even people who don't believe in God can't help wondering what the meaning of life is: Bering, J. (2011). *The Belief Instinct.* W. W. Norton. p. 46.

the way you interpret innocuous sentences: Brotherton, R., & French, C. C. (2015). Intention seekers: Conspiracy theories and biased attributions of intentionality. *PLOS ONE. 10*(5). e0124125.

Karen Douglas … **had more than five hundred people watch the little shapes dance around their computer screens**: Email to the author from Professor Karen Douglas. Douglas, K., Sutton, R. M., Callan, M. J., Dawtry, R. J., & Harvey, A. J. (2016). Someone is pulling the strings: Hypersensitive agency detection and belief in conspiracy theories. *Thinking And Reasoning*. (In press.)

Any time you see someone do something, your brain runs a quick simulation: Blakemore, S. J., & Decety, J. (2001). From the perception of action to the understanding of intention. *Nature Reviews Neuroscience, 2*(8), 561–567.

Daniel Katz and Floyd Allport provided one of the first demonstrations: Katz, D., & Allport, F. H. (1931). Students' Attitudes. Craftsman Press.

If you think of yourself as outgoing you'll probably guess there are a lot more fellow extroverts: Ross, L., Greene, D., & House, P. (1977). The "false consensus effect": An egocentric bias in social perception and attribution processes. *Journal of Experimental Social Psychology, 13*(3), 279–301.

if you support federal funding for space exploration … **long distance phone calls**: Ibid.

When you're cold you think other people are bothered by the cold: O'Brien, E., & Ellsworth, P. C. (2012). More than skin deep visceral states aare not projected onto dissimilar others. *Psychological Science, 23*(4), 391–396.

researchers tried to persuade students to walk around campus wearing a large advertising sandwich board: Ross, L., Greene, D., & House, P. (1977). The "false consensus effect": An egocentric bias in social perception and attribution processes. *Journal of Experimental Social Psychology, 13*(3), 279–301.

Karen Douglas and Robbie Sutton asked … would you have faked the moon landing: Douglas, K. M., & Sutton, R. M. (2011). Does it take one to know one? Endorsement of conspiracy theories is influenced by personal willingness to conspire. *British Journal of Social Psychology, 50*(3), 544–552.

The pope, they feared, was planning to declare war on Protestants: Wade, W. C. (1998). *The Fiery Cross*. Oxford University Press. p. 226.

as Richard Hofstadter pointed out, the Klan increasingly became a parody of its enemy: Hofstadter, R. (1964). The paranoid style in American politics. *Harper's Magazine, 229* (1374), 77–86.

"not only did the Klan oppose a resolution condemning secret societies": http://www.danielpipes.org/220/plotters.

when individual conspiracy theorists find themselves in positions of power, their actions are often conspiratorial: Popper, K. R. (2006). The conspiracy theory of society. In Coady, D. (Ed.). *Conspiracy Theories: The Philosophical Debate* (pp. 13–15). Burlington, VT: Ashgate.

Nixon was concerned with "Jews, the intellectual elite": Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. p. 15.

"we're up against an enemy, a conspiracy. They're using any means": Kutler, S. (1999). *Abuse of Power.* Simon and Schuster. p. 8.

Daniel Pipes notes that many Middle Eastern heads of state suffer chronic paranoia: Pipes, D. (1996). *The Hidden Hand*. St. Martin's Press. p. 25.

"I have read the Protocols of the Elders of Zion," Hitler is reported to have said: Rauschning, H. (1940). *The Voice of Destruction*. Pelican. p. 238.

"what begins as a search for subversives ends in subversion": http://www.danielpipes.org/220/plotters.

As Douglas and Sutton put it … *it takes one to know one*: Douglas, K. M., & Sutton, R. M. (2011). Does it take one to know one? Endorsement of conspiracy theories is influenced by personal willingness to conspire. *British Journal of Social Psychology, 50*(3), 544–552.

Preston Bost and Stephen Prunier presented participants: Bost, P. R., Prunier, S. G., & Piper, A. J. (2010). Relations of familiarity with reasoning strategies in conspiracy beliefs. *Psychological Reports, 107*(2), 593–602.

the world we live in is "not really one made of rocks, trees and physical objects": Haidt, J. (2006). *The Happiness Hypothesis*. Basic Books. p. 76.

"a tree branch that another person drops on you": Waytz, A., Gray, K., Epley, N., & Wegner, D. M. (2010). Causes and consequences of mind perception. *Trends in Cognitive Sciences, 14*(8), 383–388.

الفصل العاشر: اختلال المناسيب

eighty-two *specific* **individuals**: http://www.dallasnews.com/news/jfk50/explore/20131116-jfk-conspiracy-theories-abound-despite-a-lack-of-evidence.ece.

surveys over the years: http://www.gallup.com/poll/165893/majority-believe-jfk-killed-conspiracy.aspx.

a sizable minority elsewhere: https://yougov.co.uk/news/2012/07/04/we-ask-conspiracy-theories/.

Unusual Suspects: Except where otherwise noted, the information in this section is from Bugliosi, V. (2007). *Reclaiming History*. W. W. Norton & Company.

"in the final analysis, it is their [the South Vietnamese's] war": http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=9388.

according to one theory, the killer was … Jacqueline Bouvier Kennedy: http://jackieiskillerqueen.blogspot.com/.

"two federal investigations of breathtaking scope": Melley, T. (2000). *Empire of Conspiracy.* Cornell University Press. p. 134.

"Jodie, I would abandon this idea of getting Reagan in a second": http://www.theatlantic.com/politics/archive/2011/03/picture-of-the-day-john-hinckleys-letter-to-jodie-foster/73223/.

the Manhattan Project: http://energy.gov/management/office-management/operational-management/history/manhattan-project.

In 1967, sociologist James Henslin: Henslin, J. M. (1967). Craps and magic. *American Journal of Sociology, 73*(3), 316–330.

When big things happen to us, we look for big causes: Lupfer, M. B., & Layman, E. (1996). Invoking naturalistic and religious attributions: A case of applying the availability heuristic? The representativeness heuristic? *Social Cognition, 14*(1), 55–76.

According to studies by political scientist Richard Lebow: Tetlock, P. E., & Lebow, R. N. (2001). Poking counterfactual holes in covering laws: Cognitive styles and historical reasoning. *American Political Science Review, 95*(4), 829–844.

Linguists point out that saying words like ***little***: Ramachandran, V. S., & Hubbard, E. M. (2001). Synaesthesia: A window into perception, thought and language. *Journal of Consciousness Studies, 8*(12), 3–34.

A 2010 study … involved stories about an explosion in an airplane's cargo hold: Ebel-Lam, A. P., Fabrigar, L. R., MacDonald, T. K., & Jones, S. (2010). Balancing causes and consequences: The magnitude-matching principle in explanations for complex social events. *Basic & Applied Social Psychology, 32*(4), 348–359.

stories in which a disease outbreak swept through an accounting office: Ibid.

a story about an outbreak of an unusual disease among the animals at a zoo: LeBoeuf, R. A., & Norton, M. I. (2012). Consequence-cause matching: looking to the consequences of events to infer their causes. *Journal of Consumer Research, 39*(1), 128–141.

people prefer extreme causes for extreme crimes: McClure, J., Lalljee, M., & Jaspars, J. (1991). Explanations of extreme and moderate events. *Journal of Research in Personality, 25*(2), 146–166.

for particularly destructive natural disasters: spina, R. R., Ji, L.-J., Guo, T., Zhang, Z., Li, Y., & Fabrigar, L. R. (2010). Cultural differences in the representativeness heuristic: Expecting a correspondence in magnitude between cause and effect. *Personality and Social Psychology Bulletin, 36*(5), 583–597.

and for devastating accidents: Ebel-Lam, A. P., Fabrigar, L. R., MacDonald, T. K., & Jones, S. (2010). Balancing causes and consequences: The magnitude-matching principle in explanations for complex social events. *Basic & Applied Social Psychology, 32*(4), 348–359.

a 1979 study by psychologists Clark McCauley and Susan Jacques: McCauley, C., & Jacques, S. (1979). Popularity of conspiracy theories of presidential assassination: A Bayesian analysis. *Journal of Personality and Social Psychology, 37*(5), 637–644.

Patrick Leman and Marco Cinnirella repeated the experiment: Leman, P. J., & Cinnirella, M. (2007). A major event has a major cause: Evidence for the role of heuristics in reasoning about conspiracy theories. *Social Psychological Review, 9*, 18–28.

assassination scenarios in which the causal chain … was even further removed: LeBoeuf, R. A., & Norton, M. I. (2012). Consequence-cause matching: Looking to the consequences of events to infer their causes. *Journal of Consumer Research, 39*(1), 128–141.

One more experiment … explicitly mentioned JFK.: Ibid.

The most extensive investigation … by Dutch researchers Jan-Willem van Prooijen and Eric van Dijk: Van Prooijen, J.-W., & Van Dijk, E. (2014). When consequence size predicts belief in conspiracy theories: The moderating role of perspective taking. *Journal of Experimental Social Psychology, 55*, 63–73.

Tom Bethell captured the incongruity of President Kennedy's death: Bethell, T. "The Quote Circuit," *The Washington Monthly*, December 1975, pp. 34–39.

Assassination buff Kenneth Rahn put it similarly: quoted in Bugliosi, V. (2007). *Reclaiming History*. W. W. Norton & Company. p. xxvii.

الفصل الحادي عشر: كنت أعلم ذلك

Steve Regan sets the scene: Interview with the author, 7 March 2014.

In the 1960s, psychologist Peter Wason invented a game: Wason, P. C. (1960). On the failure to eliminate hypotheses in a conceptual task. *Quarterly Journal of Experimental Psychology, 12*(3), 129–140.

The news sources we read: Adamic, L. A., & Glance, N. (2005). The political blogosphere and the 2004 US election: divided they blog. In *Proceedings of the 3rd international workshop on Link discovery*. ACM. pp. 36–43.

the links we click: Schweiger, S., Oeberst, A., & Cress, U. (2014). Confirmation bias in web-based search: A randomized online study on the effects of expert information and social tags on information search and evaluation. *Journal of Medical Internet Research*, 16(3), 369–382.

the views of people we surround ourselves with: Lazarsfeld, P. F., & Merton, R. K. (1954). Friendship as social process: A substantive and methodological analysis. In Berger, M., Abel, T., & Page, C. H. (Eds.). *Freedom and control in modern society*. Octagon Books. pp. 18–66.

Park, J., Konana, P., Gu, B., Kumar, A., & Raghunathan, R. (2013). Information Valuation and Confirmation Bias in Virtual Communities: Evidence from Stock Message Boards. *Information Systems Research*, 24(4), 1050–1067.

political scientists Charles Taber and Milton Lodge gave people a choice of essays: Taber, C. S., & Lodge, M. (2006). Motivated Skepticism in the Evaluation of Political Beliefs. *American Journal of Political Science, 50*(3), 755–769.

MacDougall came up with a game he called "The Paranoid Style": http://www.robmacdougall.org/blog/2010/05/pastplay/.

"conspiracy of vampires that has pulled the strings behind the world": Ibid.

they quickly spun a yarn … get humans used to living in the dark: Email to the author from Professor Rob MacDougall.

MacDougall notes that people got hung up on the 'rules' of vampirism, like avoiding sunlight: Ibid.

"People are creative, and good at finding patterns … a powerful and even uncanny feeling": Ibid.

"The evidence starts to line up all too well with the fantasy you have just concocted": http://www.robmacdougall.org/blog/2010/05/pastplay/.

Here are just a few of the things Icke looks for: Icke, D. "Remember Who You Are," live at Wembley Arena, 28 October 2012.

At 3 a.m. on November 9, 1979 … a dreaded phone call: http://nsarchive.gwu.edu/nukevault/ebb371/.

Plous designed a … set of studies: Plous, S. (1991). Biases in the assimilation of technological breakdowns: Do accidents make us safer? *Journal of Applied Social Psychology*, 21(13), 1058–1082.

a real 1981 government inquiry into nuclear warning system malfunctions: *Failures of the North American Aerospace Defense Command's (NORAD) attack warning system: hearings before a subcommittee of the Committee on Government Operations, May 19 and 20, 1981*. pp. 131–133.

"the only thing that stops a bad guy with a gun": http://www.nytimes.com/2012/12/22/us/nra-calls-for-armed-guards-at-schools.html.

people on opposite sides of the political aisle: Sigelman, L., & Sigelman, C. K. (1984). Judgments of the Carter-Reagan debate: The eyes of the beholders. *Public Opinion Quarterly, 48*(3), 624–628.

For football fans … which team a penalty call favors: Hastorf, A. H., & Cantril, H. (1954). They saw a game: A case study. *The Journal of Abnormal and Social Psychology, 49*(1), 129–134.

psychologists looked at students' opinions about … the death penalty: Lord, C. G., Ross, L., & Lepper, M. R. (1979). Biased assimilation and attitude polarization: The effects of prior theories on subsequently considered evidence. *Journal of Personality and Social Psychology, 37*, 2098–2109.

studies have focused on peoples' prejudices about homosexuality: Munro, G. D., & Ditto, P. H. (1997). Biased assimilation, attitude polarization, and affect in reactions to stereotype-relevant scientific information. *Personality and Social Psychology Bulletin, 23*(6), 636–653.

Affirmative action: Miller, A. G., McHoskey, J. W., Bane, C. M., & Dowd, T. G. (1993). The attitude polarization phenomenon: Role of response measure, attitude extremity, and behavioral consequences of reported attitude change. *Journal of Personality and Social Psychology, 64*(4), 561–574.

tax policies: Kosnik, L.-R. D. (2008). Refusing to budge: A confirmatory bias in decision making? *Mind and Society, 7*(2), 193–214.

abortion: Baron, J. (1995). Myside bias in thinking about abortion. *Thinking & Reasoning, 1*(3), 221–235.

gun control laws: Taber, C. S., & Lodge, M. (2006). Motivated skepticism in the evaluation of political beliefs. *American Journal of Political Science, 50*(3), 755–769.

secondhand smoke: Stanovich, K. E., & West, R. F. (2007). Natural myside bias is independent of cognitive ability. *Thinking & Reasoning, 13*(3), 225–247.

belief in psychic powers: Jones, W. H., & Russell, D. (1980). The selective processing of belief disconfirming information. *European Journal of Social Psychology, 10*(3), 309–312.

McHoskey wanted to know: Mchoskey, J. W. (1995). Case closed? on the John F. Kennedy assassination: Biased assimilation of evidence and attitude polarization. *Basic and Applied Social Psychology, 17*(3), 395–409.

Adam Berinski … tracked the number of people who believed the rumors: https://today.yougov.com/news/2012/02/03/birthers-are-back/.

In August 2009, Palin sparked fears: https://www.facebook.com/notes/sarah-palin/statementon-the-current-health-care-debate/113851103434.

one week after Palin's Facebook post, almost nine out of ten Americans: http://www.people-press.org/2009/08/20/health-care-reform-closely-followed-much-discussed/.

By August 2012: http://ap-gfkpoll.com/uncategorized/our-latest-poll-findings-12.

more certain that the death panels are a coming reality: Nyhan, B., Reifler, J., & Ubel, P. A. (2013). The hazards of correcting myths about health care reform. *Medical Care, 51*(2), 127–132.

more suspicious that he is a secret Muslim: http://www.dartmouth.edu/~nyhan/obama-muslim.pdf.

less willing to vaccinate their children: Nyhan, B., Reifler, J., Richey, S., & Freed, G. L. (2014). Effective messages in vaccine promotion: A randomized trial. *Pediatrics, 133*(4), e835–e842.

more resistant to policies designed to curtail climate change: Hart, P. S., & Nisbet, E. C. (2012). Boomerang effects in Science communication: How motivated reasoning and identity cues amplify opinion polarization about climate mitigation policies. *Communication Research, 39*(6), 701–723.

a subtle smiley face in the signature of the official who signed the certificate: http://www.wnd.com/2011/05/301329/.

Jonathan Chait … argued that the political right: Chait, J. (2008). *The Big Con*. Houghton Mifflin Harcourt. p. 242.

Arthur Goldwag, writing for the progressive website Salon.com: http://www.salon.com/2013/10/20/conspiracy_theories_explain_the_right/.

A 2008 article in the conservative *Washington Times*: http://www.washingtontimes.com/news/2008/mar/06/celebrity-911-conspiracy-club-still-growing/.

"routinely spawns conspiracy theories in a febrile delirium": Uscinski, J. E., & Parent, J. M. (2014). *American Conspiracy Theories*. Oxford University Press. p. 87.

people to the left and right … are just as conspiracy-minded as each other: Ibid. pp. 87–94.

people who were the biggest fans of Palin were the most resistant: Nyhan, B., Reifler, J., & Ubel, P. A. (2013). The hazards of correcting myths about health care reform. *Medical Care, 51*(2), 127–132.

psychologist John Bullock showed people a news story: http://www.nyu.edu/gsas/dept/politics/seminars/bullock_f06.pdf.

The Birther rumor was first floated in spring 2008 by Democrats: http://www.politico.com/news/stories/0411/53563.html.

Obama wrote, "in distilled form": Obama, B. (2006). *The Audacity of Hope.* Three Rivers Press. p. 24.

Nickerson had some harsh words for the bias: Nickerson, R. S. (1998). Confirmation bias: A ubiquitous phenomenon in many guises. *Review of General Psychology, 2*(2), 175–220.

no relationship between intelligence and … **confirmation bias**: Toplak, M. E., & Stanovich, K. E. (2003). Associations between myside bias on an informal reasoning task and amount of post-secondary education. *Applied Cognitive Psychology, 17*(7), 851–860.

the most scientifically and politically knowledgeable … **most polarized**: Nyhan, B., Reifler, J., & Ubel, P. A. (2013). The hazards of correcting myths about health care reform. *Medical Care, 51*(2), 127–132.

"so convenient a thing is it to be a reasonable creature": http://www.ushistory.org/franklin/autobiography/page18.html.

الخاتمة: إنسانٌ فحسب

echoes of conspiracism in the thinking of conspiracy theory debunkers: Jane, E. A., & Fleming, C. (2014). *Modern Conspiracy*. Bloomsbury Academic. pp. 78–79.

"a demonized and reified entity": Knight, p. (2013). *Conspiracy Culture.* Routledge. p. 7.

“the Internet has created shadow armies”: Aaronovitch, D. (2010). *Voodoo Histories*. Riverhead. p. 232.

“manages to insinuate itself in the most alert and intelligent minds”: Pipes, D. (1997). *Conspiracy*. The Free Press. p. 49.

Jonathan Kay worries that the Age of Reason is in imminent peril: Kay, J. (2011). *Among the Truthers*. HarperCollins. p. xxiii.

“mumbo-jumbo” … **“conquered the world”**: Wheen, F. (2005). *How Mumbo-Jumbo Conquered the World. PublicAffairs.*

حقوق الصور

Figures from "Lacking Control Increases Illusory Pattern Perception" (2008), Supporting Online Material, by Jennifer A. Whitson and Adam D. Galinsky used by permission of the authors.

Excerpt from Measles—*A Dangerous Illness* (1986) by Roald Dahl used by permission of David Higham Associates.

Ann Davis, a woman with smallpox and horns growing out of her head. Stipple engraving by T. Woolnoth, 1806. Wellcome Library, London.

Figure from "Rooting for (and Then Abandoning) the Underdog" (2008) by JongHan Kim, Scott T. Allison, Dafna Eylon, George R. Goethals, Michael J. Markus, Sheila M. Hindle, and Heather A. McGuire used by permission of the authors.

Robert Cutler's Diagram, "The Piece" (1975) used by permission of R. B. Cutler Collection, Baylor Collections of Political Materials, W. R. Poage Legislative Library, Baylor University, Waco Texas.

Kanizsa triangle, Wikimedia Commons.

Offended girl used by permission of Radharani/Shutterstock.com.

هنداوي